جمعيّة التاريخ الحديث

تاريخ أوربّا

العصور الوسطى

تأليف
ه . ا . ل . فشر

نقله إلى العربية

محمد مصطفى زيادة
السيّد الباز العريني

١



دار المعارف بمصر

جمعية التاريخ الحديث

تاريخ أوربا

العصور الوسطى

القسم الأول

تأليف

ه . ا . ل . فشر

نقله إلى العربية

محمد مصطفى زيادة — السيد الباز العريني

الطبعة السادسة



دار المعارف بمصر

تقديم الطبعة الأولى

نقدم هذا القسم من الجزء الثانى من الترجمة العربية لتاريخ فيشر لأوربا ، وذلك بعد أن قدمنا الجزء الأول (الخاص بالعصر القديم) ، والجزء الرابع والأخير (الخاص بالعصر الحديث والمعاصر) . وعلى هذا لا يبقى لإتمام الترجمة العربية إلا نشر ما تبقى من هذا الجزء الثانى ، ثم الجزء الثالث (الخاص بعصر النهضة والإصلاح الدينى والقرن الثامن عشر) .

ولنا أن نغتبط بانصراف طائفة من أفاضل المؤرخين المصريين للقيام على الترجمة إلى اللغة العربية ، باذلين فى هذا السبيل وقتاً ثميناً وجهداً مضنياً ، وما دفعهم لذلك إلا حرصهم على انتفاع أبنائهم الطلبة وسائر أبناء الوطن بثمرة من ثمرات التأليف الأوربى التاريخى ، اعتبرها النقاد تأليفاً من الطراز الأول .

ولكل جزء من أجزاء تاريخ فيشر صعوباته الخاصة به من حيث الترجمة ، ولكن الأجزاء كلها تشارك فى صعوبة واحدة عامة ، وهى ضرورة التعبير عن المعانى التاريخية باللغة العربية ، لجمهرة من القارئين لابد لهم من بذل مجهود خاص ، لإدراك عالم من المعانى لا تحيط به تجاربهم ، ولا يمكنهم أن يتصلوا به إلا عن طريق التصور وطريق التقريب بينه وبين العالم الذى يعيشون فيه . وقد يظن ظان أن الأمر أمر إيجاد مصطلحات ، ولكن — فى الواقع — ربما كان شأن المصطلحات أهون ما فى المسألة كلها ، والشىء الأساسى هو تصوير المعانى .

وقد قلت إن هذه صعوبة عامة فى معالجة الأجزاء كلها ، ولكنى أعدل عن هذا بعض الشىء ، فأقول إنها تنطبق بصفة خاصة على الجزء الثانى هذا ، لاختصاصه بالعصور الوسطى الأوربية وحضارتها المسيحية الغربية . ولنذكر — على سبيل المثال — الفكرة الإقطاعية كلها ، أو فكرة السلطان الدينى والسلطان المدنى ، وهكذا . وقد يقول قائل : وكيف يصعب التعبير عن هذه

الأفكار للقارئ المصرى ، وفى تاريخ بلاده أشياء من الفكرة الإقطاعية ، وأشياء من فكرة السلطان ؟ وأقول إن هذا بالضبط هو منشأ الصعوبة ، هو منشؤها لأن الشبه الظاهر يخدع ، ويستلزم من القارئ أن يتخلى عما يعرف قبل أن يتلقى ما لا يعرف ، كما أنه يستلزم من المترجم أن يعرف الناحية الأوربية على وجهها ، والناحية المصرية على وجهها ، وبهذه المعرفة يتيسر له أن يهدى قارئه سواء السبيل .

وقام بنقل هذا الجزء من الكتاب الدكتور محمد مصطفى زيادة ، خير من ينقل للغة العربية مؤلفاً فى تاريخ العصور الوسطى الغربية ، إذ درسها فى موطنها على كبار مؤرخيها ، ثم كان بحثه الخاص فى المواضع التى تلاقت فيها الحضارات الأوربية والإسلامية ، ثم انهماكه سنوات عديدة فى نشر مؤلف أساسى للتاريخ المصرى فى العصور المقابلة لتلك العصور الأوربية ، ومعالجته تعليم المادة فى المعاهد العالية وكلية الآداب بجامعة القاهرة ؛ ثم هو بعدُ يعاونه فى الترجمة أحد تلاميذه السيد الباز العرينى ، وهو كذلك يعالج تعليم المادة لتلاميذ التعليم الثانوى .

وللقارئ إذن أن يطمئن إلى أننا جمعنا للترجمة خير المؤرخين ، فى خير الظروف . وقد يجوز أن أضيف إليها ظرفاً آخر ، ألا وهو أن ذلك التعاون بين الأستاذ وتلميذه كفيل بأن يكشف للمؤرخين طرقاً وسبلا ، وأن يهديهم إلى وسائل ربما لم تكن لتتحقق لو قام بالأمر الأستاذ الجامعى وحده ، أو الأستاذ فى التعليم الثانوى وحده . فنحن نرجو ألا يقتصر استخدام الكتاب على المدرسين والطلاب الجامعيين فقط ، بل نحب أن نراه فى مكتبة المدرسة الثانوية ، يعمل فيه التلميذ تحت إشراف معلمه ، وسوف يجد فيه من الفصول الممتعة مايحبب إليه التاريخ ، ويقوى فيه ملكة المقارنة والموازنة والتصوّر .

محمد شفيق غربال

تصدير الطبعة الأولى

هذا كتاب وددت منذ سنوات لو أنى قمت — أو قام غيرى — على إخراجه تأليفاً خالصاً فى اللغة العربية ، من مختلف المراجع الميسورة فى مصر ، لا نقلا وترجمة من اللغة الإنجليزية فحسب . ذلك أنى أحسست بظمأ شديد إلى ذلك الكتاب فى عقول الطلاب ، جيلا بعد جيل ، منذ توليت التدريس فى مواد العصور الوسطى الغربية والشرقية ، بقسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة القاهرة . فلما أعيتنى أوقات الفراغ ، وأعوزتنى الحيلة فى التوفر ، رأيت اختصاراً للطريق ، وإرواء لهذا الظمأ الشديد ، أن أنقل كتاباً من الكتب الشهيرة فى تاريخ العصور الوسطى من اللغة الإنجليزية إلى اللغة العربية ، وهى كتب غير قليلة . ولم يدر بخلدى وقتذاك — أى سنة ١٩٤٤ م — أنى سوف أصدف عن منشود طريق إلى طريق غير مختصر ، وأنى سوف أختار — مع جمعية التاريخ الحديث — كتاباً بقلم علم من أعلام المؤرخين الإنجليز ، ذى أسلوب سهل ممتع رفيع ، وعمق غير عادى فى الكتابة ، وتخريج غير مسبوق إليه فى الكتب المعروفة ، وربط بين الحوادث لا يطيقه إلا أصحاب القراءة الواسعة فى تجارب الأمم ؛ وهذا وذاك فضلا عن إيجاز ليس من السهل محاكاته فى اللغة العربية ، لقلة المادة التى يستطيع الناقل أن يفترض وجودها لدى القارئ العربى فى كتب سابقة ، وفضلا عن اختلاف القيم والمعانى والمصطلحات بين التاريخ الأوربى والتاريخ الشرقى والمصرى فى العصور الوسطى .

والقيام على نقل هذا الكتاب وأمثاله إلى العربية يتطلب صفات ومؤهلات لست مؤكداً أنى مطوّق بها كما أشتهى ، وأهمها عندى بالإضافة إلى الاستعداد التاريخى — وهو شىء ليس بالقليل — أن يكون الناقل متمكناً من أدب اللغتين ، المنقول منها والمنقول إليها ، لتأدية معانى المؤلف فى أسلوب يحكى مستواه ، فى أصله ، لأن الأمر ليس إيجاد مرادف عربى لكلمة إنجليزية ، والسلام على من اتبع القاموس وقنع بترجماته الحرفية الضيقة ، بل هو نقل كذلك لطريقة المؤلف فى

العرض والشرح والتأليف . ولذا تطلب النقل من الإنجليزية إلى العربية فى هذا الكتاب تطويعاً اقتضاه الحرص على إيضاح العبارة فى صورتها الجديدة ، لقارئها الجديد ، لا على حساب الأصل وصاحبه ، بل على حساب الناقل وشريكه وأوقاتهما الضنينة من الفراغ . وتطلب النقل كذلك رجوعاً إلى مختلف المراجع الكبيرة فى العصور الوسطى ، لفهم ما انطوى عليه إيجاز المؤلف أحياناً كثيرة من إشارات عابرة ، وتأدية هذه فى عبارات عربية غير غامضة ، مع الاستعانة ببعض الحواشى القصيرة . على أنى لم أعمد دائماً إلى ذكر هذه المراجع ، أو تعيين المواضع التى استقيت منها مادة الحواشى ، لأنها كلها مراجع ومواضع معروفة للعارف بتاريخ العصور الوسطى الغربية والشرقية ، فى شىء من التفصيل .

وبهذا العمل ملأت معظم ليالى ببغداد ، أثناء إقامتى سنتين دراسيتين بالعراق ، على حين ملأ شريكى لياليه فى القاهرة بالأدوار الأولى من هذا العمل . غير أننا لم نستطع إخراج الكتاب كله مرة واحدة ، فرأينا إصدار القسم الأول منه فى هذه الصفحات التى بين يدى القارئ ، على أن يصدر القسم الثانى مذيلا بفهرس شامل لمحتويات القسمين فى المستقبل القريب .

وسوف يرى القارئ فيما يرى بهذه الصفحات عرضاً تاريخيًّا لأوربا العصور الوسطى على أنها وحدة حضارية متجانسة ، فيها من الخير والشر والقابلية فى الناحيتين ما هو — على أية حال — أصل من أصول الحضارة الأوربية فى القرن العشرين الميلادى . وسوف يرى القارئ فيما يرى كذلك أن المؤلف أطل على موضوعه من « شباك » أوربى واسع عظيم الارتفاع ، وأنه استطاع أن يصوّر المنظور التاريخى الأوربى الغربى فى العصور الوسطى أعدل تصوير ؛ فعالج ظهور الإسلام[1] ، وتكوين الدولة الإسلامية الأولى مثلا ، على مقياس غير مقياس معالجته الدول الجرمانية ؛ واجتزأ من تاريخ الدولة البيزنطية المديد ، وآثاره البعيدة فى الشرق والغرب ، بموقفها العدائى من الصليبيين ، وهم فى طريقهم من مختلف البلاد الأوربية إلى الشام ، واعتبر تاريخ إسبانيا العصور

---

(١) تطلب نقل الفصل الخاص بالإسلام والمسلمين (ص ٥٩ — ٦٨) تعديلا كثيراً فى عبارة المؤلف فى بعض المواضع ، دون مساس بإطار الموضوع أو جوهره . (زيادة) .

الوسطى تاريخاً لحركة المقاومة المسيحية ، وهى الحركة التى أدت إلى إخراج المسلمين نهائياً من أوربا . لكن المؤلف أوسع لتاريخ البابوية ما استطاع أن يوسع من الصفحات ، وأوفر لكل من فرنسا وألمانيا وإنجلترا ما يكفل بيان أهمياتها فى تلك العصور ، ومدّد فى النزاع والتخاصم فيما بين البابوية والإمبراطورية ليبين منه بعض جذور النهضة الأوربية الكبرى أوائل العصور الحديثة ، وما كان له أن يعمل غير هذا ، احتراماً لقواعد التنسيق والتوزيع والتركيز فى شرح أركان التاريخ الأوربى الغربى فى العصور الوسطى . والناقل الشرقى — مثلى — لا يستطيع إلا أن يظل مرتبطاً إلى تنسيق المؤلف وتوزيعه وتركيزه ، فضلا عن طريقته وأسلوبه ، وهذا الارتباط هو عندى أكبر صعوبات النقل والترجمة .

غير أن المؤلف الشرقى فى حلّ من هذا الارتباط وقيوده ولزومياته ، إذا هو أقبل على التأليف فى تاريخ الشرق الأوسط فى العصور الوسطى من أصوله المتنوعة فى الكتب والوثائق والآثار الكبيرة والصغيرة ، وما عليه إلا أن يطل على موضوعه من « شباك » شرقى رحيب ، لا إعلاء لعاطفته القومية ، ولا اعتزازاً بوضعه الثقافى والحضارى ، بل رغبةً فى تطبيق قواعد التنسيق والتوزيع والتركيز كذلك ، مع الاهتمام بعملية التجاوب التاريخى بين الشرق والغرب فى تلك العصور . ذلك أن تاريخ الشرق الأوسط فى العصور الوسطى — وهو تاريخ إسلامى فى مزاجه العام — ليس وحدةً مقفلة ، ولا ثبتاً لعهود خلفاء فى الخلافة ، وولاة فى الولايات ، وملوك فى الممالك المستقلة ، وقصائد من شعر المداحين والهجائين ، والبلاطيين والوصّافين فى مختلف المناسبات ، حتى يخيل للقارئ أنه يطالع أخبار الفردوس المفقود ، بل هو تاريخ — اجتماعى اقتصادى سياسى — مثل تواريخ سائر الأمم ، وفى معالجة مشكلاته وشرح تطوراته وتياراته ما هو أهم كثيراً من الوقفات الطويلة أمام السنوات والشهور ، لمناقشة ما ورد فى تحديدها من روايات . والحقيقة أن تاريخ الشرق الأوسط فى العصور الوسطى بحاجة إلى عقول شرقية جديدة ، وإلى تقسيمات تاريخية مستمدة من القوانين العلمية الحديثة ، لا التقاليد الموروثة .

وبعد ، فأرجو أن أشكر هنا جميع الذين يرجع إليهم الفضل فى نقل هذا الكتاب إلى العربية ، وجميع الذين ساعدونى على إخراجه فى هذه الصورة . وأول هؤلاء وأولئك صديقى الأستاذ محمد شفيق غربال ، وكيل وزارة التربية والتعليم « المعارف » ، ورئيس جمعية التاريخ الحديث ؛ ثم صديقى وتلميذى وزميلى السيد الباز العرينى ، فهو الذى شاركنى فى كل مراحل العمل فى هذا الكتاب مشاركة تنبئ بها صفحة العنوان . وأشكر كذلك أصدقائى وتلامذتى وزملائى محمد سعد السيد منصور ، وعبد اللطيف حمزة ، وشوقى ضيف ، وأحمد عيسى ، الذين أمدونى بأنواع من الملاحظات نيابة عن القارئ العربى الحديث ، وهو الذى توخيت من أجله أن يكون هذا الكتاب .

محمد مصطفى زيادة

مصر الجديدة — ١٣ يونية ١٩٥٠ م .
٢٧ شعبان ١٣٦٩ هـ .

تصدير الطبعة الثانية

قرأت هذا الكتاب للطبعة الثانية ، وأدمجت نقد الناقدين وهو للأسف قليل ، لأن ما وصلني من المختصين القادرين على نقده قلة ، بل إن بعض هذا الذى وصلني اقتصر على كلمات إطرائية من باب جبر الخاطر للتوفيق فى ترجمة كتاب فى موضوع العصور الوسطى . غير أنى أشكر جميع من كتبوا إلى — أو إلى شريكى فى الترجمة — وأخص بالشكر أولئك الذين تعرضوا لمادة الكتاب فى صورته العربية ، وأولهم صديقى عادل الغضبان ، وعبد الحميد حمدى محمود ، مدرس العصور الوسطى بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية ، وسعيد السيد منصور ، مدرس التاريخ بالكلية الحربية . ولآخرهم شكر خاص ، إذ قرأ الكتاب من أوله إلى آخره ، واقترح توضيح ما ظنه غامضاً على قارئ تاريخ العصور الوسطى فى اللغة العربية ، وهدانى باقتراحه إلى شىء من التعديل فى المتن ، وإلى كتابة حاشيتين اثنتين جديدتين ، فى ص ١٠٥ ، ١٣٧ . وأود أن أشكر هنا كذلك أستاذى ج . و . كوبلاند ، إذ نبهنى إلى بعض ما فى الأصل الإنجليزى من مواضع تحتاج إلى عناية خاصة فى النقل إلى العربية ، بعد ظهور الطبعة الأولى ، فاهتديت بهذه التنبيهات فى الطبعة الثالثة . وأود كذلك أن أشكر هيئة الإدارة والعمال بدار المعارف على إنجاز الكتاب فى طبعته الجديدة .

محمد مصطفى زيادة

مصر الجديدة — نوفبر سنة ١٩٥٤ م .
ربيع الثانى ١٣٧٤ هـ .

تصدير الطبعة الثالثة

تطلبت الطبعة الثالثة من هذا الكتاب شيئاً من المراجعة الجديدة . والفضل فى ذلك إلى اتساع دائرة القارئين فى موضوعات العصور الوسطى الغربية وأسئلة بعض أولئك القارئين المشكورين عن كثير من مصطلح تلك العصور ومناهجها ومرادفاتها فى العصور المقابلة لها من التاريخ المصرى .

ونرجو أن يكون فى التعديلات والتصحيحات التى أدخلناها فى هذه الطبعة الثالثة ما يكفى للإجابة عما وصلنا من أنواع الأسئلة والملحوظات الناقدة المشكورة، كما نرجو شكر هيئة الإدارة والعمال بدار المعارف على عنايتهم الطيبة بإخراج هذا الكتاب فى طبعته الجديدة .

محمد مصطفى زيادة
السيد الباز العرينى

القاهرة   نوفبر   سنة ١٩٥٧م.
ربيع الثانى سنة ١٣٧٧هـ.

تصدير الطبعة الرابعة

احتل هذا الكتاب ، منذ طبعته العربية الأولى سنة ١٩٥٠ ، ركناً مرموقاً بعين التقدير فى ميدان المعرفة التاريخية ، بجميع بلاد الشرق العربى . ومعظم الفضل فى ذلك كله يرجع دائماً إلى مؤلفه الأصلى ، فهو صاحب ابتكاره وتنظيمه وتقسيمه وترتيب حقائقه ، على نمط هذا الكتاب من الصنف العلمى السهل الممتنع ، فى موضوع حوادثه عنيفة متزاحمة متراكضة ، على مسرح التاريخ .

واستطاع هذا الجزء الأول الذى بين يدى القارئ الفاحص أن يشتمل على معالم التاريخ الأوربى منذ أيام سقوط الإمبراطورية الرومانية القديمة ، أواخر القرن الخامس ، إلى أيام عظمة البابوية المسيحية والبابا إنوسنت الثالث ، أوائل القرن الثالث عشر . وهذه المرحلة التاريخية المستطيلة هى التى يسميها المؤرخون مرحلة التاريخ الأوربى فى العصور الوسطى الأولى ، تمييزاً لها من مرحلة ثانية نهائية لتلك العصور نفسها . ومساحتها الزمنية ، على وجه التقريب ، من أواسط القرن الثالث عشر إلى أوخر القرن الخامس عشر للميلاد ، وهى موضوع الجزء الثانى من هذا الكتاب .

ويحرص كاتب هذه السطور على تصحيح ماينبغى تصحيحه من المتن ، وتعديل ماينبغى تعديله من الحواشى الجديدة ، سواء بالحذف أو بالإضافة ، طوعاً لما يصل إليه بعض الأحيان من اقتراحات بناءة مفيدة محمودة . وها هو هذا الجزء الأول فى طبعته الرابعة ، وسوف يتلوه الجزء الثانى منه ، فى طبعة من هذا الترتيب العددى فى المستقبل القريب .

ويسر كاتب هذه السطور كذلك أن يختم كلمة التصدير ، طبعة بعد طبعة ، بشكر هيئة الإدارة والمطبعة بدار المعارف ، لعنايتها المستمرة أن يخرج هذا الكتاب للناس فى سوق المعرفة ، على أحسن مايكون من دقة وإتقان فى الإنتاج المطبعى .

محمد مصطفى زيادة

مصر الجديدة ٢٤ فبراير سنة ١٩٦٦م
٤ ذى القعدة سنة ١٣٨٥هـ

تقديم الطبعة الخامسة

تصدر الطبعة الخامسة من هذا الكتاب والأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة قد انتقل إلى جوار ربه ، وتبوأ مقعد صدق عند مليك مقتدر . وقد أفنى — رحمه الله — عمره وصحته فى خلق جيل صالح من المؤرخين العرب ، المزودين بالقدرات المتينة والمؤهلات العالية ، التى تكفل لهم خدمة وطنهم العربى الكبير ، وربطه بشتى ينابيع الحضارة العالمية الحديثة .

وسلك الدكتور محمد مصطفى زيادة فى سبيل ذلك طرقاً شتى ، دون أن يحجم عن ارتياد أصعبها وأوعرها ، ضارباً فى كل عمل بسهم وافر وجهد عميق ، لا يتوافر إلا لأصحاب العزم من العلماء المخلصين . وينهض الجهد الذى بذله — رحمه الله — فى ترجمة كتاب أوربا العصور الوسطى ، والذى تقدم الطبعة الخامسة منه ، نموذجاً على ما تحلى به سيادته من أمانة صادقة فى العمل ، ومواهب نادرة فى تطويع الصعاب العلمية ، وجعلها مركباً ذلولا للباحثين والعلماء المعاصرين . وقد لمست هذه الخصال العلمية الفريدة فى سيادته عندما أتيح لى شرف المساهمة معه فى ترجمة القسم الثانى من كتاب تاريخ أوربا العصور الوسطى ، وربطه بهذه الترجمة الخاصة بالقسم الأول .

وتعتبر هذه الترجمة التى يطالع الباحث الحديث الطبعة الخامسة منها سجلا أميناً لما قدمه الدكتور مصطفى زيادة من دراسة ممتازة فى ميدان الترجمة ، وتراثاً ثميناً يتركه راضياً مرضياً للعاملين فى حقل التاريخ بالبلاد العربية . تغمده الله برحمته الواسعة ، وهيأ لمدرسته — أساتذة وطلاباً — السير على نهجه ، واتباع عمله بإحسان ، ورفع قواعد الدراسات التاريخية لتؤتى ثمارها فى خدمة الأمة العربية ، ومساندتها فى نهضتها المعاصرة .

دكتور إبراهيم أحمد العدوى

محتويات القسم الأول[1]

(١) اقتضى تقسيم الأصل الإنجليزى لهذا الكتاب إلى أجزاء منفصلة — بحسب العصور التاريخية — أن يكون للفصول الخاصة بالعصور الوسطى أرقام غير أرقامها الأصلية ، فالفصل الأول هنا هو التاسع هناك ، وهكذا . (زيادة) .

خرائط القسم الأول

تاريخ أوربا

العصور الوسطى

القسم الأول

الفصل الأول

دقلديانوس وقنسطنطين

إصلاحات دقلديانوس — أعمال قنسطنطين فى ميادين الحرب والإدارة — اعتناقه المسيحية — نتائج اعتراف الإمبراطور قنسطنطين بالديانة المسيحية — شدة الرابطة بين الكنيسة والدولة فى عهد قنسطنطين — اختياره بيزنطة عاصمة للإمبراطورية — نسبته العاصمة الجديدة إلى اسمه — التباين بين القسمين الشرقى والغربى من الإمبراطورية — تضاؤل الثقافة الإغريقية فى الغرب — بقاء الآداب اللاتينية القديمة — الاختلاف بين الكنيستين الرومانية والإغريقية .

* * *

بدت الإمبراطورية الرومانية — أواخر القرن الثالث الميلادى — بحاجة شديدة إلى أباطرة يستطيعون أن يستبدوا بشئونها ، ليكفلوا باستبدادهم إنقاذها مما تمكن بأرجائها من مظاهر الخور والانحلال . وافتتح ذلك الاستبداد الجديد إمبراطوران عظيمان من أهل إقليم إيلليريا القديمة ، بالشمال الغربى من شبه جزيرة البلقان الحالية ، هما دقلديانوس وقنسطنطين اللذان تعاقبا على حكم الإمبراطورية فى المدة الواقعة بين سنتى ٢٨٤ و ٣٣٧ ميلادية . غير أنه لا يسع كل محب للحرية إلا أن يرى بعضاً من الأخطاء الجسيمة فيما قام به هذان الإمبراطوران من أعمال بعثها فى كل منهما روح بالغة فى الكراهية للفردية ، وساعدت عليها فى عهديهما أجواء مسممة بالجواسيس والمنافقين ؛ وذلك فضلا عما غلب على السنوات الثمانية الختامية (٢٩٧ — ٣٠٥ م) لعهد دقلديانوس من الاضطهاد المرير ، الذى يذكره المسيحيون على مدى الأيام والدهور . لكنه على الرغم من تلك الأخطاء ليس ثمة شك أنه لم ينجح بين رجال السياسة إلا القليلون — فى التاريخ كله — مثل نجاح دقلديانوس

وقنسطنطين فى إمداد العالم الذى عاشا فيه بما حاجه وأعوزه من إصلاح ، بدليل المحافظة على ما تم على يد هذين الإمبراطورين فى رضى عام وقنوع غير مقطوع ، إذ ظل النظام الإدارى الذى ابتدعه دقلديانوس معمولا به فيما تبقى من الدولة الرومانية وشرق أوربا مدة ألف سنة ، وما برحت النقود الذهبية[1] التى ضربها قنسطنطين متداولة حتى القرن الحادى عشر الميلادى . ولو كان قنسطنطين أبى أن يعترف بالديانة المسيحية ضمن الديانات المسموح بها فى الدولة ، أو لو أنه لم يعقد مجمع نيقية الذى حدّد مذهب ألوهية المسيح ، أو لو أنه لم يصمم على نقل العاصمة الإمبراطورية إلى بيزنطة وتسميتها باسمه ، وهى المدينة اليونانية القديمة المطلة على البوسفور ، لتغير مجرى التاريخ كله تغيراً تامًّا .

ذلك أن دقلديانوس — وهو جندى فلاح الأصل من إقليم إيلليريا المطل على البحر الأدرياتى — جاء إلى الوظيفة الإمبراطورية والحكم تنفيذاً لرغبات الفيالق البانونية التى كان متولياً قيادتها ، وخلق بما استحدثه فى شئون الدولة جوًّا من التجديد لولاه ما امتاز عهده بشىء عما سبقه من العهود ، إذ طفق خلال حكمه الذى امتد عشرين سنة يبذل من مواهب عقله الجبار الناشط ما استطاع أن يبذل فى الإدارة والحكم ، حتى تراءى لبعض المعاصرين أن كثيراً من الأعمال التى قام بها ذلك الفلاح الدالماشى الخشن يبدو عليها التناقض والتزمت ، فضلا عما يغلب على نفس الإمبراطور من دوافع التسرع والتطير ، بدليل إتمامه مشروعاً من مشاريع البناء والتعمير ثم هدمه بعدما تعب فى بنائه وتعميره ، أو إصداره قانوناً من القوانين ثم إلغائه ما أصدر دون سبب مفهوم أو معروف . غير أن حكم الأجيال بعد دقيلديانوس ، وتلك لا تهتم بتفاصيل الأعمال التى قام عليها هذا الإمبراطور قدر اهتمامها بأثرها العام ، يرى فيه رجلا نظيماً صارماً . أراد أن يضبط شئون الحكم والإدارة فى دولة انعدمت فيها الضوابط ، فأدخل المركزية فى الحكم ، ووحد وسائل الإدارة ، كما أدخل نظام توزيع السلطات ، وقسم الولايات تقسيماً جديداً ،

---

(١) اسم هذه النقود الذهبية فى الأصل الإنجليزى (aureus) ، وكذلك (solidus) ؛ وقيمة كل منها نصف جنيه تقريباً فى العملة المصرية الحالية . (زيادة) .

وذلك لأنه أدرك أهمية فصل السلطة السياسية عن السلطة الحربية فى الولايات ، ولمس شدة الحاجة إلى تنظيم الوظائف الإدارية وضبطها أملا فى إزالة ما حل بالمجتمع الرومانى من الركود السياسى والانحلال . وللإمبراطور دقلديانوس كذلك ينسب إدخال الآيينات — أى البروتوكولات والرسوم الإمبراطورية — التى ظلت نموذجاً للبلاط والحاشية بالممالك الأوربية المختلفة عدة قرون . إذ أنه على الرغم من إبقائه على القاعدة القائلة نظرياً بأن الإمبراطور هو الحاكم المختار من الناس لحمايتهم ورعايتهم ، ذهب فى الحكم مذهباً استبدادياً شرقياً ، وادّعى لنفسه حقوقاً إلهية ، وجعل شخصيته مهيمنة على أداة بيروقراطية هائلة ، تديرها فئات مسلسلة من الموظفين المدنيين ، وكلهم طوع بنانه ورهن إشارته — أى أن دقلديانوس محا طقوس العصر الرومانى وأوضاعه ، ومهد بما أحدثه فى الحكم والإدارة للعصر البيزنطى وما اشتهر به من طقوس وأوضاع .

وثمة ظاهرة أخرى تجعل عهد دقلديانوس حداً فاصلا فى التاريخ ، وهى أنه رأى أن الإشراف على شئون الدفاع عن الإمبراطورية فى أربع جهات منفصلة لا يمكن أن يتأتى لرجل واحد ، وأن أداة ذلك الدفاع يجب ألا تبق جامدة فى أمكنة ثابتة ، بل ينبغى أن تكون متحركة متنقلة ، وأن مناداة الفرق الحربية بمن يروقها فى المنصب الإمبراطورى (Pronunciamentos) طريقة ينبغى أن تنقطع ، لأنها طالما أدت بالإمبراطورية إلى كثير من الخبل وإهراق الدماء . لذا قرر دقلديانوس أن تكون مقاليد الحكم بيد إمبراطورين اثنين ، أى هو ومكسيميانوس الفلاح الأصل من تراقيا ، فيحمل كل منهما لقب أغسطس ، ويعاونهما فى تصريف شئون الدولة اثنان لكل منهما لقب قيصر ، على أن يتخلى الإمبراطوران عن الحكم بعد عشرين سنة . ليحل محلهما كل من القيصرين . ثم رأى دقلديانوس أن روما لم تعد صالحة للبقاء عاصمة وحيدة للدولة ، فجعل بدلها أربع مدن رئيسة لتكون كل منها مقاماً لواحد من حكام الإمبراطورية الأربعة ، وتلك هى : تريف على نهر الراين بألمانيا الحالية ، وميلان بشمال إيطاليا ،

وسرميوم وهى بلغراد الحالية ، ونيقوميديا وهى إزمت الحديثة على الشاطئ الآسيوى للبسفور . واختار دقلديانوس لنفسه نيقوميديا ، وأخذ على عاتقه مراقبة أحوال الشرق المضطرب من ذلك الوقع الآسيوى البهيج .

غير أن التجربة لم تلق نجاحاً ، على الرغم من براعة الفكرة فى إسناد شئون الحكم والإدارة فى الإمبراطورية إلى هيئة مكونة من أربعة أشخاص ، إذ أعقب انقضاء مدة الإمبراطورين دقلديانوس ومكسيميانوس سنة ٣٠٥ ميلادية اضطراب داخلى وفتنة لا خير فيها ولا جدوى ، إلا من حيث إنها هيأت الأسباب لقيام قسطنطين الأكبر وإمبراطوريته على أساس مانع مكين .

وكان قسطنطين ابناً غير شرعى لضابط رومانى يرجع أصله إلى إقليم إيلليريا من صاحبة حانة بمدينة نيش بالصرب الحالية ؛ وتولى أبوه المنصب الإمبراطورى على النظام الدقلديانوسى ،فلما مات بمدينة يورك ببريطانيا ، نادت حاميتها الرومانية بقسطنطين الصغير إمبراطوراً سنة ٣٠٦ م ، حسب الطريقة الوبيلة التى عمل دقلديانوس ما عمل من إصلاحات ابتغاء الحيلولة دون وقوعها بعده . على أن اختيار الحامية الرومانية ببريطانيا لقسطنطين تلك المرة جاء اختياراً موفقاً تمام التوفيق ، مع التسليم بما كان لتلك الطريقة من وخيم العواقب فى أغلب الأحيان السابقة ، إذ برهن الشاب الفذ الذى لم يتجاوز الثانية والثلاثين من عمره على أنه قائد بالغ المهارة والحيلة والإقدام فى ساحات القتال ، حين شقّ لنفسه طريقاً إلى الإمبراطورية بأن سار على رأس الحامية الرومانية من شواطئ بريطانيا إلى غالية التى استولى عليها ، ثم دافع عن حدود غالية دفاعاً ماهراً ، وما لبث أن دحر منافسيه على العرش الإمبراطورى ، وهما ما كسنتيوس حاكم إيطاليا ، وليسنيوس إمبراطور الدولة الرومانية فى الشرق . يضاف إلى ذلك أن قسطنطين لم تصدمه هزيمة طول حياته الحربية ، بل دلت خططه الهجومية الخاطفة على أنه رجل لم تعرف المخاوف إلى قلبه سبيلا ، إذ أمدته اعتقاداته فى عالم الأرواح بقوة دافقة ازدادت نشوتها فى نفسه كلما ازدادت انتصاراته فى عالم الحروب . وهل بعد ذلك من عجب أن يرى قسطنطين فى

قرارة نفسه أنه الابن الحبيب المختار من الله الناصر القادر على كل شيء ؟
وهل بعد ذلك من عجب إذا زاد قنسطنطين فى مظاهر الاستبداد التى ابتدعها دقلديانوس ما جعل تلك المظاهر تبلغ أقصى الحدود .

الواقع أن المحافظة على نظم الحكم والإدارة التى ورثها قنسطنطين الكبير تطلبت أوفر ما يستطاع من العدل الخالص والقسطاس المستقيم ، حتى لا تتردى الدولة فى أسوأ ألوان الفساد والانهيار . ذلك أن الإدارة الرومانية فى القرن الرابع الميلادى بدت قاصرة أشد القصور عن مبادئ العدل والمعرفة بطبائع البشر ، برغم ما دخل عليها من عوامل الإصلاح ، إذ فرضت الضرائب الصغيرة على الثروات الكبرى ، على حين ظلت الثروات الصغرى مثقلة بباهظ الضرائب ، وتحصلت معظم ضرائب الإيراد غلة لا عيناً ، بسبب غش النقود وتدهور أسعارها ، وهى طريقة تدعو إلى الخلل والظلم والشذوذ ، وإن بدا فيها بعض المحاولة لتحديد الأسعار والقيم النقدية لمختلف الأشياء ؛ وفى هذا وحده دلالة كافية على سوء الحال . على أن هذا لم يكن كل ما هنالك من الدلائل ، إذ الحقيقة أن سوء النظام ليس إلا واحداً من الأسباب الخطيرة التى دعت إلى انهيار الإمبراطورية الرومانية ، ولم يقلّ عنه خطورة ما عمّ البلاد والناس من مظاهر الإكراه التى توسل بها الاستبداد الجديد للحصول على المواد اللازمة لبقاء الدولة . مثال ذلك إكراه الرجل من أصحاب الأطيان على أن يقوم للدولة دون مقابل بجمع الجند وجباية الضرائب بالنواحى المجاورة له ، وإكراه الفلاح على أن يعيش قنّاً مربوطاً إلى الأرض التى يعمل فيها ، وإكراه نواب البلديات على أن يظلوا مسئولين فردياً عما تؤديه بلدياتهم للدولة من حقوق ومقررات ، وهذا فضلا عن تحريم انتقالهم من بلادهم التى يكون فيها مولدهم . ثم إن التجارة باتت مقيدة مثقلة بمختلف القيود ، وإن النقابات التجارية الحرة تحولت إلى طوائف مغلقة الأبواب إلا عن أبناء أعضائها الأصليين ، وذلك بالإضافة إلى ما تتحمله تلك الطوائف من الالتزامات المالية وغيرها فى خدمة الدولة .

وأكثر أهمية وأبعد أثراً من تلك التغييرات الخطيرة قراران أصدرهما

قنسطنطين ، وبسببهما يتبوأ مكاناً بين القلائل الذين غيروا مجرى التاريخ ، مع العلم بأنه ليس فى استطاعة باحث أن يجرؤ على الجزم بأنه ذلك الإمبراطور العسكرى القادر الفاره كان على الدين المسيحى ، لأنه وإن لم يكن من المستطاع اتهامه بإلقاء الأسرى من الجرمان إلى الوحوش الضارية بالملعب العام لتسلية النظارة ، فمن المؤكد أنه قتل زوجه وابنه . على أن جرائم القتل لا تلبث أن تصير نسياً منسياًّ فى عصر يطفح بحوادث العنف والحرب ، وسرعان ما اختفت نقائص قنسطنطين تحت ستار الأعمال المجيدة التى جعلته القديس الثالث عشر فى عداد القديسين بالكنيسة الرومانية الشرقية .

وكيفما كان الأمر ، فالمعلوم أن الدين فى ذلك العصر الغاشم قيس ما فيه من الحق بمقدار ما يأتى به هذا الدين من نتائج ، فإذا جاء بالفتح والنصر لأتباعه قال الناس إنه الحق والهدى ، وإذا جاء بالهزيمة قالوا إنه ضلال مبين . وهنا يتضح ما لقنسطنطين من الفضل ، إذ أيقن وهو يرتب شئون الدفاع عن غالية أول حياته العملية الطويلة أن الصليب — وهو رمز للمسيح وإله الشمس على السواء — سوف يأتيه بالنصر والتوفيق فيما يخوض من حروب . ذلك أنه رأى رؤيا قصها بنفسه على إيزوب المؤرخ ، ورواها ذلك المؤرخ فى كتاب ألفه متأخراً فى سيرة قنسطنطين ، ولم يذكرها فى تأليفه الكبير فى التاريخ الكنسى ، وهى أن قنسطنطين شهد فى السماء راية الصليب ؛ وعليها طرة نصها « عزّ نصره » مكتوبة بأحرف من نور ، ثم قال إن الإمبراطور اتخذ تلك الطرة شعاراً للوائه فى حروبه التى ظفر فى أثنائها بأربعة انتصارات متتالية على منافسه وخصيمه مكسنتيوس ، وصار بفضلها سيداً على إيطاليا سنة ٣١٢ م . فالواقع أن الكنيسة المسيحية باتت منذئذ متمتعة بحماية السلطات المدنية ، ومع أن الإمبراطور لم يعتنق المسيحية رسمياًّ ، ولم يسمح بتعميده إلا وهو على فراش الموت ، سنة ٣٣٧ م ، فإنه بذل كل ما لديه من سلطة ونفوذ فى خدمة الديانة التى جاءت له بالظفر بأرجاء إيطاليا ، من تورين إلى ڤيرونا ، إلى جسر ملڤيان الذى يقع قاب قوسين أو أدنى من أبواب روما . هكذا برهن المسيحيون على ما فى دينهم من الحق ،

فضلا عما برهنوا على ما فى طائفتهم من القدرة على مغالبـــة الاضطهاد الذى نزل بهم زمن الأباطرة السابقين ، وفضـــلا عما أبدوا من تنظيم لشئونهم ، وما اجتذبوا إلى صفوفهم من أولى العزم والهمة الكدود . ولذا عقد قنسطنطين النية على تأييد هذه الطائفة القوية والاستمداد منها ، كما عمد إلى الإشراف على نواحى نشاطها ، ولا بأس كذلك من التدخل فى شئونها لتهدئة ما ينشب بين أوساطها من فتنة ، مع العلم بأن المسيحيين حتى وقتذاك أقلية صغيرة العدد[١] ، على حين ظل على الوثنية سكان القسم الغربى جميعاً ، وهم الجزء الأكبر من سكان الدولة الرومانية ، فضلا عن فيالق الجيش وجموع البرابرة الضاربين فى تخوم الأطراف الإمبراطورية . ولكن ثمة فرقاً كان واضحاً وقتذاك بين الوثنيين والمسيحيين ، وهو أنه بينما أفسح الوثنيون صدورهم إكراماً لإله المسيحيين إلى جانب آلهتهم المتعددة ، لم تكن آلهة الوثنية فى نظر المسيحيين سوى شياطين ملؤها الخبث والضر . مثال ذلك أن أسقفاً من أساقفة المسيحية لم ينكر ما للإله أبولو من قدرة على التنبؤ بالغيب ، وما للإله إسقليبوس من قدرة على الشفاء من الأمراض ، لأنه لم يجادل فى وجود تلك الكائنات ، بل قال بأنها آلهة كاذبة فحسب ، وإن الاسترشاد بها إثم عظيم . أما الوثنية فكانت أكثر تسامحاً ، غير أنه لم يغب عن بصيرة إمبراطور حصيف مثل قنسطنطين أن اتخاذ الأولياء من فئة قليلة من الناس يحدوها النظام ، ويهديها الإيمان الراسخ ، وتسندها كتب مقدسة وعقيدة واضحة ، أجدى عليه من فئة كبيرة ذات عقائد شتى ، واو بدت تلك الفئة على جانب من السماحة والكرم .

ومع ذلك يبدو أن الغرض الذى هدف إليه قنسطنطين بميله إلى جانب المسيحيين ظل غير واضح للعيان ، وذلك حتى انتصاره المبين فى وقعة جسر ملفيان سنة ٣١٢ م ، إذ بات الإمبراطور يؤمن بالمسيح وبإله الشمس القهار ، فحبا المسيحيين بكثير من التسامح ، على حين احتفظ لنفسه بمنصب

(١) قدر المؤرخ بيورى (Bury) عدد المسيحيين وقتذاك بمقدار الخمس من سكان الإمبراطورية الرومانية ، فى كتابه المعروف (History of the Later Roman Empire, p. 366)

الكاهن الأعظم (Pontifex Maximus) ، وهو المنصب الإمبراطورى فى الديانة الرومانية الوثنية . ثم إن العملة فى أيام قسطنطين ضُربت وعلى وجه منها علامة الصليب ، وعلى الوجه الآخر شعار عبادة الشمس ، وانقضى من عهد قسطنطين ما يزيد على عشر سنين قبل أن يصدر الأمر بعقوبة الجند على تقديم القرابين إلى جوبتر كبير آلهة الرومان ، أو أن يستبعد الشعائر الوثنية من الحفلات الإمبراطورية الرسمية .

غير أنه ليس ثمة شك أن اتخاذ المسيحية — فيما بعد — ديانة رسمية للبلاد ساعد على ازدياد صفوف المسيحيين زيادة سريعة ، لا سيما أن التحول عن الوثنية إلى المسيحية لم يكن انتقالا إلى جو غريب تمام الغرابة ، أو شعوراً بانقلاب باغت مفاجئ ، بل بدا الولوج فى المسيحية عملية رفيقة فى كثير من التدرج الشعورى والعاطفى ، إذ شابهت طقوس الديانة المسيحية وأسرارها المقدسة ما للديانة القديمة من طقوس وأسرار ، كما اشتملت تعاليمها على تعاليم الأفلاطونية الحديثة . يضاف إلى ذلك أن القول بوجود واسطة بين الله والناس أمر مألوف عند الفرس وأهل الأفلاطونية الحديثة سواء ، وأن الثالوث فكرة دينية مستمدة من الحقيقة القائلة بأن الثلاثة هى العدد التام ، وذلك فضلا عن أن الزهد والفقر ، والنشوة الروحية والقنوت ، لم يكن واحد منها جديداً على الراسخين من أهل الديانات القديمة . ثم إن فكرة الآخرة — بجميع ما فيها من جنة ونعيم ونار وجحيم — لم تنفرد بها الديانة المسيحية ، بل اتفقت الآراء عند أصحاب ميثراس وديانته الفارسية ، وعند دعاة الفلسفة الرواقية كذلك ببلاد اليونان ، على التسليم بأن مصير العالم إلى الفناء بالنار وبئس المصير .

لكنه على الرغم من ذلك التشابه بين أصول الديانة المسيحية والديانات الوثنية والعقائد الفلسفية المعاصرة لها ، لم يستطع الوثنى المنقلب إلى المسيحية إلا أن يجد نفسه فى عالم ذى قيم مخالفة لقيمه السابقة ، إذ رأى الفضائل القديمة أمست هدفاً للمذمة والتحقير ، على حين أصبحت الفضائل الجديدة كالعفة وأمثالها راجحة الموازين ، وصار الفقر أحسن مكاناً ورئياً من الغنى ، والإيمان خير من العمل الصالح ، والتواضع أفضل من الكبرياء ، والمساواة

أقرب إلى الله من التمييز بين الناس . ثم إن أبواب الخلاص والرحمة باتت مفتوحة على مصاريعها للناس أجمعين ، وعمت الإمبراطورية فورات دافقة من الشعور الخلقى ضد مظاهر الرذيلة والوحشية التى تمخضت عنها الجوانب المظلمة من المدنية الرومانية القديمة ، فأزالت تلك الفورات كثيراً من الرجس والنجس ، ولو أنها جرفت فى طريقها الهادر الصاخب كثيراً مما ارتكزت عليه قواعد السلوك والحياة من مُثُل النبل والاعتدال والحكمة .

على أن تلك الفورات لم تجد سبيلا إلى نفس قنسطنطين برغم خضوعه لأوهام الأساطير وأرجاس الشياطين ، لأنه جعل الوحدة شعاراً وهدفاً . واعتبر الكنيسة المتفرقة أحزاباً وشيعاً لن تفيد الدولة فى قليل أو كثير . ولذا أدت به الضرورة السياسية إلى أن يجعل من نفسه راعياً ورئيساً فخرياً للمجامع الدينية ، وفيصلا فى المنازعات بين المذاهب ، ومشيراً مطاعاً فى تقرير عقائد الكنيسة . والواقع أن اهتمام قنسطنطين بإخماد حركة الدوناتيين[1] فى المجمع الغربى الذى عقد بمدينة آرل بجنوب فرنسا الحالية ، سنة ٣١٤ م ، وهى حركة بيورتانية نبتت بإفريقية ، ثم ما تلا ذلك من انهيار الحركة الآريوسية فى المجمع المسكونى الأول بمدينة نيقية سنة ٣٢٥ م ، دل كلاهما على ما جدّ بالعالم من حلف بين الكنيسة والدولة ، وهو الحلف الذى تطورت بحسبه مصائر جميع الشعوب المسيحية . ومن ذلك وحدة تتضح أهمية القرار الذى اتخذه قنسطنطين أساساً لسياسته نحو الكنيسة ، وإن اختلفت المعايير فى تقدير النتائج التى ترتبت على ذلك القرار ، إذ قال المريدون قيام الكنيسة على أسس دستورية : إن الإمبراطور الذى أمال الدولة الرومانية إلى المسيحية قمين بأن يكون فى زمرة العظماء الذين أحسنوا إلى الجنس البشرى أكبر الإحسان ، على حين قال آخرون : إن الحلف

---

(١) ترجع هذه الحركة الدينية إلى أوائل القرن الرابع الميلادى ، ومؤسسها دوناتس (Donatus) النحوى الرومانى ، ومنه اتخذت اسمها ومبادئها القائمة على وجوب تقديس الشهداء وإمعان اللعنة على المرتدين عن المسيحية أزمنة الاضطهادات السابقة لعهد قنسطنطين . ثم اختلطت هذه الحركة الإفريقية بروح الانفصالية عن الدولة الرومانية ، فأضحت موضع نقمة الأباطرة منذ قنسطنطين فصاعداً حتى القرن الخامس الميلادى ، حين زالت الدولة الرومانية عن قسمها الغربى كله . (زيادة) .

الذى اتسق بين الكنيسة والدولة هو المنبع الأصلى للغرور الدنيوى والطمع الذى كدر صفاء الحياة المسيحية فى مختلف العصور .

أما القرار الثانى الذى اتخذه قنسطنطين ، فيرجع إلى شىء من الاعتزاز بالنفس ، فضلا عن اعتبارات حربية ودينية معينة ، إذ رأى الإمبراطور أن يبنى للإمبراطورية عاصمة جديدة على غرار ما فعل كل من روميلوس منشئ روما ، والإسكندر المقدونى منشئ الإسكندرية . لكن قنسطنطين كان من أبناء البلقان ، فأدرك — كما أدرك النمساويون بعده فى القرون الحديثة — أن تلال إيلليريا التى نشأ هو بها مصدر غنىّ بالرجال الصالحين للتجنيد ، وأن الخطر الرئيسى على الإمبراطورية منذ قرن أو يزيد جاء من ناحية البرابرة الضاربين على مقربة من ثغور الدولة وأطرافها شمالى نهر الدانوب ، ومن ناحية الدول الشرقية الواقعة فيما وراء نهر الفرات . هكذا اتضح لقنسطنطين أنه إذا هيأ لنفسه موضعاً صالحاً للدفاع عن بلاد البلقان ، فسوف يصبح قادراً على إنقاذ الإمبراطورية من أشد الأخطار المحدقة بها . ورأى دقلديانوس من قبل أن الضرورة الحربية تقضى بأن تكون العاصمة الرومانية قريبة من حدود المنطقة الرومانية الفاصلة بين آسيا وأوربا ، فرأى قنسطنطين بثاقب نظره ، وذلك بعد الغلبة على منافسه ليسنيوس عند مدينة كريسوپوليس على الشاطئ الآسيوى للبوسفور ، أن بيزنطة هى الموضع الذى لا يعدله غيره من المواضع ، من حيث المناعة الطبيعية والصلاحية لإقامة الحصون والقلاع ، وبناء السفن والأساطيل . وقصد الإمبراطور أن تصبح المدينة الجديدة مسيحية لاتينية معاً ، فنهضت مسيحية وظلت كذلك ، غير أن لاتينيتها المحدثة لم تلبث أن ذهبت منها . ثم إذا سلمنا جدلا أن قنسطنطين رأى أن إقامة عاصمة مسيحية على شواطئ البوسفور أيسر بكثير من إقامتها فى مدينة عريقة فى الوثنية ، مثل روما ذات المجد التاريخى القديم ، حيث المعابد والتماثيل التى تحدّت عادية المعتدى وغنيت عن حماية الصديق ، فليس من المحتمل عقلا أن الإمبراطور استطاع أن يكشف عما خبأته الأيام والحوادث من تغلب اللغة اليونانية وحضارتها على القسطنطينية ، أو أن يخطر

له أن روما معقل الوثنية تصبح زعيمة العالم المسيحى .

وكيفما كان المحتمل وغير المحتمل ظهرت العاصمة الجديدة فى سماء البوسفور ظهور العبق الفائح صعداً فى فضاء أريج ، فبنيت القصور والدور والسقائف ، والمحاكم والحمامات العامة فى سرعة خارقة ، وأمعن الإمبراطور فى البحث عن بدائع العمارة والفن بأرجاء الإمبراطورية كيما يزين بها شهرة القسطنطينية ، حتى إذا تم له ما أراد بدت المدينة فتنة للناظرين والسامعين ، بما اشتملت عليه من تذكارات المجد الرومانى فى القرون الخالية ، مثل العمود الثعبانى الشكل (الملوية) الذى اقتلعه قنسطنطين من معبد الآلهة بمدينة دلفى ببلاد اليونان القديمة ، ليعيد به ذكرى الانتصار الرومانى على اليونان فى وقعة بالاتيا ، ومثل دار العدل الرومانية ذات القبة الفارسية التى صارت طرازاً معمارياً لكنائس المسيحية الجديدة ، وهو طراز ينبئ فى وضوح عن مزيج من الروح الشرقية والروح الغربية فى هندسة البناء والذوق العام . وانتهى العمل فى جميع تلك العمائر الباسقة فى ١١ مايو سنة ٣٣٠ م ، وهو التاريخ الذى أعلن به قنسطنطين أن عاصمته كمل بناؤها ، أى أن روما الجديدة تأسست فى أقل من ست سنين .

ومن الواضح أن تأسيس القسطنطينية بداية تاريخية لعهد أخذ العالم الإغريقى والعالم الرومانى يبتعد فى أثنائه كل منهما عن الآخر ، رويداً رويداً ، حتى أمست وحدة الإمبراطورية لا تعدو أن تكون مسألة نظرية عسيرة التحقيق ، وأملا بعيد المنال . ذلك أنه على حين ظل الحكم الرومانى حياً بالقسم الشرقى من الإمبراطورية — كما تركه دقلديانوس وقنسطنطين — وعلى حين ظلت نظم ذلك الحكم قائمة لم يعتورها خطر حتى استيلاء الفرنجة على القسطنطينية سنة ١٢٠٤ م ، آلت مصائر القسم الغربى — وهو مرادف لغرب أوربا على وجه التقريب — إلى نهاية مختلفة تمام الاختلاف ، إذ انهارت الإمبراطورية هناك تحت ضغط شديد من الغزوات الجرمانية بعد خمسين ومائة عام كلها ضعف مطرد وحياة مزعزعة ، وبعد أن صار للكنيسة المسيحية وحدها أمر المحافظة — قدر الإمكان — على ما تبقى وقتذاك من تراث المدنية

والثقافة القديمة وسط عالم البرابرة المحدثين .

والواقع أن كثيراً من ذلك التراث القديم عصفت به الأيام ، وعفت على آثاره قبائل الجرمان بعد حلول رؤسائهم ملوكاً بأراضى الدولة ؛ فامحت روح الأسلوب العقلى الذى امتازت به الحضارة الهلينية أى اليونانية القديمة ، وحل محلها عالم أساس عقيدته قول القديس أوجسطين (٣٥٤ — ٤٣٠ م) : إن الله خلق الدنيا متاعاً عابراً ، مصيره الزوال ما بين طرفة عين وانتباهتها بأمره ، وإن الآخرة للمتقين خالدين فيها أبداً . ولذا لم يكن عجباً أن يرى المسيحى أن الدنيا وما فيها من عجز وقلق وشر مستطير لا تساوى شروى نقير ، بالقياس إلى نعمة الهدى بعد الضلال . وكيف لا يكون ذلك وجزاء الصالحين جنات ونعيم مقيم ، ومآل الكافرين — بما فيها الأطفال غير المعمدين — نيران جهنم يصلون فيها أبد الآبدين . وليس على المرء بعد ذلك إلا أن يتبع سواء السبيل ، فى نور الكتب المقدسة والكنيسة التى أذن الله بقيامها هدى للمتقين ، حتى إذا تبع ذلك النور والهدى ، ودعا الناس طوعاً وكرهاً إلى مثل ما يدعو إليه نفسه ، كانت عاقبته الجنة . أما من زاغ وغوى، فمأواه النار ، إذ ليس ينبغى له أن يتبع هواه ، كما لا ينبغى له أن يترك الناس فى أهوائهم لاهين . ألم يقل المسيح فى ذلك المعنى ما نصه : « واحملهم على الدخول فى الدين » ، وهو القول الذى بنى عليه القديس أوجسطين سنة الاضطهاد الدينى التى حاقت بالعقل الأوربى خلال القرون الطافحة بالإيمان ؟

ثم إنه على الرغم من تشبع القديس أوجسطين بفلسفة أفلاطون ، وتشبع القديس توماس الأكوينى بعده بأقوال أرسطو أواخر العصور الوسطى ، اندثرت المعرفة باللغة اليونانية وآدابها بغرب أوربا منذ القرون المسيحية الأولى ، حتى إذا جاء القرن الثالث الميلادى كفَّ المسيحيون من الرومان عن استعمالها فى صلواتهم ، بسبب انقلاب غامض فى عالم الأدب ، ولم تلبث أن رماها الرامون بأنها منبع الهرطقة والكفر . ومن ثمَّ عكف الناس على دراسة أوفيد وتيرنس وغيرهما من المؤلفين اللاتين ، ونسوا اللغة اليونانية وأشعار هوميروس ودرامات أخيلوس ، وأضاعوا بذلك مفتاح الهداية إلى أصول الثقافة القديمة

وكنوزها . وظلت اللغة اليونانية فى طى النسيان بغرب أوربا حتى القرن الخامس عشر الميلادى ، وأدى ذلك إلى نتائج خطيرة فى ميدان الحضارة والدين . إذ تحطمت وحدة الكنيسة المسيحية على صخرة التمسك بالألفاظ والتراكيب اللغوية ، فانتحت الكنيسة اليونانية سبيلا خاصاً بتأثير ما انغمست فيه من الخوض فيما وراء الطبيعة ، فضلا عما أحاط بها من الاستبداد الإمبراطورى بالقسطنطينية ، على حين اتخذت الكنيسة الرومانية سبيلا مخالفاً بتأثير اعتمادها على اللغة اللاتينية واستمدادها من روح القانون الرومانى ، برغم قيامها وسط عالم همجى متبربر . ولهذا نشأت الكنيسة بالقسم الشرقى من الإمبراطورية الرومانية خاضعة للدولة ومشيئة الإمبراطور ، على حين بدت مستقلة بشئونها بالقسم الغربى تحت زعامة أسقف[1] روما ، ولم تلبث أن نادت بعلو سلطتها على أية سلطة أخرى .

غير أنه يلاحظ هنا أن ثقافة الكنيسة الرومانية الغربية تأسست على مزيج متعادل من الأناجيل المسيحية والكتب اليهودية المقدسة ، مضافاً إلى التقاليد التعليمية التى ظلت باقية بالمدارس القديمة ، برغم ذهاب الوثنية والعالم القديم . وهذا المزيج المتعادل الأجزاء هو الذى انطبعت عليه الحياة العقلية بغرب أوربا أوائل العصور الوسطى ، حين كانت الكنيسة وحدها أداة المحافظة على الكتب واستنساخها ، فضلا عن قيامها بتلقين أولئك الذين جدّوا عليها من المتبربرين أصول النحو والأسلوب من مؤلفات ڤرجيل وشيشرون وغيرهما فى اللغة اللاتينية . ومن ذلك يتضح أن ليس فى عصور التاريخ عصر دانت المدنية الأوربية فيه لكل من ڤرجيل وشيشرون بقدر ما دانت به لهما فى ذلك العصر العنيف الذى خيم بظلامه على العالم المسيحى الأول ، إذ غدا هذان الكاتبان — وحدهما تقريباً — هما اللذان يمثلان سماحة روح الإنسانية القديمة وسط مجتمع لا يدرك من عظمتها إلا شيئاً ضئيلا .

---

(١) المقصود بتلك التسمية بابا روما باعتبار ما سيكون ، لأن أسقفية روما لم تصبح بابوية عالمية إلا بعد مدة غير قصيرة . (زيادة) .

أما الكنيسة اليونانية التى قامت بالقسم الشرقى من الإمبراطورية الرومانية ، وأخذت عنها الإمبراطورية الروسية كنيستها فيما بعد ، فلم تجرؤ يوماً من الأيام على معارضة سلطة الإمبراطور أو مخالفة التقاليد الكنسية الأولى ، وذلك بعكس ما ينتظر من قوم شهدت بلادهم مولد الروح العقلى الذى نشأت منه الفلسفة اليونانية القديمة . ولذا يصعب إرجاع أية حركة من الحركات الكبرى فى تاريخ التقدم البشرى إلى تلك الكنيسة ، لأنها ظلت كأنها ديوان من دواوين الدولة ، واصطبغت فنونها وعقائدها بما تصطبغ به الدولة عادة من تزمت وجمود ، وبيروقراطية والتزام لحرفية القانون ، واستماتة فى المحافظة على كل قديم . أما أخبار الكنيسة الرومانية بغرب أوربا فى ذلك العصر الصاخب المضطرب فتنبئ عن حال مخالفة لذلك تمام المخالفة ، إذ عاشت بنجوة من فوضى ذلك الزمن وفساده ، بفضل ما ورثت عن الدولة الرومانية من دقة التنظيم وسعة النفوذ .

بعض المراجع لهذا الفصل

Baynes (N.H.) : The Byzantine Empire, 1926.

Baynes (N.H.) : Constantine the Great and the Christian Church. (Proceedings of the British Academy, Vol. XV, 1931).

Dawson (C.) : The Making of Europe, 1932.

Dill (S) : Roman Society in the Last Century of the Western Empire, 1899.

Lot (F.) : La Fin du Monde Antique, 1927.

Oman (C.) : Short History of the Byzantine Empire, 1892.

الفصل الثانى

الغزوات الجرمانية

التيارات الكبرى فى الهجرات الجرمانية – الجرمان الشرقيون أو القوط – تحولهم إلى المذهب الأريوسى – الجرمان الغربيون نقلا عن أقوال تاكيتوس فيهم – المجتمع الجرمانى وخصائصه الرئيسية – ضغط الهون – عبور القوط نهر الدانوب – ألاريك القوطى – اختلال الحال فى الإمبراطورية الغربية – بقاء مكانة روما – غالية الرومانية فى القرن الخامس الميلادى – ذهاب مملكة القوط الغربيين من غالية – فتح الوندال إفريقية الرومانية – قيام أتيلا ملك الهون وسقوطه – خلع الإمبراطور رروميلوس – ثيودوريك ملك القوط الشرقيين بإيطاليا – مجئ كلوفيس الفرنجى إلى غالية – تحوله إلى المسيحية الكاثوليكية الرومانية – العصر المظلم فى بريطانيا الرومانية – استيلاء السكسون على بريطانيا – كثرة الدول الجديدة بها – اعتناقها المسيحية الكاثوليكية الرومانية .

* * *

سيطرت على التاريخ الأوربى حتى القرن الرابع الميلادى ثلاثة عوامل كبرى . وهى الحضارة الهلينية (اليونانية القديمة) . والإمبراطورية الرومانية ، والديانة المسيحية . وإذا كانت أصول الصلة التاريخية الأوربية بين العاملين الأولين من تلك العوامل معروفة واضحة . فأصل ثالثها مشتق من الشرق ، ولذا احتوى من التعاليم ما تحدى به المجتمع الأوربى القديم فى مواضع أساسية من السلوك والعقيدة والاهتمام بالحياة فى الدنيا والآخرة . ثم جد على الميدان عامل رابع غير مجرى التاريخ تغييراً تاماً على مر العصور . وذلك حين غلب الجرمان على الدولة الرومانية ، من بعد غلبها على الكلتيين الأقدمين واستيعابها لهم ولثقافتهم ومدنيتهم .

غير أن المعروف من الأصول التاريخية لأولئك الجرمان قليل . وهو

لا يعدو أنهم أقوام حلوا أوائل عهدهم بالقارة الأوروبية فى شبه جزيرة إسكنديناوة ، حيث بقى منهم فريق تفرعت عليه الأمم السويدية والنرويجية والدانية الحالية . على حين أخذ فريق آخر فى التنقل والرحلة جنوباً بغرب خلال ألمانيا ، سعياً وراء العيش أو الجو المعتدل ، أو حبًّا فى المغامرة والحرب ، حتى وصلت فئة من تلك الأقوام إلى حوض نهر الراين ، كما وصلت فئة أخرى شرقية الاتجاه إلى ضفاف نهر الدانوب وسواحل البحر الأسود . وهذان التياران المتباعدان من تيارات الهجرة الجرمانية هما اللذان اصطدمت بهما الدولة الرومانية ، إذ الجرمان الغربيون هم الذين حاربوا ماريوس ويوليوس قيصر ، وهم الذين هزموا القائد الرومانى ڤارّس وجنوده على عهد أغسطس قيصر ، وهم الذين وصف تاكيتوس عاداتهم ونظمهم فى كتابه المسمى « بحث فى أصل الشعوب الجرمانية ووطنها وطرق معيشتها » (De Origine, situ, moribus et populis Germaniae) ، وهو من أمهات الكتب فى دراسة أصول الأمم (الإثنولوجيا) ومن أولئك الجرمان الغربيين الإنجليز والسكسون الذين يرجع إليهم إنشاء الملكية بإنجلترا بعد ذهاب الرومان عن الجزر البريطانية ، ومنهم كذلك الفرنجة الذين أسسوا المملكة الفرنجية فى العصور الوسطى . واختلف مصير الشرقيين[1] من أولئك الجرمان العفاة عن مصير أبناء عمومتهم الغربيين فى بضع نواح ذات أهمية ؛ ومثال ذلك القوط ، وهم أعظم قبائل الفئة الشرقية عند الإطلاق ، إذ اندفعوا بعد حركتهم الأولى صوب ضفاف الدانوب وشواطئ البحر الأسود[2] ، وملأوا عين التاريخ فى القرنين الثالث والرابع الميلادى بضرباتهم الحربية العنيفة ومنشآتهم البنائية السريعة ، غير أن ما قاموا به من أعمال خارقة باهرة لم يكتب له العمر ، فلم يلبث إلا قليلا حتى زال وصار أثراً بعد عين . وبينما خلف الإنجليز والسكسون والفرنجة آثاراً دالة على ما أحدثوه عبر القرون من ممالك قوية منظمة ، اقترن اسم القوط بجميع ما اتصف به مطالع العصور الوسطى من ظلام ووحشة ودمار ؛ ولا يدخل فى ذلك

---

(١) يدخل ضمن تلك الفئة قبائل القوط والوندال والجبيداى والبرجنديين واللومبارديين والروجيين وغيرهم كثير .

(٢) بلغ القوط البحر الأسود زمن الإمبراطور كراكلا ، سنة ٢١٤ م .

طراز العمارة القوطى الذى يرجع أصله إلى بلاد لم تخضع للقوط يوماً من الأيام ، ولكن سرى عليها اسمهم . ومع هذا خُيِّل مرتين فى التاريخ أن مستقبل أوربا لا محالة صائر إلى أيدى القوط ، ففى منتصف القرن الثالث الميلادى بدا للمعاصرين كأنما أضحى مما ليس منه بدّ أن تنهار الإمبراطورية الرومانية تحت هول الضربات التى كالها أولئك الجبابرة للرومان ؛ ويقال مثل ذلك تقريباً بعد مائتى سنة من ذلك التاريخ حين بدا كأن مملكة القوط الشرقيين بإيطاليا ومملكة القوط الغربيين بإقليم أقطانية بالجنوب الغربى من فرنسا الحالية ، سوف يتولد منهما حضارة حية زاهرة تجمع بين قوة القوطى وتقواه وثقافة الرومانى وحضارته الموروثة منذ القدم . غير أنه لو أن قائلاً تنبأ بإحدى هاتين النبوءتين لكان له من الواقع التاريخى ما يبرهن على خطئه التام ، لأن الخطر العظيم على الدولة الرومانية من ناحية القوط فى منتصف القرن الثالث الميلادى (٢٣٥ — ٢٦٨ م) تبدد بفضل ثلاثة من الأباطرة العسكريين الذين يرجع أصلهم إلى إقليم إيلليريا ، وهم كلوديوس الثانى وأوريليان وپروبوس ، ولأن القوط فى إيطاليا وأقطانية فى القرن الخامس الميلادى قضوا على أنفسهم بما أظهروه من الرغبة الشديدة فى التحول عن الوثنية إلى المسيحية التى أضحت سائدة وقتذاك بين الرومان ؛ وكانت تلك الظاهرة من أغرب سخريات المقادير . ذلك أن القوط الغربيين الذين نزلوا شبه جزيرة البلقان أوائل القرن الثالث الميلادى كانوا أول الشعوب الجرمانية اعتناقاً للمسيحية ، إذ قام بينهم المبشر الدينى العظيم أولفيلا (٣١٠ — ٣٨٠ م) — وهو يونانى من إقليم قبادوقيا بآسيا الصغرى — وترجم الإنجيل إلى اللغة القوطية ، وبذا نشر العقيدة المسيحية بين أهل البلاد التى اتخذها موطناً . وأقبل القوط الشرقيون والقوط الغربيون سواء على اعتناق الدين الجديد ، وأخذوا من ثَمَّ يعملون على تفهم معانيه بقدر ما سمحت لهم طباعهم الساذجة . غير أنه مما يؤسف له أن العقيدة المسيحية بلغت القوط فى صورتها الأريوسية ، إذ تعلموا أن المسيح — وإن اتصف بالألوهية — مخلوق بأمر الإله الأب ، وهو لذلك أقل مرتبة منه . وأخذ بتلك الآراء قبل القوط وزعمائهم عدد من علماء اللاهوت الرومانيين ،

وكثير من رجال السياسة المشهورين فى الدولة الرومانية ، وقنسطنطين الأكبر نفسه ؛ وهى ترجع إلى القسيس أريوس الذى كان أول من أثار الجدل بالإسكندرية حول طبيعة المسيح . ولذا لم يكن على القوط حرج إذ آمنوا وصدقوا بما ألقى إليهم – على لسان أرباب الحكمة بينهم – من شروح لسرّ من أغمض الأسرار . على أن الأريوسية اختتمت أيامها فى أسوأ حال ، برغم ما صادفها من خُطوات رسمية خالبة للأبصار ، إذ استنكرها مجمع نيقية المسكونى[1] سنة ٣٢٣ ، ولعنها أسقف روما ، واستهجنها كافة رجال الدين الغربيين فى إيطاليا وغاليا وإسبانيا ، وقالوا لأبناء كنائسهم الذين قصرت أفهامهم عن إدراك دقائق العقيدة المسيحية بأنَ المؤمن بالمذهب الأريوسى عدو المسيح ، وأن فى الأريوسية تحدياً لألوهية عيسى . والواقع أن مرتبة المسيح من الثالوث ، وهى مسألة قل وقتذاك من يصلح لبحثها ، بل قلّ من يقدر على فهمها ، كانت المسألة التى شغلت العقول وملأت الأفواه فى أثناء الخلافات الدينية فى القرن الخامس الميلادى ، حين ارتهن التوفيق فى هذه الدنيا – وفى الآخرة كذلك – بما فى قواعد الإيمان عند الفرد من ضبط وتدقيق .

ومن ذلك يتضح كيف أبادت الهرطقة الأريوسية مملكتى القوط بإيطاليا وأقطانية ، وهما المملكتان اللتان قامتا بحد السيف ، على حين رغد الفرنجة من الجرمان الغربيين – وهم اللاحقون فى حلبة المدنية – بما استقام لهم من قوة باركتها الكنيسة الغربية وأيدتها ، لاعتناقهم المسيحية على المذهب الكاثوليكى برغم أنهم لم يعتنقوها إلا بعد القوط ، وبرغم أنهم كانوا أقل من القوط حضارة وتثقيفاً .

وصوّر تاكيتوس أولئك الجرمان الغربيين فى صورة هدفها الخلقى أدعى للالتفات مما فيه من مطابقة أو إغراب عن الحقيقة ، إذ جعل غايته أن يقارن بين البساطة المثالية فى الحياة الجرمانية والإغراق فى الترف الذى

---

(١) شرح المقريزى (المواعظ والاعتبار – بولاق – ج ٢ ، ص ٤٨٧ ، وما بعدها) ، وغيره من المؤلفين المسلمين موضوع الخلافات المذهبية فى الكنيسة شرحاً وافياً . (زيادة) .

تردى فيه المجتمع الرومانى بإيطاليا ، وأن يجد فى حرية الحياة التى عاشها الإنسان الهمجى النبيل بصفاته مادة لتطهير الإنسان المتمدين مما علق بحياته من مظاهر الدعة والانحلال . وألف تاكيتوس كتابه زمن الإمبراطور تراجيان (١١٥ — ١١٧ م) ، أى أوائل القرن الثانى الميلادى ، ويظهر أنه بالغ فى وصف فضائل الجرمان ، حبًّا فى جلب الأنظار إلى تصويره ، لأنه من المؤكد أن الرومانى — ولو كان تاكيتوس نفسه — لم يكن ليقبل راضياً أن يشترى البقاع الجرمانية المتوحشة ، وغاباتها المخيفة ، وسماواتها الداكنة ، بحياة المرح فى البلاد الرومانية الطافحة بأصناف اللهو والصخب . على أن تاكيتوس أصاب كبد الحقيقة حين قال إن لدى القبائل الجرمانية كثيراً من جديد الصفات ومفيدها ، مما ينفع الحضارة الرومانية ويقومها ، كأنما تنبأ بما فى تلك القبائل الهمجية من مقدرة على تنشيط الأمم وتجديدها ، أو كأنما رأى فيهم سر الحرية السياسية التى نسيتها روما ، فضلا عن الشغف بالابتكار الفردى الذى كبتته روما ، وفضلاً عن عادة الإكثار من الذرية فى العائلة الواحدة ، وهو ما شاءت روما أن تهمله وتزدريه . والواقع أن تلك الصفة الأخيرة أدت إلى تفوق الجرمان على الرومان تفوقاً عدديا حاسماً ، حين جدّ الجد واستعرت بينهما الحروب ؛ وهكذا قُدّر للعالم اللاتينى أن يهتز وترتعد فرائصه مرة بعد أخرى أمام الخصب البشرى الذى امتازت به الأجناس الجرمانية الفتية ، بفضل محافظتها على مبدأ نظام الزوجة الواحدة فى الأسرة ، ومقتها لتعدد الزوجات .

وتشابه الجرمان عموماً فى تلك الظاهرة وغيرها من الظواهر ، ولم يختلف بعضهم عن بعض اختلافاً بارزاً ، ما عدا أن الجرمان الغربيين صاروا إلى شىء من الحياة الزراعية المستقرة زمن تاكيتوس ، على حين ظل إخوانهم من الجرمان الشرقيين يضربون فى مناكب الغابات الوعرة بعرباتهم وسائمتهم طلباً للعيش والمرعى . وعرف الرومان هؤلاء وأولئك معرفة جيدة فى القرن الرابع الميلادى ، وبات الجرمانى العنيف شخصاً معلوماً لكل المعسكرات الرومانية ، على طول الدولة من ناحية الشمال . على أن العنف لم يكن كل

ما اختص به الجرمانى من صفات وسمات ، فهو كذلك ذو بسطة فى الجسم ، وبشرة ناصعة البياض ، وعيون حادة زرقاء ، وشعر أشقر مرسل ؛ ثم إنه يشرب الخمر حتى الثمالة ، ويتيه فى عالم الشراب والأحلام ، ويهوى التشاجر والمقامرة ، ويغنى ويحب الاستماع إلى الأغانى ، ولا يتغلب على إخلاصه الشديد لسيده وعشيرته سوى شهوته الجامحة دائماً نحو المغامرات الحربية .

ومن المعروف كذلك أن العشائر الجرمانية أتى عليها كثير من التغير : من حيث القد والشكل والاسم ، خلال قرنين من الزمان ، كلها حروب عشائرية ، ومشقات محلية فى تسليك الغابات وتسويتها للزراعة ، فاختفت عشائر صغيرة وحلت محلها عشائر كبيرة نتيجة قيام بطل من الأبطال ، أو تلبية لضرورة حربية . ثم ما لبثت تلك العشائر الكبيرة أن انتقضت من بعد قوة أنكاثاً ، بسبب وفيات أبطالها أوسقوطهم صرعى فى ميادين الحروب ؛ وبذا بدأت فيها عملية التغير والتكتل من جديد . مثال ذلك أن العشائر الصغيرة التى ذكرها تاكيتوس فى كتابه لم يكن لها أثر على عهد الإمبراطور قنسطنطين ، بل قام على أنقاضها عشائر أكبر مكاناً ورئياً : مثل الفرنجة ، والسكسون ، والأللمان فى جنوب ألمانيا الحالية .

على أن الخصائص الرئيسية فى الحياة الجرمانية والمجتمع الجرمانى لم تتغير فى شيء ، وقلما خلت منها فى تلك العصور بقعة من البقاع بأوربا الوسطى ، حيث عاشت العشيرة الجرمانية عيشة صاخبة ، وعاش رئيسها وسط زمرة المختارين من رفقائه فى الحروب ، فإذا جد على العشيرة أمر اجتمع له كافة رجالها الأحرار ، وفيهم رجال الأسرات الملكية القديمة وأبناؤها الذين يكون منهم اختيار الملوك ، حتى إذا انتهى المجلس مما هو بصدده ، وعادت العشيرة إلى حياتها السلمية ، رأيت قطعاناً عديدة من المواشى والسائمة ترعى المروج ، ورأيت نبات القمح والشعير يكسو الحقول المقسمة إلى حصص مبعثرة بين المزارعين ، ورأيتَ الأقنان الملحقين بالأرض الزراعية يفلحونها خالفاً عن سالف كأنهم جزء منها ، ثم لا تلبث أن تلحظ فى ذلك المجتمع أن ليس به شيء من المدن والقرى والصرائف ذات المساكن المتلاصقة والطرق المسددة .

غير أنه على الرغم من وحدة الأصول وتشابه العـــادات ، عاش الجرمان خلواً من الروح القومية ، فحاربت القبيلة أختها من القبائل ، وشاجرت العائلة جارتها من العائلات . ونظر الجرمان إلى الدولة الرومانية نظرات مختلفة فاعتبرها بعضهم عدواً له ، وعدّها بعضهم الآخر مورداً للارتزاق بالخدمة فى الجندية ، أو موطناً لمن يهوى الاستيطان فى بلاد طافحة بمظاهر الحضارة الرومانية .

لذلك كله بدت الجيوش التى استطاعت تلك الأجناس الخصبة أن تلقى بها فى ساحات القتال غير متناسبة ألبتة مع تعدادها الأصلى ، على أنه إذا كان من المعروف أن الجيوش الرومانية ، صارت قليلة من حيث القوة العددية ، فالمعروف كذلك أن خصومها من الجرمان لم يفوقوها فى العدد إلى درجة كبيرة . ويستخلص من ذلك أن تدهور الإمبراطورية الرومانية وسقوطها لم يكن سببه ما وقع بين الرومان والجرمان من سلسلة الحروب التى لم يشتبك فيها أكثر من عشرين ألفاً من كل من الجانبين ، أغلب الأحيان . والواقع أن البنيان الإمبراطورى العظيم لم يتصدع ويتحطم تحت هجوم جرمانى مباشر ، بل كان نتيجة لتغلغل جرمانى سابق فى أقاليم الدولة الرومانية منذ مائة من السنين ، وهو التغلغل الذى جعل شئون الحكم والولاية بإيطاليا وغاليا وإسبانيا وإفريقيا فى أيد جرمانية .

وبينما ذلك التغلغل الجرمانى الصامت يجرى مجراه ، أخذت جموع متوحشة من جنس المغول تشق طريقها على ظهور براذينها الصغيرة فى أواسط آسيا عبر البرارى الآسيوية حتى وصلت إلى الجنوب الشرقى من أوربا ، أواخر القرن الرابع الميلادى ، وأنزلت تلك الجموع الظالمة — وهى التى تسمى الهون — أصناف العذاب والخراب بجميع ما مرت به من البلاد ، فقتلت ودمرت حيثما حلت ، وأزالت كل عقبة فى طريقها كما تزيل العاصفة هشيم الحصاد . وأحست عشائر الجرمان من اللان والقوط الشرقيين والقوط الغربيين على التوالى بقوة دافعة هزت أرجاء العالم الجرمانى هزات أوقعت الرعب والفزع فى القلوب ، وأدت إلى تحرك العشائر الجرمانية حركة هائلة غمضت تفاصيلها فى حوليات المؤرخين ، ولم يلك إلا قرن أو بعض قرن حتى غمرت

تلك العشائر ربوع غاليا وبريطانيا وإسبانيا وإفريقيا وإيطاليا ، بعد أن خلفت من ذكريات البطولة ما امتلأت به قصة نيبلونجليد (Niebelungenlied) التي تغنت بها ألمانيا طوال العصور الوسطى .

ووضحت الآثار الأولى من تلك الحركة الجديدة بالركن الشمالى الشرقى من الإمبراطورية ، حيث نفذ الهون حوالى سنة ٣٧٦ م إلى ربوع داسيا ، وهى ترانسلفانيا التى صارت جزءاً من دولة رومانيا فى العصور الحديثة . فى تلك السنة هزم الهون عشائر القوط الغربيين ، وأخرجوهم من ذلك الإقليم الباسم ، وكان القوط قد أخرجوا أهل داسيا قبلا من إقليمهم هذا الذى أضفى على الإمبراطور تراجان شهرة لا تفنى ، واستمدت منه رومانيا الحالية مشكلة من مشكلاتها السياسية الكثيرة إبان الحرب العالمية الأولى .

ثم التمس القوط الغربيون عند الدولة الرومانية ملجأ ثانياً يلجأون إليه بعد أن طردهم الهون عن إقليم داسيا ، فسمح لهم الإمبراطور فالنز بعبور الدانوب واتخاذ إقليم موئيسيا السفلى — أى الجزء الشمالى من بلغاريا الحالية — صريفة لهم ومأوى . غير أن إيواء ما يقرب من ثمانين ألفاً من المهاجرين الغرباء ليس بالأمر الهين أو السهل ، مهما توفر بالمهجر من حسن التنظيم والمعادلة فى التوزيع بين القادمين والسكان الأصليين ؛ ولذا لم يلبث القوط الغربيون طويلاً حتى أحسوا بكثير من الضيق بإقليمهم الجديد ، حتى إذا تطور ضيقهم إلى ضجر ، وتطور الضجر إلى كراهية ، عمدوا إلى محاربة الإمبراطور الذى يرجع إليه الفضل فى السماح لهم بدخول إقليم موئيسيا . ثم وقعت الواقعة بين القوط الغربيين والجيوش الإمبراطورية عند أدرنة سنة ٣٧٨ م ، حيث هزمت الخيالة القوطية المدرعة جيوش الإمبراطور الراجلة ، كما أردت الإمبراطور فالنز قتيلا ، وقضت أن تكون الخيالة لمدة ألف سنة هى الأداة الأولى فى الحروب الأوربية .

أما الإمبراطور تاوداسيوس الأول ، وهو الذى ألقيت على عاتقه معالجة ذلك الموقف الخطير ، فكان جندياً مبرزاً من أصل إسبانى ، وينتهى نسبه إلى أسرة تراجان ؛ وحظى تاوداسيوس من مؤرخى الكنيسة بلقب « العظيم » ، لما أبداه من نشاط فى الاضطهاد الدينى خدمة للكاثوليكية . والواقع أن

الإمبراطور الذى شهد عهده زوال الشعائر الأليوسية[1] والألعاب الأولمبية الوثنية يستحق أن يتبوأ مكاناً خاصاً فى حوليات الكنيسة المسيحية ؛ على أن شهرة ثاوداسيوس تستند إلى أسس أكثر جدوى من مجرد التعصب الذى أنزله بالمراطقة والوثنيين سواء ، إذ تدين له الإمبراطورية بما جلب لها من سلم دام ثلاث عشرة سنة ، بفضل مهارته فى تحويل القوط الغربيين إلى معاهدين أصدقاء أوفياء ، بعد العداوة والغدر ، وذلك حين هيأ لهم موطناً أميناً بإقليم تراقيا من بلاد اليونان الحالية .

ولو شاءت المقادير أن يخلف ثاوداسيوس ابناً فى رأسه شىء من عزيمة أبيه وحزمه ، لكان من المحتمل أن ينقلب القوط فى النهاية إلى قوم مطيعين متفانين فى خدمة الدولة الرومانية فى تراقيا ، حيث استقرت العشائر القوطية أواخر القرن الرابع الميلادى . . غير أن مصيبة ليست بعدها مصيبة حلت بالإمبراطورية عقب وفاة ثاوداسيوس سنة ٣٩٥ م ، وهو فى سن الخمسين ، إذ تولى الحكم بعده ابنان ضعيفان ، هما أركاديوس للقسم الشرقى وعاصمته القسطنطينية ، وهونوريوس للقسم الغربى وعاصمته رافنا ، فخضع أولهما لسلطة الخصىّ اليونانى يوتروبيوس ، وسيطر على ثانيهما القائد الوندالى ستليخو .

وعاش القوط الغربيون بإقليم تراقيا عيشة صاخبة ، كأنهم لا يزالون فى سهوب جرمانيا وبقاعها الغابية ، فلم ينزلوا عن شىء من غطرسة لسانهم الجرمانى أو خشونة سلوكهم الهمجى ، برغم ما ارتبطوا به من المواثيق لحماية الدولة مقابل السماح لهم بالعيش فى أراضيها حسب الشروط التى عقدها معهم ثاوداسيوس . وزار سينسيوس أسقف برقة إقليم تراقيا حوالى ذلك الوقت ، وأدرك بنفسه سوء السياسة التى أدت إلى السماح لأولئك الغرباء المسلحين المفسدين بالدخول فى جسم الدولة الرومانية ، ووجه إلى الإمبراطور أركاديوس خطاباً حذره فيه من عواقب تلك السياسة ، ونادى بوجوب القيام لدرء الخطر القوطى بجيش رومانى خالص يدعى إليه المزارع من مزرعته ، والفيلسوف

---

(١) الشعائر الأليوسية (Eleusis Mysteries) جزء من عيد أثينى وثنىّ قديم . (زيادة) .

من مدرسته ، والصانع من مصنعه ، والتاجر من دكانه ، والمتعطل اللاهى من لهوه ، فلا يكون من أولئك جميعاً إلا من أسهم فى الدفاع عن الوطن . غير أن الخطاب لم يجد أذناً صاغية ، مع أن سينسيوس ألقاه فعلا فى حضرة الإمبراطور . والدليل على ذلك أنه على حين ظل أركاديوس سابحاً فى أحلامه ، انتخب القوط لأنفسهم ملكاً عسكرياً فى سن الثلاثين ، وهو ألارك الجسور الذى أفزعت أخبار جسارته الحربية قلوب المعاصرين . على أن فى سيرة ذلك الملك المسيحى الهمجى ما يدعو إلى الالتفات ويسترعى النظر ، إذ يبدو من أعماله أنه لم يخطر له فى يوم من الأيام أن ينال الإمبراطورية بسوء ، وإنما رمى إلى الظفر بأحد المناصب الإمبراطورية العالية ، والحصول على إقليم خصيب من الأقاليم الرومانية لعشيرته . وفى سبيل هاتين الغايتين لم يترك ألارك وسيلة خبيثة إلا توسل بها ، ولا منكراً إلا ارتكبه ، فهاجم أثينا وأجبرها على الفداء ، واستولى على كورنثا وإسبرطا ، وعاث فى تساليا والبلوبونيز ، ثم لم يلبث أن غزا إيطاليا ، فحاصر روما مرات ثلاثاً حتى إذا فتحت له أبوابها غداة حصارها الرابع سنة ٤١٠ م أباحها لبرابرته يفعلون بها ما يشاءون .

وزلزل الناس وعراهم ذهول عميق ، لوقوع تلك الكارثة الكبرى بمدينة خالتها القرون والأجيال مركز الهيبة والسلطان من قديم الأزل . وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون عما إذا كان هو كل ما استطاعت المسيحية أن تأتى به ، أم كانت الطامة انتقاماً للوثنية ومعابدها القديمة أم ، كان ما حدث هو الجزاء لاعتناق المسيحية . ورد القديس أوجسطين أسقف هيبّو بإفريقية الرومانية — وهو بونا بتونس الحالية — على كل تلك الأقاويل فى كتابه « مدينة الله » الذى ابتدأ تأليفه سنة ٤١٢ م ، وانتهى منه سنة ٤١٧ م . وفى ذلك الكتاب الذى يعتبر أعظم ما خلفه الآباء الأولون من الكتب الدينية ، أجاب أوجسطين بأن روما مدينة من عمل البشر ، وهى لا تقاس فى شىء إلى مدينة الله التى لا تنال منها الظواهر المادية ، ولا تحدها الحدود ، بل تسع كافة المؤمنين حيث يكونون . غير أن إباحة روما وانتهاك حرمتها على

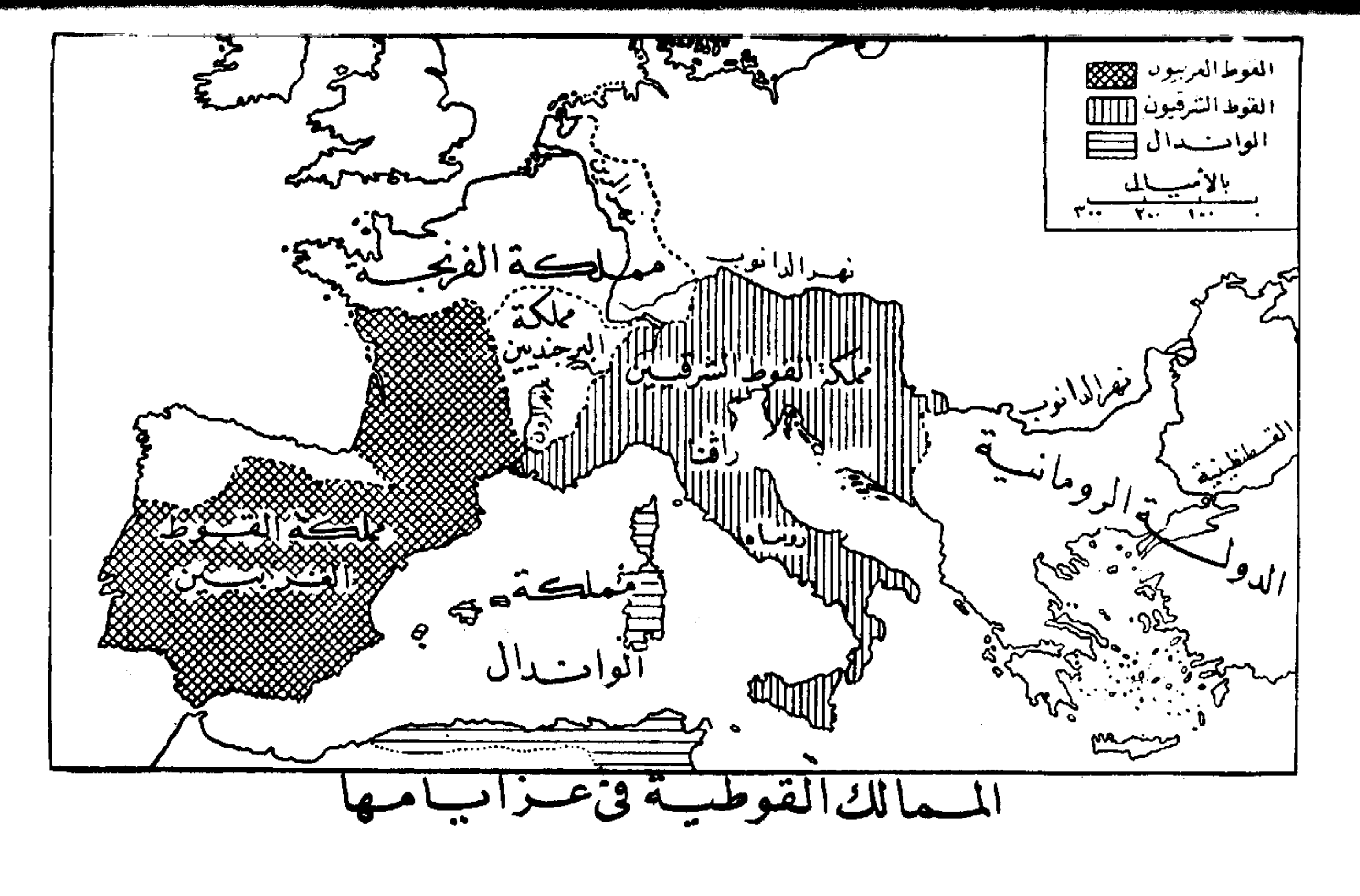
يد القوط الغربيين لم يكن إلا نذيراً ضئيلاً بالقياس إلى ما خبأته الأيام من الطامة العظمى ، لأن هجمات القوط الغربيين على إيطاليا منذ أواخر القرن الرابع الميلادى تطلبت سحب كثير من الحاميات الرومانية على نهر الراين إلى المواقع الإيطالية الهامة ، فاهتبل الفرصة جمــوع من السويڤ واللان والوندال (والوندال فرع من الجرمان الشرقيين الذين اعتنقوا المسيحية على المذهب الآريوسى) وانساحوا نحو غاليا وحدودها التى أمست خلواً من معظم وسائل المقاومة والدفاع ، ولم يمض إلا ثلاث سنوات (٤٠٥ — ٤٠٨ م) كلها نهب ذريع وقتل مريع — حتى عبرت تلك الجموع جبال البرانس إلى إسبانيا . على أن ما طفحت به تلك السنوات الثلاث من الفوضى التى ليس بعدها فوضى غير وجه الإمبراطورية الغربية تغييراً تاماً ، لأن الأمر لم يقتصر على فقدان السيادة الإمبراطورية نهائياً من غاليا وإسبانيا ، بل تعداه إلى قيام رومانى مغامر اسمه قسطنطين بسحب معظم الحاميات الرومانية من بريطانيا ، أملا فى الذهاب بها إلى روما بعد أن نادى رجالها به إمبراطوراً ؛ وبذا تعرضت بريطانيا الرومانية لغارات القراصنة من السكسون على شواطئها فى الجنوب ، وهجمات البكتيين والأسكتلنديين على طول حدودها الشمالية أوائل القرن الرابع الميلادى .

ثم أعقب تلك العاصفة ضغط شديد من ناحية العشائر الجرمانية غرباً نحو غاليا ، فاحتل الفرنجة البحريون أرض بلجيكا الحالية ، واستولى الفرنجة البريون على تريڤز وما حولها ، ونزلت عشيرة الأللمانى فيما هو الألزاس فى العصر الحاضر ، وأقام البرجنديون مملكة عاصمتها ڤورمز ، وانتقل القوط الغربيون وقتئذ عن إيطاليا إلى غاليا ، فاستقروا بها فى جهات تولوز ، وأخذوا من ثم يبنون لأنفسهم دولة امتدت فى عز اتساعها من بوغاز جبل طارق إلى نهر اللوار ، ومن المحيط الأطلسى إلى نهر الرون .

أما الحكومة الإمبراطورية فى راڤنا ، وهى المدينة التى أضحت عاصمة للدولة الرومانية فى الغرب ، فلم تستطع فى أية مرحلة من مراحل القرن الخامس الميلادى أن تؤثر أيما أثر فى اتجاهات تلك الحركات الجرمانية الهائلة .

ولذا لجأت إلى السياسة العملية التى بدأها ثاوداسيوس ، وهى اعتبار العشائر الجرمانية أحلافاً معاهدين للإمبراطورية ، بعد أن أمست حربهم متعذرة ، وبات إخضاعهم محالا . ومن أجل تلك السياسة العملية عمدت الإمبراطورية إلى مبدأ الضيافة الإجبارية ، وهو المبدأ المتبع منذ القديم لإنزال الجيوش الرومانية ضيوفاً على أصحاب الأراضى من الإيطاليين ما دامت الجيوش بالأقاليم الإيطالية ، فتوسعت فى تطبيقه بأن جعلته سارياً على غاليـــا خدمة للقوط الغربيين والبرجنديين . وهكذا أضحى مقرراً على المضيف الرومانى الراغم أن يتخلى ، بأمر إمبراطوره المغلوب على أمره ، عن ثلثى ممتلكاته إلى ضيف متبربر ثقيل .

وانشرحت صدور الجرمان الدخلاء لتلك الحيلة التى تسترت على النهب باسم الضيافة ، واعترفت باستقلال الجرمان بشئونهم تحت لواء التحالف المبجل . على أن روما ظلت قوة معنوية مهيبة لدى القوط الغربيين والبرجنديين ، كما ظلت المدنية الرومانية موضع الإجلال عند قوم لا يفقهون من أمرها شيئاً . ولم يدر بخلد أولئك البرابرة — الذين أخذوا من ثم يتحلون بشىء من الثقافة الرومانية — أن باستطاعة أحد غير الرومان أن يصبح إمبراطوراً ؛ فإذا جاز لقوطى أن يتزوج من أميرة رومانية ، أو أن يسهم فى إقامة رومانى فى الإمبراطورية ، فسوف يظل التاج الإمبراطورى ممتنعاً على غير الرومان ، أى أن موقف القوطيين من الدولة الرومانية — وكذا موقف البرجنديين كان مزيجاً عجيباً من التهيب الباطن والتحدى الصريح . وبدا كأنما استقر الجرمان على أنه لا يوجد فى الدنيا من القوى والتمائم ما يستطيع أن يقهر الدولة الرومانية إلا ما جاء من روما نفسها ، بدليل أن الغنائم التى حملت من إيطاليا سنة ٤١١ م على يد آتولف ملك القوط الغربيين فى مملكتهم الجديدة بالجنوب الغربى من غاليا اشتملت على شخصيتين رومانيتين ، أولاهما الأميرة جالا پلاسيديا أخت الإمبراطور هونوريوس ، لتكون زوجة للملك القوطى ، وثانيتهما الخطيب المغمور آتالوس ليكون إمبراطوراً مناهضاً لإمبراطور راقنا إذا دعا الأمر .



الممالك القوطية في عزايامها

وظلت غاليا فيما تبقى من القرن الخامس الميلادى خاضعة لحكم الدولتين القوطية والبرجندية فى أرجائها ، وهما الدولتان الصديقتان الحليفتان على قول التعبير السياسى وقتذاك ، حتى إذا كان انتصار الفرنجة على القوط الغربيين عند ڤوييه سنة ٥٠٧ م تبدل الحال غير الحال . ولما كان المعروف أن المحاكاة صفة من أقوى صفات المجتمع البشرى ، أخذ القوط الغربيون والبرجنديون يتفهمون مظاهر الحضارة الرومانية ويحاكونها ، منذ استقرت أحوالهم بوطنهم الرومانى الجديد فى غاليا ، حيث بقيت تلك الحضارة حافظة أشكالها ، بالقياس إلى غيرها من البلاد فى ذلك العصر ، ثم لم يلبث ملوك هاتين الدولتين وغيرهما من الدول الجرمانية أن أدركوا أنه مهما كان احتقارهم لنعومة أهل حوض البحر الأبيض المتوسط ، فإن شئون الحكم لا تستقيم فى بلاد تتكلم اللاتينية دون استخدام الحكومة للموظفين والكتبة المتكلمين باللسان اللاتينى ، فضلا عن حاجتها إلى المشرعين العارفين بالقانون الرومانى . ولذا يبدو أن حياة الرومانى من أهل غاليا لم تنقلب إلى ضيق وشقاء نتيجة لحلول المملكتين البرجندية والقوطية محل دولة الرومان ، بل ظل النبيل من النبلاء أصحاب الأطيان كما كان قبلا : يزرع أرضه ، ويلهو بالصيد والطرد فى الغابات والأحراش ، ويبنى البيوت ، ويغرس الأشجار فى حدائقها المونقة ، حتى إذا عراه الملل من هذا وذاك وتينك عمد إلى زيارة أصدقائه وجيرانه ، أو دلف إلى مكتبته يقلب فى أسفارها وأوراقها ، وهو ناعم البال خالى القلب من الحزن ، كأن ليس هناك برابرة يقتلون اللغة اللاتينية الجميلة قتلا ، وكأن ليس ثمة حاجة إلى الاهتمام أو القلق من أجل الإمبراطورية وحياتها المستقبلة ، بل كأن ليس هناك مصيبة اجتماعية داهمة أو خطر خارجى قريب ، لأن كل ذلك لا يساوى شروى نقير بالقياس إلى حياة العافية والوفرة التى لا انتهاء لها ، ولا يقارن فى شىء بمظاهر اللطافة والبلهنية التى تمطى فيها المجدودون المهذبون من أعضاء مجلس الشيوخ الرومانى ، فى بيوتهم فى روما والأقاليم الإمبراطورية . يضاف إلى ذلك أن حكم أمثال ثيودوريك ملك القوط الشرقيين بإيطاليا ، أو جُندبود ملك البرجنديين فى غاليا ، بدا فى نظر الفقير

المعدم فى تلك العصور أخف وطأة من طاحن الظلم الذى اتصف به جباة الضرائب والإتاوات فى عهد الرومان .

وحوالى ذلك الوقت أخذت الدولة الرومانية تألف الجندى الجرمانى فى فرق الجيش الرومانى ، وتأنس إلى المغامرين الجرمان فى بلاط الأباطرة والقياصرة ، وتقبل المهاجرين الجرمان فى أراضيها ومزارعها عن رضا وطيب خاطر ، حتى مرت حوادث القرن الخامس الميلادى كأنها لم تكن . وإذا خشى النبيل الرومانى المثقف من أهل غاليا على اللسان اللاتينى أن يضيع ، ومن الآداب اللاتينية أن تندثر ، فإنه لم يخش من الدولة الرومانية أن تضمحل وتزول ، لأن النتائج السياسية التى ترتبت على ما أصاب البناء الاجتماعى من عظيم التغير والتطور بسبب الهجرات الجرمانية لم تكن مفهومة لديه .

والواقع أن السكان الأصليين من أهل غاليا الرومانية نظروا إلى معظم القوط الغربيين وكثير من البرجنديين كأنما هم أداة ألقت بها الصدفة فى أيديهم لخدمة ما عسى أن يتأتى من أغراضهم المستقبلة ، لا أعداء يجب العمل على محاربتهم وإخراجهم من البلاد ، وذلك بعد أن تغلب هؤلاء وأولئك على المتاعب التى نشأت عن أوضاعهم الجديدة . بل ظن بعض كبار النبلاء من الرومان فى غاليا أن باستطاعته إذا شاء أن يصل إلى العرش الإمبراطورى بمعونة أولئك المتبربرين وملوكهم ذوى الملابس الجلدية والرطانة الخشنة ؛ وخال بعض المعاصرين أن الجيوش القوطية والبرجندية تستطيع حماية الدولة الرومانية ، فضلا عن قدرتها على توسيع رقعة الإمبراطورية ، بدليل ما قام به الملك واليا — بناء على أمر الإمبراطور هونوريوس — من الزحف بالقوط الغربيين إلى إسبانيا ، واسترجاعه الجزء الأكبر من شبه الجزيرة من أيدى السويڤى والوندال واللان . ودليل آخر ما حشد القائد الرومانى إتيوس من قوات القوط الغربيين والبرجنديين وغيرهم من سكان غاليا فى القرن الخامس الميلادى ، لمحاربة الملك أتيلا وقومه من الهون ، حيث مات ملك القوط الغربيين قتيلا فى ميدان الدفاع عن الإمبراطورية ، ولولا جيشه الذى ألقى به فى تلك الحرب لما انتهى الأمر إلى هزيمة الهون .

والخلاصة أن تاريخ غاليا فى القرن الخامس الميلادى — وإن افتتح بسلسلة طويلة من حوادث النهب والخراب — شهد كذلك شيئاً من المهل والإبطاء نحو الظلمة العقلية التى كادت ترين وقتئذ على المجتمع الأوربى ، بسبب الحروب ، لأن القوط الغربيين والبرجنديين برهنوا على أنهم أحسن مما توقع منهم الناس ، إذ بقيت المدارس مفتوحة للتعليم ، وظلت المحاكم تستقبل المتقاضين والمحامين ولم ينقطع النبلاء عن نظم الشعر ، ولم يحدث ما يمنع الأساقفة من رعاية أهل كنائسهم . والواقع أن الكنيسة الكاثوليكية لم تجد ما يدعو إلى الشكوى من قيام مملكتين أريوسيتين فى غاليا ، حتى إذا صار يورك (٤٠٠ — ٤٨٦ م) ملكاً على القوط الغربيين انقلبت سياسة التسامح الدينى التى اتبعها أسلافه إلى نوبة من الاضطهاد الشديد ضد الكاثوليك ، بسبب ما جبل عليه يورك من التشدد والتعصب للمذهب الأريوسى . وإذا عُدّت أغلاط ذلك الملك وأحصى التاريخ عليه أنه كان أشد ملوك القوط الغربيين بطشاً وبغياً ، وأنه هاجم البريتون أصحاب إقليم بريتانى بفرنسا الحالية حبّاً فى البطش والبغى ، وأنه أخضع بجبروته إقليم أوفرن الذى بقى موالياً للدولة الرومانية فى غاليا ، فإن هذه الأغلاط جميعاً لا تقاس إلى إمعانه فى اضطهاد الكاثوليك فى بلاده . والدليل على صحة ذلك القول أن القوط الغربيين خسروا ما اكتسبوا من المحبة بين الناس من أهل أقطانية بسبب الاضطهاد ، حتى إذا توفى الملك يورك سنة ٤٨٦ م ، واندحر جيش القوط الغربيين أمام الفرنجة الكاثوليك عند ڤوييه سنة ٥٠٧ م كما تقدم ، وقف الناس من أهل غاليا الجنوبية قاطبة ينظرون إلى ماحدث فى كثير من الارتياح .

وقبل ذلك بثمان وسبعين سنة نزلت بالدولة الرومانية كارثة مروعة فى إقليم لم يكن لأحد على بال ، وذلك أن ولاية إفريقية التى كانت مصدراً رئيسيّاً للغلال الضرورية لروما ، ومقرّاً لحضارة رومانية زاهرة ، أضحت هدفاً لأطماع ملكين قوطيين ، وهما ألارك وأخوه واليا . ثم لم تلبث هذه الولاية الإفريقية أن غزيت على يد الوندال من إسبانيا ، تلبية لرغبة حاكمها الرومانى ، فكانت كارثة ليس بعدها كارثة على الإمبراطورية الغربية وهى فى أسوأ

حال من الضعف . وأخذ الوندال يتدرجون من قوة إلى قوة ، تحت زعامة جنزريق أقدر الملوك المتبربرين فى عصره ، فاستولوا على قرطاجنة سنة ٤٣٩ م ، وأنشأوا لأنفسهم أسطولا بحرياً، ولم يمض إلا قليل حتى أصبحوا أعظم قوة بحرية فى غرب البحر المتوسط ، وأمست الدولة الرومانية — لأول مرة منذ الحروب البونية فى القرن الثالث قبل الميلاد — تحت رحمة بحرية تفوق بحريتها ، وتستطيع أن تنزع عنها صقلية وسردانية وقورقشة ، وأن تنقل إلى إيطاليا جيشاً من الوندال الظالمين ، ليفسدوا فى روما ويمعنوا فيها نهباً وسلباً ، وقتلا وتخريبًا . ولم تجد أنواع المعاهدات والمفاوضات فى تحويل أولئك المتبربرين الأريوسيين إلى أحلاف تعتمد الدولة الرومانية على صداقتهم أو مؤازرتهم المعنوية على الأقل ، وذلك برغم ما دأبت عليه الحكومة من تساهل فى شروط المعاهدات التى عقدتها معهم من سنة ٤٣٥ إلى ٤٤٢ م ، لأن الوندال كانوا من المفسدين الذين دمروا كثيراً ولم يعمروا شيئاً ، فلم يتخلف عن حكمهم الذى ظل مائة من السنين بأفريقيا سوى ذكريات الخراب . على أن لظهور الوندال فى ميدان الحوادث الأوربية أهمية بالغة ، إذ اضطرت الدولة الرومانية إلى بعثرة قواتها العسكرية بإيطاليا لمحاربة أولئك القراصنة الخاسرين ودولتهم التى استقرت بأعظم الأقاليم الإمبراطورية إنتاجاً للغلال ، وذلك حين بات من الضرورى أن تكون جميع تلك القوات مركزة ضد الزحف الجرمانى على غاليا . وترتب على ذلك نتائج خطيرة ، منها ضياع غاليا نهائيًا من يد الدولة الرومانية ، وانسحاب آخر حامية رومانية من بريطانيا سنة ٤٤٢ م ، واستيلاء السكسون على الجنوب الشرقى من الجزيرة البريطانية ، ومهاجرة الكلتيين أهل الأقاليم الجنوبية الغربية من الجزيرة فراراً من السكسون إلى جهات أرموريكا التى سميت منذئذ بريتانى تحريفاً من اسم بريطانيا القديم .

أما المغول أو الهون الذين جاء غزوهم لشرق أوربا فاتحة لتلك السلسلة الطويلة من حلقات المحنة التى مزقت الإمبراطورية الرومانية فلم تكن قصتهم قد تمت أو انتهت بما أحدثوا من الدمار والفزع أواخر القرن الرابع الميلادى[١].

(١) انظر ما سبق ، ص ٣٥ — ٣٦ .

ذلك أن الإمبراطورية لجأت – منذ حلول الجرمان ببعض الأقاليم الرومانية – إلى سياسة التجنيد لجيوشها من أشد أولئك الجرمان عنفاً وقوة ، فاستخدمت الفرنجة للدفاع عن حدودها على نهر الراين سنة ٤٠٧ م ، واستعملت الهون لهدم مملكة برجنديا وعاصمتها فورمز سنة ٤٣٥ م غير أن تلك السياسة التى لا تعدو أن تكون حيلة مؤقتة غير ناجحة ، لم تضمن للدولة حماية حقيقية ضد شهوات الأمم الجائعة التى ضاقت بأحوالها الاقتصادية وأهلها المكثرين ، حتى إذا توسط القرن الخامس الميلادى ، بدا الخطر الداهم للإمبراطورية من ناحية الهون الذين برهنوا قبل ذلك ببضع سنين على أنهم أحلاف ذوو قيمة وبأس شديد . وخلاصة ما حدث أنه قام بين أولئك الهون ملك اسمه أتيلا ، وهو أحد القليلين من الأفراد الذين يملأون مسرح التاريخ من حين إلى آخر ، فيقررون مصائر جنس من أجناس البشر ، أو يروّعون العالم بما يأتون من مظاهر العنف أو السلطان . وبفضل ذلك الملك أتيلا نجح الهون فى السيطرة التامة على جميع الجهات الممتدة من نهر الراين إلى جبال الأورال تسعة عشر عاماً كاملة (٤٣٥ – ٤٥٤ م) ؛ فدفعت لهم الإمبراطورية الشرقية جزية سنوية ، وخضعت لهم قبائل الجرمان من الجبيديين والقوط الشرقيين ، والروجيين والسكْريين ، وغيرهم من سكان أوربا الوسطى ، بل صارت تلك القبائل لهم طوع ما يؤمرون به ، حتى إنهم تأثروا بطباعهم وسلوكهم .

وسرى حال من الذعر لخضوع ذلك الجمع الهائل من الهون والجرمان وغير الجرمان لحكم ملك واحد غير هياب مستهتر جبار ، وأقبل الناس بعضهم على بعض يتساءلون عمن سوف يقع بعد ذلك تحت الصاعقة ، وجاء الجواب وفصل الخطاب حين عقد الملك أتيلا النية سنة ٤٥٠ م على أخذ الدولة الرومانية فى الغرب أخذ عزيز مقتدر ، بعد أن وضح له أنها لا بد فريسة سهلة ، ما دامت تحت حكم الضعيف فالنشيان ابن أخت الضعيف هونوريوس .

وهنا برهنت الحوادث برهانها على الفرق الكبير بين مجرد الشجاعة

والخطة الحربية ، كما دلت أوضح دليل على أن الاعتداد بكثرة العدد لا يوازى شيئاً بجانب الاستناد إلى المهارة العسكرية فى تنظيم القتال ، وأن التماسك السياسى الصحيح أهم كثيراً من الاعتماد على ما لاسم أتيلا من جاذبية وروعة . ذلك أن أتيلا لم يرق إلى مرتبة القادة العظماء فى التاريخ ، ولم ترق جموعه المختلفة إلى مرتبة جيش برغم أعدادها الهائلة ، ولم تستطع سيطرته الشخصية أن تصبح بديلا من النظم التى تحتاج إليها دولة من الدول . ولذا انهارت الغزوة الهونية فى غاليا سنة ٤٥١ م حين قرر أتيلا الرجوع من حيث أتى عن أن يهاجم مدينة حصينة منيعة مثل أورليان ؛ وجاءت الهزيمة التى نزلت بالهون عند مدينة تروا مصداقاً لما وضح قبل ذلك من نتيجة للقتال . ولم يدل غزو الهون إيطاليا فى العام التالى على شىء من سداد الرأى عند أتيلا ، ولم يلبث الهون أن انسحبوا فى سرعة ملحوظة إلى شمالى جبال الألب ، بعد أن عاثوا نهباً وسلباً بإيطاليا مدة قصيرة . وكانت تلك السرعة مما أدى بالناس إلى الاعتقاد بأن انسحاب الهون إنما جاء بفضل تدخل أسقف روما لدى أتيلا ، لا بسبب تفشى المرض بين جموعه ، فضلا عن نفاد الأقوات ، ووصول الخبر باقتراب جيش زاحف لنجدة إيطاليا من ناحية الدولة الرومانية فى الشرق ، ثم لم يك بعد ذلك إلا عامان حتى أمسى أتيلا ممدداً فى رمسه ، وتمزقت إمبراطوريته فى وقعة نيداو سنة ٤٥٤ م ، نتيجة لثورة أفصالها وأتباعها من الجرمان .

ومن ثم أخذت أوربا الغربية تصطبغ بالصبغة الجرمانية فى غير انقطاع ، فتدفق القوط الشرقيون إلى شبه جزيرة البلقان ، وخلقوا بأعمالهم المضطربة الصاخبة مشكلة مشابهة لتلك التى استنفدت حيلة الإمبراطورية الشرقية قبل ذلك بمائة من السنين . وفى إيطاليا اختتمت سلسلة أشباح الأباطرة بإمبراطور صبى مسكين شاءت سخرية الأقدار أن يكون اسمه روميلوس أوغسطيلوس ، وهو الذى خلعه أدوآكر زعيم الجرمان الروجيين ورئيس القوات العسكرية بإيطاليا ، سنة ٤٧٦ م . على أن الثورة العسكرية التى قام بها ذلك الزعيم لخلع آخر الأباطرة من الرومان بالغرب لم تكن بدعاً

فى تاريخ الإمبراطورية ، بل سبقت ثورته هذه سوابق مشابهة كثيرة . ولو شاء أدوآكر أن يعلن نفسه ملكاً لما اعترض عليه معترض ، لأن آتولف وخلفاءه من القوط الغربيين فعلوا مثل ذلك قبلا ؛ ولو أنه شاء السيطرة على إيطاليا عن طريق المطالبة بثلث الأراضى الإيطالية لجيوشه ، لقام بإحياء مبدأ الضيافة الذى طبقته الدولة الرومانية فى برجنديا وأقطانيا منذ عهد غير بعيد ، وإذا أُخِذ عليه أنه خلع روميلوس بغير حق ، فإن الإمبراطور الصبى كان مغتصباً غير معترف به من القسطنطينية ، بل غفرت القسطنطينية لأدوآكر فعلته غفراناً جميلا ، بأن أنعمت عليه برتبة البطارقة . أما الناحية الجديدة فى هذا الحادث فليست لمجرد أنه خطوة ثورية جريئة ، بل لأنه فعلة محافظة متصونة . ثم رفض أدوآكر أن يعين خلفاً لروميلوس ، ظنًّا منه أن إمبراطورية متحدة تحكمها القسطنطينية — كما كان الحال زمن ثاوادسيوس — سوف توجد له مجالا أوسع مما لو اقتصر أمره على إيطاليا ؛ وبقيت تلك الوحدة حقيقة ماثلة من الناحيتين المادية والنظرية حتى توج شارلمان إمبراطوراً فى الغرب ، سنة ٨٠٠ م .

أما المرحلة التالية من تاريخ تلك القرون الأولى ، فتمتاز بظهور شخصيتين متبربرتين عظيمتين ، وهما ثيودوريك ملك القوط الشرقيين ، وكلوفس ملك الفرنجة البحريين ، إذ أسس الأول مملكة قوطية قصيرة العمر بإيطاليا ، وأنشأ الثانى مملكة الفرنجة التى عاشت طوال العصور الوسطى ، وتولدت منها مملكة فرنسا فى التاريخ الأوربى الحديث . وشابه كل من هذين الرجلين المحنكين الآخر فى موقفه السياسى من الدولة الرومانية ، بإعلان كل منهما بقاء السلطة الإمبراطورية فى إقليمه ، وإن بدا هذا الموقف أوضح فى سياسة ثيودوريك منه فى سياسة كلوفس ، يوضح ذلك أن ثيودوريك جاء إلى إيطاليا للقضاء على أدوآكر بناء على أمر الإمبراطور زينون ، ولم يعتبر نفسه مدة حكمه الطويل (٤٩٣ — ٥٢٦ م) ملكاً قوطيًّا فحسب ، بل موظفاً إمبراطوريًّا كذلك ، على حين اكتفى كلوفس بالحصول على تقليد من الإمبراطور أنسطاسى باعتباره قنصلا شرفاً ، وهو لقب يحمله أصحاب المقام الرفيع والمراتب

العالية فى الدولة الرومانية . بيد أن ثمة فرقاً دقيقاً جعل لكل من الرجلين مصيراً خاصًّا ، لأن ثيودوريك - وهو بلاريب الشخصية الأقوى والأكثر أهمية عند المقارنة بين الرجلين - عاش ومات أريوسى المذهب ، على حين اعتنق كلوفس الكاثوليكية ، ونادى بأنه فى سبيل الكاثوليكية من المجاهدين ، بعد أن صار ملكاً على الفرنجة ؛ وإلى ذلك الفرق الدقيق يرجع السبب فى فشل ثيودوريك بدولته القوطية فى إيطالية ، ونجاح كلوفس فى تأسيس دولة فرنجية ثابتة الأركان والأوتاد بأرض غاليا .

على أن الفشل الذى مُنى به ثيودوريك وتجربته فى إيطاليا يدعو إلى شىء من التأمل والالتفات ، إذ يبدو ذلك الرجل فى القصص الجرمانى زعيماً كبيراً بين القبائل الجرمانية ، فتسميه أشعارهم ديتّريخ البرنى ، وتصوره قصائدهم كأنه أخيلوس فى إلياذة جرمانية الأصل ، يصول بشخصيته ويجول فى عصر عاصف لن تنسى ذكره الأيام . وارتأى فيه تلك الزعامة ملوك الدول الأريوسية من الوندال والقوط الغربيين والبرجنديين ، فدخل كل منهم فى حلفه ، وصار هو بينهم فيصلا يرجع إليه فى الخصومات . ومن المعلوم أن مثل ذلك التقدير - لو كان نظريًّا - لا يتحتّم أن يكون كله تقديراً خاطئاً ، فإن أعمال ثيودوريك وشخصيته اتسمت بشىء غير قليل من العظمة والضخامة ، مما غفر له كثيراً من عيوبه ورذائله ، ورجح موازينه ضد ما اتصف به من الجهل والأمية والقسوة والمكر . ذلك أنه قاتل أدواكر وجنوده الروجيين قتالا شديداً ، ثلاثة أعوام متوالية ، حتى خلص إيطاليا من ذلك النير ، وبفضله تمتعت البلاد الإيطالية بسلام ذهبى ستة وثلاثين عاماً . بعد أن وسع حدودها ، وأحاطها بسياج من الدبلوماسية الواقية ، وظفر لها بجملة من الأقاليم المجاورة مثل بروفانس الحالية ، وجنوب ألمانيا والتيرول ، وجزء من المجر ودالماشيا ، فضلا عما أحياه لها من السيادة الاسمية على إسبانيا . على أنه من المحتمل أن ثيودوريك لم يصل إلى ما وصل إليه من ضخامة وبطولة قصصية ، لولا أنه قام فى إيطاليا - وهو الجرمانى الذى اكتملت فيه صفات جنسه - كأنه حاكم رومانى ، وجعل منها مركزاً

لمشاريعه الحربية المترامية .

ولا تزال مدينة رافنا الجميلة بموقعها تحفظ قبر ثيودوريك ملك القوط الشرقيين ، كما تحفظ الكثير من شهير آثار عصره . وفى تلك المدينة التى صارت عاصمة لمملكة القوط الشرقيين اصطبغ البلاط والديوان بالصبغة اللاتينية ، ونعم مجلس الشيوخ الرومانى برعاية ثيودوريك واحترامه ، كما نعمت الآثار الإيطالية القديمة بدائب عنايته واهتمامه . ولم يدر بخلد ثيودوريك فى يوم من الأيام أن يفرض اللغة القوطية على إيطاليا ، ولم يتعمل أن يغير فى القانون أو الحكومة أى تغيير ، أو أن يدعو إلى إسراع الخطى فى المزج بين القوط والإيطاليين ، أو أن يسىء إلى الأوضاع الدينية فى روما ، بل إنه لم يصدر تشريعاً أو يضرب نقداً إلا وعليه اسم الإمبراطور . ثم إنه أصلح السقايات المرفوعة بروما وغيرها من البلاد ، وأبقى وظائف تدريس النحو والخطابة ، كما أبقى القوانين الإمبراطورية التى حرمت الزواج المختلط بين الرومان وغير الرومان ، وصفوة القول أن ثيودوريك سار فى حكمه سيرة حميدة ، حتى إذا كانت أواخر أيامه عمد إمبراطور القسطنطينية جستين الأول إلى سياسة اضطهادية ضد الأريوسيين ببلاد الدولة الرومانية فى الشرق ، فثار ثيودوريك لإخوانه ، وكشر عن أنيابه غضباً من الاضطهاد الإمبراطورى ، وارتكب جريمة انتقامية أساءت إلى ذكرى كل أعماله الجليلة ، حين أمر بإعدام أمينه بوئيشيوس خاتم الفلاسفة والشعراء الأقدمين ، وصاحب كتاب « سلوى الفلسفة » (Consolatione Philosophiae) الذى يعد من خيرة الكتب المعروفة فى العصور الوسطى ، كما يعد صاحبه من أولى الفضل على كافة البشر ، مما جعل قتله سنة ٥٢٥ م وصمة فى جبين ثيودوريك .

أما كلوفس مؤسس البيت الميروفنجى والدولة الميروفنجية الفرنجية ، فيمتاز عهده (٤٨١ — ٥١١ م) بثلاثة انتصارات حربية حاسمة ، وهى انتصاره عند سواسون سنة ٤٨٦ م على القائد الرومانى سياجريوس الذى سمى نفسه ملك الرومان فى غاليا ، ثم انتصاره على الألمانى فى الألزاس بعد ذلك

بعشر سنين ، ثم انتصاره على ألاريك ملك القوط الغربيين عند ڤوييه القريبة من بواتييه الشهيرة سنة ٥٠٧ م . وموضع الأهمية الحقيقية لهذه الأحداث الثلاثة أن كلوڤس أعقب كلا منها بخطوة جريئة نحو تأسيس دولة فرنجية فى غاليا ، إذ نقل عاصمته من سواسون إلى باريس ، بعد تغلبه على ذلك القائد الرومانى الذى ظن أن باستطاعته صون السيادة الرومانية فى غاليا بعد حلول الجرمان ، ثم تحول عن الوثنية إلى الكاثوليكية بعد ظفره بالألليمانى ، ثم مد أطراف مملكته إلى جبال البرانس بعد أن قذف بمعظم القوط الغربيين أعدائه إلى إسبانيا ، ليتخذوا منها مقراً لدولتهم . غير أنه سواء كان مرجع الفضل فى اعتناق كلوفس المسيحية إلى زوجه الكاثوليكية ، وهى الأميرة البرجندية كلوتيلدا ، أم إلى اعتقاده بأن المسيح نصره على الألليمانى ، أو إلى تقديره الثاقب لما سوف يترتب على مسيحيته من نتائج سياسية ، فكل ذلك لا يساوى شيئاً بالقياس إلى الحقيقة الكبرى ، وهى أن زعيم الفرنجة البحريين — أصحاب الصيت الذائع بين القبائل الجرمانية — جميعاً — صار بطلا من أبطال المسيحية الكاثوليكية ، سنة ٤٩٦ م ، أى قبل أن يختتم القرن الخامس الميلادى .

ومعنى ذلك أن الدماء التى أريقت فى حروب كلوفس ضد الألليمانى ببلاد الألزاس ، كانت كماء التعميد الدينى للحلف الطويل بين الملكية الفرنجية والكنيسة الكاثوليكية ، وهو الحلف الذى دام ألفاً وثلاثمائة من السنين ، ولم ينته إلا سنة ١٨٣٠ م ، أى فى القرن التاسع عشر الميلادى ، عندما فرّ آخر الملوك من أسرة البربون من وجه الثائرين ضد الملكية البربونية الرجعية بباريس . والواقع أن ذلك الحلف آذن إيذاناً بعصر جديد فى تاريخ غاليا والتاريخ الأوربى معاً ، إذ بفضله سادت المسيحية الكاثوليكية فى البلاد الممتدة من البحر الأبيض المتوسط إلى بحر المانش ، ومن المحيط الأطلنطى إلى نهر الراين ؛ ورضى كلوڤس — مع أنه ملك متبربر قبل كل شىء — أن تكون الحكومة فى مملكته تحت إرشاد الكنيسة ، وأن تصبح أداتها الأساقفة والدوقات والمدن ، وهو كل ما خلفته الدولة

الرومانية لفرنسا فى العصور الوسطى . وبعبارة أخرى صار الملك المتبربر زعيماً بالقيام على شئون كنيسة مجاهدة ؛ وليس أدل على ذلك من العبارات التى نسبها أحد المؤرخين إلى كلوفس وهو فى طريقه إلى حرب القوط الغربيين ، إذ قال : « يحزننى أن أرى أولئك الأريوسيين ملوكاً فى جزء من غاليا ، فهلموا معى إلى مهاجمتهم وقتالهم بعون الله ، حتّى إذا انتصرنا صارت لنا أرضهم » . وكأنما نسمع فى تلك العبارات صوت نذير للنداء الذى دعا الفروسية الفرنجية للحروب الصليبية أواخر القرن الحادى عشر الميلادى ، وآذن بالقضاء على الهراطقة الألبيجنسيين أوائل القرن الثالث عشر الميلادى ، وأدى إلى هجرة الهيجونوت من فرنسا فى القرن السابع عشر الميلادى ، وهى الهجرة التى غنيت بسببها البلاد البرتستانتية بأوربا غناء روحيًّا واقتصاديًّا غير قليل .

وسلفت الإشارة إلى ما كان من نتائج الموجة الجرمانية فى غاليا منذ أوائل القرن الخامس الميلادى ، وهو قطع الصلة بين ولاية بريطانيا والدولة الرومانية . غير أن روما لم تتخل عن تلك الولاية تخلياً رسميًّا ، ولم تتخذ قراراً بالجلاء عن أرض ظلت طوال أربعة من القرون مصدراً للثروة ، ومدعاة للفخر ، بسبب ما أقامه الرومان فى أرجائها من طرق معبدة ، ومدن عامرة ، وضواح بهيجة ، فضلا عما وجدوه بها من رقيق وافر ، ومعادن كثيرة ، وزراعات جمة ، ومصحات ذات مياه طيبة ، وأضحال زاخرة بأنواع الأسماك المحارية الشهية . والحقيقة أن قطيعة الولاية البريطانية جاءت نتيجة لحوادث لم يكن لروما عليها سلطان . بل ترك البريطانيون وشأنهم للدفاع عن أنفسهم بما استطاعوا من وسائل الدفاع ، فلم يلبثوا أن تهدموا قبالة الخطر المحدق بهم من ناحية البكتيين والإسكتلنديين فى الشمال ، وناحية القراصنة من السكسون الجرمان فى الجنوب . أما المقاومة التى استطاع البريطانيون أن يبذلوها ضد ذلك الخطر المزدوج ، فلا سبيل إلى معرفة درجاتها من الشدة ، أو مدتها من الزمن ، إلا عن طريق الحدس والخيال ، لأنه ليس يوجد من أخبار بريطانيا فى تلك المحنة إلا النزر القليل .

والواقع أن ما حدث فى بريطانيا خلال المائة والخمسين من السنوات التى تصرمت بعد انفصالها النهائى عن روما ، ووصول القديس أوجسطين إلى شواطئها سنة ٥٩٧ م ، يكتنفه الغموض الذى ليس بعده غموض ؛ فلا حوليات معاصرة ولا وثائق ، ولا أى بصيص من النور الذى يهدى الأبصار ، وكل ما هنالك أن معاول الحفر العلمى كشفت عن آثار حرائق واسعة فى كثير من المدن الهامة ، مثل كانتبرى مما يؤدى ، إلى ترجيح النضال الشديد بين الغزاة والبريطانيين ، كما يؤدى إلى غير ذلك من الاستنتاج والتعليل . أما الحوليات الإنجلوسكسونية ، وهو كتاب يرجع تأليفه إلى زمن متأخر بالقياس إلى ذلك العصر البعيد ، فإنه يشغى بكثير من الخرافة الساذجة ، حتى إن الباحث فى أجزائه التى تشتمل على حقائق سليمة ، لا يسعه إلا أن يرتاب كذلك فى تلك الأجزاء . وإذاً فليس من المستطاع أن نصور الحوادث التى وقعت فى ذلك العصر المظلم أو نرتب سلسلتها ، وإنما يحتمل أن الغزاة هاجموا بريطانيا هجوماً عاصفاً خرب البلاد ، وأحرق المدن ، ودمر السكان قتلاً وأسراً ، وطارد من نجا منهم غرباً وشمالا بغرب ، حتى إذا هدأت العاصفة ، وعادت السكينة إلى البلاد ، عاد الناس إلى حياة زراعية مستقرة . غير أنه لاسبيل إلى الجزم بشىء من ذلك كله ، ما خلا النتيجة ، إذ ينجاب الظلام عن بريطانيا بمقدم القديس أجسطين ، فتبدو وقد تغيرت معالمها بعد أن صارت سكسونية وثنية ، وبعد أن صار اسمها إنجلترا .

وذلك التغير العجيب الدال على امتحان الجزر البريطانية بكارثة عظيمة غير معروفة التفاصيل ، لا يتعارض مع احتفاظ بريطانيا بالأجناس البشرية التى لقيها يوليوس قيصر وكاوديوس فى أرجاء الجزيرة إبان الفتح الرومانى القديم . وأول أولئك الأجناس جنس الأيبريين السمر الذين ترجع أصولهم ترجيحاً إلى العصر الحجرى الحديث ، ويليهم الكلتيون الجيليون (Gaelic) سكان الجبال الإسكتلندية ، من ذوى الشعر الأصهب والأسلحة المصنوعة من البرونز ، وهؤلاء يليهم الكلتيون البريتونيون (Brythonic) الذين استقروا ببلاد الغال وكورنول ، وعرفوا بأسلحتهم المتخذة من الحديد . كل هؤلاء

وأولئك لم يذهبوا مع الريح ، أو تقضى عليهم الكارثة ، بل هم لا يزالون عنصراً من العناصر التى يشتمل عليها سكان الجزر البريطانية . أما الذى قضى عليه الفتح السكسونى ومحاه محواً ، فهو ما كان لروما من دلائل السيطرة والسلطان فى بريطانيا – أى اللسان اللاتينى ، والديانة المسيحية ، والمدن الكبيرة ، والنظم الرومانية .

ومهما كان من شىء ، حلّ ببريطانيا بعد أن ذهبت عنها صفة التبعية للإمبراطورية الرومانية مجتمع جرمانى بدائى يقوم على الزراعة ، ويعبد إلهاً اسمه أودين ، ويتكلم لغة جرمانية صرفة ، ويعيش عيشة مختلفة كل الاختلاف عما ألفه سكان المدن البريطانية على عهد الدولة الرومانية . وذلك لأن أجناس الجوت والسكسون والإنجليز – وهى الأجناس التى بدت ثابتة الأوتاد بأرض إنجلترا فى بداية القرن السابع – لم تكن تأثرت بشىء من المدنية الرومانية قبل مجيئها بريطانيا أو بعده ؛ ولذا سكنت تلك الأجناس القرى والكفور دون المدن ، وزرعت الأرض زراعة الحصص المبعثرة حسب نظام الحقول الثلاثة[1] ، وحفظت بمحاكمها الجزئية (Hundred Courts) جميع الظواهر الشعبية فى الحكومة والعدل بين الناس ، وهى الظواهر التى لفتت نظر تاكيتوس فى القرن الأول الميلادى . على أن انتصار تلك الأجناس على البريطانيين ، وفتحها لما فتحت من الأقاليم البريطانية ، غير ما بها تغييراً بالغ الأهمية ، إذ انقلب كل زعيم من زعمائها ملكاً متوجاً فى مملكة مستقرة ، وأخذ كل ملك من أولئك يرجع نسبه إلى إله من الآلهة ، ويستعين على شئون الحكم فى مملكته بمجلس من الراشدين اسمه الوتان .

غير أن أولئك الغزاة الجرمان لم يكونوا يداً واحدة إبان أيامهم الأولى فى إنجلترا ، برغم ما بينهم من صلة الوحدة والمجانسة فى الأصول والفروع ، ومرجع ذلك إلى المساحات الواسعة من المستنقعات والغياض التى فصلت بين قبائلهم ، وإلى الغابات الكثيمة التى صدتهم عن الاتصال بعضهم ببعض .

---

(١) انظر كوبلاند : الإقطاع والعصور الوسطى بغرب أوربا ، ترجمة زيادة ، ص ٦ ، ٢٨ (مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٦) .

مثال ذلك أن مصب نهر الهمبر فى القرن السابع الميلادى حجز بين الشمال والجنوب من إنجلترا ، أكثر مما تحجز جبال البرانس بين فرنسا وإسبانيا فى العصر الحاضر ، وأن إقليم إيست أنجليا الحالى بدا وقتذاك جزيرة تحيطها الغابات والغياض ، وأن جهات الأندروزويلد التى غشيتها الغابات والمستنقعات فصلت تماماً بين ما يعرف الآن فى إنجلترا باسم التلال الشمالية والتلال الجنوبية ، ومن ذلك يتضح أن بلاداً معاثرها الطبيعية على درجة من الكثرة مثل إنجلترا ، لا تستطيع أن تصبح دولة متحدة إلا بعد حين يستغرق أجيالا من ذرارى غزاتها الأولين ، بل يتطلب الأمر حيناً وحيناً قبل أن يستطيع ملك من ملوكها المحليين أن يجعل منها مملكة واحدة . ولذا امتلأت أوائل تاريخ ذلك الجزء الذى نزل به الإنجليز والسكسون من الجزر البريطانية — أى إنجلترا — بسلسلة من الحروب المهلكة بين مجموعات مختلفة من أولئك الغزاة الذين ساعدتهم جغرافية البلاد على تكوين عدد من الدول ، فإذا نهضت إحدى تلك الدول حتى أصبحت الغالبة على سائر البلدان ، فلا تلبث أن تهوى حتى تمسى مغلوبة . ومثال ذلك دولة الجوتيين الصغيرة بمقاطعة كنت الحالية — وهى جنة إنجلترا منذ القديم ، وأعظم أجزائها تقدماً فى الحضارة — إذ شهدت تلك المملكة أعز أيامها زمن الملك إثلبرت صديق القديس أوجسطين ، ثم ما عتمت حتى صارت فى خبر كان ؛ وكذلك مملكة نورثمبريا التى دبت فيها الحياة بفضل اتصالها بالمسيحية الكلتية ، فإنها ظلت صاحبة السيادة على سائر الدول السكسونية حتى سنة ٦٥٨ م ، ثم ما لبثت أن نزلت عن مكانها لمملكة مرسيا حتى وفاة الملك أوفا سنة ٧٩٦ م . وظلت إنجلترا على ذلك النحو من المنافسات والمتنازعات الداخلية حتى جاء الدانيون من بلاد الدانمرك ، فبدءوا صفحة جديدة فى التاريخ الإنجليزى .

وفى تلك الأثناء دخلت إنجلترا مرة أخرى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية ، وهنا لم يكن التحول عن الوثنية إلى المسيحية راجعاً إلى شىء من التوبة المنبعثة من القلوب ، بل كان مرجعه ضغط الملوك وخضوع الرعايا وقنوعهم بما شاءه لهم ملوكهم من الدين ، فتبع أهل مملكة كنت ملكهم إثلبرت ، وحذا حذوهم

أهل نورثمبريا وإيست أنجليا ومرسيا ووسكس ، وصار جميع الناس على دين ملوكهم ، ورضوا بفضل ما جبلوا عليه من طاعة واستسلام أن يأخذوا إيمانهم وطقوسهم الدينية مما تريدهم عليه الحاشية الملكية والبلاط .

على أن ظاهرة التكلف والسطحية التى اتصف بها تحول إنجلترا إلى المسيحية ، لم يقلل مما لذلك التحول من أثر عميق بعيد الغور فى تاريخ الإنجليز ، إذ ارتبطت إنجلترا مرة ثانية بالعالم اللاتينى ، فتعلمت من جديد ما للقوانين المكتوبة من مزايا فى تثبيت أحوال البلاد والناس ، وصارت لهم نظم كنسية مرتبة على نسق النظم الإمبراطورية الرومانية أدق ترتيب . والدليل الواضح على أهمية ذلك كله أن أول المجالس القومية التى عقدت بإنجلترا هى المجالس الكنسية . وأن أول مجموعة من القوانين العامة جمعت بمملكة كنت بإرشاد القديس أوجسطين . وفضلا عن هذا وذاك فإن تقسيم إنجلترا من أجل الإدارة الكنسية إلى أسقفيات ، ثم تقسيم الأسقفيات إلى أبرشيات ، إنما يرجع الفضل فيه إلى الرومان من رجال الدين . ولما كانت الأبرشيات أنبتت معظم ما للمجتمع الإنجليزى من خصائص ، وقامت فى الحياة الإنجليزية بدور كبير ولا سيما بالريف ، ففضلُ الرومان من رجال الدين على إنجلترا السكسونية لا ينكره إلا الجاحدون . ثم إنه مما يبرهن على فضل الرومان ، كما يدل فى وضوح على توفر الصفات العملية فى الجنس السكسونى أن المسيحية الكلتية التى انتقلت من جزيرة أيرلندا إلى جزيرة أيونا ، ومنها إلى إنجلترا عن طريق نورثمبريا بشمال إنجلترا ، لم تستطع أن تنافس المسيحية الرومانية الصارمة ، وهى فى طريقها سرباً من الجنوب . هكذا بدأت الثقافة اللاتينية تسرى من جديد فى أرجاء الجزيرة ، بفضل القسيس الرومانى الكاثوليكى وما اشتهر به من دقة فى تأدية ما يسند إليه من أعمال .

بعض المراجع لهذا الفصل

Collingwood (R.G.) : Roman Britain, 1921.

Dill (S.) : Roman Society in the Last Century of the Roman Empire, 1899.

Halphen (L.) : Les Barbares. (Vol. V, Peuples et Civilizations, ed. Halphen et Sagnac, 1926.)

Hodgkin (T.) : Theodoric the Goth, 1891.

Kluchevsky (V.) : History of Russia. Tr. Hogarth (C.J.). 5 vols. 1911-1931.

Lavisse (E.) : Histoire de France. Vol. V, 1903.

Oman (Sir Charles) : A History of England before the Norman Conquest. 1910.

Previté-Orton (C.W.) : Outline of Mediaeval History. 1924.

Ramband (A.) : Histoire de la Russie, 1884.

Trevel yan G.W.) : History of England, 1926.

الفصل الثالث

عصر جستنيان

الإيمان بضرورة الإمبراطورية الرومانية — الدولة البيزنطية — جستنيان وتيودورا — سياسة جستنيان نحو أوربا الغربية — استخلاص إيطاليا من القوط — نتائج الحروب القوطية — وجه الخطأ فى القضاء على المملكة القوطية — اللومبارديون — ضعف الإمبراطورية الشرقية عقب وفاة جستنيان — أسباب ذلك الضعف — القانون الرومانى — المذهب المنوفيزيتى وأثره فى الشرق — مدى الاستبداد والمحافظة فى سياسة الأباطرة .

ينظر المؤرخ الحديث إلى الغزوات والفتوحات الجرمانية على أنها هى التى أفضت إلى استبدال نظم الدولة الرومانية وإمبراطوريتها البائدة بنظم سياسية جديدة . غير أن المسيحيين الذين عاصروا كلوفيس وثيودوريك لم يروا ذلك الرأى فى تلك الغزوات والفتوحات ، إذ قال علماؤهم وفقهاؤهم وقتذاك بأن حدوثها نذير باقتراب العالم من المرحلة السادسة[1] ، وهى المرحلة الأخيرة فى الحياة الدنيا ، وأنه ليس بعد الإمبراطورية الرومانية إلا المسيخ الدجال ، والخراب الذى ليس بعده خراب ، لجميع الكائنات والأشياء . واستمع الناس إلى تلك الأقوال فى كثير من الرضى والاقتناع ، وبنى عليها القديس أوجسطين إبان القرن الخامس الميلادى عقيدته فى الوجود ، كما بنى عليها المؤرخ بيده فى القرن الثامن الميلادى نظريته فى مصير البشر . ومعنى ذلك أحد شيئين ، وهما : إما أن يعقب انتصارات المتبربرين عودة الروح إلى الإمبراطورية أو تعقبها القيامة ويوم الحساب ؛ على أن الناس استبعدوا أن

(١) يشير المؤلف هنا — فيما يبدو لى — إلى المراحل الست التى اصطلح عليها المؤرخون الكنسيون فى تقسيم طريق الآلام (via dolores) ، الذى سار فيه المسيح إلى موضع الصلب ، وهذا الموضع هو المرحلة السابعة عندهم ، وفى مدينة بيت المقدس الحالية لا يزال الطريق الذى يؤدى إلى كنيسة القيامة معروفاً بذلك الاسم ، وبتلك الأقسام . (زيادة) .

تفنى الإمبراطورية ويبقى وجه العالم حياً .

ولذا لم يكن عجباً أن يشهد القرن التالى لتلك الأحداث التى ألمت بغرب أوربا محاولة جدية لإعادة الإمبراطورية الرومانية سيرتها الأولى . ذلك أنه على حين تردى كل من إيطاليا وغاليا فى حال من القلق والاضطراب ، بدت الحكومة الرومانية ثابتة البنيان فى القسم الشرقى من الإمبراطورية ، بفضل موظفيها وجيوشها المأجورة ، وعلى الرغم من إغراق بلاطها الإمبراطورى فى الفساد والدسيسة ، وانتشار الرشوة مع المركزية بين الموظفين ، وانصراف أهل القسطنطينية وانقسامهم شيعاً لأحزاب ملعب السباق ، وعناد الكنيسة عناداً بالغاً فى القوة والمقدرة على المقاومة لأى شىء من رائحة الإصلاح ، بالإضافة إلى سلسلة من الأباطرة الذين استمدوا سلطانهم فى أغلب الأحيان من وراء المؤامرات وشغب الجند وصخب الدهماء ، على عكس الملوك المتبربرين الذين دأبوا على إسناد أحقياتهم فى الملك إلى أصول سماوية . ومعنى ذلك أنه على حين امتلأت البلاد الأوربية بأشكال وألوان من الاضطراب الشديد بدأت بالقسطنطينية وما حولها من الأقاليم مدنية مستقرة الدعائم ، تحدوها مسحة من الرياء والاستعلاء ، فضلا عن غطرسة السلوك والمكابرة ، وهى المدنية البيزنطية التى غالبت الفتوح اللاتينية والتركية وعاشت بعدهما ، ولم يغلبها على أمرها سوى عواصف القومية العثمانية فى العصور الحديثة .

والواقع أن الإمبراطورية الرومانية الشرقية حمت المسيحية البيزنطية ودافعت عن بيضتها مدة لا تقل عن ألف سنة ضد أعدائها الذين أحاطوا بها من كل ناحية ، برغم ما جرى عليها أثناء تلك المدة الطويلة من تقلب بين فترات من النصر الرائع المبين ، وفترات من الهزيمة التى أهوت بها إلى أسفل سافلين . ويكفى للتدليل على ذلك أن القوط والصقالبة ، والآفار والبلغار ، والفرس والعرب ، كل منهم هاجمها وأفسد فيها بدوره غاية الإفساد ، دون أن يقوى أحدهم على النيل من بنائها العتيد ، الذى ترجع أصوله إلى تالد العالم القديم ، إذ غالبت كل عاصفة من تلك العواصف ، ولم تتنزل قيد أنملة عن رومانيتها ، بل بقيت متعلقة بأوضاعها التى أذهبتها الأيام ، متمسكة بحقوقها القديمة ،

وهى الحقوق التى كان بها من القوة والحيوية ما كان كفيلاً بغلبها على العثمانيين فى العصور الحديثة ، لولا ما أحدثه الصليبيون اللاتينيون بها من الهدم والتخريب فى النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادى . والخلاصة أن هذه الدولة البيزنطية التى لم تكن رومانية إلا اسمياً ونظرياً فقط — لأنها فى الحقيقة والواقع يونانية شرقية — استطاعت على مر القرون أن تظل حافظة لمستوى من الدماثة الخلقية والثقافة اللامعة مثل لمع الذهب الوهاج ، وسط ما أحاط بها من دامس الظلام . وإذا حقّ لأساتذة التاريخ القديم والآداب القديمة أن يسخروا من البيزنطيين ومدنيتهم ، فمن الحق أن يذكر لأولئك البيزنطيين أنهم أصحاب الفضل فى نقل مبادئ الثقافة والمسيحية إلى صقالبة روسيا وشبه جزيرة البلقان ، وأنهم هم الذين علموا الكثيرين من الشعوب الآسيوية الهمجية طرق الحكم ونظمه فى الدول المستقرة .

تلك هى الدولة البيزنطية التى توفى إمبراطورها أنسطاسى سنة ٥١٨ م ، واعتلى عرشها من بعده جستين الأول ، وهو عسكرى أمى قديم ، لا يدرى من القراءة والكتابة شيئاً ، وقد بلغ من السن عتياً ، وليس له من الشهرة سوى أنه ولع فى أواخر أيامه ولعاً سيئاً باضطهاد الأريوسيين . ومولد جستين فى قرية توريزيوم القريبة من إيسكوب الحالية ، بإقليم إيلليريا القديم ، وهو الإقليم البلقانى الذى بقيت اللاتينية فيه لغة التخاطب بين الناس دون أقاليم البلقان . ولذا نشأ جستين — الريفى الأصل — عارفاً باللاتينية وصناعة الجندية التى مارسها ، جاهلا بكل ما عدا ذلك من الأشياء . غير أنه عاش حتى صار إمبراطوراً دون أن يعقب ولداً ، فتبنى ابن أخت له من إقليم إيلليريا كذلك ، واسمه جستنيان ، وهو ريفى النشأة مثله ، فجعله وريثاً له ، وعنى بتربيته وتعليمه على أحسن ما يكون أبناء الأباطرة من تربية وتعليم . ولم يلبث جستنيان أن أثبت جدارته بما بذله خاله الإمبراطور من عناية فى تنشئته ، إذ دل على مقدرة خارقة ، مع الدأب والدقة فى كل أعماله ، وتلك علامة من علامات القوة العقلية . ثم صار جستنيان الحاكم الفعلى فى الدولة إلى جانب خاله الإمبراطور ، فكان يُرى آناء الليل كادا فى قراءة الأضابير ،

مكبّاً على دراسة التقارير . أو يرى وهو يذرع أبهاء القصر الإمبراطورى جيئة وذهاباً كالطيف فى جنح الظلام . على حين نام جميع أهل القصر من الموظفين . وفى سنة ٥٢٧ م — أى بعد سنة واحدة من وفاة ثيودوريك ملك القوط الشرقيين بإيطاليا — خلف جستنيان خاله على عرش الإمبراطورية البيزنطية . وهو فى الخامسة والأربعين من عمره . بعد أن حنكته تجارب الحكم . وصهرته الخبرة بشئون الدولة . على أن خبرة جستنيان لم تقتصر على شئون الدولة وأمور الحكم فحسب . بل تعدتها إلى أحوال الناس بالقسطنطينية . حيث ألقى به العبث قبل اعتلائه العرش الإمبراطورى إلى مختلف الأحياء والبيوت . وأدى به البحث عن زوجة فى أزقة تلك الأحياء وأوساخها إلى العثور على امرأة دلت على أنها جوهرة غالية . تلك هى الإمبراطورة تيودورا . التى كان أبوها قبرصياً يشتغل بترويض الدببة لملعب القسطنطينية . وكانت هى قبل زواجها من جستنيان ممثلة وعاهرة كذلك . عركتها كثرة الرحلة وكثرة الشقاء . حتى جمعت فى شخصها كل صفة من الصفات التى تلصق بمهنتها وتجاربها . مما تشمئز منه نفوس الناس . غير أن تلك المرأة التى حيكت حول اسمها آلاف المخازى . وعرفت بعنف النزوة وحب الانتقام . برهنت على أنها على جانب من النبل . فضلا عما اتصفت به من الجمال والذكاء والشجاعة والسياسة والحنان . وآية ذلك كله موقفها من ثورة نيقا سنة ٥٣٢ م . حين صارت القسطنطينية ذات يوم فى أيدى الثائرين على جستنيان وسياسته المالية . وأيد الإمبراطور ومستشاروه فكرة الهرب من العاصمة . فتقدمت تيودورا وأنقذت عرش زوجها بقولها مخاطبة جستنيان : « أيها الإمبراطور ! إذا أردت أن يمد فى عمرك . فعليك بالهرب . وأمره يسير . فهاك سفنك ، وهاك البحر . ولكننى أرجوك أن تذكر إذا فزت بالهرب . ولذت بالمنى . أن سوف تقول طوال حياتك الطويلة : ياليتنى مت قبل هذا ! أما أنا فلن أحيد عن المثل القديم الذى يقول بأن العباءة الإمبراطورية خير الأكفان » . ولم تقل تقوى تلك المرأة عن شجاعتها . إذ يرجع الفضل فى إنشاء أول بيت فى أوربا لإنقاذ النساء الساقطات إلى هذه المرأة الساقطة ، التى شاركت

زوجها عرشاً إمبراطوريًّا ، وأسهمت فى سياسة الإمبراطورية بسهم كبير ، مدة إحدى وعشرين من السنين .

ودار محور السياسة الإمبراطورية منذ أوائل عهد جستنيان حول إعادة الدولة الرومانية سيرتها الأولى فى الغرب ، ومن أجل ذلك المشروع عقد الإمبراطور صلحاً سنة ٥٣٢ م ، مع أنو شروان — وهو كسرى الأول — ملك الفرس ، بعد ثلاث سنوات من الحروب الساجلة بين الدولتين البيزنطية والفارسية . وبذا استطاعت القوات الإمبراطورية أن تتحول إلى الغرب ، حيث بدأ جستنيان مشروعه بإنفاذ جيش تحت قيادة صديقه بليزاريوس — الذى دل على مقدرة عسكرية فائقة فى ثورة القسطنطينية والحروب الفارسية — لطرد الوندال من إفريقية . وأتم بليزاريوس مهمته فى معركتين حاسمتين بالقرب من قرطاجة ، عاصمة الوندال الأريوسيين الذين أفزعت أساطيلهم غرب البحر الأبيض المتوسط ، فلم تقم لهم بعد ذلك قائمة ، وعادت إفريقية اسميًّا على الأقل إلى تبعيتها الرومانية ، كما عادت إلى حظيرة الكاثوليكية . غير أن ما دار بخلد جستنيان من احتمال انتشار السلام الرومانى بين ربوع أفريقيا الشمالية لم يلبث أن كذبته الحوادث ، إذ هب أهل البلاد الأصليين من المغاربة الذين دوخوا الوندال من قبل ، وأخذوا يناوئون السلطات الرومانية الجديدة ، حتى سقطت الأقاليم الغربية فى أيديهم ، ولم يستطع الرومان أن يطمئنوا على ما بقى تحت حكمهم إلا بعد حربين طويلتين ، امتحنت فى أثنائهما مقدرات الأفذاذ البارزين من قادة الإمبراطورية .

وكيفما كان الأمر ، بدا للمعاصرين أن الإمبراطور انتصر انتصاراً مبيناً فاق الحسبان ، إذ استطاع بليزاريوس فى حملة لم تستغرق سوى ثلاثة أشهر أن يمحو دولة من دول الجرمان الأريوسيين من عالم الوجود ، وليس من المستحيل عليه إذا توافرت لديه الوسائل والأسباب ، وصحت عنده العزيمة لخدمة الدولة بما أوتى من موهبة حربية وقوة ، أن يقوم بمثل ما قام به ضد الوندال ، فيقضى على دولة أخرى من الدول الجرمانية . ولذا هدف مشروع جستنيان إلى دولة القوط الشرقيين بإيطاليا ، ولا سيما بعد أن فقدت تلك الدولة أحد

حكامها القادرين بمقتل الملكة أما لاثونسا ابنة ثيودوريك العظيم ، على يد الملك القوطى تيوداهات . الذى تزوجته الملكة لتستعين به على شئون الحكم فى إيطاليا بعد وفاة زوجها الأول ، فلم تلق منه إلا الوبال والموت الزؤام ، لأنها كانت معجبة بالمدنية الرومانية ، متصلة سرا بالبلاط الإمبراطورى فى القسطنطينية أشد الاتصال . ووجد جستنيان من ذلك الحادث ذريعة مواتية لتنفيذ ما انعقدت عليه نيته قبلامن غزو إيطاليا . فأنفذ بليزاريوس فى سبتمبر سنة ٥٣٥ م إلى صقلية ، على رأس جيش صغير عدته ٧٥٠٠ مقاتل .

وتلا ذلك نضال ظل ثمانى وعشرين سنة بين الإمبراطورية والدولة القوطية ، تناوب الرومان ثم القوطيون خلالها النصر ، وانتهى الأمر برجحان الكفة الرومانية ، إذ تغلب بليزاريوس أولا بمهارته على الرغم من قلة ما لديه من الجند ، فسقطت صقلية فى يده دون قتال أو ما يقرب من ذلك ، وسلمت له نابولى بعد حصار ، حتى إذا وصل إلى روما وجدها خالية مما يحميها ، فاستولى عليها واستطاع أن يصامد فيها سنة وتسعة أيام ضد الجيش الهجمى الكبير الذى زحف به الملك وتحبيس القوطى لمهاجمته ؛ وكل ذلك بفضل براعته فى حركات القتال ، واستعاضته عن قلة الجند مهارة الخيالة الثقيلة المزردة ، والسيطرة على البحر ، والحذق فى استخدام الرماة الراكبة ؛ حتى بدا كأنه حطم مقاومة عدوه تحطيماً تامًّا سنة ٥٤٠ م ، ولا سيما بعد أن أسر وتجيس . وسقطت رافنا فى أيدى الإمبراطوريين ، وعاد جنوب إيطاليا وأقاليمها الوسطى إلى حظيرة الإمبراطورية . ثم دار الحظ دورته ، بعد أن خيل للإمبراطور أن الدولة القوطية أمست فى خبر كان ، وبعد أن عاد القائد الرومانى مكللا بغار النصر إلى القسطنطينية . ذلك أن القوطيين وجدوا بين صفوفهم زعيماً موهوباً اسمه توتيلا ، وهو شاب جسور مغامر على جانب من المروءة والإنسانية ؛ فاختاروه ملكاً سنة ٥٤١ م ، واستطاعوا بفضل قيادته أن يستردوا جميع إيطاليا ما عدا رافنا وأنكونا من الإمبراطوريين ، وأظهروا من صفات المرونة والحيلة ما كان جديراً بإقناع إمبراطور أقل صلابة من جستنيان بضرورة الرضا بالصلح والسلام .

وعرض توتيلا الصلح على الإمبراطور أكثر من مرة . وتمنى تحقيقه على يده ، لأنه أراد — كما أراه أودوآكر من قبل — أن يحكم إيطاليا على قاعدة التبعية للإمبراطورية ، ولو تطلب ذلك دفع جزية سنوية . غير أن جستنيان تغي الحرب والفتح والنصر . وبعث قائده نارسيس — وهو خصى أرمنى متقدم السن . معروف بالمقدرة الحربية والدراية السياسية — على رأس جيش كبير عدته خمسة وثلاثون ألف مقاتل . لتحقيق تلك الغاية . فهزم نارسيس ملك القوطيين عند قرية جوالدو تادينو فى إقليم أمبريا ، بفضل استخدام فئات من الرماة المشاة مع الزراقين فى وقت واحد فى أثناء المعمعة ، وهى الطريقة التى استخدمها الإنجليز استخداماً ناجحاً فيما بعد ، ضد الخيالة الفرنسية فى العصور الوسطى . وتعقب نارسيس فلول القوطيين وهم يفرون من هول الهجوم . فسقط توتيلا صريعاً وهو يحاول الفرار ، ولم يمض إلا إحدى عشرة سنة حتى سلمت بقايا الجيش القوطى الباسل إلى نارسيس مدينتى بريشيا وفيرونا ، وهما آخر معاقلهم وحصونهم ، بعد أن تعرضت إيطاليا لأهوال الغزو والتخريب من ناحية الفرنجة والألليمانى والبرجنديين .

وتحملت إيطاليا فى أثناء ذلك النضال الطويل المرير ألواناً من الخراب الذى ليس بعده خراب ، لأن جيوش بليزاريوس ونارسيس لم تكن رومانية إلا اسماً فقط ، بل اعتبرها الإيطاليون — وهم رومانيون أصليون — أكثر أجنبية عنهم من جند القوطيين الذين استقروا بإيطاليا ، وسكن إليهم أهلها نصف قرن من الزمان . يضاف إلى ذلك إمعان الفريقين فى المذابح والمقاتل بين بعضهم بعضاً ، وأشهر هذه المذابح إبادة القوطيين والبرجنديين سنة ٥٣٩ م جميع الذكور من سكان مدينة ميلان ، وعددهم ثلاثمائة ألف نسمة فى تقدير المؤرخ پروكوبيوس . ولدينا صور تدل — برغم ما فيها من مبالغة — على ما نزل ببقاع إيطاليا من بؤس شنيع ، كما تدل على زوال أعداد هائلة من السكان ، واضطرار الفلاحين إلى العيش على ثمار القسطل والحشائش ، فضلا عن أكل لحوم البشر فى بعض الأحوال . أما روما التى تحملت آلام الحصار خمس مرات فى تلك الحقبة ، فلم تقم لها قائمة بعد ذلك النضال ،

إذ اختفت العاصمة الصاخبة ، واندثرت الحمامات العامة الفخمة ، وذهبت مراكز توزيع الأغذية بالمجان ، وصمتت الملاهى الشعبية . وحل محل ذلك كله مدينة حزينة كئيبة ، ليس بها من أهلها سوى فئات معظمها من رجال الدين ، تعلوها غبرة من شدة ما نزل بها من الفقر ، ولا عمل لها إلا السير فى غير عمل بين آثار العظمة الرومانية الخالية . وظلت روما من ثَمَّ مدينة تحيطها أراض سبخة خربة ، وتغشاها المياه الآسنة والملاريا ، طوال العصور الوسطى ؛ ولم يعد لمجلس الشيوخ (السناتو الرومانى) وجود ، ولم يبق من ملعب السباق إلا آثاره من العمد والأحجار ؛ وانتهت أيام المواكب الحربية والاحتفالات بمقدم المنتصرين على أعداء الدولة بأشتات الأطراف الإمبراطورية ، كما انتهت أيام انتخاب القناصل ، وما امتلأت به من نشاط وسهر على شئون الحكم . يضاف إلى ذلك أن التجارة باتت معدومة ، وأن الوخامة خيمت على روما ، منذ هدم القوط سقاياتها وقنواتها المرفوعة التى أمدتها بالمياه كأحسن ما تفخر به مدينة فى العصر الحاضر .

أما الإمبراطور جستنيان ، فلم يزده توفيقه فى الاستيلاء على إفريقية وإيطاليا إلا طمعاً فى الفتح ، ومصداق ذلك قوله : «إن الله هيأ لنا أن نعاهد الفرس على الصلح ، وأن نخضع الوندال والألليانى والمغاربة (أهل شمال أفريقيا) ، وأن نسترد جميع إيطاليا وصقلية ، وليس لنا إلا أن نستعين بالله ليهبنا بقية الإمبراطورية التى مدها الرومان فى سالف العصور إلى أطراف البحار ، ولم يذهبها عنهم سوى البلادة والخمول » . غير أن تحقيق تلك الأطماع الواسعة لم يكن فى طاقة جستنيان ، أو طاقة الوسائل التى تحت يده ، لأن الاحتفاظ بإفريقية وإيطاليا ، وبإسبانيا التى نجحت إحدى حملاته الحربية فى الاستيلاء على بعض موانيها ، غدا أمراً مستحيلا ، فضلا عن استحالة البدء فى استرداد غاليا وبريطانيا ، وهو مما يحتمل أن فكر فيه كذلك جستنيان . ثم إن سياسة اقتلاع القوط من إيطاليا أدت إلى كارثة هائلة ، وكان أحسن منها وأنفع لإيطاليا نفسها — ولشبه جزيرة البلقان معها — لو عمل الإمبراطور على مصادقة أولئك الجرمان البُسَّل ، ليدرأ بهم أخطار العناصر الهمجية

الضاربة فيما وراء جبال الألب . وأوضح ذلك قائد قوطى حين قال لبليزاريوس « دأبنا نحن القوطيين على مراعاة قوانين الإمبراطورية وتقاليدها ، فى إخلاص لا يقل عن إخلاص الأباطرة السالفين ، فلم يصدر الملك ثيودوريك أو أحد ممن جاء بعده من الملوك قانوناً جديداً ؛ واحترمنا المعتقدات الرومانية كل احترام ، فلم نحمل إيطاليًّا واحداً على اعتناق المذهب الأريوسى ، ولم نطلب إلى قوطى تكثلك أن يرجع إلى الأريوسية ؛ واحتفظنا بكل الوظائف المدنية للإيطاليين » والواقع أن المملكة التى وقفت من الروح والتقاليد الرومانية هذا الموقف الحميد استأهلت لأن تصبح زعيمة بإنقاذ إيطاليا من سلسلة الحروب الطويلة والفتن الداخلية التى تعرضت لها بلادها المنكودة طوال تاريخها منذ القرن السادس الميلادى ، إذ كان فى استطاعة القوطيين أن يجعلوا من أنفسهم ومن صفاتهم الحربية والسياسية حمى لشبه الجزيرة ، بعد أن ذهبت تلك الصفات عن أهلها الأصليين منذ قرون . ومن هنا تتضح جسامة الغلطة التى انتهت بالقضاء على القوط الشرقيين ؛ فلو أنهم ظلوا وشأنهم لما حدثت الغزوات والفتوحات اللومباردية فى شمال إيطاليا ، ولما قامت الدولة البابوية فى روما . ولما أحييت الإمبراطورية الرومانية فى الغرب ، بل ربما تحققت الوحدة السياسية الإيطالية على أيديهم فى القرن الثامن الميلادى .

ثم إنه لو استطاع جستنيان أن يقيم حكومة قوية فى إيطاليا لتم له استئصال شأفة القوط ومملكتهم ، مع اجتناب ما ترتب على ذلك فعلا من وخيم العواقب . غير أن الذى حدث فعلا أن أرخون رافنا — وهو النائب الإمبراطورى بإيطاليا — لم يسيطر فى وقت من الأوقات على جميع البلاد ، ولم يستطع أن يحمى حدودها ألبتة من هجمات الأعداء ؛ فانثال اللومبارديون — وهم آخر موجة من الموجات الجرمانية المتدفقة على الإمبراطورية الرومانية — وامتدوا إلى إيطاليا بقيادة ملكهم ألبوين ، ولم يلبثوا أن دقوا أوتادهم فى البلاد سنة ٥٦٨ م . ومع أن الموضوع هنا لا يفيد من وصف أولئك المتبربرين الأريوسيين فى تلك المرحلة الأولى من تاريخهم ، فلا بأس من الإشارة إلى مشابهتهم سائر إخوانهم الجرمان ، من حيث القابلية للنظام والحياة الوادعة . ولو كان حماة

العواصم والثغور الإيطالية وقتذاك من القوط ، لانحرف أولئك اللومبارديون إلى شبه جزيرة البلقان ؛ ولو حدث ذلك إبان القرن السابـع الميلادى ، لتغير وجه التاريـخ تغيراً تاماً ، ولأصبحت أغلبية السكان بشبه جزيرة البلقان من الجرمان .

أما الإمبراطورية التى وقفت جميع جهودها لتحقيق أطماع جستنيان الحربية فى الغرب ، فلم تكن بنجوة من مختلف الأخطار والإهانات فى ميادين القتال . ففى عهد جستنيان بالذات كاد الهون أن يستولوا على القسطنطينية ، واستولى الصقالبة على أدرنة فعلا ، كما نهب الفرس مدينة أنطاكية ، وبدت الإمبراطورية عاجزة عن حماية قرية واحدة من قرى شبه جزيرة البلقان من عبث البرابرة ، مع استعدادها لإرسال جيش بقضه وقضيضه إلى إسبانيا ، وتفكير الإمبراطور فى مشروعات ضخمة لغزو غاليا وبريطانيا. هكذا كانت حال الإمبراطورية على عهد جستنيان ، ومعنى ذلك أنه على حين تطلب الوضع السياسى تركيز ما هنالك من قوة ونشاط فى حماية الأطراف القريبة من ناحية الشرق وشبه جزيرة البلقان ، عمد الإمبراطور إلى صرف الأموال الطائلة لتحقيق مشروعاته البعيدة التى أخسرت الدولة — إذا صدق تقدير المؤرخ بروكبيوس — عشرة ملايين من الناس فى إفريقية وإيطاليا فقط . والحاصل أن جستنيان مات سنة ٥٦٥ م ، بعد أن بلغ من العمر ثلاثة وثمانين عاماً ، وأنه ترك الإمبراطورية أفقر حالا ، وأضعف نفراً ، وأقل رومانية ، مما كانت حين اعتلى عرشها ثمانية وثلاثين عاماً قبل ذلك التاريخ .

ويبدو أن تيودورا القبرصية اليونانية فهمت عن الوضع السياسى ومقتضياته أحسن مما استطاع زوجها اللاتينى الثقافة أن يفهم عنه ، إذ أدركت أن قوة الإمبراطورية الشرقية — فى وضعها الجغرافى — ترتكز إلى مقدار ما تستطيع أن يكون لها من السيطرة على موارد آسيا الصغرى وسوريا ومصر ، وأنه مهما اتفق لها من الفتوح فى الغرب ، فلن تعوض تلك الفتوح عن فقدان الأناضول وأهله ، ومصر ومحاصيلها الزراعية ، وسوريا وثروتها من المال والرجال . على أنه من الخطأ أن ننسب سوءات ذلك العهد إلى أغلاط السياسة الإمبراطورية ،

إذ دل جستنيان فى معظم الأحوال على سداد تفكير وحسن تقدير لمشكلات عهده ، كما عالج تلك المشكلات فى كثير من الشجاعة والخيال السليم ، فقرر بعد أن خبر بنفسه عجز المتبربرين فى فنون الحصار أن يبنى سلسلة من القلاع والحصون والخطوط الدفاعية ، على طول أطراف ممتلكات الإمبراطورية فى آسيا وأوربا . وحين أضحى إعداد الجيوش بحاجة إلى كثير من التكاليف والأموال ، وغدت الأموال عسيرة المنال ، لجأ جستنيان إلى أصناف الحيل التى تستطيعها الدبلوماسية لتلهية أعدائه ، أو لتفريقهم ، أو للقضاء عليهم إذا استطاع إلى ذلك سبيلا ؛ فدفع لبعضهم جزية سنوية ، وسلك بعضهم الآخر فى جيشه جنوداً محالفين ، أو بالغ فى إكرامهم وإتحافهم بالهدايا الغالية . ومن الأمثلة التطبيقية لتلك الوسائل أنه حرك اللمبارديين ضد الجبيداى ، وأثار الآفار ضد الهون ، كما أنه بث المبشرين اليونانيين فى مختلف أنحاء البلاد الوثنية .

وعلى الرغم من ذلك كله ، لم تستطع الإمبراطورية إلا أن تجنح إلى الانحلال جنوحاً مضطرداً ، وهى الإمبراطورية التى ملأ جستنيان أرجاءها بأخبار الفتح والنصر ، وأضاء أركانها بمشاعل المجد والفخار فى السنوات الأولى من حكمه . أما أسباب ذلك الانحلال ، فيرجع بعضها إلى عوامل طبيعية بحتة ، مثل الطاعون الكبير الذى قيل إنه أفنى ثلث عدد السكان سنة ٥٤٢ م ، ومثل ما طرأ على قوة الإمبراطور جستنيان من كلال ووهن أثناء العقدين الأخيرين من حياته الطويلة ، فضلا عن عامل ثالث غير طبيعى ، وهو فى الواقع أبعد أثراً وأدعى إلى الحور والانحلال فى الإمبراطورية . وخلاصته أن جباة الحكومة وعمالها الماليين كانوا زمرة من المختلسين ، فلم يصل إلى خزائن الدولة من حصيلة الضرائب التى ابتزها أولئك الغشاشون من الرعية إلا ثلثها فقط . ويبدو أن ذلك الشر لم يرج منه شفاء ، إذ عالج جستنيان اختلاسات جباته بمختلف القوانين دون فائدة أو جدوى طوال عهده الذى بدأ مبشراً بزاهر الآمال ، وسار مكللا بفاخر الأعمال ، ثم انتهى فى جو من اللوم القادح والسخط الشديد على إمبراطور هو فى الحقيقة من عمالقة التاريخ الأوربى .

والواقع أنه ليس فى التاريخ الأوربى إلا الأقلون ممن يذكرون بأعمالهم مثلما يذكر الإمبراطور جستنيان ، الذى يرجع إليه بناء كنيسة أيا[١] صوفيا ، وترتيب سلساة الشرائع الرومانية ، أى القانون (Codex) ، وشرح الأحكام (Digest) ، وأصول القانون (Insitutes) والمتجددات (Novellae) وهى السلسلة التى انتقل بفضلها التراث الرومانى إلى الأجيال عبر القرون . ووصف المؤرخ بروكبيوس المنشئات الكنسية والعمائر البلدية والحربية الكثيرة التى جهد جستنيان فى تشييدها ، لتأمين إمبراطوريته وتجميل مدنها ؛ وإلى ذلك المؤرخ وأسلوبه الرائع يرجع الفضل فى معرفة أخبار الحملات الحربية التى قام بها سيده بليزاريوس .

وإذ تهدم كثير من تلك المبانى ، فلا يزال من بقاياها القليلة بأوربا ، والأقاليم الآسيوية المجاورة ، ما يقنع العابر عليها بعظمة جستنيان وجبروته ؛ ومنها حوائط الفسيفساء الذائعة الصيت بمدينة رافنا . وكنيسة أيا صوفيا الشهيرة بقبتها السامقة فى سماء القسطنطينية الجميلة ، وهى القبة التى فاقت روائع المهندسين المسلمين ، وتحدت بأسرار بنائها أكبر عباقرتهم فى فن المعمار .

وأثر ترتيب القانون الرومانى وتبويبه على عهد جستنيان تأثيراً مباشراً متصلا فى أقاليم الدولة بآسيا ، وأفريقيا ، وشرق أوربا ، والأقاليم الإيطالية التى بقيت تحت السيادة البيزنطية . أما تأثيره فى غرب أوربا فلم يظهر إلا بعد تأسيس معهد الدراسات القانونية [٢] الشهير بمدينة بولونيا بشمال إيطاليا ، أواخر القرن الحادى عشر الميلادى . فمن ثمّ صارت دراسة القانون الرومانى المدنى ــ حسبما أصدره جستنيان ــ عاملا نشيطاً تصعب المبالغة فى تقدير أهميته وأكثر نضجاً مما أنتجته أوربا الغربية أوائل العصور الوسطى ، ودلل على أن ذلك المجتمع الناضج تولدت عنه أفكار واضحة فى الملكية الخاصة والتمليك ،

---

(١) أيا لفظ يونانى الأصل معناه القديس أو القديسة ، وهو مستعمل فى معظم اللغات الأوربية فى صورة معدلة مركبة بالإضافة إلى غيره ، مثل لفظ (Hagiology) ومعناه دراسة سير القديسين ، وربما جاء اللفظ العربى حاج من هذا الأصل اليونانى . (زيادة) .

(٢) هذا المعهد هو النواة التى نبتت منه جامعة بولونيا . انظر الفصل الخاص بنشأة الجامعات الأوربية فى العصور الوسطى ، وعنوانه الحركة الفكرية والحركة الديرية ، فيما يلى هنا . (زيادة) .

والحقوق العائلية ، ونظرية العقد ، واعتبار القانون أداة معقولة مفهومة موائمة لحاجات الإنسانية على وجه الإطلاق ، وذلك لأن الدولة العظيمة التى تمتد معاملاتها التجارية إلى مختلف البلاد تحتاج إلى تخريج قانون صالح لمعالجة أشتات المسائل الناجمة عن تنوع النواحى فى حياتها الاقتصادية العامة . وصفوة القول أن القانون الرومانى كان وثيق الصلة بالراهن الواقع ، برغم تأثره بالفلسفة . فلم يبن على التشريع بقدر ما بنى على العرف والعادة وأقوال الفقهاء فى الرد على قضايا حقيقية وخيالية . وهكذا وجدت أوربا الغربية ، حين انجابت عنها ظلمة العصور الوسطى فى القرن الثانى عشر الميلادى ، وتكشفت لها مجموعة القانون المدنى الذى رتبه جستنيان ، أنها أمام بناء شامخ هو المدنية الأوربية التى كانت ، والتى سوف تكون .

غير أن ذلك كله من طى المستقبل الأوربى بعد العصور الوسطى ، وهو لذلك خارج عما نحن بصدده ، أى الدولة الرومانية الشرقية بعد جستنيان أواخر القرن السادس الميلادى ، حين استمدت الحياة العقلية فى الدولة من الروح الكنسية واللاهوت ، لا من روح القانون ، لأن مجتمع نيقية المسكونى [1] لم ينجح فى إفهام العقل اليونانى سرّ عقيدة التجسد ، ولأن عدة من المسائل المتفرعة على ذلك السرّ العميق ثارت فى بعض الرءوس المفكرة ، وأثارت بين أصحابها أقسى ألوان التعصب والمباغضة ، لاختلاطها بما كان بين المدن المسيحية الكبرى وقتذاك من مفاضلة وتنافس على مركز الصدارة فى العالم المسيحى ، ولارتباطها بميول الشعوب المسيحية المختلفة . ذلك أن مجمع نيقية أقر ألوهية المسيح ألوهية تامة ، ولكنه أجل إلى فرصة أخرى تقرير المسألة الدقيقة الخاصة بكنه الرابطة بين الطبيعتين الإلهية والبشرية فى المسيح ، وهل للمسيح طبيعة واحدة أو طبيعتان ؟ هل كانت مريم أمًّا للمسيح من حيث طبيعته البشرية فحسب ، أو أمًّا للمسيح من حيث طبيعته البشرية والإلهية كذلك ؟ والواقع أنه لم يكن فى القرن الخامس الميلادى مسألة اشتد الجدل حولها مثلما اشتد حول مسألة الطبيعة الواحدة والطبيعة المزدوجة فى المسيح ، أو حول الصيغة التى يمكن التعبير بها عن

---

(١) انظر ما سبق ، ص ٢٣ ، وكذلك ما يلى هنا .

اتحاد الطبيعتين تعبيراً دقيقاً . وبقيت تلك الحركة الجدلية أمداً طويلا بعد وفاة رجليها الأصليين ، وهما كيرلس الإسكندرى ونسطورس القسطنطينى ، فأثرت فى مناقشات المجامع الكنسية الأربعة التى كان آخرها مجمع خلقدونية سنة ٤٥١ م ، وظلت تسمم العقول بين أهل البلاد الشرقية ، حتى بعد أن قرر ذلك المجمع بتأثير البابا والإمبراطور عقيدة الطبيعة المزدوجة . وترتب على ذلك أنه صار لزاماً على كل إمبراطور من أباطرة القسطنطينية بالغة ما بلغت حماسته نحو العقيدة الخلقدونية — أن يحسب حساب الجماعات القوية التى بقيت على عقيدة الطبيعة الواحدة وهم المونوفيزيتون من أهل القسطنطينية ومصر والشام والعراق . وحاول فريق من الأباطرة دعوة الناس إلى صيغ تلائم بين العقيدتين ، مثل صيغة « التوفيق » الشهيرة فى تاريخ المسيحية الأولى ، ولجأ فريق آخر منهم — مثل الإمبراطور أنسطاسى — إلى التسامح ، لأنه لم يكن من الحكمة السياسية والاستطاعة أن يقف أحد منهم موقف المتجاهل لمسألة طالما هددت بتمزيق الإمبراطورية ، وأدت إلى صخب الشعب فى ملعب السباق بالقسطنطينية .

غير أن جستنيان عاش متزمتاً متعصباً لعقيدة الطبيعة المزدوجة ، وينبغى أن يذكر ضده أنه لم يغلق مدارس أثينا ويخمد صوت الفلسفة فى العالم الإغريقى فحسب ، بل إنه قضى الأعوام الأخيرة من حياته فى جدل دينى عقيم ، وقمع صارم للمذاهب الدينية المخالفة للعقيدة الخلقدونية . أما الإمبراطورة تيودورا الجميلة ، فأعلنت ما لها من آراء مستقلة فى المسائل الدينية ، وبدت ميولها مع المونوفيزتيين ، كما بدت عواطفها شرقية ، وبصيرتها السياسية الثاقبة فى جانب الاتفاق الدينى مع المونوفيزتية التى استطاعت أن تتحدى الاضطهاد، وتستهوى الشعوب الشرقية أعظم استهواء . وأنصت جستنيان لنصيحات زوجه ، فأجاز للمونوفيزتيين قدراً محموداً من التسامح ، كما حمل البابا فيجليوس على استنكار عدد من القرارات التى سبقت المصادقة عليها فى مجمع خلقدونية البغيض للمونوفيزتيين ، وذلك فى مجمع عقد خصيصاً بالقسطنطينية سنة ٥٥٣ م، وكان جستنيان حكيماً فى محاولته هذه ابتغاء رتق الشقوق التى أحدثتها المونوفيزتية

بالنصف الشرقى من إمبراطوريته ؛ غير أن تلك الشقوق ظلت تتسع اتساعاً مضطرداً ، فأضعفت روح الولاء نحو القسطنطينية ولا سيما فى مصر والشام، ومهدت الطريق — فيما يظهر — للفتوح الإسلامية ، كما أنها ثبتت على مر الأيام ، حتى إن الكنيسة القبطية الحالية فى مصر لا تزال تقوم على صخرة العقيدة المونوفيزتية القديمة .

والحاصل أن المقادير أتاحت لجستنيان مسرحاً هائلا ، حدوده أطراف الإمبراطورية الرومانية الشرقية فى القرن السادس الميلادى ، ليعرض فى شخصه لإعجاب معاصريه صورتين لم يسبق امتزاجهما بعضهما إلى بعض فى زمن من الأزمنة ، وهما الاستبداد الرومانى والجبروت الكنسى . وكان جستنيان — على قول أجاثياس المؤرخ — « أول من دل بأقواله وأفعاله دون جميع أباطرة الدولة الرومانية أنه إمبراطور » ؛ غير أن إمبراطوراً طفحت دخيلته بالغيرة ، وامتلأ رأسه بالغرور ، واتصفت أخلاقه بالتردد — وهو مع ذلك لا يتهيب الدخول فى مشروع مهما عظم ، ولا يستصغر عملا من أعمال الإدارة مهما صغر ، ولا يستهين طيرة مهما هانت ، ولا يعتبر أمراً بعيد المنال مهما بعد — لا يستطيع أن يثير الإعجاب فى نفس أحد . ذلك أن جستنيان يبدو للرائى عبر القرون كأنما نقصته الموهبة العالية فى شئون السياسة والحكم ؛ وافتقرت عزيمته إلى شىء من المضاء ، كما حاجه الكثير من حسن التقدير ؛ وأعوزته المقدرة على المضى فى أمر لم يرقه ؛ وهذا برغم ما عرف عنه من مهارة غير محدودة ، وصبر على العمل فى غير كلالة أو ملل . ومع هذا فلم تبلغ شخصية تلك حالها — من خيرة الصفات وتناقض الأخلاق — مثلما بلغ جستنيان فى التاريخ من عظيم المقام ، ويخيل إلينا ونحن نطوى القرون القهقرى إلى جانبه ، كأنما نرى أستار الليل تجر أذيالها على غسق قان فى مغرب روما والإمبراطورية الرومانية القديمة .

بعض المراجع لهذا الفصل

Baynes, (N.H.) : The Byzantine Empire, 1926.

Bury (J.B.) : History of the Later Roman Empire. 2 vols., 1889.

Cambridge Mediaeval History, Vol. IV.

Dalton (O.M.) : Byzantine Art and Archacology, 1911.

Diehl (C.) : Une République Patricienne, Venise, 1915.

Diehl (C.) : Byzance, Grandeur et Décadence. 1919.

Diehl (C.) : History of the Byzantine Empire, Trans. G.B. Ives, 1925.

Holmes (W.G.) : The Age of Justinian, 2 vols., 1905-1907.

الفصل الرابع

الإسلام

عصر الجاهلية فى بلاد العرب – الفتوح العربية فى القرن السابع الميلادى – محمد رسول الله – حياته وتعاليمه – قيام الحضارة الإسلامية وتقدمها – المتصوفة فى الإسلام – السنة والشيعة – دفاع ليو الإيسورى وشارل مرتل عن أوربا ضد الإسلام .

يبلغ التاريخ الأوربى هنا نقطة يصبح من بعدها مختلطاً أشد الاختلاط بقصة الفتوح الإسلامية ، مع أن بلاد العرب لم تدخل قبل ذلك – أى مدة القرون الستة الميلادية الأولى – فى حسبان أحد من رجال السياسة الحكم فى أوربا ، إذ بقيت بلاداً يكتنفها الغموض ، لا يعرف عنها سوى أن أهلها يتعاطون قليلا من التجارة مع الشام ومصر ، وأن أبناءها يمارسون الجندية مرتزقين فى الجيوش الفارسية والبيزنطية . وفيما عدا ذلك بدت بلاد العرب فى نظر الناس أشبه شيء بالقفور المتجمدة فى أقصى الشمال الأوربى ، من حيث البعد والجدب ، ولم يدر بخلد أحد أن تلك الصحراء اللافحة تستطيع أن تحدث أمراً يمكن أن تتأثر به أوساط دمشق والإسكندرية . ذلك أن المجتمع العربى لم يزل وقتذاك فى المرحلة القبلية ، ولم يكن من المظنون أن فى استطاعة أهل البادية إلا أن ينهب بعضهم بعضاً ، وإلا أن يقتل بعضهم بعضاً إلى يوم يبعثون ؛ ولم يكن ثمة أثر لدولة عربية أو جيش نظامى أو هدف سياسى عام ، بل كان أقصى ما يقال إن العرب شعراء أرباب خيال وطعان وتجارة ، لا أرباب سياسة وسلام واستقرار ، وأنهم لم يجعلوا من الدين أداة للوحدة السياسية أو الحياة النظيمة ، بل اتخذوا نوعاً من تعدد الآلهة ديانة بلغت من الوضاعة بحيث تحداها من بينهم بعض ذوى العقول الذين اهتدوا إلى شيء من مبادئ المسيحية واليهودية . فى مكة ،

وهى البلدة التجارية الرئيسية التى لا تبعد عن البحر الأحمر – طريق المواصلات العالمية وقتذاك – سوى خمسين ميلا ، عبد العرب حجراً أسود فى موضع اسمه الكعبة ، أى المكعب[1] ، هذا وأشباهه من المعبودات هو أقصى ما عرف الناس عن بلاد العرب وأهلها ودياناتهم أوائل القرن السابع الميلادى ، حين أوشك إمبراطور الدولة البيزنطية هرقل على الانتهاء من حروبه ضد الدولة الفارسية ، أى سنة ٦٢٩ م .

غير أنه لم يمض قرن بعد تلك السنة حتى أسس أولئك العرب البدو المغمورون لأنفسهم دولة عالمية عظيمة ، إذ فتحوا الشام ومصر ، وتغلبوا على فارس ، وحولوا أهلها إلى الإسلام ، كما سيطروا على تركستان الغربية وجزء من البنجاب ، وانتزعوا أفريقية من البيزنطيين والبربر ، واستولوا على إسبانيا من القوط الغربيين ، بل هددوا فرنسا فى الغرب والقسطنطينية فى الشرق . ومخرت أساطيلهم التى بنيت بالإسكندرية وموانى الشام مياه البحر الأبيض المتوسط ، فأعملت النهب فى جزر اليونان ، وتحدت الإمبراطورية البيزنطية وسيطرتها فى البحار . وبلغ العرب ما بلغوا من النجح فى يسر وسهولة ، فلم يجدوا مقاومة شديدة إلا من الفرس فى العراق وما وراءه من البلاد ، ومن البربر المقيمين فى جبال الأطلس بشمال أفريقيا . وأخذ الناس يتساءلون أوائل القرن الثامن الميلادى عما إذا كان لقصة الفتوح العربية نهاية ، أو كان لأحد من المقدرة والقوة أن يقف فى طريقها المظفر وقفة حاسمة ، بعد أن ذهبت سيطرة البيزنطيين على البحر الأبيض المتوسط ، وأمست الدول المسيحية الأوربية وجهاً لوجه قبالة حضارة شرقية جديدة ، تقوم على عقيدة شرقية جديدة .

وهنا يبحث الباحث عن الأسباب التى أدت إلى انثيال الأمة العربية انثيالا دافقاً ليس فى المعروف من أحوالهم دليل ، بل ليس له فى المعروف من تاريخهم نظير سابق أو لاحق . من تلك الأسباب التى تواضعت الكتب على ترديدها ، أن العرب اندفعوا إلى أقصى الأرض بدافع من ديانتهم الجديدة ،

(١) هذا اللفظ ترجمة حرفية لكلمة (cube) فى المتن . (زيادة) .

وأنهم ركبوا الصعاب ، وقطعوا الفيافى ، وخاضوا غمار المعارك ، وفتحوا ما فتحوا من البلاد — كل ذلك فى سبيل الدين . غير أن ذلك السبب بالذات لا ينسجم مع الحقيقة المتداولة بأن الفاتحين لم يحفلوا كثيراً بتحويل الناس إلى الإسلام خلال السنوات الأولى من فتوحهم . والمعروف كذلك أن التوفيق رافقهم فى كل أعمالهم ، بفضل سياسة التسامح التى اتبعوها مع اليهود والمسيحيين ، وأنهم دلوا بذلك على أحسن الأمثلة المضادة لما تدنس به من جاء بعدهم من صنوف الاضطهاد من أجل الدين . غير أنه إذا لم تكن الديانة هى المرجع الأول لتلك الحركة الهائلة ، فليس من المعقول أن يكون مرجعها خطة ثابتة مبينة التفاصيل ، بل المعقول أن العرب خرجوا من بلادهم دون أن يكون لديهم مشروع مفصل لفتح العالم وإنشاء الدول ، وأنهم قاموا قومتهم ، وأسسوا دولتهم ، كما أسس غيرهم لأنفسهم دولا من قبل ومن بعد ، فى غير خطة أو بصيرة ، وفى غير هدف واضح أو معلوم ، اللهم إلا الغنم عن طريق الغلبة والفتح والنصر[1] . ومن الدليل على ذلك أنهم بدءوا أعمالهم بإنفاذ الغزوات والسرايا نحو فلسطين والعراق ، فى وقت بدت فيه أطراف تلك البلاد لا تستطيع عن نفسها دفعاً ألبتة ، فلما وجدوا النصر سهلا ، والغنيمة وافرة ، امتدوا فى إغاراتهم وأوسعوا فى غزواتهم ، وحالفهم من التوفيق فى هجماتهم أضعاف ما كانوا يأملون . ففى سنة ٦٣٦ م هزموا آخر جيوش الإمبراطور هرقل فى وقعة اليرموك ، واستولوا بذلك على الشام ؛ وفى سنة ٦٣٧ م دخلوا المدائن جنوبى بغداد الحالية ، فدانت لهم بعدها بلاد الجزيرة ؛ وفى سنة ٦٣٩ م غزوا مصر ودخلوا الإسكندرية ، ولما يمض على غزوهم وادى النيل سوى ثلاث سنوات ؛ وما إن كشفوا بذلك عن ضعف الإمبراطورية البيزنطية حتى عزموا على افتراص الفرصة واستغلالها ، بأن تمسكوا بفتوحهم ، وأخذوا فى مباشرة إدارتها والعمل على توسيعها . على أنه إذا سلمنا جدلا بأن الدين لم يكن القوة التى تولدت عنها حركة العرب نحو مشارق الأرض ومغاربها ، فليس ثمة شك أن الدين أمدها بقوة ذاتية أكسبتها الحياة

---

(١) هذه وجهة نظر غير منصفة ، والمؤلف نفسه لم يستطع أن يرتكز على هذا العامل المادى وحده فى شرح الفتوح الإسلامية بل ارتكز إلى العامل الدينى فى العبارات التالية . (زيادة) .

والدوام . ولولا هذه القوة التى نشأت عن الرابطة الدينية الجامعة ، لافتقر العرب إلى التكتل الذى لا تحدث الانتصارات بدونه ، ولا تتم وتكتمل إلا به ؛ ولولا ما سرى بين العرب من روحية متسامية عن مجرد الشهوة للحرب والغنيمة ، لما استطاعوا أن يظفروا برضى الشآميين والمصريين والفرس والبربر عن حكمهم . ثم إنه لا شك أن قسطاً غير قليل من نجاح العرب فى فتوحهم وحروبهم إنما يرجع إلى ظهور دين جديد فى قلب بلادهم أشبع ما فى نفوسهم ، ولا يزال يشبع نفوس الذين يعيشون تحت لفح السماوات الآسيوية والإفريقية ، وأن العرب كانوا لهذا الدين جنوداً مبشرين ومنذرين .

وظهر الدين الجديد فى الحجاز ، وهو الإقليم الأكثر تعرضاً للمؤثرات الأجنبية من بلاد العرب ، بسبب اشتغال أهله بالتجارة ، واختلاف بعض الجاليات اليهودية والمسيحية بين حين وحين إلى بلاده ، ولا سيما مكة لكونها المركز الرئيسى للتجارة والحج ، ثم يثرب لما كان بها من ممارسة للزراعة والحياة المستقرة ، وهى على مسافة مائتى ميل شمالى مكة .

وولد محمد ، صلى الله عليه وسلم ، بمكة سنة ٥٧١ م ، من أسرة فقيرة من قبيلة قريش التى كان لها الإشراف على الكعبة . وفى شبابه دخل صلى الله عليه وسلم فى خدمة تجارية لخديجة ، وهى أرمل على جانب من الثراء والمال ، تزوجها محمد فيما بعد . ومن الواضح أن عمله فى التجارة تطلب منه أسفاراً طويلة عبر الصحارى . وأن هذه الأسفار الطويلة يسرت له مخالطة الكثيرين من النصارى واليهود ، فضلا عما يسرت له من الخلوة إلى نفسه أياماً متتالية فى كثير من الأحيان . ولذا امتلأ عقل هذا الشاب العربى رويداً رويداً بأفكار دينية عالية وآراء أخلاقية رفيعة ، حتى اهتدى إلى الوحدانية ، وتراءت له الحياة الآخرة ، وما فيها من جنة للمتقين وجحيم للكافرين ، حين يبعث الناس ليلقى كل منهم من النعيم أو العذاب جزاء ما قدمت يداه فى الحياة الدنيا . وجاءت آيات القرآن مصدقة لكل تلك التعاليم ، فنشرها محمد صلى الله عليه وسلم بين صفوة قليلة العدد من إخوانه ، ثم لم يلبث أن أذاعها فى دائرة أوسع قليلا قليلا ؛ فثارت بمكة الثائرة ، وقال بعض زعمائها إن محمداً إما مجنون

أو ساحر ، أو شاعر مفتون . غير أن محمداً ثابر على نشر رسالته ، وظفر بكثير من المؤمنين به ، بفضل ما أظهر من قـوة الحجة ، وما أنذر به من عذاب للمـكذبين له ، فضلا عما لديانة التوحيد من عظمة وروعة ، وما للدعوة إلى المحبة الأخوية والمساواة من أثـر فى القلوب . لكن إمعان الممعنين من أهل مكة فى السخرية برسالة محمد حمله سنة ٦٢٢ م على الهجرة من بلدته التى ولـد فيها إلى يثرب ، التى عرفت منذئذ باسم المدينة ، أى مدينة النبى ؛ تلك هى الهجرة الشهيرة التى يبدأ بها التقويم الإسلامى .

ظل محمد ، صلى الله عليه وسلم ، يعمل دائباً فى المدينة ، برغم ما فيها من حزبية ضاربة ، فدعا إلى الوئام ، وبين أن الدين عند الله الإسلام ، أى الرضا بما قسم الله وقدر وأراد ، وما زال حتى أكمل على الناس دينهم ، وعلمهم قواعده التى يسير عليها العالم الإسلامى حتى الآن ، وهى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم شهر رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا ، فضلا عن تحريم الخمر والميسر ، والميتة والدم ولحم الخنزير . ثم عاد محمد ، صلى الله عليه وسلم ، إلى مكة عودة الظافر المنتصر سنة ٦٣١ م ، بعد كفاح طويل وحروب دموية ، ضد أعدائه والكافرين برسالته من المكيين وغير المكيين . وعند ذلك أعلن محمد أن الكعبة قبلة المسلمين ، يولون وجوههم شطرها فى الصلاة . وأن مكة هى البلد المقدس الذى يحجون إليه فى الأشهر الحرم من كل عام . هكذا استطاع محمد ، صلى الله عليه وسلم ، أن يخلق أمة لم تكن قبله شيئاً مذكوراً ، حين كانت بلاد العرب تعبيراً جغرافيًّا لا أهمية له ، كما استطاع أن يدعو لدين أصبح أساساً لدولة سياسية قوية وسعت حدودها أطراف آسيا وأوربا وأفريقيا ، فى مدة لا تعدو مائة من السنين .

والواقع أن الدين الإسلامى غدا منذ بدايته قوة سياسية كبيرة ، حين أذهب عن بلاد العرب وأهلها — لأول مرة فى تاريخهم المعروف — صفات الوحشية والهمجية والانقسام ، وأحل محل ذلك كله وحدة العقيدة والخضوع

لسلطان عام ، فضلا عن الإيلاف الذى ولدته بينهم شعائر الدين الجديد ، من صلوات خمس فى كل يوم ؛ وفضلا عن الاعتدال المترتب على تحريم الخمر ، مما جعل للجيوش الإسلامية ميزة على سائر الجيوش فى طول التاريخ وعرضه . يضاف إلى ذلك أن وحدانية الإسلام لم تختلف عما قالت به المسيحية المونوفيزتية التى ألفها أهل مصر والشام ، منذ انقسام العالم المسيحى إلى قسمين حول طبيعة المسيح ، ولذا لم تكن ثمة عقبة فى طريق الفتح حين جاء العرب لتلك البلاد .

هكذا انتشرت الحضارة الإسلامية التى اتخذت من يثرب — أى المدينة الحالية — عاصمة زمن الخلفاء الصحابيين . ثم انتقل المركز السياسى فى الدولة الإسلامية على عهد الأمويين إلى دمشق ، ومن بعدها إلى بغداد على عهد العباسيين ، وإلى القاهرة على عهد الفاطميين . وفى تلك الحضارة الإسلامية أسهم الشآميون والفرس والترك والبربر والإسبان بسهم وافر ، وبدت الآداب والفنون الإسلامية صاحبة الزعامة والصدارة فى عالم الفكر مدة أربعة قرون — أى من أوائل القرن الثامن إلى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى — حين كان العقل الأوربى غارقًا فى بحار الجهل والخمول . إن ذكرى تلك الزعامة الإسلامية لا تزال تختلج فى الصدور ، فلا يزال العربى الفلسطينى يقارن فى فخر واستعلاء آداب العصر الذهبى الإسلامى بتوراة اليهود ، ولا يزال المسلم من أبناء الهند والصين ومراكش وبلاد النيجر وغيرها من البلاد الإسلامية يحلم بالحج إلى مكة المكرمة ، ويتمنى أن يرى اليوم الذى يصبح فيه البشر جميعاً على الدين الحنيف . بل لا يزال المؤذن يدعو المؤمنين من المحيط الأطلنطى إلى جبال الهملايا إلى الصلاة ، عند شروق الشمس وغروبها ، وعند الظهر والعصر والعشاء ؛ ولا تزال المساجد تكتظ بالمصلين ، ولا يزال الأطفال يحفظون القرآن عن ظهر قلب ، ولا يزال الكثير من الطلبة يدرس أركان الدين الإسلامى والفقه والشريعة ، فى ظلال أبهاء الجامعة الأزهرية وكلياتها بالقاهرة .

غير أنه يجب أن يكون ملحوظاً هنا أن الدين الإسلامى عاش ألفاً وثلاثمائة من السنين دون إكليروس أو طقوس دينية خاصة ، وأن عدد المسلمين يبلغ

ثلاثمائة مليون نسمة فى العصر الحاضر ، وأن الرهبانية التى انتشرت بين المسيحيين الأولين لم تجد لها نصيراً أو مشجعاً من المسلمين . إذ جاء القرآن فى وصفها بآيات منها : « ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله » (سورة الحديد ، ٢٧) ، كما جاء عن محمد صلى الله عليه وسلم أنه قال : « رهبانية أمتى فى المساجد » وأنه قال : « لا رهبانية فى الإسلام » .

وعلى الرغم من ذلك شابه الإسلام المسيحية فيما نبت بكل منهما من طوائف المتنسكين وجماعات المتصوفة ، وأصحاب الملل والنحل المخالفة للإجماع . ويرجع ذلك إلى تأثر العقيدة الإسلامية الصارمة واصطباغها واستمدادها من خصب المدنيات التى امتزجت بها فى الشام ومصر وفارس والهند وإسبانيا ، وهى المدنيات التى أمدت الإسلام بكثير من الأعلام المبرزين فى مختلف عصوره . على أنه من الحق أن يضاف هنا أن للإسلام أدباً صوفياً لا يقل — فى نقاوة الوجدان الدينى — عن الروائع الروحية التى أنجبتها اليهودية والمسيحية .

غير أنه إذا امتازت المدة التى أعقبت وفاة محمد ، صلى الله عليه وسلم ، سنة ٦٣٢ م بكثير من باهر الأعمال فى الحرب والسياسة ، فإن تلك المدة ابتليت كذلك بظهور الخرق العميق الذى أفسد جوف العالم الإسلامى ، ولا يزال يسمم العلاقات بين السنة والشيعة . وإذا كانت أخبار الفتح والنصر على عهد عمر بن الخطاب — ثانى الخلفاء الصحابيين — وحكومته القديرة (٦٣٤—٦٤٤م) أسكتت أصوات الساخطين على الخلافة لقيامها فى غير سلالة الرسول ، فتلك الحال تغيرت على عهد عثمان بن عفان (٦٤٣—٦٥٦ م) ثالث الخلفاء ، لقلة ما انصرف إليه المسلمون من الفتوح ، ولما اتصف به الخليفة من عديم القدرة والافتقار إلى الحزم والجهد فى العمل ، فضلا عما اتهمت به حكومته من ابتزاز أموال الناس بغير حق ، مما يدل على أنه لم يكن موفقاً فى اختيار رجاله وعماله . ومن ثمّ بدأت الدعوة لعلى بن أبى طالب زوج ابنة الرسول ، وأعقب ذلك مقتل عثمان ، وقيام على فى الخلافة بعده ، وانقسام العالم الإسلامى منذئذ قسمين لا انجبار لهما حتى العصر الحاضر ، إذ نازع معاوية ابن عم الخليفة المقتول علياً فى الخلافة لأنه لم يشأ — وهو السليل الأموى الذى ولى

الشام سبعة عشر عاماً متتالية ، وخبر شئون الدولة الإسلامية عن كثب – أن يذعن لما انفرد به أهل المدينة من سلطة عامة ، أو يرضى بقيام علىّ دونه فى الخلافة على المسلمين .

وهكذا انقسمت وحدة المسلمين ، وبدت شيعة علىّ ذات قوة وبأس فى بلاد العرب والعراق ، وهبّ السنيون فى مصر والشام لمظاهرة معاوية ، ثم انتهى الأمر بمقتل علىّ سنة ٦٦١ م ، ومقتل ابنه الحسين بعده بقليل ، فتخلفت بقلوب الشيعة أحزان دامية صبغت تاريخ الدولة الإسلامية بمثل ما انصبغ به تاريخ أيرلندا وبلاد الصرب . غير أن الخلافة ظلت باقية فى أبناء البيت الأموى الذين جعلوا عاصمتهم دمشق ، وبسطوا سيادتهم على العالم الإسلامى سنة ٦٩٢ م ، بعد ثورتين داميتين من الحروب الأهلية .

وإذ أدت اختلافات الشيعة والسنة فيما أدت إلى إيقاف الزحف الإسلامى العظيم إلى حين ، فإن تلك الاختلافات لم تنقذ الدولة البيزنطية طويلا ، أو ترد عليها شيئاً من الطمأنينة من ناحية العرب . بل لم تلبث الحركة الإسلامية أن عادت سيرتها الأولى بعد سنة ٦٩٢م ، فأصبحت بلاد آسيا الصغرى ، وجزر الأرخبيل اليونانى مهددة أشد تهديد ، وتعرضت القسطنطينية نفسها لأخطار الغزو ، وباتت الدولة البيزنطية فى خشية وريب من رعاياها المسيحيين أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة بأعالى العراق وأطراف آسيا الصغرى وما عساه أن يكون موقفهم إذا امتدت فتوح المسلمين إلى تلك البلاد . ومما زاد الحالة سوءاً على سوء أن الدولة البيزنطية لم تنجب شخصية عظيمة بين وفاة هرقل سنة ٦٤١ م وقيام ليو الإيسورى سنة ٧١٧ م ، بل اعتلى العرش أثناء تلك المدة إمبراطور تلو إمبراطور وسط سلسلة من الاغتيالات والثورات ، والحروب الداخلية والمؤامرات ، بين أبناء البيوت الإمبراطورية . وعلى الرغم من هذا كله استطاعت الدولة البيزنطية أن تحافظ على آسيا الصغرى والقسطنطينية ، وربما يرجع الفضل فى ذلك إلى تقسيم الإمبراطورية إلى بنود (Themes) أى لواءات وأقسام حربية مشحونة بالجند ، والسلطات فيها بيد العسكريين ؛ ولهذا التقسيم العسكرى بقايا فى نظام اللواءات فى العراق

وسوريا ولبنان والأردن حتى العصر الحاضر .

ومن المتواضع عليه بين الكثير من المؤرخين أن التوسع الإسلامى فى أوربا توقف نهائياً بانتصار زعيم مملكة الفرنجة شارل مارتل – وهو قارله فى الكتب العربية – على عبد الرحمن الغافقى والى أسبانيا الإسلامية وجيشه العظيم ، فى وقعة تور أوپواتييه ، بالجنوب الغربى من فرنسا الحالية سنة ٧٣٢ م . غير أنه مع التسليم بضخامة عدد الجند فى كل من الجانبين اللذين اشتبكا فى تلك المعركة الشهيرة ، ومع التسليم بعنف القتال الذى استمر طوال تلك الوقعة الكبرى بين مشاة الفرنجة الكثيرين وفرسان إسبانيا وإفريقيا المتوقدين حماسة للإسلام ، ومع التسليم بأن انتصار الجيوش المسيحية على المسلمين كان نصراً حاسماً تامًّا ، يبدو أن وقعة پواتييه لا تعدل نجاح الإمبراطور ليو الإيسورى فى دفع هجمات المسلمين عن القسطنطينية سنتى ٧١٧ و ٧١٨ م . والمعادلة والمقارنة هنا ليستا لأن القسطنطينية كانت أقرب إلى محور الارتكاز فى الدولة الإسلامية بدمشق ، حتى إذا استولى المسلمون عليها صار من السهل احتفاظهم بها ، بل لأنه لو استقر المسلمون فى العاصمة البيزنطية لوجدوا بين مسيحيي شرق أوربا – ولما تهذب مسيحيتهم بعد – مجالا حرًّا للدعوة الإسلامية . ومن الواضح أنه إذا كان الفتح العثمانى للقسطنطينية فى القرن الخامس عشر الميلادى ساعد على نشر العقيدة الإسلامية فى طول شبه جزيرة البلقان وعرضها ، من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ، فمن السهل علينا أن نتخيل مدى النجاح الدينى الذى يصحب استيلاء العرب عليها قبل ذلك بسبعة قرون ، حين كانت الشعوب البلقانية والروسية لا تفقه من المسيحية إلا نزراً ، ولا تدرى من النظم والمعتقدات الدينية إلا قليلاً . أما غرب أوربا ، فإن المسلمين اصطدموا فيه بقوة مسيحية منظمة أركانها على شىء كثير من تراث الإمبراطورية الرومانية وجبروتها القديم ، ولو تمّ لهم النصر فرضاً فى پواتييه ، لظل بينهم وبين فتح فرنسا وتحويلها إلى الإسلام عقبات دونها عقبات . وعلى عكس ذلك تماماً بدت الحال فى شرق أوربا ، حين كانت مراكز المقاومة الروحية والسياسية فى حكم العدم المعدوم بين الروسيين والمجريين ،

أو بين البلغار وصقالبة شبه جزيرة البلقان ، بالقياس إلى ما كان بفرنسا من قوة الكنيسة والملكية الفرنجية . والحاصل أنه لولا دفع الإمبراطور ليو الإيسورى للقائد الأموى مسلمة بن عبد الملك وجنوده وأساطيله عن القسطنطينية ، لانتشر الدين الإسلامى انتشار النار فى البرارى عبر البلقان وسهول المجر إلى جبال أورال شمالا وشرقاً ، ولم يجنب الحضارة الأوربية ذلك سوى مقاومة القسطنطينية سنة ٧١٨ م ، وعلى رأسها إمبراطور شاب قدير ، تسنده استحكامات هائلة وأسوار سامقة ، وبحرية مسيطرة على البواغيز ، فضلا عن النار الإغريقية التى لم يعرف المسلمون وقتئذ عنها شيئاً ، وفضلاً عن النجدة البلغارية التى وصلت إلى الإمبراطور وهو فى أشد ساعات الحرج . ولهذ يحق للإمبراطور ليو الإيسورى أن يعتبر من أصحاب الوقائع الفاصلة فى التاريخ ؛ وإذا كانت روسيا الحالية دولة مسيحية أرثوذكسية لا دولة إسلامية — شيعية أو سنية — فمرجع ذلك للإمبراطور ليو وانتصاره على المسلمين عند القسطنطينية ؛ على أننا لا ندرى مبلغ ما أفادت المدنية الأوربية من تلك النتيجة .

بعض المراجع لهذا الفصل

Bell. (R.) : The Origins of Islam in its Christian Environment, 1926.

Lammes, (H.) : Islam, Beliefs and Institutions. Trans. E. Denison Ross, 1929.

Margoliouth. (D.S.) : Mohammed and the Rise of Islam, 1905.

Muir, (W.) : Mahomet and History of Islam, 1894.

Nicholson (R.A.) : A Literary History of the Arabs. 1907.

الفصل الخامس

دولة الفرنجة

البيت الميروفنجى — مصادر سلطته — بقاء الحضارة اللاتينية فى غاليا وزوالها عن بريطانيا — انحلال السلطة العامة على عهد الميروفنجيين — بقاء فكرة وحدة الفرنجة — ظهور الكارولنجيين — شارل مارتل — البعوث التبشيرية المسيحية فى ألمانيا — النزاع بين البابوية واليونانيين واللومبارديين فى إيطاليا — استنجادها بالفرنجة — الزعيم پيپن الفرنجى والبابا ستيفن — شارلمان — زيارته الأولى روما — تتويجه سنة ٨٠٠ م — أهمية ذلك الحادث — النهضة الكارولنجية — فضل إيرلندا وإنجلترا على تلك النهضة — ألكوين — الحروب السكسونية — استخلاص وسط أوربا للكنيسة اللاتينية—منابع القوة والضعف فى الإمبراطورية الكارولنجية—تفككها فى القرن التاسع الميلادى.

غلبت على خلائف الملك كلوفس فى الدولة الفرنجية صفات جعلتهم فى تقدير المؤرخين أحد صنفين اثنين . إما متبربرون على جانب من القسوة والغدر ، أو أشخاص مستضعفون أهلكتهم حياة الفسق والفجور . غير أنه برغم ما تردّى فيه أولئك الملوك الميروفنجيون من الفظائع والمباذل وبرغم ما أغرقوا فيه من عداوات بين بعضهم وبعض ، وما انغمسوا فيه من حروب داخلية فى غير طائل أو جدوى ، ظل البيت الميروفنجى باقياً على العرش نحواً من ثلاثمائة من السنين (٤٨١ — ٧١٦ م) ، أى أنه عمر أطول مما عمر ملوك آل فالوا والبوربونيين فى فرنسا ، وملوك الإستيوارتيين والهانوفيريين فى إنجلترا ، فى العصور الحديثة ؛ بل هو فى طول سلامته أوضح ما يكون من الأضداد إذا جمعت المقارنة بينه وبين البيوت الإمبراطورية فى الدولة الرومانية . ويرجع السبب فى ذلك إلى عظيم المهابة والكرامة التى لصقت بأبناء كلوفس وسلالته جميعاً ، حتى إنهم ظلوا ثمانى وسبعين سنة يقامون على العرش ، وتوضع على رؤوسهم

التيجان ، وتقدم إليهم فروض الطاعة ، بعد أن أمسوا أطيافاً ملكية واهية ، وأضحت السلطة الحقيقية فى أيدى رؤساء البلاط . ومصداق ذلك ما كتب المؤلف أينهارت فى وصف المرحلة الأخيرة من حكم الميروفنجيين ، إذ قال : « إنه لم يكن للملك شيء فى المملكة سوى اسمه ، وذوائب شعره المرخاة ، ولحيته الطويلة ، حتى إذا جلس الواحد منهم على عرشه ، أخذ يلهو بإدارة شئون الدولة لهو الصبية ، فيستقبل الرسل الوافدين عليه من مختلف الممالك ، ويكلمهم بكلمات يتلقنها ليتفوه بها صاغراً مأموراً . ولم يكن للملك ما يصح أن يدعيه لنفسه سوى ضيعة صغيرة ، فيها مسكنه الضئيل الحجم وحاشيته القليلة العدد ؛ فإذا اقتضى الأمر سفراً ركب عربة مثل عربات المزارعين من أهل الريف ، تجرها الأبقار ، ويسوقها فلاح من الفلاحين ؛ وإذا جاء إلى القصر ، أو ذهب إلى الاجتماع السنوى العام[1] ، سار موكبه فى هذه الهيئة ، على حين أصبح رئيس البلاط مسيطراً فى شئون الإدارة والحكم ، مهيمناً على جميع المسائل السياسية ، الداخلية منها والخارجية » .

أما ما استولى على الفرنجة من خارق الإحجام عن التخلص من أسرة ملكية طال عليها سالف الأمد — بعد أن أضحت غير صالحة — فيبدو أن مجال تفسيره وتبريره هو الدين ، لأن الميروفنجيين لم يكونوا ملوكاً فحسب ، بل كانوا كهنة كذلك ، ولا جناح عليهم مما ينغمسون فيه من المنكرات ، لأنهم مقدسون وكيف يجرؤ أحد عليهم ، أو على ذوائب شعورهم المرخاة ، وهم منحدرون من ميروفيوس الذى يرجع أصله إلى إله البحر العظيم ، حسبما ورد فى أغانى الفرنجة القديمة ؟ الواقع أن هالة من القدسية حاطت تلك الأسرة الفرنجية زمناً طويلاً قبل ظهور المسيحية ، فلم يكونوا بحاجة إلى أسقف مسيحى أو غيره من رؤساء الدين ليؤيد سلطانهم ، أو يوطد لهم الولاء عند جنودهم من الفرنجة . وليس معنى ذلك أنهم لم يفيدوا أو يستمدوا شيئاً من اعتناق مؤسس دولتهم كلوفس دين المسيحية الكاثوليكية ، بل المعروف أنهم نعموا منذئذ بعطف

---

(١) انظر ما يلى هنا ، ص ٨٨ .

الكنيسة الكاثوليكية ، وتجنبوا بذلك جميع العقبات التى تعثر فيها القوط الشرقيون واللومبارديون أصحاب الأريوسية فى إيطاليا . والقوط الغربيون — وهم كذلك أريوسيون — أثناء مقامهم حول تولوز ، بالجنوب الغربى من فرنسا ، وأثناء حكمهم إسبانيا قبل أن يتحولوا إلى الكاثوليكية . وإذا وقفت الكنيسة الكاثوليكية من الفرنجة موقف الحليف الصديق — وهى الهيئة الوحيدة التى بدت على شىء من النظام والثقافة والنور ، بعد زوال الإمبراطورية الرومانية فى الغرب — فإن الفرنجة استطاعوا أن يغيروا على الأريوسيين واليهود ، وهم مطمئنون إلى ثناء الكنيسة على جميع ما يقومون به ضد هؤلاء وأولئك من الأعمال ، واعتبار جميع انتصاراتهم الحربية فتحاً مبيناً للكنيسة والدين . يضاف إلى ذلك أن الأولين من ملوك الميروفنجيين اعتبروا أنفسهم — برغم أصلهم الجرمانى — ولاة ونواباً عن الإمبراطورية البيزنطية فيما تحت أيديهم من البلاد بغرب أوربا ، فتقبلوا ما أنعم به الأباطرة البيزنطيون عليهم من ألقاب ووظائف فخرية ، واستخدموا النقود الرومانية القديمة ، بل يبدو أنهم أحبوا محاكاة الأباطرة الرومانيين والروح الإمبراطورية القديمة فى التوسع والفتح فى غير حساب . أما أباطرة القسطنطينية ، فاعتبروا الفرنجة ودولتهم قوة حربية تابعة لهم ، بدليل إشارة الإمبراطور موريس سنة ٥٩٠ م إلى ما بين الفرنجة والإمبراطورية البيزنطية من ولاء ، وذلك حين دعا موريس الملك الفرنجى تشلدبرت الثانى لمساعدة الإمبراطورية ضد اللومبارديين فى إيطاليا .

يتضح من ذلك أن أرض غاليا ، وهى المسماة فرنسا فى العصر الحاضر ، ظلت جزءاً من العالم الرومانى والحضارة اللاتينية ، برغم الأصول الجرمانية التى يرجع إليها ملوكها الفاتحون من الفرنجة ، الذين جعلوا اسمها من اسمهم . ثم إنه على الرغم من فتح الفرنجة غاليا ، واحتلالهم أراضيها تمام الاحتلال ، لم يسلك ملوكهم مسلك العداء نحو أهلها من الغاليين ، على عكس القوط الأريوسيين الذين سبقوهم إلى تلك البلاد ، وأولئك هم الذين وجه إليهم كلوفس وسلالته كل جهوده وحاربهم بكل قوته. أما أهل البلاد من الغاليين فلم ينلهم بسوء ، لأنهم تقبلوا الحكم الجديد ورضوا به ؛ ولم يمسس الكنيسة

الكاثوليكية ضرّ ، لأنها وقفت من الفرنجة موقف الصديق ، كما لم يلحق الإمبراطورية القائمة على شاطئ البوسفور البعيد شيء من الأذى ، لأن الإمبراطور اعتبر الفرنجة حلفاء أقوياء . ثم لم تلبث الكنيسة أن فرضت ثقافتها اللاتينية على الفاتحين ، فتشرّبها الفرنجة في سهولة ، حتى إن حفيد كلوفس المسمى تشلبرت استطاع أن ينظم أشعاراً في اللغة اللاتينية ، وأن يضيف إلى الحروف اللاتينية أربعة أحرف يونانية ، إمعاناً في التفاخر والدلالة على مبلغ ما اكتسب من العرفان ، مع أنه هو الذى نعته المؤرخ الفرنجى جريجورى التورى أسوأ النعوت ، حين سماه نيرون عصره ، تشبيهاً له بالإمبراطور الرومانى المعروف ، كما وصفه بأنه هيرود زمانه . إشارة إلى الملك اليهودى الشهير فى فلسطين ، إبان مولد المسيح عليه السلام .

وبينما تظل الحضارة اللاتينية حية آمنة ثابتة البنيان فى غاليا الفرنجية ، إذ بها تزول من بريطانيا بزوال السيادة الرومانية عنها فى النصف الأول من القرن الخامس الميلادى . والعلة فى هذا وذاك واضحة إذا اعتبرنا مدى ما أثر الرومان فى كل من البلدين ، فضلا عن اختلاف الأحوال التى لابست الفتح الرومانى لكل منهما . ففى غاليا خلف الرومان مدناً عديدة آهلة بالسكان ، على حين لم تعدُ المدن الرومانية فى بريطانيا خمس عشرة أو ست عشرة مدينة صغيرة . وفى غاليا عاشت الكنيسة موفورة الثروة والنفوذ ، على حين بدت فى بريطانيا قليلة الحول والطول ، كما يستدل من ضآلة البناء فى كتدرائية سلتشستر . ثم إنه يستدل من المقارنة بين رسائل سيدونيوس أبوليناريس ، وما كتبه جريجورى التورى فى القرن الساس الميلادى ، أن طبقة مثقفة من أعيان المزارعين المنحدرين من أصل غالى عاشت فى غاليا قبل الفتح الفرنجى وبعده ، على حين أن طبقة بريطانية مشابهة لم توجد فى الجهات التى أتم السكسون فتحها من شرق بريطانيا وجنوبها . ولا يقل عن ذلك أهمية اختلاف الأحوال التى حاطت غزو الفرنجة غاليا وغزو السكسون شرق بريطانيا وجنوبها ، إذ رضى معظم الغاليين بالفاتحين من الفرنجة ، على حين قاوم البريطانيون غزاتهم من السكسون أشد المقاومة ، وهم بحكم موقعهم الجغرافى أكثر أهل الجزيرة

البريطانية تأثراً بالثقافة الرومانية وما أتت به أواخر أيامها من المسيحية . فلما طردهم السكسون إلى الأجزاء الغربية من الجزيرة ، وحلوا محلهم بأجزائها الشرقية والجنوبية فى انتهى الأمر بانغمار الديانة المسيحية وضياع الثقافة اللاتينية من البلاد . غير أن النظم القائمة على الحرية القبلية التى درج فيها الفرنجة وغيرهم من سائر الجرمان الذين أسسوا الدول لأنفسهم على أنقاض الدولة الرومانية فى الغرب ، لم تستطع أن تسلم من نار الحرب التى نشبت فى طول غرب أوربا وعرضها وقتذاك . فأبطل ملوك الفرنجة عادة الاجتماع السنوى العام ، وهو الاجتماع الذى جرى العرف بتقرير أمور القبيلة فى جلساته بطريقة التصويت العلنى ، وصارت إرادة الملك هى القانون ، ما دام النبلاء لم يعارضوها معارضة فعلية . لكن ملوك الفرنجة لم يفيدوا أية فائدة من ذلك التطور الجديد فى شئون الحكم ، لأنهم عاشوا خلواً من المسئولية السياسية والمعرفة بالتقاليد التاريخية ، فجعلوا من المبادئ التى سار عليها المجتمع الجرمانى فى تنظيم الملكية الخاصة قاعدة لوراثة المملكة ، إذ قسموا المملكة الواحدة أنصبة متساوية وغير متساوية بين الأبناء ، حسبما تملى الظروف والأحوال . ولما كان من الطبيعى أن تدب المنافسات والبغضاء والشحناء والحروب بين الأبناء ، فإن مملكة الفرنجة ظلت موبوءة بحروب داخلية لا طائل تحتها ، خمسة أجيال متتالية .

وترتب على تلك الحروب والخصومات التى سببتها أغراض لا تزيد فى قيمتها على نزوات العارمين ومرضى القلوب من الصبية ، أن فسدت أدوات الحكم ونظمه وقواعده بأرجاء البلاد ، بحيث لا يستطيع الباحث فى تاريخ الفرنجة الميروفنجيين فى غاليا إلا أن يلمس تدهور السلطة العامة تدهوراً متزايد الخطوات ، فضلاً عن ذهابها فى صورة امتيازات محلية أعطاها الملوك لنوابهم وصنائعهم من الإقليميين ، أو غصبها الإقليميون لأنفسهم غصباً ؛ مما أدى إلى ضياع الدولة وسلطانها تمام الضياع .

ومن ثم بدأت التطورات والتغيرات التى أطلق على مجموعتها سير هنرى سبلمان القانونى الإنجليزى اسم « النظام الإقطاعى » ، إذ دلته دراسته فى

القرن السابع عشر الميلادى على أن جميع السلطات فى مملكة الميروفنجيين ، كالقضاء وجمع الضرائب ، وتجنيد الجند للجيش أو للنفير العام ، غدت فى أيدى كبار الملاك من أصحاب الأراضى ، مدنيين وكنسيين سواء . وأضحى من المعتاد أن تحصل الكنائس والأديرة على براءات تعفى جهاتها المقطعة لها من المسئوليات والواجبات المفروضة على سائر الناس فى المملكة ، حتى بلغ الأمر فى المدينة المعفاة جهاتها الكنسية والديرية بمقتضى إحدى تلك البراءات أن صار الكونت — وهو الممثل العام للحكومة الملكية فى المدينة — لا يدخل تلك الجهات ألبتة ، لجمع الضرائب أو مباشرة القضاء ، أو تجنيد الجند للجيش أو للنفير العام ، إذ أصبحت تلك الأشياء كلها من حقوق المتملك على الجهة كائناً من كان ، وهو الذى يقوم عليها ويؤديها للملك إذا احتاج الأمر . ومعنى ذلك أن المتملك أصبح صاحب السلطة السياسية فى الجهة المقطعة له ، مع بقائه تابعاً للملك الشرعى تبعية غامضة غير معروفة الحدود ؛ ومما تجب ملاحظته هنا أن جزءاً كبيراً من أراضى غاليا الفرنجية أمسى فى أيدى الكنيسة أواخر عهد الميروفنجيين.

وبينما يجرى ذلك الانحلال مجراه التؤدة فى جسم الدولة الميروفنجية ، وبينما تسير الملكية من ضعف إلى ضعف ، وتأخذ الكنيسة فى الثروة والهمجية والفساد ، وتصبح الطبقة الغنية مستقلة بأراضيها تمام الاستقلال هدد العرب والآفار والصقالبة كيان المجتمع المسيحى فى الغرب ، فأشاع الضغط الناجم عن ذلك التهديد الخارجى فى جسم الدولة الفرنجية شيئاً من التماسك القديم الذى أذهبته انقسامات الملوك الميروفنجيين وحروبهم الداخلية . وبذا استطاعت الدولة الميروفنجية أن تحمى أطرافها ، وأن تسد الطريق مؤقتاً فى وجه ما عسى أن يهددها من الغزوات الجرمانية ، وأن تتغلب على الحركات الإقليمية القوية فى برجنديا وأقطانيا ، وفى نويستريا وأوستريا ، وهما الاسمان اللذان عرف بهما الجزءان الغربى والشرقى من فرنسا ، منذ سنة ٥٦١ م[1] . هكذا بقى التماسك الذى ورثته غاليا عن الرومان وأيامهم القديمة . ولم تستطع سنوات الانحلال

---

(١) انظر ما يلى هنا ، ص ٩١ وما بعدها .

والفوضى التى أعقبت وفاة الملك داجوبرت سنة ٦٣٨ م – وهو آخر الميروفنجيين الذين انفردوا بالحكم فى البلاد – أن تطمس من فكرة المملكة المتحدة الشاملة أقاليم غاليا كلها ، أو أن تنتقص من مسيحيتها وحضارتها الرومانية وأصولها الفرنجية.

ثم بدا فى الأفق عصر جديد بظهور الأسرة الجرمانية العفية التى تستمد مجدها الخالد من اسم شرلمان العظيم ، إذ تحولت الملكية الفرنجية بفضل تلك الأسرة الشارلمانية – أو الكارولنجية – من ضعف إلى قوة ، ومن خسة إلى هيبة ؛ ودل الكارولنجيون على أنهم أدهى من شهدت أوربا من أساتذة الحكم والحرب ، والفتح والنصر ، منذ أعظم أيام الإمبراطورية الرومانية العتيدة . وتغير مسرح الحوادث على يد أولئك الكارولنجيين تغيراً تامًّا ، فردوا المسلمين عن جنوب فرنسا إلى إسبانيا ، ومحوا دولة الآفاريين بالساحل الأدرياتى الشرقى من الوجود ، وخربوا دولتهم تخريباً جعلها لقمة سهلة للمغيرين عليها من المجريين . ثم أقام الكارولنجيون دولة بابوية فى إيطاليا ، بعد أن أزالوا عنها خطر اللمبارديين ، مما أدى إلى نتائج تاريخية ثلاث ، وهى استحالة تأسيس دولة إيطالية موحدة حتى سنة ١٨٧٠ م ، واتساع الهوة بين روما وبيزنطة ، وإفساح المجال للبابوية حتى أصبحت دولة سياسية مستقلة ، وهو ما اعتبره بعض المؤرخين سبباً فى دنيويتها وفسادها ، واعتبره بعضهم الآخر ضرورة لضمان حريتها الدينية وسلطتها الروحية . تلك نتائج ذات أهمية كبيرة ، لا نزال نلمس آثارها حتى العصر الحاضر ؛ وأكبر منها أهمية امتداد المسيحية إلى فريزيا وألمانيا ، وقبول شرلمان التاج الإمبراطورى من يد البابا ليو الثالث يوم عيد الميلاد سنة ٨٠٠ م ، فإن معنى ذلك كله أن الكنيسة المسيحية الكاثوليكية عوّضت بانتشارها عبر أوربا الوسطى ما فقدته بذهاب الشام ومصر وإفريقية وإسبانيا إلى المسلمين ، فضلا عن أنها أحيت الدولة الرومانية فى شخص شرلمان . وهذا وذاك لا ريب فتح مبين ، وليس فى التاريخ الأوربى ما يوازيه منذ أيام يوليوس قيصر ، والفضل فيه لتكامل الجهود بين البعوث التبشيرية الإنجليزية والأيرلندية والجيوش الفرنجية ، مضافاً إلى تشجيع البابوية وتأييدها العظيم .

أما الموطن الأصلى للكاولنجيين ، فهو الإقليم الواقع عند الطرف الأقصى

للدولة الرومانية فى الغرب – أى بلجيكا الحالية – حيث استمر القتال قروناً بين الرومان والجرمان من أجل الغلبة فى العصور القديمة . ثم غدا ذلك الإقليم من المملكة الفرنجية ، وصار جزءاً من البلاد التى عرفت فى تاريخها باسم أوستراسيا . وبرز من شخصيات تلك البلاد رجلان ، هما پيپن صاحب بلدة لاندن بمقاطعة برابانت الحالية ، ودوق أرنولف الذى صار أسقف مدينة متز فيما بعد . ثم لم يلبث پيپن أن أصبح رئيساً للبلاط فى أوستراسيا سنة ٦٢٢ م ، فزوج ابنته لابن أرنولف ، فكانت مصاهرة ليس فى الإمكان أبدع منها وقتذاك ، إذ صارت ابنة الحاكم الفعلى فى البلاد قرينة لابن رجل اجتمعت فى شخصه صفات الدوق والأسقف والقديس ، فضلا عن قرابته – إن صحت شجرة نسبه – إلى أسرة رومانية نبيلة من مدينة ناربون ، بالجنوب الشرقى من فرنسا الحالية .

لذا لم يكن عجباً أن يحتل نتاج تلك المصاهرة مكاناً عظيماً فى التاريخ ، وهذا النتاج هو پيپن الثانى[1] ، الذى تولى رياسة البلاط فى أوستراسيا سنة ٦٨١ م ، ثم فى نويستريا سنة ٦٨٧ م ؛ وهو جندى باسل وصديق صدوق للبعوث التبشيرية بين الألمان والفريزيين ؛ وهو كذلك أبو شارل مارتل ، والجد الأكبر للإمبراطور شرلمان . هذا هو نسب الإمبراطور الجليل الذى اتخذه الألمان والفرنسيون بطلا قومياً سواء ، دون أن يكون فى الحقيقة ألمانياً أو فرنسياً ، كما يفهم من منطوق اللفظين ، لأنه أوستراسى جرمانى لحماً ودماً ، تحدوه عقلية لاتينية نظيمة ، واعتقاد فى نفسه ونفس معاصريه أنه بطل المسيحية فى غرب أوربا .

أما شارتل مارتل – أو شارل المطرقة – وهو ابن پيپن الثانى ، فإنه تولى حكم أوستراسيا ونويستريا من دون ملوكها الميروڤنجيين ستاً وعشرين سنة ، بعد أن تغلب على جميع جيرانه فى ميادين القتال . ونال شارل لقب المطرقة لشدة ما أنزل بالكنيسة الكاثوليكية فى غاليا من صارم الضربات التى استلزمها فساد رجال الدين فى عصره ؛ على أن بعض السر فيما استقام له من الفتوح إنما يرجع

---

(١) انظر شجرة الأنساب رقم ١ ، فى آخر الكتاب .

إلى جنوده الفارعين المزردين من الأوستراسيين الذين لم تفسدهم حياة المدن ، فأولئك هم أصحاب الفضل فيما تم له من الظفر فى مختلف الميادين ، وأولئك هم الذين أعادوا لاسم الفرنجة روعته الحربية التى ضاعت ذكراها بعد أيام كلوفس وجموعه الجرمانية فى ساحات غاليا القديمة .

وأهم ما يذكر لشارل المطرقة من بين أعماله الحربية الباهرة انتصاره على الجيش الإسلامى العظيم بقيادة عبد الرحمن الغافقى والى إسبانيا فى يوم من أيام أكتوبر سنة ٧٣٢ م قرب بواتييه ،حين بلغت خسائر المسلمين ٣٧٥٠٠٠ ، على فرض صحة التقدير العريض الذى أورده بولص الشماس . والواقع أن ذلك الانتصار الكبير كان إنقاذاً وخلاصاً للدولة الفرنجية من خطر المسلمين ؛ ولو أنه لم يمنع المسلمين من إعادة الكرة على غاليا ، حيث استولوا على آرل وآفينيون ، وأقاموا بها ثلاث سنين حتى أخرجهم عنها شارل .

ثم إنه لا شك أن المسلمين لم يكونوا من القوة بحيث يستطيعون التغلب على غاليا ، بله البقاء فيها إن استطاعوا إلى التغلب عليها سبيلاً ، لأنهم فضلاً عن المؤامرات والدسائس التى هى بمثابة السدى واللحمة فى السياسة عند الشرقيين عامة، لم يكن المسلمون بنجوة من المتاعب من ناحية البربر فى إفريقية والمسيحيين فى إسبانيا . ومن هذا وذاك كان فى مقدورهم أن يواصلوا الإغارة والحرب — وإن لم يقدروا على الغلبة والاستيلاء — لولا هزيمتهم قرب بواتييه ، فلو أنهم انتصروا هناك لتعطلت أكبر الأعمال المسيحية التى باتت وشيكة الإنجاز فى أوربا وقتذاك ، بفضل مساعدات شارل المطرقة .

مثال ذلك أنه لم يكن فى الإمكان أن تتحول ألمانيا إلى المسيحية على يد رجال الدين من الفرنجة الذين دبت فيهم عوامل الفساد على عهد الميروفنجيين ؛ والفضل هنا يرجع إلى شارل المطرقة وخلفائه ، وإلى المبشرين من أيرلندا وإنجلترا ، حيث ران على المسيحية نور أضاء الدافع الروحى للتبشير بين الوثنيين . وأحيا الحماسة الدينية فى الكنيسة الغربية . ذلك أن شعوب الجزر البريطانية أخذت حين ذاك تنفض عن نفسها غيوم العزلة ، لتسهم سهمها الأول فى مضمار التقدم والمدنية العامة ، فبدأت سلسلة الأعلام الإنجليز أوائل القرن

الثامن الميلادى برجلين ، أحدهما عالم بحاثة اسمه بـيده ، وثانيهما مبشر قدير اسمه ونفرث . أما بيده فأصله راهب من نورثمبريا بشمال إنجلترا ، وهو ممن جعل العلوم كلها ميداناً لدراسته ، وهو مؤلف كتاب التاريخ الكنسى الذى احتل مركز الصدارة فى عالم الآداب اللاتينية ما ينيّف على أربعة قرون ، ولا يزال المرجع الأول لمعرفة تطور المجتمع المسيحى ونظمه الأولى فى بريطانيا . أما ونفرث فهو الذى اشتهر باسم بونيفاس وهو فى الواقع المبشر الأول بالمسيحية فى ألمانيا . وإذا كانت أعمال المبشر بين قوم من الهمج — الضاربين فى غاباتهم الكثيفة المترامية الأطراف — لا تترك عادة إلا أثراً قليلاً فى مدونات عصره ، فالحقائق المعروفة من حياة بونيفاس بين الألمان تدل دلالة واضحة على مبلغ ما اجتمع فى نفس ذلك الرجل من الحماسة والمثابرة ، وما اتصف به من القدرة والتوفيق . وذهب بونيفاس إلى ألمانيا بتعيين من البابا جريجورى الثانى سنة ٧١٩ م ، فقصد أولا إلى فريزيا ، حيث تتلمذ على مواطنه ولِبرود الذى يرجع إليه الفضل فى نشر المسيحية بين الفريزيين ، فتعلم منه أساليب التبشير . ثم انتقل بونيفاس إلى ألمانيا ، فما زال يعمل بين أهلها جاهداً فى خدمة الدين ، وأمدته الدولة الفرنجية بكثير من المساعدة حتى حول الهسيين والثورنجيين إلى المسيحية ، ونظم الكنيسة فى بافاريا . ثم عينه البابا رئيساً لأساقفة ماينز سنة ٧٤٨ م ، فصار له الإشراف على الجماعات المسيحية التى تكونت بفضل جهوده فى الأقاليم الوسطى والأقاليم الجنوبية من ألمانيا . ولا يقلل من جلال خدمات ونفرث أنه استعان بفئة غير قليلة من خيرة الرجال ، لأنه مهما قيل فى هذا الصدد فلا جدال فى أنه أول أولئك الذين ربطوا بين ألمانيا والمسيحية وتقاليدها الرومانية بأوثق رباط ، وأن قوة شخصيته النافذة هى التى جعلت نصر المسيحية حاسماً فى تلك البلاد .

غير أن الأحوال التى لابست وصول المسيحية إلى ألمانيا — فى القرن الثامن الميلادى — تخالف من ناحية هامة أحوال دخولها إلى غاليا قبل ذلك بقرون . ذلك أن التجار السوريين الذين جاءوا برسالة المسيحية إلى مرسيليا بأقصى الجنوب من غاليا ، إنما جاءوا إلى ولاية رومانية متمدنة غاية التمدن ، وليس لهم ثمة ميزة

يمتازون بها سوى أنهم أتباع دين شرقى مجهول ، ولم تنطق ألسنتهم بشىء من الشعر أو الميتافيزيقا أو القانون أو العلم ، فى مجتمع رفيع الثقافة فى كل تلك الفنون ، بل كان أقصى ما عندهم أنهم دعاة لطريقة فى الحياة جديدة ، تنمو حولها فى اللغتين اليونانية واللاتينية آداب أكثر سعة وانطباقاً على الحق من الآداب القديمة ، وتنبت منها مبادئ خلقية لا عهد لأحد بها من قبل. غير أن فرجيل وأشعاره الوثنية كانت أحسن وقعاً من نظم برودنتيوس المسيحى فى أسماع أرباب الدماثة والثقافة من أهل غاليا حتى القرن الخامس الميلادى ، وكان شيشيرون أكثر فصاحة من القديس أوجسطين ، وكانت اللاهوتيات المسيحية لا تزال عرضة لمزاحمة الآداب القديمة التى اعتبرها رجال المسيحية فى غاليا منبع خطر دائم ، بسبب ما فيها من إغراء . أما فى ألمانيا فلم يوجد شىء من تلك المزاحمة بين الثقافتين الوثنية والمسيحية ، ولم تصطدم أعمال البعوث التبشيرية بأية ناحية من النواحى التى ترقى إلى مرتبة الأدب والثقافة ، لأن بونيفاس وأصحابه إنما بشروا بين قوم على الفطرة ، جاهلين متبربرين ، لا يعرفون من اللاتينية والثقافة القديمة وآدابها شيئاً إلا ما تعلموه على المبشرين وأهل الأديرة .

وبينما عكف بيده على تأليف كتابه الخالد بصومعته ببلدة چارو فى نورثمبريا ، وبينما دعا بونيفاس للمسيح بين أهل ثورنجيا المتوحشين ، وبينما أصلح شارل المطرقة أساقفة غاليا ورؤساء أديرتها بتحويل ممتلكاتهم الواسعة إلى إقطاعات مدنية ، كانت الليالى والأيام تهيئ لحركة جديدة شقت الكنيسة المسيحية نصفين ، وهى الحركة التى أدت إلى نشأة الحلف بين البابوية وملوك الفرنجة ، وغيرت بذلك مجرى الحوادث فى غرب أوربا أعظم تغيير .

ذلك أن حكمة الكنيسة المسيحية هدت آباءها الأولين إلى قبول ما لم يستطيعوا له منعاً من قديم التقاليد والعادات والمعتقدات ، بدليل استقبال الكنيسة لمبدأ تعدد الآلهة الراسخ بين شعوب البحر الأبيض المتوسط ، وتطويعها ذلك المبدأ لما تقتضيه عقائدها . لذا جعلت الكنيسة من خافى الأرواح التى خشيها الوثنيون ملائكة مقربين ، ومن صورة إيزيس صورة للسيدة مريم العذراء ، كما جعلت من الأبطال القصصيين قديسين مباركين ، ومن

المهرجانات الوثنية أعياداً مسيحية . وإذا تقبلت الكنيسة ذلك كله إشباعاً لرغبة الملحة فى اتخاذ الوسطاء والأولياء من دون الله ، فإنها رحبت كذلك بجميع الأشكال المادية التى جعل الناس منها وسيلة للتعبير عما فى نفوسهم — كائنة ما كانت تلك الأشكال ، فرضيت عن إقامة التماثيل وتصوير الصور ؛ كما شجعت عبادة المخلفات الأثرية ، ودعت إلى حج الأماكن التى احتوت على تلك المخلفات . وظل الحال على ذلك المنوال حتى كان القرن السابع الميلادى وما اتصف به من التدهور العقلى والخلقى ، فبدت هذه الناحية المادية من الديانة المسيحية هى العليا ، إذ انتشرت عبادة الصور فى الكنيسة الكاثوليكية — وفى الكنيسة البيزنطية على مقياس أكبر — حتى تراءى للمفكرين أن الاعتقاد فى الوحدانية أضحى للمسلم واليهودى دون غيره من المؤمنين بالله .

من أولئك المفكرين قامت طائفة كبيرة بجبال أرمينيا والأناضول ، وهى طائفة البولصيين ، الذين عرفوا بتلك التسمية لأنهم اعتمدوا على أقوال القديس بولص فى تفسير الدين ، ولم يعترفوا بشىء من قواعد السلوك إلا ما وجدوا له سنداً فى الأناجيل . فرفضوا شروح الآباء الأولين ، وأبوا سلطة الكنيسة ، وأنكروا السر المقدس فى العشاء الربانى ، ونبذوا تمجيد الصليب وعبادة العذراء ؛ وكانوا فى تصونهم وتطهرهم أشبه شىء بالمصلحين البروتستانت فى القرن السادس عشر الميلادى . ومن جبال الأناضول التى انتشرت فيها تلك التعاليم جاء ليو الإيسورى إمبراطور الدولة البيزنطية أوائل القرن السابع الميلادى ، ويبدو أنه تأثر برسالة أولئك البولصيين ، ودله عقله العسكرى الصارم أن الأعمال التى يجمعها قولنا عبادة الصور — أى الأيقونية[1] — مفسدة لجسم الدولة ، وأن إنقاذ الإمبراطورية من عادية المسلمين لا يكون على يد الرهبان والمخلفات القديمة والتعاويذ ؛ وإنما الذى ينقذها هو النظام الداخلى والبسالة فى ميادين

---

(١) أطلق المؤرخون لفظ (iconolatry) على تقديس الصور القديمة المتعلقة ببعض الأحداث الشهيرة وشخصياتها فى الكنيسة المسيحية ، كما أطلقوا لفظ (iconoclasm) على طائفة الكارهين لتقديس هذه الصور وأشباهها . ونقل المؤرخون المسلمون هذين اللفظين إلى العربية بنصهما وفصهما تقريباً ، فقالوا الأيقونيين للدلالة على الراغبين فى الصور وتقديسها ، وقالوا اللاأيقونيين للدلالة على طائفة الكارهين لعبادتها ، وسوف يستخدم هذان اللفظان كلما دعت الحاجة فيما يلى دون تعليق (زيادة)

القتال . ولذا أصدر ليو مرسوماً يقضى بتحطيم الصور فى أنحاء الإمبراطورية، وهبت لذلك المرسوم عاصفة من السخط فى إيطاليا ، فأضيفت إلى قائمة المشكلات بين الكنيستين اليونانية الأرثوذكسية والرومانية الكاثوليكية — وهى مشكلات الخلاف حول مسألة الطبيعة الواحدة ، والنزاع فى أمر الإرادة المفردة ، والمطالبة بالمساواة بين بطريق القسطنطينية وبابا روما — أن الإمبراطور اليونانى الأصل يريد أن يحرم الإيطاليين الصور الدينية المحبوبة . ثم انفجرت الثورة فى رافنا ، وقتل أحد الأراخنة اليونانيين ، وجمع البابا جريجورى الثالث سنة ٧٣١ م مجلساً من الأساقفة الإيطاليين ، وأصدر فيه قراراً بالحرمان ضد اللاأيقونيين الذين يحرمون عبادة الصور . وكانت البابوية فى موقفها هذا جريئة متحدية ، غير حاسبة لمخاطرتها أى حساب ، اعتماداً منها على ما لقيته من تأييد الإيطاليين . غير أن الأمر الذى يوجب الاهتمام هنا هو أن البابوات لم يستطيعوا الوقوف طويلاً فى وجه الإمبراطورية ، وأنهم أخذوا من ثم يبحثون عن جهة يستمدون منها المعونة اللازمة .

ولو أن البابوية اختارت أن تبنى سياستها فى تلك الظروف على مبدأ التحالف مع المملكة اللومباردية ، لتغير مجرى التاريخ تمام التغيير . ولم يعوز البابوية دليل على ما يبرر ذلك المنهج لو أنها اتخذته قاعدة لسياستها المستقبلة ، فاللومبارديون أظهروا قابلية واضحة للمدنية والحياة المستقرة الآمنة — برغم ما اصطبغ به مجيئهم إلى إيطاليا من ألوان العنف والوحشية — إذ نبذوا الأريوسية ، ودونوا بعض قوانينهم الأولى فى كتب محفوظة ، وما لبثوا حتى بدت عليهم أمارات التقدم فى فنون الحياة ، على عهد ملكهم المستنير ليوتبراند (٧١٢—٧٣٢) م . ثم إنهم دلوا على أنهم قوة يعتمد عليها دائماً فى أية مشكلة تأتى من ناحية الإمبراطور البيزنطى ، لأنهم منذ حلولهم بإيطاليا سنة ٥٦٨ م لم يفتروا عن محاربة السيادة الإمبراطورية ، ولم يكن صلحهم مع الإمبراطور سنة ٦٨٠ م سوى هدنة مؤقتة عديمة الأثر فى كامن العداء والنزاع بين الطرفين . والسبب فى ذلك أن ملوك اللومبارديين جعلوا سياستهم الرئيسية أن يقطعوا بين الإمبراطورية وإيطاليا حتى آخر شبر من الأرض الإيطالية ، كما أن الأباطرة

لم يستطيعوا إلا أن يعتبروا اللومبارديين معتدين على ممتلكاتهم الموقوفة . والخلاصة أنه لم يكن ثمة شك فى الأوساط البابوية أن اللمبارديين سوف يبرهنون على أنهم حلفاء غُيُر متحمسون ، ضد الأباطرة اللاأيقونيين الذين قضوا بتحريم عبادة الصور المقدسة .

غير أن البابوية رأت — بعد شيء من المراوحة السياسية بين الصداقة والعداوة — أن اللومبارديين ليسوا أصدقاء بل أعداء ، رغم كثلكتهم وتقدمهم فى الفنون ، وكراهيتهم للدولة البيزنطية وأهلها ، وهو رأى صحيح دال على ما للعقلية الإيطالية من فراسة فائقة ومهارة فى معالجة الشئون السياسية . ذلك أن بافيا عاصمة اللمبارديين جداً قريبة من روما ، وأنه إذا انفرد الملوك اللومبارديون بالسيادة المطلقة فى إيطاليا ، فسوف تصبح البابوية أسقفية لمباردية . ولذا قررت البابوية أن تستعين على شئونها بقوة الفرنجة البعيدين ، بدلاً من أن تركن إلى جيرانها اللمبارديين أهل الحروب والأطماع الجامحة ؛ وأرسل البابا جريجورى الثالث مفاتيح قبر القديس بطرس إلى شارل المطرقة سنة ٧٣٩ م ، وطلب إليه أن يحل محلّ الإمبراطور فى المحافظة على روما . لكن شارل أبى ، ولم تمض على ذلك الحادث سنتان حتى أدركت الوفاة ثلاثة من الشخصيات السياسية العظيمة التى ملأت المسرح الأوربى فى النصف الأول من القرن الثامن الميلادى — أى الإمبراطور ليو الإيسورى ، والبابا جريجورى الثالث ، وشارل المطرقة .

وجاء إلى المسرح السياسى رجال آخرون ، لكن البابوية لم تغير من سياستها شيئاً . وما زالت الأحداث تجرى لمستقر لها حتى صار ملك الفرنجة وبابا روما إلباً واحداً ، زمن پيپن القصير ثانى أبناء شارل المطرقة والبابا زكريا ، أواسط القرن الثامن الميلادى . وكان پيپن القصير صديقاً للمبشر الإنجليزى بونيفاس ، وكلاهما يبتغى إعلاء شأن البابوية فى غرب أوربا ، وتقوية البعوث التبشيرية إلى ألمانيا ، وإصلاح الكنيسة فى مملكة الفرنجة إصلاحاً جديًّا . ثم آلت رياسة البلاط فى قسمى مملكة الفرنجة إلى پيپن ، بعد أن أوى أخوه الأكبر إلى دير من الأديرة معتزلاً أمور الدنيا ، فانفرد پيپن بشئون الدولة ،

وصار الحاكم الفعلى فى البلاد ، وما لبثت البابوية أن كافأته على موقفه من الكنيسة — فضلا عن تقواه التى أظهرها سياسة أو حماسة للدين — إذ أفتاه البابا زكريا على سؤاله إذا كان من الصواب أن يصبح الحاكم الفعلى ببلاد الفرنجة حاكماً رسمياً كذلك ، بقوله بأنه يصح له شرعياً أن يخلع الميروفنجيين . وأن يتخذ التاج لنفسه . وعمل پيپن بتلك الفتوى ، وتوّجه المبشر بونيفاس الإنجليزى ملكاً على الفرنجة ، فى كتدرائية سواسون ٧٥١ م .

ثم طرأ على البابوية ما حملها على مطالبة الكارولنجيين بأمر كفاء ما أسدته إليهم من خدمة جليلة ، وذلك حين تبين لها أن إيستولف — ملك اللمبارديين الجديد — يريد أن يروى غلته الحربية العامة ، بالاستيلاء على الأراضى الإمبراطورية والممتلكات البابوية فى إيطاليا مرة واحدة . ولقيت جيوش إيستولف من النجاح ضد الإمبراطوريين ما أثار أخوف المخاوف فى قلب البابا ستيفن ، فأسرع فى الذهاب إلى پيپن بناء على دعوة جاءته من عنده ، وعبر جبال الألب إلى فرنسا على علم من إمبراطور القسطنطينية ، وعقد مع ملك الفرنجة ميثاقاً مشهوداً سنة ٧٥٣ م ، إذ أنعم على پيپن بمرتبة البطرقية الرومانية — ومعناه أن پيپن صار من أشراف روما وحماتها الذائدين عن بيضتها — كما بارك له ولولديه بعده فى الملك تبريكاً دينياً للمرة الثانية ، وأخذ على الفرنجة المواثيق والعهود أن يختاروا ملوكهم من أعقابه دون غيرهم . وفى مقابل ذلك كله تعهد پيپن بإعادة المدن التى استولى عليها اللومبارديون من الإمبراطوريين ، لا إلى صاحبها اللاأيقونى هادم الصور المقدسة ، بل للدولة البابوية ، وكنيسة القديس بطرس . وقام پيپن بما تعهد به ، فحارب اللمبارديين حربين قصيرتين تطلبتا منه المجىء إلى إيطاليا مرتين ، حتى أجلاهم عن البلاد التى استولوا عليها منذ وفاة ملكهم ليوتبراند ، ثم سلمها جميعاً إلى البابوية تسليماً فى غير منّ أو استعلاء .

هكذا نشأت الدولة البابوية التى حكمها نفر من رجال الدين مدة تربو على أحد عشر قرناً ، وكانت معظم تلك المدة مسرحاً لسيل من الفوضى لا ينقطع إلا فى النادر القليل ، وهذا هو أصل الدولة التى ظلت عقبة كؤوداً فى

سبيل توحيد إيطاليا . وبقيت حجة وسبباً للغزوات الأجنبية والمؤامرات ؛ وليس من سرف الخيال هنا أن بعض العقول المتزنة فى القرن الثامن الميلادى ربما تظنن فى صحة دولة لا ترتكز على شىء أفضل من وقعتين حربيتين عنيفتين . ومن أجل الرد على أصحاب تلك العقول المتظننة — إن وجدوا فى ذلك العصر — طبخت الوثائق المعروفة فى التاريخ باسم الوثائق المزيفة طبخة دينية طيبة ؛ إذ اكتشف المكتشفون فى الوقت المناسب أن الإمبراطور قنسطنطين وهب إبان اعتناقه المسيحية فى القرن الرابع الميلادى جميع إيطاليا والقسم الغربى من أراضى الدولة الرومانية للبابا سلفستر ، ولم تمنع المغالاة الواضحة فى تلك القصة من قبولها — حتى بعد قرون من ظهورها — لدى رجال اشتهروا بالعداء الشديد للمطامع الدنيوية فى أغراض البابوية والكنيسة . والفضل كل الفضل لتلك القصة فيما نظمه دانتى فى الكوميديا الإلهية من بالغ التشهير بقنسطنطين فى الجحيم والجنة سواء . وذلك بعد خمسمائة سنة من وفاة الرجل التقى النقى مؤلف الوثائق المزيفة .

وتوفى الملك پيپن سنة ٧٦٨ م عن ولدين اثنين . وشاءت العناية الإلهية أن يموت أصغرهما ، وهو كارلومان بعد ثلاثة أعوام من وفاة پيپن ؛ فاستولى شارلمان — وهو الأكبر — على أملاك أخيه ، وصار له الملك فى دولة الفرنجة وحده . فَضْلٌ من الله ونعمة ، على قول راهب من خيرة الرهبان تذكرةً لشارلمان فى إحدى المناسبات . وهكذا جرت المقادير فى أعنتها ، وظلت مملكة الفرنجة ثلاثة وأربعين عاماً بنجوة من بلاء التقسيم الذى لم يستطع پيپن على قوته وسطوته أن يتجنبه . وهكذا خلا الجو لما سوف يقوم به شارلمان من عمل نافذ ناجز ، فبرهن على أنه جدير بما اتفق له من حظ ، ودل على ما اتصف به من جسارة فى تؤدة ، ولطافة فى حزم ، وألفه فى هيبة ، فضلا عما امتزج فى نفسه من حب الانغماس فى أنواع اللذة والشهوة ، مع المهارة فى السياسة وشئون الحكم . وسعة الأفق وقوة الإدراك ، ودقة الذاكرة وصلابة الإرادة . ومن أسرار قوة شارلمان أنه لم يحاول أمراً من الأمور المستحيلة ، ولم يطلب إلى رعيته أن تقوم على إنجاز ما ليس فى طاقتها أن تنجزه . وبدا شارلمان فى أعين

الفرنجة نموذجاً للقائد العسكرى الذى تجب عليهم طاعته ، إذ كان طويل القامة بديناً ، موفور النشاط والحركة والهيبة والعزم ، ذا عينين زرقاوين لامعتين ، وأنف أقنى ، وغير ذلك من صفات الجندى المجاهد فى سبيل الدين . وأحب شارلمان أغانى الفرنجة القديمة ، واستخدم اللسان الفرنجى دون اللاتينى فى مخاطبة الناس ، ولبس الملابس الفرنجية التقليدية – وهى الأحذية العالية الرقبة ، والجوارب الطويلة الحمراء ذات الأربطة المتقاطعة ، والقباء القصير من قماش الكتان ، والعباءة المربعة من الصوف الأبيض أو الأزرق كما اشتهر ببساطة العيش ، والاعتدال فى المطعم والمشرب ، مما جعل شخصيته العفية القوية موضع الإعجاب والمحبة من جميع الناس . وإذ برهن شارلمان فى مختلف النواحى من حياته اليومية على أنه ملك فرنجى صميم ، فإنه توخى فى كل المسائل الخاصة بالثقافة والدين أن يستجيب إلى ما يأمر به رجال الكنيسة الكاثوليكية ، وأن يعمل على بسط نفوذهم بين الناس .

ولم يمض على شارلمان فى الحكم إلا قليل حتى أخذت سلسلة من الحوادث تجرى نحو نتيجة مشابهة لما استقام لأبيه پيپن من وثيق الحلف مع البابوية ، إذ أغار ملك من ملوك اللمبارديين – وهو ديديير ، ويقال ديزيدير – على الممتلكات البابوية ، كما حدث زمن پيپن ، واستنجد البابا بملك الفرنجة سنة ٧٧٣ م ، فى أحوال أشبهت ما سلف من أحوال ، وجاء ملك الفرنجة إلى إيطاليا تلبية للبابوية كما لباها أبوه من قبل . ولم يوجد فى هذا القياس من فارق سوى ما بدا على الحوادث من عنف وشدة فى الدور الثانى من تلك القصة ، فضلا عن القوة التى امتازت بها شخصيات ذلك الدور ، مما جعل النتيجة فيه حاسمة قاطعة . ذلك أن العداوة كانت مستحكمة الحلقات بين شارلمان وديديير قبل هجوم الملك اللمباردى على رافنا وتهديده روما ، بسبب زواج شارل من ابنة ديديير وكرهه لها كرهاً أدى إلى الطلاق ، ثم إيواء ديديير لأولاد كارلومان وإلحاحه على البابا أن يتوجهم ملوكاً فى إرث أبيهم . لكن البابا هادريان – وهو النبيل الرومانى المتكبر الرصين – لم يكن من السذاجة بحيث يشترى عداوة شارلمان – وما فيها من خطر على البابوية – بصداقة الملك

اللمباردى الكريه ومحالفته المعيبة ، بل استنجد بشارلمان حامى روما وبطريقها ، فلم يلبث شارلمان أن أنجده بجيش فرنجى كبير جاء على رأسه إلى إيطاليا سنة ٧٧٣ م . وحارب شارلمان ملك اللمبارديين حتى أنزله من عرشه ، بعد أن انتصر عليه انتصاراً كاملاً غير منقوص ؛ وخسف البيت اللمباردى ، بعد أن حكم ملوكه معظم إيطاليا مائتين من السنين . واتخذ شارلمان لنفسه تاج المملكة اللمباردية . وأمر أن يذهب آخر ملوك اللمبارديين إلى دير من الأديرة ، ليقضى حياته فى صومعة صوامع التنسك .

واستطاع شارلمان أثناء الحملة الإيطالية أن يذهب إلى روما سنة ٧٧٤ م ، حيث استقبله رجال الكنيسة — الشاكرون له صنيعه — استقبالاً حافلا خاشعاً . وكان عمر شارلمان وقتذاك اثنتين وثلاثين سنة ، ولم تسبق له رؤية روما وعجائبها : من كنائس رومانية مبثوثة ، ومخلفات دينية ذات معجزات ذائعة ، وقساوسة صقلتهم حياة الدين ، وتراتيل جريجورية ملؤها سحر ورنين ، وطقوس دينية مرتبة أحسن ترتيب . ولذا تركت تلك الزيارة أعمق الأثر فى عقله الغض ، كما خلقت فى نفسه الساذجة ذكريات لم تستطع محوها السنون . والمعروف أن زيارة مشابهة — بعد سبعة قرون من ذلك التاريخ — أدت بالمصلح الألمانى مارتن لوثر إلى الخروج على الكنيسة الكاثوليكية والمذهب الكاثوليكى ؛ لكن روما الرائعة أحدثت عكس ذلك فى قلب شارلمان ، إذ ألفاها غنية بكل مظاهر الرضا الإلهى إلى درجة منقطعة النظير ، ولا بد أنه وقف خاشعاً هنيهة حين رأى تابوت المهد المقدس ، وحين وقعت عينه على رأس القديس بطرس ورأس القديس بولص . وكيف لا يكون ذلك وهو حين يجيل بصره ذات اليسار أو ذات اليمين يرى فيما يرى قارورتين فيهما ماء ودم مما تنزى من جنب المسيح ، وهو يعالج سكرات الموت مصلوباً[١] ، أو يرى القباء الأرجوانى الذى لبسه المسيح حتى آخر يوم من حياته فى الأرض ، أو يرى قطعة من خشب المهد الذى كان به المسيح حين جاءه المجوس مصدقين . ولابد أن شارل رأى غير ذلك من أكداس المخلفات التى احتوت عليها روما ، مثل مائدة

---

(١) عنى المؤلف هنا بذكر المخلفات الدينية المتعلقة بالعقائد المسيحية الكاثوليكية . (زيادة) .

العشاء الأخير ، وصورة المسيح التى قيل إنها من رسم القديس لوقا الإنجيلى ، بل قيل على لسان بعض الخياليين الجريئين إنها من رسم الله سبحانه وتعالى . ولا بد أن شارلمان أحس وهو يصلى بكنيسة القديس بطرس بأنه هكذا تكون الصلوات ، حيث ترن التراتيل الدينية رنيناً كأنه من أصوات الملائكة ، وتؤدى العبادات أداء بالغاً فى الروعة والجلال ، بالقياس إلى ما ألفه شارلمان فى بلاده من طقوس العبادات . فلا غرو إذا عزم شارل على نقل تلك الطقوس — وما يلزمها من نظم كهنوتية رومانية — إلى دنيا الفرنجة ، ولا عجب أنه صادق على هبة أبيه پيپن ، وهى الهبة التى تأسست على مقتضاها دولة البابوية بأواسط إيطاليا ؛ بل يبدو أن شارلمان زاد عليها ، وبذا جعل من البابا صديقاً صدوقاً .

وبعد ست وعشرين سنة من تلك الزيارة ، جاء شارلمان مرة أخرى إلى إيطاليا ، بسبب مسألة بابوية أعقد وأخطر مما أتى من أجله أول مرة . وفحوى تلك المسألة أنه إذا اتهم أهل روما البابا — وهو وقتذاك ليو الثالث — بتهمة السيمونية[1] والزنا والحنث بالأيمان ، وانقض عليه أعداؤه فى شارع من شوارع روما انقضاضاً مهيناً ، ثم أوسعوه ضرباً حتى أشفى على الهلاك ، وهو ما حدث فعلا للبابا ليو الثالث يوم الخامس والعشرين من أبريل سنة ٧٩٩ م ؛ ثم إذا خلصه أصدقاؤه من أيدى أولئك الطغام ، وذهبوا به إلى مدينة بادربورن بالشمال الغربى من ألمانيا الحالية ؛ حيث عقد الملك شارلمان الفرنجى بلاطه ؛ فمن يكون زعيماً بالفصل فى تلك القضية التى يقف فيها خليفة المسيح على وجه الأرض موقف المتهم ؟ هنا قال أصحاب الرأى بغرب أوربا إن الفصل فى تلك القضية لا يمكن أن يكون من اختصاص السيدة الأثينية الجميلة رينى ، التى أقامت نفسها إمبراطورة فى الدولة البيزنطية بالقسطنطينية ، بعد

(١) السيمونية (Simony) لفظ كنسى جرى فى مصطلح العصور الوسطى ، ومعناه تعيين رجال الدين فى الوظائف الكنسية بطريقة بيع هذه الوظائف أحياناً لمن يدفعون فيها ثمناً عالياً ؛ وأساءت هذه الطريقة إلى سمعة بعض الباباوات والكنيسة الكاثوليكية فى بعض العصور . وهذا اللفظ مشتق من اسم سيمون الساحر الذى أراد الحصول على بركة الروح القدس من أحد الرسل أتباع المسيح عليه السلام بمال قدمه لذلك الغرض ، ليقوم هو على بيع هذه البركة بثمن معلوم للراغبين فى اعتناق المسيحية . انظر كتاب العهد الجديد ، أعمال الرسل ، الإصحاح الثامن ، سطر ٩ — ٢٥ . (زيادة).

أن أمرت بسمل عيني ابنها قنسطنطين السادس ، وحكمت عليه بالسجن ليقضي حياته في ظلام ليس بعده ظلام . ذلك أن ريني لم تصلح — لا هي ولا ابنها اللاأيقوني التعس — أن تكون حكماً في قضية البابا ، برغم ما اشتهرت به من التقوى والأيقونية[1] ، وبرغم حاشيتها من الرهبان ، وإشادتهم بورعها وتقواها ، إذ ليس في وسع امرأة — أقل ما يقال فيها أنها يونانية قاتلة — أن تكون إمبراطوراً رومانيًّا . هذا ما استيقظ له الناس من حقيقة مفاجئة سنة ٨٠٠ م ، وهو أنه ليس في طول الدنيا وعرضها إمبراطور صالح ترضى حكومته ، ولا بابا خالص من شوائب الاتهام .

والدنيا في نظر الناس في تلك العصور إذا خلت من إمبراطور يحكمها ، وبابا يهديها سواء السبيل ، فمصيرها لا محالة إلى خراب مسيطر وفوضى عاجلة . ولابد من شخصية تذود عن بيضة المسيحية ، وتصون التراث الروماني وتقاليده . وتقوم على محاكمة البابا المشكوك في أمره ، وتضاهي بين حكومتها وخلافة عبد الرحمن الأموي بقرطبة ، أو خلافة هارون الرشيد ببغداد . ولم يكن أقرب إلى تلك الشخصية المطلوبة من شارلمان ، الذي بلغ من شهرته الذائعة وقتذاك أن بطريق مدينة بيت المقدس أرسل إليه مفاتيح الأماكن المقدسة طلباً لحمايته ، بعد أن يئس من حماية الإمبراطورية البيزنطية .

وعلى هذا فلا سبيل إلى الشك في أن شارلمان فكر مليًّا في الوظيفة الإمبراطورية الشاغرة ، وهو في طريقه إلى إيطاليا صحبة البابا ليو الثالث خريف سنة ٨٠٠ م ، وأنه رأى أن لا سبيل إلى سد ذلك الفراغ الهائل إلا بتبرئة البابا وإقامة إمبراطور على الإمبراطورية . غير أنه يبدو أن شارلمان لم يقرر في نفسه طريقة الوصول إلى هذين الهدفين ، بل ترك الأمر لما سوف تتمخض عنه الصدفة والمقادير . أما البابا ليو فأبرأ نفسه من جميع ما نسب إليه ، بحضرة شارلمان ، في مجمع كبير من رجال الدين من الفرنجة والرومان ، وأقسم بذلك على الإنجيل بكنيسة القديس بطرس ، يوم الثالث والعشرين من ديسمبر تلك السنة . وفي الخامس والعشرين ، وهو يوم عيد الميلاد عند المسيحيين ، بينما

---

(١) انظر ما سبق ، ص ٥٩ . (زيادة) .

ينهض شارلمان من ركعته ، بعد اختتام صلاة بكنيسة القديس بطرس ، تقدم نحوه البابا ليو ، ووضع التاج الإمبراطورى على رأسه . فهلل المصلون ، وهتفوا هتافاً يبدو من عبارته أنه لم يكن عفو الساعة بل نتيجة اتفاق سابق، إذ صاح المصلون فى صوت واحد « يعيش شارل أغسطس المعظم ، يعيش الإمبراطور المتوج بفضل الله ، يعيش شارل المنصور » (Korolo piissimo Augusto a Deo coronato vita et victoria) . وهكذا بعثت الإمبراطورية ، وصار لغرب أوربا إمبراطور رومانى مرة أخرى .

ومن المحتمل كذلك أن شارلمان تبرم بالطريقة المفاجئة التى تمّ عليها التتويج ، كما يشير أينهارت صاحب سيرته ، لأنه لم يسبق فى تاريخ الإمبراطورية بالغرب أن إمبراطوراً تلقى التاج من يد البابا ؛ على أن ما بنته البابوية من الحقوق المستندة إلى ما حدث — فى حفل عيد الميلاد تلك السنة — لم يبرز إلا بعد قرون ؛ وعلى أية حال لم تكن طريقة التتويج مدعاة للاهتمام وقتذاك ، بقدر ما كان لوقوع التتويج نفسه من أهمية بالغة . ثم إن اللقب الإمبراطورى لم يجرّر فى أذياله مالا أو أرضاً ، ولم يصبح شارلمان بسببه صاحب سلطان فى إسبانيا أو بريطانيا أو أفريقية التى كانت كلها ولايات تابعة للإمبراطورية الرومانية فى سالف الأمد ، بل لم يجلب اللقب الإمبراطورى إلى شارلمان شبراً من لومبارديا التى أخضعها وتملك عليها قبلا ، وما كان لذلك اللقب أن يضيف إلى خدمته جندياً واحداً ، أو سفينة حربية واحدة . وعلى الرغم من ذلك كله لاريب فى أهمية ما حدث من إحياء الإمبراطورية الرومانية فى الغرب ، إذ بفضله تكون الشعور بالوحدة الأوربية تكوينه السياسى الأول ، وهو الشعور العميق الذى ظهر واضحاً أزمنة الشدة والحرج عبر القرون ، مثل هيئة التحالف الأوربى فى مطلع القرن التاسع عشر الميلادى ، وهيئة عصبة الأمم فى أول القرن العشرين .

ومما يجعل شارلمان جديراً بما نال من شهرة وفخار ، أنه استأدى نفوذه الواسع لتشجيع حركة الإحياء الفكرى بقارة أوربا ، بعد أن ترديت أوربا فى غياهب الأمية منذ انهيار دولة الرومان . غير أن النهضة الشارلمانية أعوزتها

صفات الجمال والحرية والجرأة التى اتصفت بها الحركة الإنسانية فى العصر الذى يفصل بين بترارك وجاليليو – وهو عصر النهضة الأوربية العظمى – وذلك لأن الأدب فى نظر شارلمان وعقله المتدين لا ينبغى أن يعدو خدمة الدين ، ولم يطلب شارلمان إلى أهل العلم الذين اجتذب إلى بلاطه من أنحاء البلاد الأوربية ، أن يكتشفوا حقائق جديدة لتنوير الإنسان ، لأن الكتب المقدسة وسع نورها السموات والأرض ، وبها مفاتيح الحق والهدى إلى سواء السبيل ، وذلك برغم ما بمتونها وقتذاك من نصوص غامضة وعبارات مغلقة . فطريقة أهل العلم فى نظر شارلمان أن ينسخوا من الكتب المقدسة نسخاً واضحة الكتابة سهلة القراءة ، ليدرسوها ويتأملوا فيها ، ولا جناح عليهم إذا اقتضى الأمر تعديل عباراتها أو توضيح نصوصها بشروح من عندهم ، لإفهام تلاميذهم ولكى يصبح بالدولة رجال مؤهلون للقيام على تلك الشئون العلمية فى غير انقطاع ، أمر شارلمان جميع الأسقفيات والأديرة فى الإمبراطورية أن تعنى بأمور التعليم .

غير أنه ليس من العدل أن يكون الحكم على الحركة الفكرية فى ذلك العهد مستنداً إلى الأدب فحسب ، لأنه – باستثناء كتاب أينهارت فى سيرة شارلمان – أدب لا يعلو عن المتوسط ، والضوء فيه لا يرى إلا بمقارنته بالظلام الذى خيم على أوربا فى القرون السابقة لعهد شارلمان . أما الجدير بأن يكون مادة للحكم على الحركة الفكرية الشارلمانية ، فهو المكانة الجديدة التى صارت للعلم والتعليم بالبلاط وسائر البلاد ، منذ قيام شارلمان فى المملكة ، والتفاف العلماء من كافة الدول الأوربية حول الملك ، وتأليفهم مدرسة القصر التى أمر شارلمان بانتقالها معه أينما سار ، حتى فى حملاته الحربية . يضاف إلى ذلك ارتفاع الكلفة بينه وبين أولئك العلماء فى مجالسه ، وإصراره على معرفة القراءة والكتابة للراغبين فى الوظائف الدينية والترقية إلى المراتب العالية فى الكنيسة ، فضلا عن إنشائه المدارس فى الأسقفيات والأديرة ، وتشجيعه نسخ الكتب وتصحيحها وجمع المفقود منها ، ولذا فمن الواضح أن الابتكار لم يكن من طاقة ذلك العصر ، ولا سيما إذا عرفنا أنه لا توجد وقتذاك فكرة عن العلم بالمعنى الحديث ،

ولا تفكير علمى فيما وراء أوربا من البلاد ، ولا ثمة نزوع إلى الاستكشاف . والواقع أن ذلك العصر لم يكن بحاجة إلى الابتكار أو المبتكرين ، بل إلى الرجال القادرين على استعادة ما فقد وصيانة ما يستعاد ، أملا فى بناء مجتمع مستنير وسط ظلام الهمجية الضاربة .

ولولا مصابيح العلم والأدب التى أضاءت بضعة من بلاد غرب أوربا بشىء من النور وقتذاك ، لما استطاع شارلمان أن يحقق شيئاً من ذلك الأمل ، ولقامت فى وجهه صعوبات أشد مما قام منها فعلا فى وجهه . ذلك أن جزيرتى أيرلندا وإنجلترا بقيتا مدة القرنين السابع والثامن الميلادى بنجوة من الأحداث الخطيرة التى نزلت بالقارة الأوربية على يد المسلمين ، فلم تنصرفا — برغم ما ثار بكل منهما من حروب داخلية — إلى مثل ما انصرفت إليه فرنسا وغيرها من البلاد التى أنهكتها الإغارات الإسلامية ، بل ظلتا فى حال من الأمن الخارجى ، فأضاء العلم والتقوى بعض المدن فى كل منهما — مثل أيونا وأرماخ وجارو ويورك — بضوء لامع متقطع النور . واشتهر بالجزيرتين وقتذاك شهرة غير قليلة رجل ضليع فى اللاتينية ، ذو معرفة باليونانية وقليل من العبرية ، وهو ألكوين الذى ولد وتربى بمدينة يورك عاصمة المملكة النورثمبرية بشمال إنجلترا ، حيث تمازجت المؤثرات الرومانية والأيرلندية أحياناً وتصادمت أحياناً أخرى ، مما جعل العناية بالأدب فيها واضحة العلامات ، وجعل خزائن الكتب فى مدينة يورك تبدو زاخرة ، بالقياس إلى أمثالها من الخزائن بغرب أوربا غداة مجىء شارلمان إلى عرش الفرنجة .

ولذا وضع شارلمان أمله فى مدينة يورك ، واتخذ ابنها ألكوين مستشاره الروحى ، وتهيأت الفرصة لذلك العالم الإنجليزى الذى يرجع أصله إلى أسرة نبيلة ، حين دعاه ملك الفرنجة لوصف الدواء الفكرى لإنهاض إمبراطورية هوت من ساطع النور إلى مهاوى الظلمة والضلال . جاء ألكوين إلى بلاط شارلمان لتحقيق ذلك الأمل ، بقلب عامر بالإخلاص والهمة ، ونفس تفيض بالحماسة والنشاط ، وموهبة ملؤها القدرة على الكتابة والنقل من السالفين فى أسلوب بليغ ؛ فنظم القصائد اللاتينية فى مدح شارلمان ، وكتب الرسائل

الكثيرة فى التربية والتعليم والأخلاق ، وألف فى الرد على هراطقة الإسبان الذين قالوا بأن المسيح ليس كلمة الله ، وإنما اتخذه الله ولداً ، مما لا يحفل الناس بقراءته فى العصر الحاضر خشية الملال . غير أن ألكوين فى عصره لم يقلّ عن أحد من عظماء الشخصيات التاريخية التى كونت من نشاطها ومؤانستها وحماستها جوًّا صالحاً للتقدم الفكرى ، بقطع النظر عما هو معروف من نقص الموهبة الابتكارية فى ألكوين بالذات . ويكفى لمعرفة قيمته الحقيقية أن مدرسة القصر التى أنشأها ألكوين ببلاط شارلمان خلقت مستوى جديداً فى عالم الثقافة ، وأن أصل التشريع الذى عين مسئوليات الكنيسة فى ميدان التعليم ، وما ترتب على تلك المسئوليات من إقامة المدارس بمختلف الأسقفيات والأديرة ، إنما يرجع كله إلى تأثير ذلك الإنجليزى العفى الدءوب الأنيس . وإليه كذلك يرجع الفضل فى بدء ما تطلبته النهضة العلمية وقتذاك من عمل هائل فى نسخ المخطوطات ، وتحريرها وضبطها وصيانتها ، وهو أقصى وأعظم ما استطاع ذلك العصر أن يسهم به فى مضمار التقدم البشرى ؛ وكفى أن أقدم النسخ الخطية من كتب الأدب اللاتينى القديم وعددها اثنا عشر كتاباً ، إنما يرجع الفضل فى صيانتها إلى نساخ النهضة الشارلمانية .

ومما يوجب الانتباه من أعمال ذلك العهد العظيم أن ألمانيا دخلت نهائيًّا دائرة الإمبراطورية الفرنجية والكنيسة الكاثوليكية ؛ وهو ما لم تستطع دولة الرومان أن تقوم به يوماً من الأيام ، برغم فتح غاليا على يد يوليوس قيصر ، أى منذ القرن الأول قبل الميلاد . والحقيقة — على قول أينهارت فى كتاب السيرة الشارلمانية التى تعتبر على قصرها نموذجاً فى كتابة السير — أن شارلمان لم يضاعف من مساحة الدولة التى ورثها عن أبيه فحسب ، بل إنه أخضع لحكمه جميع القبائل المنتشرة فيما بين الراين والفستولا . واختار شارلمان من الطرق الحربية لإنجاز تلك العملية الهائلة طريقة الضرب فى غير هوادة أو كلل ، مهما تكن المقاومة ، حتى اقتحم العقبتين اللتين وقفتا حجر عثرة فى سبيل تقدم المسيحية فى أوربا الوسطى ، وهما كتلة السكسونيين فى وستفاليا بغرب ألمانيا الحالية ، وكتلة الآفاريين الذين ازدادوا وحشية على وحشيتهم بما نهبوا من

مدن البلقان ، وتصدوا للجيوش الشارلمانية عبر الدانوب الأوسط . ولذا ظل شارلمان يحارب السكسونيين ثلاثاً وثلاثين سنة – كلها عنف ومقاتل – حتى أخضعهم وحولهم قسراً إلى الديانة المسيحية ، كما تطلب ثمانى رحلات حسوماً متتابعة حتى هدم الآفاريين الذين قيل عن أسلاب كنوزهم المكدسة إنها رفعت شارلمان من عالى الغنى والثورة إلى شاهق الفيض والوفرة . وكيفما كان الأمر ، فالذى يدعو إلى الملاحظة هنا هو أن العمل الذى قام به شارلمان لم يحتج إلى عودة مرة أخرى ، إذ دخل السكسونيون المسيحية ، واختفى الآفاريون من مسرح التاريخ إلى كتبه ، وامتد تيار النفوذ الفرنجى امتداداً دائباً وئيداً يحمل فى طياته بذور الحضارة المسيحية اللاتينية شرقاً ، صوب الأراضى التى هى الآن بولندا وبوهيميا والنمسا والمجر .

ولو شاء شارلمان أن يغير من حضارة ألمانيا أو يصبغ أهلها من السكسونيين بالصبغة اللاتينية ، كما فعل يوليوس قيصر فى غاليا بعد فتحها ، لما استطاع إلى ذلك سبيلا ناجحاً ، لأن السكسونيين الذين تخلفوا بألمانيا ، ولم ينتقلوا مع إخوانهم إلى الشواطئ البريطانية ، تعلقوا بدين آبائهم أشد التعلق ، واعتصموا بحبله أوثق الاعتصام ، وساعدتهم غاباتهم الكثيفة على صيانته وإقامة شعائره اعتزازاً بوطنيتهم التى أفناها شارلمان . ولذا قاوم السكسونيون مقاومة المستميت جميع البعثات التبشيرية المسلحة التى أنفذها شارلمان لنشر المسيحية فيهم ، وظلوا على مقاومتهم هذه بقيادة زعيمهم ويدوكند حتى هدمتها الجيوش الشارلمانية ، فحطمت أصنامهم ، وأحرقت أحراشهم المقدسة وما فيها من المعبودات وشاهق الشجر ، وهددت معالم استقلالهم ، وأجبرتهم على اعتناق الدين المسيحى الذى قذف به الغزاة فى حلوقهم بحدّ السيف . وعلى الرغم من ذلك كله بقى السكسونيون على إخلاصهم القديم – وشأنهم هنا شأن العناصر الجرمانية كلها فى التاريخ – ، فظل وُتان إله الغابات الخضراء أقرب إليهم من المسيح . ولم يجعلوا من النظرة اللاتينية المبنية على الوضوح والدقة والنظام نموذجاً لهم يوماً من الأيام ، بل احتفظوا بلغتهم ، واحتفظوا معها بروح الغموض والحدة والعنف ، مما اختص به الخلق الجرمانى بالقياس إلى الخلق اللاتينى .

غير أنه ليس ثمة ما يدعو إلى الاعتقاد بأن شارلمان باء بفشل ذريع على قول بعض المؤلفين الفرنسيين ، أو أن المجهود الحربى الهائل الذى بذل فى عهده الخارق ضاع سدى أو ذهب هباء ، لأن الغرض الذى استهدفه شارلمان فى حروبه وحملاته — وهى البالغة ثلاثاً وخمسين حملة ، والشاملة لجميع الجبهات الأوربية ، من بلاد الدانيين ، والسلافيين ، والسكسونيين ، والآفاريين والدالماشيين ، واللومبارديين ، والإسبانيين كذلك — لم يكن مجرد إلقاء درس قاس لتفهيم تلك الشعوب معنى الروح اللاتينية ، بل قصد شارلمان أن يحمى العقيدة الكاثوليكية التى سار عليها غرب أوربا من عادية أعدائها الذين هددوها من كل صوب وحدب . ومعنى ذلك أن النضال لم يكن نضالا بين اللاتينى والتيوتونى ، أو بين الغاليرومانى والجرمانى ، بل بين المسيحيين اللاتين فى غرب أوربا — من الجرمان والغاليين والرومانيين والإسبانيين سواء — والقوات المحدقة بهم من جميع الجهات المعاندة للمسيحية . وخرج شارلمان من ذلك النضال ناصراً منصوراً ، إذ أمن أوربا الوسطى للكنيسة الرومانية ، وجعل السكسونيين والباڤاريين المغلوبين فى أقصى الإمبراطورية على قدم المساواة مع الفرنجة الفاتحين ، وبذا خلق ألمانيا من العدم ، وأدخلها فى حيز الوجود السياسى . وإذا هو لم يفلح فى هدم الشكيمة العربية فى إسبانيا ، ولم يلق فى طريق رجوعه من شبه الجزيرة الإسبانية سوى الهزيمة على أيدى الغسقونيين والبسقاوية الذين اعترضوا جيوشه فى ممرّ رونسفال بجبال البرانس ، فإن تلك الهزيمة الوحيدة فى تاريخ شارلمان أسبلت عليه من ساطع المجد ما لم تستطعه الانتصارات الكثيرة ، بفضل الخيال القصصى الذى أضفى على حملته الحربية فى وادى نهر الإبرو شمال مدينة برشلونة هالة من هالات الحروب الصليبية ، ونسجت حول اسم قائده رُولان الذى خر قتيلا فى ممر رونسفال ما لا حصر له من أكاليل الشعر والأغانى .

ولما مات الإمبراطور العظيم سنة ٨١٤ م ، تفرقت إمبراطوريته الشاسعة أجزاء ، ومن تلك الأجزاء كانت أصول معظم الدول الحديثة فى غرب أوربا . أما السبب فى ذلك التفرق ، فهو أن شارلمان لم ينجح فى تأسيس حكومة

مركزية تستطيع البقاء بعد ذهاب شخصيته القوية ، وربما كان إخفاقه فى ذلك الأمر نعمة من النعم فى التاريخ الأوربى . ولذا وجب البحث فى النواحى الأخرى من أعماله الكثيرة لمعرفة الناحية التى اختص فيها بالنجح ، ومن أجلها استحق الخلود ، وتلك أنه اعتلى العرش فى زمن أظلمت فيه آفاق المستقبل السياسى واضطربت ، وضعفت فكرة السلطة العامة حتّى تضاءلت ، وشحبت مصابيح العلم والأدب حتى انطفأت أو كادت ؛ فأجاءها شارلمان ونادى أن تقف الوثنية وتيارها ، وأن تخمد الفوضى ونارها ، وأن تنقشع الجهالة وظلمتها المطبقة على الناس . وإلى شارلمان كذلك يرجع الفضل فى تعيين الصورة الجغرافية التى ثبتت عليها المسيحية اللاتينية فى أوربا منذ أيامه حتّى العصر الحاضر ، وإلى دأبه المتصل يرجع الفضل فى الإحياء الفكرى العظيم ، كما يرجع الفضل إلى روحه المتوثبة وحيويته الفياضة فى تأسيس فكرة الحكومة القوية المتمدينة التى تهتم بنشر الدين ، وإقرار العدل واستماع شكاة الرعية ، فضلا عن التوسع فى التعليم وصيانة العلم . وإذا كانت المنشآت العامة والنظم المركزية التى أفردها الإمبراطور بعنايته ، وتولاها برعايته ، لم تستطع أن تعيش طويلا بعده ، فإن الإقليميين من الدوقات والكونتات وغيرهم من الإقطاعيين تمكنوا تحت حماية حكمه الطويل أن يبنوا لأنفسهم ثروات خاصة ، وأن يجعلوا لأسراتهم سلطات وحكومات مركزية لم تلبث أن أضحت دولا صغيرة ، قادرة على حماية نفسها ضد أى هجوم خارجى مفاجئ ؛ واستطاعت هذه الدول أن تحفظ شيئاً من تراث اليونان والعرب والرومان ، لأنها قامت على أسس فى الحكم الذى وضع نموذجه شارلمان .

ومحور ذلك النموذج هو السلطة الشخصية لا الحكم الاستبدادى المطلق ، لأن الإمبراطور الذى لم يباشر سلطاته عن طريق جيش نظامى تقوم الإمبراطورية على رواتبه ، ولم يعتمد على بيروقراطية منظمة لتصريف شئون الإدارة والحكم ، بل لم تستند ماليته على دخيلة أو ضريبة معينة تأتى إلى الخزينة نقداً ، لا يستطيع أن يسيطر على أمور الدولة إلا من ناحية السلطة الشخصية والنفوذ الواسع ، ولا يستطيع طبعاً أن يقوم بدور الحاكم المستبد المطلق . ومن

الدليل على ذلك مجالس الأعيان (placita generalia) التى اجتمعت فى المناسبات الكبرى لبحث حاجات الدولة وشئونها العامة ، حيث غدا شارلمان هو الممثل لمصالح الرعية ، لا الموظفون الذين يظلمون الفقراء ويرهقونهم بالمطالب الباهظة . ثم إنه ليس فى الإمكان أن تستقيم السلطة فى دولة كبيرة على قاعدة الاستبداد والحكم المطلق ، دون أن يكون هناك نظام حكومى ثابت الأركان ، وهو ما لم يوجد فى الإمبراطورية الفرنجية ، أو غيرها من الدول فى العصور الوسطى . يضاف إلى ذلك أن شارلمان خطا خطوات ضرورية نحو اللامركزية فى إمبراطوريته ، فأسند الحكم فى إيطاليا إلى ابنه پپن ، وفى أقطانيا بالجنوب الغربى من فرنسا الحالية إلى ابن آخر ، وهو لويس .

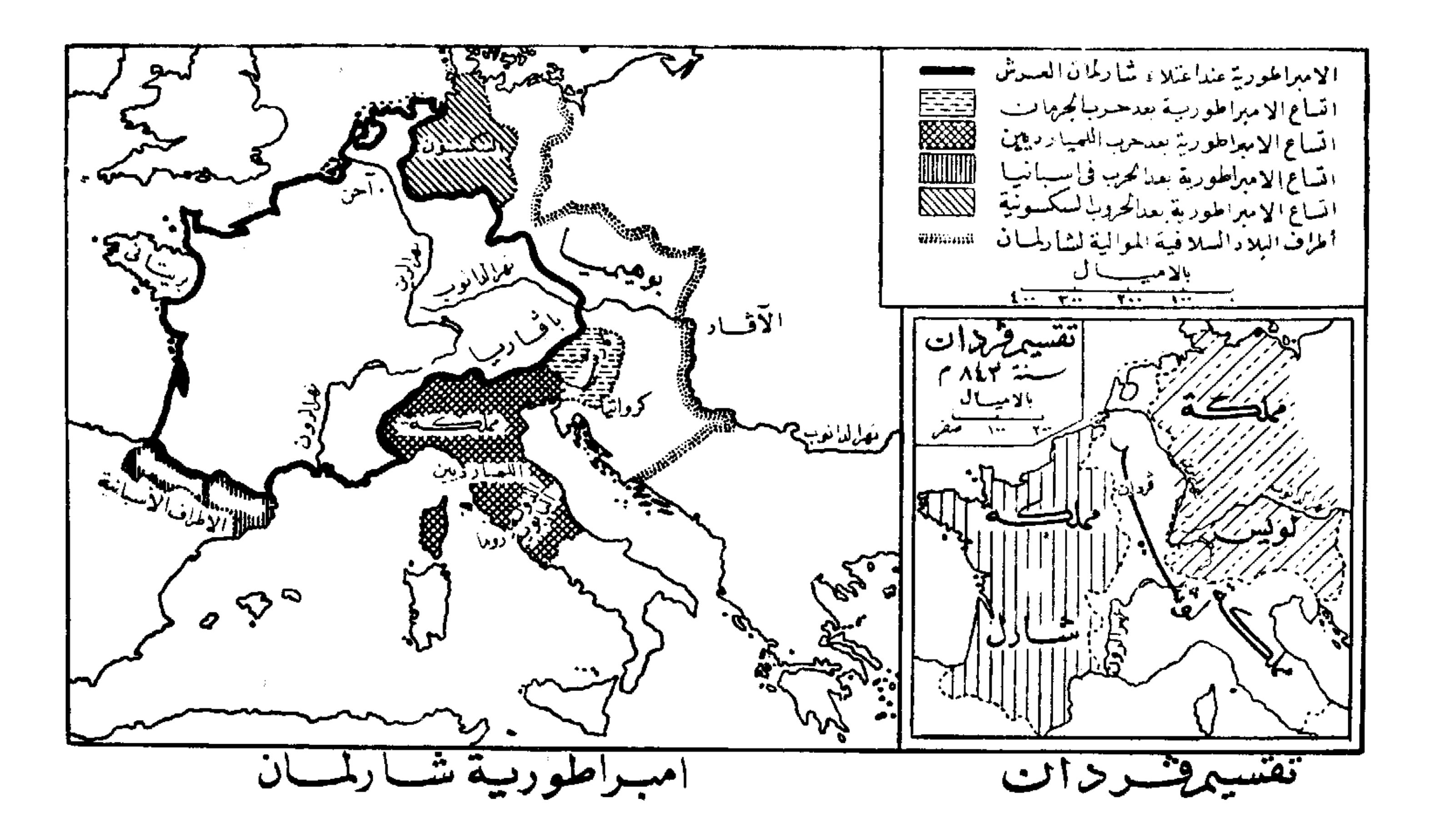
والمعروف أن طائفة الموظفين المدنيين زمن شارلمان — إن صح استخدام هذا المصطلح للدلالة على رجال تابعين لمهنة غير معينة فى ذلك العصر — أعوزها العدد والمهارة والأمانة ، ولم يكن عملها سائراً حسب أى نظام . وإذ أصرّ الإمبراطور على النظر فى كل شىء بنفسه ، فإن كثيراً من المسائل الخطيرة مرت دون أن تسترعى أيما انتباه ، على حين استرعت أمور تافهة اهتماماً ليس بعده اهتمام . والواقع أن فقدان النظام الثابت أدى إلى فقدان الحكم العادل بين الناس ، وإلى تهاون الموظفين فى تنفيذ المرسومات الإمبراطورية (Capitularies) ، أو تنفيذها على صورة جائرة ، كما أدى إلى قلة الضبط والرقابة على الأساقفة والكونتات الذين بيدهم شئون الحكومة المحلية فى الأقاليم ، غير أن عزمات الإمبراطور المهيب خففت من تلك الآفات مدة ، إذ دأب شارلمان على التنقل فى أرجاء إمبراطوريته من جهة إلى جهة ، ومن ناحية إلى أخرى ، ليتفقد أفراد الرعية وأحوالهم ، وينصف شكاواهم ، ويجعل شخصه فى متناول الجميع من الناس ، حتى إذا لم يستطع أن يقوم على ذلك بنفسه أرسل المبعوثين الإمبراطوريين (missi dominici) للقيام على هذه المهام نيابة عنه .

وبرغم ذلك كله أخذت بضعة عوامل هامة تنخر فى الإمبراطورية الشارلمانية طوال عصر شارلمان ، كما تنخر الحركات القومية فى الإمبراطوريات الحديثة فى العصر الحاضر ، إذ تطورت الإقطاعات التى مُنحت نظير الخدمة

العامة حتى صارت ضياعاً تورث ، وأضحى الأفصال التابعون أمراء مستقلين . ثم إن الإنعامات الخيرية السياسية التى أغدقها شارلمان على الكنيسة فى ألمانيا لم تلبث أن صارت مصدراً لسلطات واضحة الأثر فى التوازن السياسى فى تلك البلاد ، وإلى شارلمان وعهده ترجع أصول الأديرة العظيمة التى قامت بنصيب كبير فى ترقية الزراعة والتجارة والعلم فى ألمانيا ، كما ترجع الممتلكات الغنية الشاسعة — والمكانة السياسية المستقلة — التى تمتع بها رؤساء أسقفيات كولن وتريرز وماينز بألمانيا حتى أيام نابليون .

ومعنى ذلك أن أوربا تدين للفرنجة وإمبراطورية شارلمان بالصورة التى استقرت عليها فى العصور الوسطى ، وأنه على حين بقيت أوربا الشرقية وآسيا الصغرى للدولة البيزنطية ، وحكم المسلمون إمبراطوريتهم المزدوجة من بغداد وقرطبة ، غدت المسيحية اللاتينية من نهر الإبرو إلى جبال الكربات تحت حكم الفرنجة والبابوية . بذا أصبح الألمان فى ألمانيا مسيحيين خاضعين للبابا وأساقفته ، وأضحى التشك أهل بوهيميا فى دائرة التجارة الفرنجية والبعثات التبشيرية فى روما ، وصارت إيطاليا اسماً جغرافياً ، محتلاً بالدولة البابوية فى وسطه ، متصلا بالفرنجة عن طريق المملكة اللومباردية التى خضعت لشارلمان منذ أوائل حكمه . أما غاليا — أى فرنسا الحالية — فامتزج سكانها بعضهم ببعض تمام الامتزاج ، بعد أن سوى بينهم الدين ، ونظمت أحوالهم الكنيسة ؛ فلم يبق فرق بين أهل البلاد الأصليين من جنس البحر الأبيض المتوسط — ذوى البشرة السمراء والأجسام القميئة الذين يرجع عهدهم إلى ما قبل التاريخ — وبين سلالة المهاجرين من الرومان الفاتحين ، والكلت الأنشاط ، والفرنجة الأشداء . وأما إسبانيا ، فإن الدولة الإسلامية بها لم تعد قوة دافقة فاتحة وشارلمان على قيد الحياة ، ثم ما لبثت تلك الدولة حتى انقلبت إلى موقف الدفاع ضد البقايا المسيحية التى أنبتت فيما بعد مملكتى نافار وأراجون وملوكهما ، ممن تم على أيديهم إخراج المسلمين والحضارة الإسلامية من شبه الجزيرة .

ولما مات شارلمان سنة ٨١٤ م ، لم يكن ثمة محيص من تفكك الإمبراطورية بعده ، وهو ما لم يخل من فائدة ، لأن الحكم فى مثل تلك الإمبراطورية



امبراطورية شارلمان

تقسيم ڤردان

لا يتسنى لفرد واحد إلا فى أوقات الشدة ، وبشرط أن يكون هذا الفرد شخصية فذة ؛ وفيما عدا ذلك فلابد من توزيع السلطة توزيعاً يكفل الحكم بالعدل والقسطاس المستقيم . ولتوزيع السلطة فى مثل تلك الإمبراطورية طرق شتى ، كأن تصبح أقساماً معقولة ، مع الاحتفاظ بنوع لائق من السلطة المركزية السارية على جميع الأقسام . لكن أبناء شارلمان – وكلهم بين متوسط فى المقدرة أو ساقط فى مهاوى الرذيلة – اختاروا أسوأ أنواع التوزيع والتقسيم ، حين التزموا المبدأ العائلى القديم ، وهو المبدأ الذى أفسد الدولة الفرنجية الميروفنجية منذ نشأتها الأولى ، إذ اعتبروا ممالكهم أنصبة خاصة تورث وتجزأ حسبما تمليه الأهواء أو الضرورات العائلية ، كأن ليس فى تاريخهم عبر ومواعظ دالة على ما فى ذلك من شر مستطير ؛ والواقع أن معظم الشرور التى نزلت بغرب أوربا مدة القرن التاسع الميلادى ترجع – فى غير شك – إلى اتباع تلك القاعدة الجالبة لأسباب المصائب والكوارث . وآية ذلك على سبيل التمثيل عهد الإمبراطور لويس التقى[١] ابن شارلمان ، فلولا إصرار لويس على تعيين جزء من الإمبراطورية لولده الصغير المسمى فيما بعد شارل الأصلع ، وذلك على حساب أولاده الآخرين من زوجته الأولى ، لما اضطر إلى مغاضبة أولئك الأولاد مما أدى إلى خلعه مرتين ، وإيقاعه الإمبراطورية فى حرب أهلية خاسرة عدة سنين .

وربما تبادر للذهن هنا أن سياسة الأباطرة والملوك من أبناء شارلمان وأحفاده تأثرت إلى حد ما بمبدأ القومية . غير أن الأخذ بهذا القول يتطلب افتراض المعرفة فى القرن التاسع الميلادى بما لم يكن معروفاً إلا بعده بقرون ؛ ومع هذا فليس فى استطاعة الباحث إلا أن يرى فيما حدث من التقاسيم بصيصاً من القوميات الكبرى فى غرب أوربا فى العصور الحديثة . وللوصول إلى استجلاء هذا وذاك ، يجب الرجوع إلى سنة ٨٤٠ م ، حين مات لويس التقى ، وقامت الحرب بين أولاده – وهم وقتذاك شارل الأصلع ملك نوستريا[٢] ، ثم لويس

---

(١) اشتهر هذا الإمبراطور كذلك باسم لويس اللطيف (Louis le Debonnaire) ، وهو الاسم الوارد بالأصل الإنجليزى ، على أن المثبت هنا هو الأكثر تداولا فى الكتب . (زيادة) .

(٢) انظر ما سبق هنا ، ص ٧٦ ، ٧٨ .

الألمانى ملك البلاد الواقعة شرقى الراين ، ثم لوثير ملك أوستراسيا وبرجنديا وإيطاليا ، وهو الأكبر — ، إذا اتحد شارل ولويس ضد لوثير ، حتى إذا انتهت الحرب بهزيمة لوثير وتكبده خسائر جسيمة فى وقعة فونتناى سنة ٨٤٣ م ؛ اجتمع الإخوة الثلاثة تلك السنة فى فردان ، واتفقوا على تقسيم ميراث أبيهم من جديد[١] .فخص شارل الأصلع نوستريا وأقطانيا وإقليم الثغور الإسبانية ، وهى أراض تسود فيها إلى حد كبير لغة الرومانس (Romance) وتضم الجزء الواقع غربى الرون والساؤن من فرنسا الحديثة ؛ وخص لويس أوستراسيا ، وهو الجزء الواقع شرقى الراين من إمبراطورية الفرنجة ، بما فى ذلك باڤاريا وسوابيا وسكسونيا بألمانيا ، وكلها ما عدا الأخيرة منها تسود فيها الألمانية ، وتمثل القسم الشرقى من الرايخ الألمانى الحالى ؛ وخص لوثير إقليم طويل ممتد من فريزلند — أى هولندا الحالية على بحر الشمال — إلى حدود ڤلورية بأقصى شبه الجزيرة الإيطالية ، وهو إقليم مختلف الأجناس ، وليس به من الأوصاف المميزة سوى أنه متوسط بين مملكتى شارل الأصلع ولويس الألمانى ، وأنه يشتمل على إكس لاشابل عاصمة الإمبراطورية الفرنجية التى أضحى لوثير إمبراطوراً عليها ، فضلا عن روما مقر البابوية . فإذا صح التسليم جدلا بأن مملكة لويس شملت الأمة الألمانية ، وصح التسليم كذلك بأن مملكة شارل الأصلع شملت الأمة الفرنسية — مع العلم أن شارل لم يباشر أية سلطة حقيقية فى بريتانى أو أقطانيا ، ولم تكن له أى علاقة بالجزء الواقع شرقى الرون من فرنسا الحديثة — ، فإن نصيب الإمبراطور لوثير ، بما فيه من أخلاط ألمانية ولاتينية ، ينقض ما تقدمت الإشارة إليه من تأثر السياسة الفرنجية بمبدأ القومية ؛ بل يدل فى وضوح أن أبناء البيت الشارلمانى لم يعيروا ذلك المبدأ شيئاً من الاهتمام .

ومن البديهى أن تقسيم الإمبراطورية الفرنجية — تقسيماً مقبولا ثابتاً لا رجعة فيه — كان مما يساعد على الحكم الصالح وتدعيمه ، بأرجاء الإمبراطورية فى غرب أوربا . لكن تقسيم فردان لم يستوف صفة واحدة من هذه الصفات ،

---

(١) انظر خريطة تقسيم فردان ، ص ٩٩ .

إذ دلت شروطه على صبغته المؤقتة المعرضة للتغير كلما مات ابن من أبناء البيت الشارلمانى ؛ ثم إن كلا من الإخوة المتقاسمين اعتبر نفسه ملكاً على الفرنجة ، جديراً بالحكم فى إرث شارلمان كاملا غير مجزوء ، وزعيماً بالسلطة الإمبراطورية كاملة غير منقوصة ؛ وهكذا ظلت الفكرة الإمبراطورية قائمة ، لكن فى صورة كفيلة بإضعاف الحكم وتعطيله . ومن هذا يتضح أنه بدلا من أن يؤذن تقسيم فردان بعصر من السلم والأمن والحكومة المطمئنة ، افتتح ذلك التقسيم عصراً كله تقسيمات متشابهة وحروب كثيرة بين الإخوة ، مما أدى إلى تدهور الملكية الفرنجية تدهوراً موازياً فى سرعته لازدياد قوة النبلاء الفرنجيين. ومن جراء ذلك كله بلغت الفوضى فى المملكتين الغربية والوسطى ما استطاعت أن تبلغ ، ولم تكن المملكة الفرنجية الشرقية — أى ألمانيا — أحسن حالا ، برغم ما اجتمع فيها من مقومات الحكم النظيم ، حيث جاء السكان من أصل واحد ، وتكلموا لغة واحدة . ولم يكن المستوى الحضارى فيهم معقداً أو عالياً ، ولم تزل بينهم طبقة كبيرة من المزارعين أصحاب الأراضى الحرة ، والنظم الإقطاعية عندهم فى المرحلة الأولى من التطور . ومع ذلك لم تبد الحكومة فى ألمانيا أقل فوضى أو ضعفاً منها فى فرنسا ، لأن القبائل الألمانية — برغم وحدتها فى الأصل واللغة — بقيت عاجزة عن أن تحيا سوية فى وئام ، شأنها فى ذلك شأن الأثينيين والإسبرطيين فى اليونان القديمة . فعاش كل من السكسونيين والفرنجة الشرقيين والباڤاريين والألليمانى وفق تقاليدهم الخاصة ، واتبعوا ما أملته عليهم مصالحهم ومنافعهم المختلفة ، ورحبوا بالحرب والشحناء بين قبائلهم، ترحيبهم بالحرب تحت راية ملوكهم ضد الدانيين أهل الدانمارك الحالية ، أو ضد سكان الأطراف الشرقية .

ويلاحظ أن تفكك الإمبراطورية الشارلمانية لم يقف عند تقسيم فردان وأشباهه من التقسيمات التى جعلت الفرنجة ممالك ثلاثاً ، بل تعداه إلى تقسيم كل واحدة من تلك الممالك مرة بعد أخرى ، حتى غدا التاج الإمبراطورى فى القرن التاسع الميلادى غير ذى معنى أو قيمة أو أمل فى إحياء الشعور بالولاء الفرنجى القديم . وليس أدل على حقيقة تلك الحال من مصير الملك شارل

السمين ثالث أبناء لويس ملك ألمانيا ، إذ حبا الحظ السعيد ذلك الإنسان الخامل بجميع أنواع التوفيق ، حين توّجه البابا إمبراطوراً سنة ٨٨١ م ، وجعلته سلسلة الحوادث العائلية ملكاً على إيطاليا وألمانيا وفرنسا ، وبذا أضحى العاهل الذى لم تشهد مثله أوربا — لا فعليًّا ولا اسميًّا — منذ سبعين سنة . غير أن الرجل كان جباناً ضعيفاً عديم الحول ، فكان خلعه سنة ٨٨٧ م مؤذناً بانهيار الإمبراطورية الشارلمانية ، وخاتمة للحكم الذى تمتع به البيت الشارلمانى مدة طويلة ، ولم يبق من ذلك البيت سنة ٨٨٨ م إلا أرنولف حفيد لويس ملك ألمانيا .

وهنا ينبغى أن نذكر من باب الإنصاف والعدل التاريخى أن أولئك المتأخرين من ملوك الفرنجة تحملوا هجمات خارجية كثيرة طوال القرن التاسع الميلادى من ناحية المسلمين والصقالبة والشماليين ، ومن تلك الهجمات غزو المسلمين روما نفسها وإحراقهم ضواحيها سنة ٨٤٧ م . وللرد على تلك الجرأة التى مكنت للمسلمين هدم الموانى البيزنطية بإيطاليا ، وجعلتهم يستولون فى سهولة على جزيرة صقلية، تطلب الأمر أسطولا فرنجيًّا قويًّا لغزو الشواطئ الإسلامية بإفريقية والأندلس . لكن أحداً لم يقم بشىء من ذلك القبيل ، ما عدا البابا ليو الرابع الذى يعود إليه الفضل فى بناء حلقة من الاستحكامات حول ضاحية الفاتيكان ، مما أكسبها اسم المدينة الليونية (Leonine City) نسبة إلى اسمه ، ولا تزال ذكرى هذا البابا وأعماله عالقة بأذهان الإيطاليين ، على حين أن ما يبذله لويس الثانى ابن الإمبراطور لوثير من جهود حربية غير قليلة لتخليص جنوب إيطاليا من المسلمين لا يكاد يعرفه إلا الأقلون من العلماء المشتغلين بتاريخ العصور الوسطى .

بعض المراجع لهذا الفصل

Bryce, (J.) : The Holy Roman Empire, 1904.

Dalton, (O.M.) : Gregory of Tours (The History of the Franks). 1927.

Davis, (H.W.C.) : Charlemagne, 1900.

Dill, (S.) : Roman Society in Gaul in the Merovingian Age, 1926.

Einhard : Life of Charlemagne. Ed. H.W. Garrod and R.B. Mowat 1915.

Fustel de Coulanges, (N.D.) : Histoires des Institutions Politiques, de l'ancienne France. 1888-1892.

Guizot, (F.P.G.) : Histoire de la Civilisation en France, 1851.

Hodgkin,. (T.) : Charles the Great, 1897.

James, (M.R.) : Learning and Literature Till Pope Sylvester II. (Cambridge Mediaeval History, Vol. III).

Lavisse, (E.). : Histoire de France, Vol. II. 1903.

Mullinger, (J.B.) : The Schools of Charles the Great, 1877.

الفصل السادس

الكنيسة الكاثوليكية الرومانية

الكنيسة المسيحية الأولى — البابوات الأوائل فى روما — أسانيد رسامتهم — انهيار الإمبراطورية الرومانية وأثره فى نمو البابوية — المسيحيون الأوائل والإصلاح الاجتماعى — تأثير الغزوات التيوتونية فى مركز رجال الدين بغرب أوربا — أعمال الكنيسة الغربية فى ميدان التعليم والإصلاح الاجتماعى — انتشار الديرية .

يقوم تأسيس الديانات على أكتاف الأنبياء ، ثم يقوم بتنظيمها على أيدى رجال الدين . ومن المعروف كذلك أن الجماعات المسيحية الأولى تكونت من فئات من فقراء الرجال والنساء الذين ألفت بين قلوبهم رابطة العبادة وعمل الخير وحب النظام ، وسادت فى أوساطهم روح الديمقراطية والمساواة والعالمية ، لا فرق عندهم بين « اليونانى واليهودى ، ولا بين البربرى والسيثى [1] ، ولا بين العبد والحر » ، لأن المسيحيين عند ربهم سواء . وفى كل تلك الجماعات المسيحية النامية تولى الأسقف جميع الشئون الدينية ، حتى توزيع الصدقات ، ولم يكن لديه من المعاونين فى عمله سوى الشماس . ولذا اعتبرت كل جماعة من تلك الجماعات أسقفها خليفة طبيعياً للقديس الرسولى الذى تنتسب كنيستها إليه ، أو للمبشر الأول الذى بشر بالمسيحية فى أرضها . فإذا كانت الجماعة صغيرة العدد ، والدين فيها مسألة خاصة قوامها المحبة المتبادلة ، لا الخشية والخضوع لسلطة من السلطات ، لم تقم حدود فاصلة بين رجال الدين وسائر الجماعة ، بل كان أقصى ما ينشأ هنالك من سلطة أن تنهض فئة من الشيوخ (presbyters) لمعاونة الأسقف فى إدارة شئون الكنيسة .

---

(١) يطلق هذا الاسم فى التاريخ القديم على سكان الجنوب الشرقى من أوربا ، وما وراءها من البلاد شمالى البحر الأسود وبحر قزوين . (زيادة) .

أما تدرج الكنيسة الكاثوليكية الرومانية من تلك المبادئ الديمقراطية الصافية إلى غيرها من المبادئ والنظم ، فيبدو أن السر فيه حاجة الإنسان بطبعه إلى السلطة واليد المدبرة لشئونه وسلوكه . وكما درجت الجمهورية الرومانية حتى صارت إمبراطورية أوتوقراطية ، فإن مجموعة الكنائس الرسولية المبعثرة فى أنحاء العالم المسيحى الأول هى التى أنبتت بذرة البابوية وثيوقراطيتها الشامخة ، وبعبارة أخرى إنه لما كانت النفس البشرية تجنح إلى الاستبداد ، والإمبراطورية نفسها وليد ذلك الجنوح ، فإن الكنيسة اتبعت ما الإمبراطورية سبقت فيه ، بدليل أنها جعلت من التنظيم الإمبراطورى نموذجاً لتنظيمها ، بل المعروف أنها أصبحت — بعد تحول قنسطنطين إلى المسيحية — هى الإمبراطورية الرومانية فى قالب كنسى .

ثم إنه صار من المتعين جرياً على المنطق السائد وقتذاك أن يكون للكنيسة رئيس أعلى ، كما للإمبراطورية إمبراطور ، وأن تنصرف الأنظار عن فكرة المجالس الدينية المحلية ، لصعوبة تأليفها ، ولأنها تتفق والمناسبات الكبرى أكثر مما تتفق وشئون الإدارة اليومية . والواقع أن توحيد المذاهب وتجنيس الطقوس تطلب أن يكون هناك أسقف على الأساقفة ، للرجوع إليه فى كل مواضع الشك ، ولتصبح الشعوب المسيحية تابعة لزعيم واحد ، وكنيسة واحدة لها الصدارة على جميع الكنائس .

وبديهى أن يلقى نهوض الأسقف الرومانى لهذه الزعامة ترحيباً من الإيطاليين أكثر مما يلقى من القسطنطينية وبطرقيتها ، أو من إفريقية المسيحية وأساقفتها ، أو من أنطاكية وبيت المقدس والإسكندرية وكنائسها الرئيسة التى لا تقل زعامة عن روما . ولذا ظلت الدعوة لروما موضع الأخذ والرد والنقاش العنيف زمناً ، دون أن يعترف المسيحيون بحقوق البابوية الرومانية اعترافاً إجماعيًّا ، واقتصر الأمر على الكنائس بغرب أوربا . ومرجع ذلك فيما يبدو أن معظم البابوات لم يكونوا من البارزين ، لا فى الفلسفة ولا فى اللاهوت ، فلم يسهموا بسهم فى بناء المذهب الكنسى ، ولم يشاركوا القديسين الأيرلنديين فى حلبة التبشير إلا زمن جريجورى الكبير (٥٩٠ — ٦١٠ م) ، ولم يشتهر أحد منهم بمقدرة

أو كفاية إلا فى ميدان السياسة ، لا الدين . ومع هذا كله استطاعت كنيسة روما أن تقدم من النصوص والأسانيد ما يكفى لإقناع الناس بزعامتها فى ذلك العهد ، حين رضى الناس بالإيمان والتسليم بكل ما هو تقليدى أو خارق ، وبكل مامن شأنه التدليل على المجد الرومانى القديم . إذ قيل — اعتماداً على حديث للمسيح مخاطباً سمعان بن يونا باسم بطرس — أى الصخرة — ، وذلك فى شىء من الجناس والتورية : « أنت بطرس — أى صخرة — وعلى هذه الصخرة (Petra) أبنى كنيستى[1] » — إن المسيح اصطفى بطرس وفضّله على سائر الرسل المسيحيين ، وإن بطرس أول من جاء بالمسيحية إلى روما ، وإنه لقى بها من الأذى ما لقى فى سبيل الدين ، وإنه أودع رسالته لينوس أول أساقفة روما ، وإن الرسالة انتقلت من لينوس فى سلسلة متصلة من الأساقفة الذين حفظوا ما وعاه بطرس قبلهم من الحق والإيمان . ومع أنه لا يوجد لدينا ثبت بأسماء الأساقفة الرومان قبل إرِنايُس ، أى قبل سنة ١٨٠ م اعتقد المجمع المسيحى وآمن بصدق السر الإلهى المكنون ، وفى انتقال ذلك السر بالرواية الشفوية إلى الذين تفتحت قلوبهم للإيمان بالمسيح ، وتولوا الأسقفية الروحانية خلفاً عن سلف . يضاف إلى ذلك اقتناع المجتمع المسيحى اللاتينى — واليونانى كذلك — بأن روما تمتاز على سائر المدن المسيحية الكبرى بشىء من الهيبة والقدسية ، لاحتوائها على رفات القديسين بطرس وبولص . وفى شرح القديس حنا خريسوستوم (فم الذهب) ، وهو أحد الآباء القديسين الأولين ، وأكثرهم فصاحة وبلاغة عند الإطلاق ، ما يثير التفكير فيما انفردت به روما من المزايا بسبب هذين القديسين الرسولين ، إذ جاء فى موعظة دافقة لحنا ما نصه : « ولهذا السبب أحب روما حبًّا جمًّا ، وأستطيع أن أحبها وأمدحها لأسباب وأسباب من عظمتها الخالدة ، ورسوخها فى القدم ، وجمالها الفاتن ، وكثرة أهلها ، وقوتها العظيمة ، وثروتها الضخمة ، وفوزها فى الحروب . ولكنى أعبر عن ذلك كله ، وأباركها لأن بولص كتب إلى أهلها ، وأحبهم وافر

---

(١) إنجيل متى : الإصحاح السادس عشر ؛ وموضع الجناس أن اسم بطرس معرب كلمة (Petra) فى اليونانية واللاتينية ، ومعناها الصخرة . (زيادة) .

الحب ، وعاش بينهم ، وتحدث إليهم ، وكلمهم ووعظهم ؛ وفى روما كانت وفاته . ولهذا السبب دون غيره من الأسباب زادت روما شهرة فوق شهرتها ، ولذا فمثلها مثل جسم شامخ هائل ، فى رأسه عينان لامعتان ، هما نوران منبعثان من جثمانى هذين القديسين . والسماء لا تضىء حين ترسل الشمس أشعتها فى الأرض ، مثلما تضىء روما أنحاء العالم بنور هذين الكوكبين الدرّيين . ففى روما ينهض بولص من مرقده ، وفيها يبعث بطرس ، فتأمل وتعجب ، وليأخذ العجب منك كل مأخذ . فما أدهش ما ترى روما حينذاك ، حين يقوم كل من بولص وبطرس من قبره ، ويذهب كل منهما للوقوف بين يدى المسيح . ما أجمل الوردتين اللتين ترسلهما روما وقتذاك ، وما أعظم هاتين الجوهرتين اللتين يزدان بهما جبين روما ، وما أبهى الذهب الذى يتحلى به جيدها ، وما أبدع ما فيها من ينابيع النور ؛ لهذا أحب روما حبًّا جمًّا ، وأعجب بها أيما إعجاب ، لا من أجل ذهبها الكثير ، ولا من أجل عمدها الفخمة ، ولا غير هذه وتلك من العروض الزائلة ، بل من أجل هذين العميدين الاثنين اللذين ارتكزت على أكتافهما صروح الكنيسة . من ذا الذى يهبنى أن أقبل جثمان بولص ، وأدلف إلى قبره ، وأرى تراب ذلك الجسد الذى اكتملت بشدائده وآلامه فى الحياة روحية المسيح[1] ، وارتسمت عليه جروح المسيح (Stigmata) ، وانتشرت بفضله تعاليم المسيح فى أرجاء المعمورة[2] » .

غير أنه مما لا شك فيه أنه لو ظل الأباطرة فى روما لما استطاع البابوات — وهم حماة التقاليد التى وضع أسسها بطرس — أن يتجنبوا المصير الذليل الذى

---

(١) تشير هذه العبارة إلى أقوال القديس بولص ومذهبه فى الذاتية الروحية للمسيح . انظر كتاب العهد الجديد ، أعمال الرسل ، رسالة بولص إلى أهل كولوسى ، الإصحاح الأول ، سطر ٢٤ ، حيث يقول بولص : « الآن أفرح فى آلامى لأجلكم ، وأكمل نقائص شدائد المسيح فى جسمى ، لأجل جسده الذى هو الكنيسة » ، انظر كذلك الإصحاح الرابع من هذه الرسائل ، سطر ٤ وما بعده ، وكذلك رسالة بولص الأولى إلى أهل كورنثوس ، الإصحاح الثانى عشر ، سطر ١١ ، وما بعده ورسالة بولص إلى أهل أفسس ، الإصحاح الأول ، سطر ٢٢ . (زيادة) .

(٢) ذكر المؤلف مراجعه فى الاقتباس ، وهى (Hom. 32. in Rom., 2 Vol. IX.) ، (Chapman : Studies in the Early Papacy. p. 97) وكذلك p. 678 (757) ، وكذلك p. 678 (757) (زيادة) .

آل إليه البطارقة البيزنطيون ، بسبب إقامة الأباطرة الشرقيين فى القسطنطينية ، منذ تأسيسها على يد قنسطنطين أوائل القرن الرابع الميلادى . والواقع أنه لو استقر الأمر على ذلك لما استطاع البابوات فى روما إلا أن يصبحوا رهن إشارة الأباطرة ووكلائهم ، ولضاعت عليهم السلطة الأدبية اللازمة لإقامة الاستقلال الدينى على أساس مكين . لكن البابوية نجت من ذلك الخطر ، بفضل حادثين سياسيين متداخلين ، تغيرت بسببهما معالم أوربا الغربية تمام التغير ، وهما انهيار الحكومة الإمبراطورية والإغارات الجرمانية فى الغرب . ذلك أن اختفاء الإمبراطورية من الغرب مكن لخلفاء القديس بطرس من الحلول محل الأباطرة فى روما . وما لبثت الحوادث أن بينت مدى ما وقع من تغير ، مثل التجاء أثناسيوس الشهير إلى البابا — لا الإمبراطور — بتشجيع من أساقفة المجلس المسكونى فى سردقة — وهى صوفيا الحالية — سنة ٣٤٣ م ، للنظر فى الحكم الصادر ضده من المجلس الدينى فى صور ، ثم إن الباباوات — لا الأباطرة — هم الذين حالوا بين الهون والمدنية الرومانية فى إيطاليا ، وهم الذين حموا روما من عادية اللمبارديين ، وهم بالضرورة أهل العلم والمعرفة بكتابة الرسائل وتقرير القرارات الدينية التى كان لها من القوة ما للقانون . تلك هى أيام ليو الأول وجريجورى العظيم ، حين خيم على أوربا ظلام الإغارات فى البربرية المضطربة ، وبدا الكرسى البابوى كأنه المنارة المضيئة وسط العاصفة الصاخبة .

غير أن المسيحيين الأولين على وجه الإطلاق ، لم يعمدوا إلى شىء من الإصلاح فى المجتمع الرومانى الذى نبتوا فيه ، برغم ما هو معروف من تحريمهم لكثير من العادات والطقوس القديمة . ولذا فمن الخطأ أن نصفهم بشىء من الأوصاف السياسية الحديثة ، لأنهم لم ينادوا بالاشتراكية أو الشيوعية ، ولم يدعوا إلى الفردية ، ولم تكن لهم فلسفة فى الدولة وأصول الحكم ، ولا إيمان بتجديد المجتمع من طريق الإنشاء والتنظيم ، ولم يخطر ببال أحد منهم أن فى استطاعة جماعاتهم الصغيرة البعيدة عن السلطة والنفوذ أن تحدث بالسياسة الرومانية أو المجتمع الرومانى شيئاً من التعديل . ذلك أنهم أيقنوا أن الدنيا متاع الغرور والشرور ، وتعلموا أن الإنسان طريد جنة الخلد ، وحقّ عليه العذاب

المقيم ، وأنه خير للإنسان أن يموت ميتة الشهيد من أن يرتكب إثماً من الآثام . وتعلموا كذلك أن هذه الدنيا الغرّارة لن تلبث حتى تزول ، وأن رجعة المسيح إلى الأرض – وهي ما اعتقدها الناس وشيكة الوقوع ، ولم يتطرق إلى ذهن أحد أنها غير قريبة – سوف تملأ الدنيا عدلاً ، بعد ما ملئت ظلماً وجوراً وخبثاً ونقصاً يمحوه كله المسيح محواً . وإذا كان ذلك كذلك ، فما الذى يحمل المسيحى على إلغاء الرق أو الحروب ، أو المتاجرة فى المحرمات ، أو الربا ، أو استعمال القوة الغاشمة التى ساعدت الدولة الرومانية على النهوض ، ما دام كل ذلك مقضيّاً عليه بالزوال ، وما دامت المشكلة الكبرى تنحصر فى الوسيلة الواقية من العذاب الذى كتبه الله على الناس ، جزاء وفاقاً لما ارتكبه آدم من الخطيئة فى جنة الخلد .

ولذا رضى المسيحيون بجميع ما وجدوا من نظم لا قبل لهم بتغييرها ، فدعوا للإمبراطور فى صلواتهم ، ولو أنهم رفضوا أن يحرقوا البخور لتمثاله ، وتقبلوا الرق ، وتجاوزوا عن استخدامه والمتاجرة به ، ولم يفكروا فى تحريم القوة الحربية أو نبذها ، بل ما لبثت الحرب حتى غدت مظهراً مؤسفاً من مظاهر المجتمع الأوربى ، من القرن الخامس الميلادى فصاعداً . ومع هذا ليس فى أعمال المسيحيين الأولين ما يدل على شىء من الطائفية أو الطبقية ، وإذ بدأت معظم جماعاتهم من الفقراء ، فإن المسيحية ما عتمت حتى انتشرت بين مختلف الطبقات ، بل تغلغلت فى دوائر العائلة الإمبراطورية قبل أن يشرف القرن الميلادى الأول على الانتهاء .

ثم استطاعت الجماعات المسيحية أن تنجو من أحد الأخطار المهددة لمستقبلها وكيانها بفضل الحكمة العملية التى أظهرها البابا كالستس (٢١٩ – ٢٢٣ م) ، حين أعلن استعداده أن يغتفر خطيئة الزانى ومرتكب الفحشاء بالتوبة ، مما أدى إلى نتائج هامة فى تاريخ المسيحية ، برغم مخالفته للشعور المسيحى العام . ذلك أن الكنيسة تظل قوية ما دامت عقيدتها خالصة للدين ، ولكنها تمسى ضعيفة إذا هى خضعت لقواعد خلقية جامدة غير مرنة ؛ والناس على اختلاف مشاربهم خير دليل على صحة تلك الدعوى ، إذ المعروف أنه

لا يستطيع الحياة الفاضلة من البشر إلا الأقلون . ولو أن الكنيسة اقتصرت على أولئك المتقين المهتدين ، ولم توسع من رحمتها للضالين الخاطئين ، ما استطاعت أن تفتح أوربا أو تجعل فيها أمماً مسيحية منذ القرن الرابع الميلادى .

ثم كان دخول الجرمان فى الدولة الرومانية أفواجاً متبربرة تلو أفواج ، فاعترى رجال الدين ما غير من وضعهم فى المجتمع الأوربى الغربى تمام التغير ، إذ انهار التعليم المدنى ، وانهارت الثقافة إلى درجة شنيعة . ولأول مرة فى تاريخها بدت الكنيسة صاحبة الصدارة الفكرية فى البلاد ، حيث صار الرجل من رجال الدين هو الوحيد الذى يعرف القراءة والكتابة والتكلم فى اللاتينية ، وهو الذى يفهم دون غيره حساب الشهور لتحديد عيد القيامة (Easter) ، وذلك بالإضافة إلى مقدرته على مفارقة العمل الرتيب لتصريف شئون الإدارة الحكومية . وفضلاً عن ذلك ، فإن ذهاب الوظائف الإمبراطورية ومغرياتها المختلفة جذب رجالاً من أرفع طبقات المجتمع وقتذاك إلى الخدمة فى الكنيسة ، حتى سار أغلب الأساقفة فى القرن الخامس — والسادس والسابع — الميلادى فى غاليا من أبناء البيوت العريقة ، وأصحاب الثروة والنفوذ ، أى النبلاء الذين وجدوا فى القيام بالأعمال الكنسية فرصة لاستخدام مواهبهم فى الإدارة ، أو لإشباع رغبتهم فى الخدمة العامة . لذا لم يكن عجباً أن يتخذ الفرنجة فى غاليا — والقوط الغربيون فى إسبانيا — من رجال الدين أداة للحكم وشئونه المختلفة؛ وإذا ذكرنا أن ملوك الجرمان من الفرنجة — والقوط الغربيين وغيرهم — هاموا بصيد الخنزير البرى والأيل والغزال ، وشغفوا بالحروب والمذابح والتخريب ، صار من الواضح أنه لم يكن باستطاعتهم أن يديروا دفة الحكم فى البلاد لولا الكنيسة ورجال الدين .

غير أنه من الخطأ أن نصور الكنيسة فى غاليا فى القرن السادس الميلادى كأنها كنيسة مثالية ، وفى كتاب تاريخ الفرنجة (Historia Francorum) الذى ألفه جريجورى التورى ما يكفل عدم الوقوع فى هذا الخطأ ، وفى كثرة المفاسد الكنسية الصارخة ما يعدل ذلك التصوير تمام التعديل . ومع هذا فلا مشاحة أن الكنيســـة أدت من جليل الخدمات ما لم يكن فى الاستطاعة تأديته

بدونها وقتذاك ، لاحتوائها على القليل الذى بقى فى غاليا من الثقافة والعلم . فلولاها ما تم التمازج بين العنصرين اللاتينى والجرمانى فى الدولة ، ولولاها ما اهتم أحد بشئون التعليم فى القرن السادس الميلادى . والواقع أن الكنيسة قامت على كل شىء حتى الماديات فى ذلك العصر ، فإذا تطلب نهر من الأنهار جسراً لضبط مجراه ، أو احتاج بلد من البلاد سقاية لحمل الماء إلى جهة مرتفعة ، كان الأسقف فى أغلب الأحيان صاحب المشروع . ومصدر المال اللازم لتنفيذه . وعلى الرغم مما لدينا من كثير الشواهد على خضوع الأساقفة وخنوعهم لأرباب الحكم ، لم تعدم الحوادث أساقفة اشتهروا بالشجاعة والجرأة على الحاكم المعتدى ، وتذكيره بالعذاب فى الآخرة إذا هو لم يرجع عن غيه ؛ والحاصل أنه لم يكن بذلك العصر الغاشم سوى الكنيسة . لحماية الفقير والمسكين والمحروم والمظلوم .

وإلى ذلك العصر الغاشم وحوادثه بالذات يرجع أصل السيطرة والمكانة والسلطة التى يتمتع بها رجال الدين حتى الوقت الحاضر ، لأن الفوضى التى تردت فيها الإمبراطورية منذ القرن الرابع الميلادى هيأت للكنيسة جوًّا خالياً من المنافسة . وطفولة الجرمانى وجهالته أبرزت مقام القسيس فى المجتمع. وكيف يكون الأمر غير ذلك فى عصر ندرت فيه الكتب ، وارتهنت الأمور كلها بقول القسيس ومسلكه ، وسمح الجرمانى الساذج بتدخل الدين فى أخص شئونه إلى درجة لو جرت لسيدة رومانية زمن الإمبراطورية لاعتبرته فضولاً لا يطاق ولا يغتفر . ثم تشعبت الواجبات التى تطلبها نشر المسيحية وتعليم البرابرة مبادئ العقيدة ، فغدا رجال الدين بالضرورة طبقة بارزة ذات نفوذ وسطوة . وأوضح دليل على ذلك طلب الكنيسة فى القرن السادس الميلادى إلى رجال الدين أن يتخذوا لأنفسهم طرازاً خاصًّا ، فاختاروا القباء الطويل والشعر القصير ، حفظاً للزىّ الرومانى القديم ، على حين ظل الجرمان على عادتهم من القباء القصير والشعر المرخى على الكتفين .

هذا ما كان من أمر رجال الدين والكنيسة أوائل العصور الوسطى ، على أن القصة لا تتم إلا بذكر الرهبانية التنسكية التى وصلت إلى غرب أوربا

أثناء القرن الذى تلا اعتناق الإمبراطور قسطنطين المسيحية . فمن المعروف أن التنسك ظاهرة عامة فى جميع الديانات . وأن المسيحيين فى مصر هم أصل الدعوة لهذا النوع من الحياة الدينية ، وأنهم عمدوا إلى كثير من المغالاة فى تعذيب الجسم وإذلال النفس بالمعيشة الانفرادية ، فى القفار البعيدة عن المدن والعمران ، أو على رءوس العواميد وقمم الأشجار ، وذلك فضلاً عن التهجد آناء الليل وأطراف النهار ، مع الصيام الطويل ، والحرمان ، وغير ذلك من رهبانية صارمة ابتدعوها لأنفسهم ، ولقيت هوى فى نفوس الكثيرين ممن حجوا إليهم واستدرّوهم الدعوات .

وانتقلت تلك الرهبانية إلى إيطاليا حوالى سنة ٣٣٩ م — على يد أثناسيوس صاحب المذهب المشهور — ، ووصلت منها إلى إسبانيا وغاليا وأيرلندا . غير أن العقلية الأوربية على وجه العموم لم ترحب بالصرامة التى تطلبتها هذه الحياة الدينية الجديدة ، ولم تستحسن صورة الراهب المصرى وهو يطل على حجاجه وزواره من علياء التقوى الجائعة والقذرة ، لأن العقل اللاتينى يميل إلى الناحية العملية فى الحياة ، ويختلف عن العقل اليونانى فى عدم الجنوح إلى التأمل والاستغراق . ولذا انتشرت الدعوة إلى التقشف والتنسك فى غرب أوربا ، لا فى صورة رهبانية انعزالية ، بل فى صورة ديرية اجتماعية ؛ وقامت طريقة القديس بندكت النورسى (٤٥٨ — ٥٤٠ م) — وهو مؤسس دير مونت كاسينو بإيطاليا — على قاعدة أن الانقطاع للعبادة ينبغى أن تكون مزيجاً من العمل اليدوى والدراسة فى الكتب المقدسة والصلاة الجامعة . وعمت الطريقة البندكتية أرجاء الغرب الأوربى ، وأسهمت بسهم كبير فى مضمار التقدم الإنسانى . غير أنها لو بقيت على الصورة الرهبانية الأولى لأدت إلى كثير من الشر والفساد . وللديريين البندكتيين الفضل فى تعمير الأراضى الجديدة التى استقرّوا بها وزرعوها بعد إصلاحها ، وفى العناية بالفقراء والمساكين وهم كذلك أصحاب الفضل فى صون المخطوطات ونسخها حفظاً لها من الضياع والنسيان ؛ والواقع لم تكن ثمة وسيلة غير الديرية لصون ما تبقى من نور المدنية الأوربية ، حين لم يكن فى أوربا سوى ظلام الحروب والغزوات

التى أحلت الجرمان محل الرومان .

على أن الأمر الذى يسترعى الانتباه هنا هو أن الأديرة البندكتية انتشرت بأرجاء الغرب الأوربى — فى القرنين السادس والسابع الميلادى — انتشاراً بالغاً يتضح منه أن ثمة عوامل خاصة دفعت بأعداد كبيرة من الرجال والنساء إلى ما بتلك الأديرة من الحياة التنسكية الآمنة . وهذه العوامل بلاريب مزيج من السمو الروحى ، والبطولة الدينية ، والخوف من عذاب الآخرة ، والتملص من تكاليف الحياة . والرغبة فى المعيشة الهادئة المطمئنة . غير أن العامل الذى فاق هذه العوامل كلها فى اجتذاب الكثيرين من الناس إلى الحركة الديرية هو الشعور باستحالة العيش فى عالم مزقته إغارات الجرمان ، ودكت أركانه الحروب ، وهو كذلك عالم طفحت سياسته بالآثام والشهوات ، بعد أن امتلأت بألوان العنف والاضطراب . ومن هنا يتضح السرّ فى ميل الكثيرين من الناس إلى حياة التنسك ، إذ قطعوا الأمل فى الدنيا وما فيها من الناس ، فانسحبوا من الظلمة والفوضى المحيطة بهم فى هذه الدنيا إلى النور والهدى الذى وعد المسيح به جميع المتقين .

بعض المراجع لهذا الفصل

Battifol (L.) : Primitive Catholicism, 1911.

Bevan (E.) : Hellenism and Christianity, 1921.

Bevan (E.) : Christianity, (H.U.L.) 1932.

Bigg (C.) : The Origins of Christianity, 1909.

Bigg (C.) : The Church's Task under the Roman Empire, 1905

Chapman (J.) : Studies in the Early Papacy, 1928.

Dudden (F.H.) : Gregory the Great - His Place in History and Thought, 1905.

Gibbon (E.) : Decline and Fall of the Roman Empire. (ed. Burry), 1896-1900.

Gore (C.) : Jesus of Nazareth, 1929.

Milman (H.H.) : The History of Latin Christianity, 1867.

الفصل السابع

الشماليون

حضارة الشماليين – وصول جماعات من الشماليين إلى حوض الدنيبر – إغارات الفيكنج على غرب أوربا – الدانيون والنرويجيون – إغاراتهم على أيرلندا وإنجلترا وفرنسا – نهضة مملكة وسكس فى إنجلترا – الملك ألفرد وخلفاؤه – استيلاء الدانيين على إنجلترا – دخول الدول السكندناوية حظيرة المسيحية – الملك إدوارد التقى – استقرار النورمان فى نورمانديا – دخولهم دائرة الحضارة اللاتينية – استيلاء النورمان على صقلية – فخامة عهد الملك رجار الثانى – فناء إسكندناوة وفقرها .

يطلق اسم الشماليين – أوائل العصور الوسطى – على مجموعة الشعوب التى سكنت شبه جزيرة إسكندناوة وحوض البحر البلطى ، وهم والجرمان من الجنس النوردى سواء ؛ غير أنهم – على خلاف الجرمان – لم يتأثروا بالمؤثرات اللاتينية ، بل ظلوا بعيدين عنها بحكم وضعهم الجغرافى بأقصى الشمال الغربى من أوربا ، وهو الوضع الذى جاءت منه تسميتهم . ثم تحرك الشماليون من مواطنهم هذه حركة هبطت بهم إلى المسرح الأوربى فى كثير من العنف ، حتى ملأوه صخباً ولهباً وضجة مدة قرنين من الزمان .

وكان الشماليون وقتذاك على الوثنية . وليس فى تفكيرهم متسع لشىء من وازع الضمير أو الذمة ، أو الإحساس بالخطيئة ، أو الفضيلة ؛ لأن آلهتهم مثل ثور (Thor) إله الرعد ، وأودن (Odin) إله الحروب والملاحم ، وفراى (Frey) إله الخصب ، لم تدعُ إلى شىء من ذلك ؛ بل لم يكن من صفات هذه الآلهة ما يردع القاتل أو الزانى أو السارق ، أو يعاقبه على ذنبه . وهام الشماليون بالحروب والنساء ، والخمور والأغانى ، والأنهاب والمذابح ، وامتلأ قصصهم – وهو قصص الشعوب النوردية كلها – بروح التشاؤم

المنبعث مما حاطهم من هول البحار الشمالية والسماوات القطبية . ولم يطلب الشماليون إلى آلهتهم أن يرشدوهم سواء السبيل ، أو يهدوهم الصراط المستقيم ، لأنهم لم يفكروا فيما عسى أن يكون هذا أو ذاك ، بل أرادوا أن تكون آلهتهم أصدقاءهم وحلفاءهم فى المغامرة الصاخبة التى هى الحياة ، وصوّروهم قادة لهم فى المخاطر التى يسقط فيها الرجل الشجاع مجدّلاً إذا أسعده الحظ ، لينتقل من حومات الوغى إلى جنــات فالهالا (Valhalla) ، حيث ينعم الشجعان بحياة خالدة ، فيها من كل ما طاب من الحروب والنساء ، والخمور والأغانى . ولذا خلت المنثورات القصصية التى كتبت بجزيرة أيسلندا فى وصف أولئك الشماليين الأولين من جميع ما تشمّ منه رائحة التفاؤل الساذج ، لأنهم عركوا طيش الطبيعة وعناصرها ، وخبروا آلام البشر ومعاثرهم ، ولم يريدوا من الحياة ما لا تستطيع الحياة أن تعطيه . والآداب الشمالية لذلك مرآة صدق وسجل حافظٌ لتلك الحضارة الوثنية القديمة ، وهى تنفرد عن آداب الحضارات الأخرى ببراءتها من أساليب البلاغة والعاطفة ، والتزامها حقائق الحياة ، وعزوفها عن المواقف الخلقية وزخارف البديع والبيان ؛ وهذا مع حسن تصويرها لحضارة جمعت بين الأرستقراطية والهمجية ، واتصفت بالحرص على تراث الأجداد وحب الهدم فى آن واحد ، وشرفت على سائر الحضارات بالرجولة الصادقة والرضا بالقضاء المحتوم ، برغم ما طفحت به من جامح الشهوات وقاسى الأعمال .

وفى أواخر القرن الثامن الميلادى أوحى إلى تلك الشعوب المقتدرة على الشدائد أن بلاداً واسعة — غير بعيدة عن بلادهم — تفيض بالمغانم السهلة ، والأسلاب والأنهاب ، وأن ليس عليهم إلا أن يطلبوها ، فاندفعوا إليها أرسالاً جمعت من رجال البحر وبناة السفن ، والسماكين والخشابين ، والتجار والمزارعين والحطابين والصيادين . غير أنهم ما لبثوا أن اصطدموا بالسكسون والفرنجة فى طريقهم صوب الجنوب . فاتجهوا صوب الشرق والغرب ، حيث وجدوا طرقاً خالية من أية مقاومة أو تكاد . فانتشر منهم السويديون أهل التجارة فى سهول روسيا الحالية يبتغون فى أرضها البكر أسباب الربح الوفير ، على حين

أخذ الدانيون والنرويجيون أهل البحار والقرصنة ينثالون إلى أوربا الغربية ، وينهبون مما غصت به كنائسها من لامع الذهب والفضة . وفى هذه المرحلة من تاريخ الشماليين تبدو أعمال السويديين بالذات جديرة بالانتباه ، إذ بنوا محطة تجارية على بحيرة لادوجا التى تمتاز بموقعها المتوسط بين منابع الڤولجا والدنيبر سواء ، واتخذوا من هذين النهرين طريقاً للنقل والتجارة ، حتى شواطئ بحر قزوين والبحر الأسود . ولذا غدت محطاتهم فى هلمجارت أو نوڤوجورود الحالية ، وفى جارْث الجديدة التى هى الآن كييف ، مراكز لإرشاد المسافرين ، ونماذج للنظام وسط الشعوب الصقلبية التى عمها الاختلال والفوضى . والمتواتر أن الزعيم السويدى رُوْرِك هو صاحب الفضل فى وضع الحجر الأساسى الذى بنيت عليه دولة روسية فى نوڤوجرود وكييف ، وأن السويديين بلغوا من قوة السلطان والنفوذ فى أرضهم الجديدة مبلغاً عظيماً ، وأن الشعوب الصقلبية تقبلت الحكم السويدى وأذعنت له راضية ، حتى إن لفظ روتسى (Ruotsi) — وهو ما أطلقه الفنلنديون على جيرانهم السويديين منذ أيامهم الأولى بحوض البحر البلطى — انتقل من التابع إلى المتبوع ، وصار علماً على الصقالبة الذين تتكون منهم روسيا الحالية .

ومن هذا يتضح أن روسيا تدين بأول تجربة فى الحياة السياسية النظيمة للشماليين ، أو على وجه التخصيص لفئة من السويديين الذين تعاقبوا على الحكم فى كييف . ذلك أن الطبيعة الروسية الصقلبية خيالية متطرفة ، تغويها الأوهام ، وتغريها العاطفة ، ويغلب عليها الفتور ؛ والصقالبة عموماً أقرب إلى الآسيويين منهم إلى الأوربيين ، وهم بحاجة إلى عامل التنبيه والإيقاظ الأجنبى بين حين وآخر ؛ وسدّ المغامرون السويديون تلك الحاجة للروسيين وهم على عتبة تاريخهم . ولا يقل عن ذلك أهمية أن أهل إمارة كييف — وهى أكبر المراكز السويدية على نهر الدنيبر — لم يأخذوا بأسباب المدنية من الشمال ، بل علمهم حكامهم السويديون أن يتطلعوا جنوباً إلى القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية . وهنا كذلك تدين روسيا لحكام كييف من السويديين بدخولها دائرة البيزنطيين وثقافتهم وكنيستهم ، وهى الكنيسة المسيحية الشرقية الأرثوذكسية .

على أن السويديين أنفسهم مدوا أبصارهم نحو القسطنطينية ــ واسمها عندهم مدلجارث ــ ، وطمعوا فى فتحها والاستيلاء على مغانمها التى جعلتها تغدو أكبر المدن وأكثرها ثروة على وجه الأرض ، فى القرن التاسع الميلادى . ولذا حاولت أساطيلهم القوية غزوها مرات أربعاً (٨٦٠ ــ ٨٨٠ ، ٩٠٧ ، ٩١٤ م) ، واستطاعت الإمبراطورية البيزنطية أن تحبط هذه المحاولات المتكررة تارة بالقوة وتارة بالسياسة ، حتى قنع السويديون أخيراً بالدخول مرتزقة فى الحرس الإمبراطورى ، وأسهموا بما توافر لديهم من صفات الإقدام والشجاعة فى المحافظة على الإمبراطورية والإبقاء عليها مدة قرون .

وبينما يضرب السويديون فى منحنيات الدنيبر ، أملاً فى الوصول إلى البوسفور والقسطنطينية ، وبينما يتجر إخوانهم المقيمون على الڤولجا مع المسلمين الساكنين فيما وراء القوقاز ، أخذ الدانيون والنرويجيون ــ وهم المعروفون باسم الڤيكنج من باب التعميم ــ يغيرون على غرب أوربا للنهب ما استطاعوا إلى النهب سبيلاً . وكشف أولئك القراصنة أن الأديرة والكنائس فى أيرلندا وإنجلترا وفرنسا تزخر بالتماثيل الدينية والأدوات والأوانى من الذهب والفضة ، وتمتلئ بالأقمشة المطرزة والستائر الثمينة والأحجار الكريمة ، فأفردوها بإغاراتهم ، ويكفى ــ لتصوير ما تبع ذلك الكشف من الإغارات المتتالية ــ أن نذكر ما حملته سفنهم سنة ٨٩٣ م من أسلاب لندسفارن وكنيستها ، بالساحل الشمالى الشرقى من إنجلترا ، أو من أنهاب جزيرة نوارموستييه سنة ٨٤٣ م ، وهى الجزيرة الواقعة عند مصب اللوار بفرنسا الحالية . ذلك أن الڤيكنج كانوا متجرمة ــ أى قراصنة ــ يعملون فى البحر ، وكان وراءهم بلاد ليس لهم فيها إلا الكفاف مما تجنى أيديهم من القرصنة ، على حين طفحت الأديرة والكنائس فى غرب أوربا بالقناطير المقنطرة من العين واللجين . ثم إن الشتاء فى تلك البلاد الشمالية طويل مظلم ، والحال السياسية فى الممالك الغربية المتناحرة تدعو إلى المغامرة فى غير خشية أو خوف ، فلا أقل من أن يمرح الڤيكنج إلى سفنهم عند أول نسمة من نسمات الصيف القصير ، طلباً للغنيمة السريعة فيما وراء البحار . ومن هنا يتضح أن حب الغنيمة هو السبب الأساسى

فى حركة الشماليين ، وأن ليس ثمة حاجة إلى البحث عن أسباب أخرى ؛ والمؤرخون الذين يرون فى إغارات الفيكنج على غرب أوربا نوعاً من الاحتجاج الوثنى ، ضد ما قام به شارلمان من تحويل السكسون إلى المسيحية قسراً ، ينسبون إلى الشماليين تعصباً مرهفاً يتطلب هيئة كهنوتية متيقظة ، وهذه لم توجد ألبتة بين الشماليين فيما يبدو ، ولم يكن لها على أية حال موضع فى عقائدهم الغائمة المعتمة .

والعامل الجغرافى دون غيره من العوامل المزعومة هو الذى حدا بفرعى الفيكنج — أى الدانيين والنرويجيين — إلى أن يسلك كل منهما طريقاً مستقلا وميداناً خاصاً لنشاطه وقرصنته ؛ فالدانيون بحكم قربهم من بحر المانش أهووا على فريزيا وإنجلترا وفرنسا ؛ والنرويجيون بحكم وضعهم فى أقصى الشمال تحركوا حركة غربية واسعة ، وهاجموا جزائر أوركنى وشتلاند وهيبريديز وجزيرة مان (Isle of Man) ، وأنشأوا لأنفسهم محطات لا فى تلك الأمكنة فحسب ، بل فى شمال إسكتلندا ونورثمبريا وأيرلندا . ثم استطاع أولئك البحارة المهرة أن يقوموا بما هو أدهى من ذلك وأعجب ، مما لم يسبقهم إليه سابق ، أو يلحقهم به لاحق من حيث الجرأة ، بعد أن استوثقوا من سفنهم المصنوعة من ألواح البلوط النرويجى المتين وأمراس الحديد الشديد ، وبعد أن خبروا مقدرتها على مغالبة البحار العاصفة والأمواج المائجة ، إذ وصلوا إلى جزيرة أيسلندا وجزائر فارو . وجعلوا من أيرلندا قاعدة لسفنهم التى أوصلتهم بأشرعتها ومجاذيفها إلى شواطئ جرينلندا القارسة ، ومنها إلى ذلك الجزء من شواطئ أمريكا الشمالية الذى أطلق عليه القصص الشمالى اسم ڤاينلاند (Velinland) ، أى أرض الكروم ، وهو جزيرة نيوفوندلاند الحالية .

ثم إنه فضلاً عما امتاز به الفيكنج من المهارة فى فنون البحار ، فإنهم دون غيرهم من الشعوب المعاصرة أدركوا قيمة الحركات السريعة فى الحروب ، حتى إنهم كانوا يدخلون نهر التيمس أو اللوار ، ويرسون فجأة عند ناحية من النواحى الزراعية ، فيستولون على ما بها من الخيل ، وينتشرون فى ضياعها يحرقون الغلات ، ويذبحون الفلاحين ، ويسرقون ما يسرقون . ثم يقفلون راجعين

فى سرعة البرق ، قبل أن يجمع أهل الناحية شملهم البليد لمقاومة المغيرين . وغنى عن البيان أن طول المدة التى تكررت أثناءها إغارات الڤيكنج ، وأن ما نجم عن تلك الإغارات من الخراب والدمار ، فضلاً عن الذعر الذى عم الشواطئ والأطراف ، بل تعداها إلى جوف القارة الأوربية — كل ذلك دليل على ما تردت فيه أوربا من الخلل والفوضى منذ وفاة شارلمان . والواقع أن المجتمع الأوربى بدا زمن الڤيكنج كأنما شلت أجزاؤه ، أمام عدو قاهر قادر على الحركة والحلول فى كل مكان ، بحيث استطاع أن يجمع بين الهجوم على قادس وأشبيلية وهامبورج وبوردو فى سنوات قليلة .

غير أنه من الخطأ أن نتصور كل شيء يحدث فى الأرض على مقياس كبير معناه الخير والسعادة ، إذ ليس ثمة شك أن إغارات الفيكنج فى النصف الأول من القرن العاشر الميلادى إنما جاءت للهدم من أجل الهدم ، وأنها كادت تودى بكل معالم الحضارة فى غرب أوربا إلى الهاوية . فالحضارة الأيرلندية التى أضاءت الأفق الأوربى منذ قرون لم تستطع أن تعود إلى نورها القديم ، بسبب ما أنزله الشماليون بأيرلندا من بالغ التخريب ؛ وآية ذلك مدينة أيونا التى سرت المسيحية الأيرلندية منها إلى إنجلترا ، إذ غدت من بعد تخريبهم كأن لم تكن شيئاً مذكوراً . غير أن الطبيعة تعادل دائماً بين الكوارث العظمى والمجهودات البشرية التى تعقبها ، والكوارث العظمى لذلك لا تخلو من فوائد معوّضة . والدليل على صحة ذلك هنا أن إغارات الڤيكنج لم تلبث أن تطورت من لصوصية إلى فتوحات ، ومن فتوحات إلى استقرار ؛ فالڤيكنج الذين خربوا الأديرة الأيرلندية هم الذين أسسوا المدن التجارية فى أيرلندا ، والڤيكنج الذين هدموا مدينة أرماخ الأيرلندية هم الذين أنشأوا عوضها مدن وترفورد ودبلن وكسفورد ويمرك ؛ بل إن ما قدمه الڤيكنج من الإساءات إلى الإسكتلنديين لم يعدم بعض الفائدة ، لأن تسلطهم على الجزر الإسكتلندية والبحر الأيرلندى حجز بين إسكتلندا وأيرلندا ، ووقف حركة المهاجرة بينهما ، كما عطل الاختلاط بين الشعبين ، مما ساعد على توحيد الجنس الإسكتلندى تحت حكم ملوك إسكتلنديين .

أما الدانيون وهم الفرع الآخر من الڤيكنج ، فإنهم أحدثوا بإنجلترا وفرنسا

أكثر مما أحدث إخوانهم النرويجيون بأيرلندا وإسكتلندا ، إذ هزت إغاراتهم العنيفة أركان البلدين ، وأدت إلى استيلائهم وإطلاق اسمهم زمناً على الجزء الشرقي من إنجلترا ، وإلى حلولهم بالجزء الشمالي الغربي من فرنسا ، وهو نورمنديا الحالية . كما أدت أخيراً إلى خضوع إنجلترا لملوك من الدانيين (١٠١٣ — ١٠٤٢) م ، وتبعيتها لإمبراطورية دانية شاملة لشبه جزيرة إسكندناوة وغرب أوربا كله . مما كان خليقاً بأحرج النتائج فى تاريخ الإنجليز ، لولا أسباب مخففة معروفة . تلك أن الدانيين مثل الإنجليز والسكسون والفرنجة يرجعون جميعاً إلى أصول جرمانية ، وهم يشبهونهم فى كل الخصائص ، ولذا خلف الدانيون فى إنجلترا ونورماندیا غير ما خلف العرب فى إسبانيا مثلاً . ففى إنجلترا ونورمانديا أثر الغالبون والمغلوبون بعضهم فى بعض تأثيراً باقياً ، لا بسبب اختلافهم وتباينهم فى الصفات بل بسبب تشابههم فيها ، ولا سيما صفات النجابة والمرونة والوعى . فالدانيون فى إنجلترا صاروا إنجليزاً ، وفى نورمانديا صاروا فرنسيين ، وتقبل هؤلاء وأولئك المسيحية والثقافة اللاتينية التى أضحت جزءاً لا يتجزأ من المسيحية . وأسهموا إزاء ذلك بمجموعة من السجايا التى طمستها موجتهم التخريبية الأولى ، ثم أظهرتها أعمالهم التشريعية والبنائية ، وهى الأعمال التى جعلت من النورمان أولا ، ومن الإنجليز بعدهم ، أصحاب لسبق فى مضمار الحضارة بين شعوب الأرض جميعاً .

والواقع أن التشابه العميق بين الإنجليز والدانين هو المفتاح الذى يفتح للباحث فى تاريخ النظم الإنجليزية مغاليق البحث . ذلك أن الإنجليز الأولين امتازوا دون غيرهم من فروع الشجرة الجرمانية بكثرة ما كتبوا ودوّنوا من القوانين ، والجدول الصغير الذى جرى واتسع حتى آض بحراً هو القانون الإنجليزى العام (English Common Law) الذى يرجع نبعه إلى أيام إثلبرت ملك كنت أوائل أيام الدانيين فى إنجلترا ، حين كان الفقه الرومانى يودّع الوداع الأخير فى كتاب أصول القانون[1] الذى أمر بتأليفه الإمبراطور جستنيان . ثم أضيفت إلى القانون الإنجليزى — زمن ملوك وسكس — إضافات مادية

(١) انظر ما سبق ، ص ٥٤ . (زيادة) .

زادته حجماً وسعة . غير أن الصورة التى انتهى إليها ذلك القانون قبل الفتح النورمانى لإنجلترا . لم تكن من عمل ملك من الملوك الإنجليز . بل جاءت على يد أحد الدانيين . وهو كانوت . صاحب الإمبراطورية الشاملة غرب أوربا كله . بما فيه إنجلترا . والسرّ فى ذلك أن كانوت رأى — كما رأى الباحثون الحاليون — أن مواضع الخلاف بين عادات الإنجليز والدانيين عرضية طفيفة . ومواضع الشبه بينهما جوهرية عميقة . فلفظ قانون فى اللغة الإنجليزية دانىّ الأصل . وكذلك حبّ إقامة الدعاوى والتقاضى فى كل شىء . وهو ما امتاز به الخلق الإنجليزى منذ كانت إنجلترا . ثم إن الدانيين والإنجليز تعوّدوا القضاء العلنى فى المحاكمات . وتشابهت وسائلهم فى معرفة البرىء من المجرم . مثل امتحان المتهم بالنار أو بالماء الساخن . أو بلقمة من الخبز أو بقطعة من الجبن ، أو بتأدية اليمين على قاعدة اليمين على من أنكر ، مع تزكية العدول لليمين المؤداة ؛ كما تشابهت لديهم قوائم الديات والغرامات التى يدفعها أهل الجناة لأهل المجنى عليهم مرة واحدة أو مرات متعددة . وفضلاً عن ذلك كله . فإن نظام المحلفين الذى ابتدعه النورمان لا يعدم ما يشبهه لدى الإنجليز والدانيين الأولين من وسائل التحقيق فى القضايا والجنايات .

وثمة نتيجة أخرى من نتائج الإغارات الدانية على فرنسا وإنجلترا . وهى أنّ تلك الإغارات أدت إلى تنشيط الدولة فى كل منهما ، بظهور أسرات أنجبت ملوكاً قادرين على الحكم والدفاع عن البلاد . فبعد أحقاب طويلة من الضعف والفوضى ظهرت فى فرنسا أسرة كابيه التى برزت أول ما برزت فى الدفاع عن باريس ضد الدانيين وغيرهم من الشماليين ، ثم حلت محل المتأخرين من عجزة الشارلمانيين ، وأخذت منذئذ تسير فى دأب وهدوء نحو إنشاء ملكية فرنسية ممتدة الأطراف . وجرت الحوادث بما لا يختلف عن ذلك كثيراً فى إنجلترا ، فبينا هدم الدانيون ممالك نورثمبريا وإيست آنجليا ومرسيا ، وبدا كأن مصير المدنية الأنجلو — سكسونية بات فى كفة الميزان ، لشدة ما نزل بمعظم أرض إنجلترا من التخريب ، وقفت مملكة وسكس فى وجه الدانيين ، واستطاع ملوكها من أسرة إجبرت أن يحاربوهم حرباً باسلة عنيدة . وطال النضال

واشتد ، وتخللته تقلبات مفاجئة ، غير أنه لم يخل من نتيجة ، وهى تثبيت الملكية القومية فى وسكس التى لم يلحق الدانيون بها شيئاً مما ألحقوه بسائر الممالك الإنجليزية .

وتفصيل تلك الحوادث فى إنجلترا أن الإغارات الدانية تحولت إلى فكرة الفتح والاستيلاء سنة ٨٦٦ م ، بعد أن ظلت تلك الإغارات اثنتين وثلاثين سنة وهى ترغى وتزبد ، وتزداد قوة وتخريباً . ففى تلك السنة استطاع هنجوار زعيم القراصنة الدانيين أن يكتسح جميع الممالك الإنجليزية بين التيمس والكليد فى حملة خاطفة واحدة ، فتهشمت نورثمبريا وإيست آنجليا ومرسيا تحت ضرباته القاصمة . ثم استولى هنجوار على نوتنجهام فى إنجلترا الوسطى ، وألقى الحصار على دمبارتن فى الجنوب الغربى من إسكتلندا ، حتى إذا عبر إلى الجزيرة الأيرلندية سنة ٨٦٨ م ، بعد أن ترك أخاه هالفدان ليتمّ ما بدأه من الفتح والنصر ، خيل للناس أن الجزر البريطانية كلها سوف تصبح غنيمة سائغة للدانيين .

غير أن مملكة وسكس — الممتدة عبر إنجلترا من رأس لاندز إند إلى بحر الشمال جنوبى التيمس — حفلت وقتذاك بعصابات وشراذم مختلطة من الممالك التى هدمها الدانيون فى الشمال ، وانضمت هذه وتلك إلى وسكس وأهلها من الأعيان والمزارعين والفلاحين ، تحت زعامة ملك قادر على مقاومة المغيرين حتى النهاية . ذلك هو ألفرد الذى لم يبلغ من العمر سوى ثلاث وعشرين سنة حين آلت إليه الملكية ومشكلاتها الهائلة سنة ٨٧١ م ، والدانيون وقتئذ منتشرون فى جوف إنجلترا . ومن المعلوم أن جميع ما يتعلق بحياة ذلك البطل القومى يهمّ الإنجليزى ويشجيه ، وهى حياة مليئة بالدلالات على عظمة ألفرد منذ نشأته ؛ ومنها زياراته المتكررة لروما ، وانشراحه للأغانى والآداب الإنجليزية وعنايته بالتعليم ، وتشجيعه العلم من طريق الترجمة لمعظم الكتب اللاتينية الشائعة فى عصره ؛ مثل كتاب سلوى الفلسفة (De Consolatione Philosophae) للمؤلف بوئثيوس ، وكتاب واجبات راعى الدين والكنيسة (Regulae Pastoralis Liber) للبابا جريجورى العظيم ؛ وهذا إلى رعايته للفنانين والصناع ورجال الدين من

الأجانب ، واهتمامه بالأسفار وتقويم البلدان ، وتنميته العلاقات الطيبة بين إنجلترا والبلاد المجاورة وغير المجاورة ، فضلاً عن جسارته فى الحروب وحماسته فى الصيد ، وغيرته فى أمور الدين ورسومه ، واعتقاده فى بركة السلف الصالح وآثارهم . على أن الذى يجعل حياة ألفرد جديرة بما يحوطها من هالة الاحترام لا يقتصر على ما تقدم من دلالات على سعة الأفق والقدرة على جليل الأعمال فحسب ، بل يستند فى الواقع إلى نجاحه فى طرد الدانيين عن وسكس ، لأن فى إنقاذه لها إنقاذاً للحضارة الأنجلو — سكسونية ، وضماناً لنهوض تلك الحضارة فى إنجلترا كلها على أسس قومية . ولفوز ألفرد ملك وسكس أهميتان أخريان ، وهما أن هزيمة الدانيين على يده كانت أول صدمة خطيرة للتيار للوثنى الجارف من الشمال ، وأول بداية للموجة العكسية التى أدت إلى نشر الدين المسيحى بين الشعوب السكندناوية ، مما مهد لقبول تلك الشعوب فى دائرة السياسة الأوربية .

ومن هنا تتضح الناحية العالمية من حياة الملك ألفرد ؛ على أن حياة هذا الملك حدٌ فاصلٌ فى تاريخ إنجلترا كذلك ، فإن الرجل الذى خلص وسكس من براثن الدانيين زعيم بولاء جميع الناطقين باللغة الإنجليزية ، بعد أن صيرته الحوادث ملكاً ، لا على جميع البلاد التى حددتها معاهدات الصلح (٨٧٨ — ٨٨٥ م) مع الدانيين ، وهى البلاد الواقعة غربى الخط القاطع للأقاليم الوسطى بإنجلترا على طول الطريق الرومانى المعروف باسم واتلنج ستريت (Watling Street) فحسب ، بل على ما عدا ذلك من أرض إنجلترا ، مما لم تمسسه تلك المعاهدات . ثم إنه يبدو أن جميع ما امتازت به إنجلترا فى مختلف عصورها ، من أسطول ضخم وقانون واسع وعاصمة فخمة ، يرجع كله إلى سياسة وضع أصولها ألفرد ، إذ بنى سفناً طويلة على غرار السفن الدانية ، وأصدر قانوناً شاملاً لعادات السكسون والمرسيين والكنتيين ، وعمر ما تخرب من لندن على يد الدانيين ، بعد أن أدخلها فى مملكته .

يضاف إلى ذلك كله أن وسكس صارت بفضل ما قام به ألفرد قاعدة لما سوف يتمخض عنه المستقبل ، فمنها استولى ابنه إدوارد على أرض الدانيين

(Danelaw) بإنجلترا شرقى واتلنج ستريت ، وهى معظم يوركشير ولينكولن وإيست آنجليا الحالية . ومنها درأ حفيده أثلستان هجوماً مزدوجاً من أيرلندا وإسكتلندا ، فى وقعة تقشعر الأبدان من حوادثها . وتذوب القلوب من تفاصيلها ، وهى وقعة برونابورة سنة ٩٣٧ م التى ألهمت ملحمة من أعظم ملاحم الأنجلو ـ سكسونية ، وغدت مادة لقصة من أبهى القصص فى أدب الشماليين . والحاصل أنه لم تأت سنة ٩٥٤ م حتى استطاع ألفرد ملك واسكس أن ينادى بنفسه ملكاً على جميع إنجلترا ، من بحر المانش إلى الكايد .

هكذا حفظت الملكية فى وسكس منصب الصدارة على سائر إنجلترا سبعاً وسبعين سنة بعد وفاة ألفرد العظيم ، فمدت نفوذها فى خطوات قوية . وحكمت أرض الدانيين بإنجلترا حكماً هيناً لا قسوة فيه ولا شدة ، واستطاعت بمعونة الكنيسة أن تكون بنجوة من الأخطار التى هددت كيانها لقيام قاصر فى الملك ولما يبلغ العاشرة من عمره ، وهو إثلرد (٩٧٨ — ١٠١٦ م) .

غير أنه على الرغم من إعلان وحدة إنجلترا نظرياً منذ منتصف القرن العاشر الميلادى فصاعداً ، ظلت تلك الوحدة غير مستقرة على حال لأسباب مختلفة ، وبقيت على تلك الحال حتى زالت أسبابها بالفتح النورمانى . ذلك أن الجيوش الدانية المعسكرة فى إنجلترا شرقى واتلنج ستريت ، والجيوش النرويجية الضاربة فى نورثمبريا ، لم تنقطع عن المقاتلة والتنازع ، كما لم تستطع أن تندمج مع أهل البلاد من السكسون . ثم إن نظام الممالك السبع ـ أى الهبتاركية (Heptarchy) — وهو النظام الذى قسم إنجلترا إلى سبع ممالك قبل أن يجيئها الدانيون ، لم تذهب ذكراه تماماً من عقول الناس ، ولم يكن من المستبعد إحياؤه إذا ما استولى الضعف على ملوك وسكس . وتحقق المحظور ، ووقع ما كان فى الحسبان على عهد إثلرد ، إذ عاد الدانيون إلى الإغارة من بلادهم الأصلية على إنجلترا ، بعد أن نعمت بشىء من السلم مدة سبع وسبعين سنة ، وأضحت مرتعاً خصباً بالثروة المغرية ، بالقياس إلى التعاسة الضاربة بأرجاء القارة الأوربية . ولكى تكتفى وسكس شر أولئك الأعداء المفسدين لجأت حكومتها الضعيفة إلى شرائهم بالمال ، وفرضت على الناس ما يسمى ضريبة

الدانيين (Danegeld) . وهى ضريبة بهظت المزارعين وغيرهم من السكان ، بمقدارها وتكرارها ، حتى أفقدتهم أثقالها نسيم الحياة والحرية التى تمتعوا بها منذ أيامهم الأولى ، وغدوا فى حال من العبودية الزراعية ، كأنهم والأقنان عبيد الأرض سواء . ومن المعروف فى علم الاقتصاد أن بعض الضرائب تبلغ من الفداحة مبلغاً كفيلاً بتغيير معالم مجتمع بأسره ، وأن بعضها يدرّ من الحصيلة والدخل ما يغرى الحكومات باستمرارها زمناً بعد زوال الطوارئ الأصلية التى سببت فرضها على الناس . واجتمع هذان المعنيان فى ضريبة ذهب الدانيين . ولذا هى أصل من أصول التطور الإقطاعى والعبودية الزراعية فى إنجلترا ، وفى غيرها من البلاد الأوربية التى فرضت مثل تلك الضريبة على نفسها لأسباب مشابهة ، وهى لذلك ظلت الركيزة المالية الكبرى فى إنجلترا على عهد كانوت ، ثم على عهد وليم الفاتح وأعقابه من الملوك النورمانيين مدة غير قليلة .

غير أن ضريبة الدانيين على ثقلها لم تعصم إنجلترا من الإغارات الجديدة ، ولم تستطع إلا أن تؤجل الاستيلاء على أقاليمها مرة أخرى . إذ أخذ الدانيون ما قدمه لهم إثلرد من الأموال ، وراحوا ليعودوا إلى الإغارة وطلب المزيد أو التخريب مراراً ، حتى اضطر إثلرد إلى الفرار إلى نورماندیا . وبذا أعلن سوين زعيم الدانيين نفسه ملكاً على إنكلترا سنة ١١٠٣ م . وخلفه ابنه ووارثه كانوت الذى نودى به ملكاً على مملكة إسكندناوية شملت إنجلترا والدانمارك والنرويج وجزائر هبريديز بأطراف إسكتلندا . غير أن مملكة تفصل بين أجزائها أمواه عاصفة ، وبحار هائجة ، لا تقوى على البقاء متحدة زمناً طويلاً ، ولا جناح على الباحث إذا استبعد من دائرة الاحتمالات التاريخية تصوير إنجلترا جزءاً دائماً من دولة إسكندناوية جامعة لأجزاء أوربا الغربية . والواقع أن أهمية عهد كانوت تنصبّ على تاريخ السكندناويين أكثر مما تنصب على تاريخ الإنجليز ؛ ولم يكن استيلاء الدانيين على إنجلترا أول مرة تمكن فيها المغلوبون من التغلب آخر الأمر على الغالبين . ثم إن كانوت نفسه تحول من عالم الشماليين النورديين إلى العالم الرومانى اللاتينى حين اعتنق المسيحية ، إذ شد الرحال إلى روما حاجًّا ، وتزوج من الملكة إمّا أرمل سلفه

إثلود على عرش إنجلترا . كما أنه حكم إنجلترا حكم الملك الوطنى ، لا الأجنبى ، ولم يكن ثمة ما يدعو إلى المفاضلة أو المقارنة — عند ملك اتصف بقوة الإدراك — بين سهول إنجلترا الخصبة ، وأنهارها الهادئة الدافقة وغلاتها الوافرة ، ومحطاتها التجارية الناشطة ، وبين جبال النرويج الوعرة ، وتلال الدانمارك السافية ؛ لأن إنجلترا بالقياس هى الأبهى ولا نزاع ، وهى الأكثر زراعة ولا شك . ولذا جعل كانوت من إنجلترا مركزاً لإمبراطوريته ، وعقد النية على نقل المسيحية منها إلى سائر ممتلكاته . على أن كانوت لم يكن أول من فكر فى إيصال المسيحية إلى البلاد الشمالية ، إذ سبقه القديس أنشار (St Anschar) سنة ٨٣٠ م ، وهو بيكاردى فرنسى تعلم فى دير كورفيه بفرنسا الحالية ، وساح فى الدانمارك والنرويج والسويد مبشراً بديانة المسيح ، وغامر بحياته حتى غلبته على أمره قوة التقاليد الوثنية التى ظلت تشعّ إلى ما بعد القرن التاسع الميلادى من معبد أوبسالا بالسويد ، حيث أقيمت الشعائر للآلهة أودن وثور وفراى[1] ، وقدمت الذبائح والقرابين من الرجال والنساء وأنواع الحيوان مرة كل تسع سنوات . ثم حدثت معجزة المعجزات حين صار أهل البلاد الشمالية جميعاً فى دائرة الحضارة الرومانية اللاتينية أواخر القرن العاشر الميلادى . إذ أخذ أهل البلاد الدانية فى إنجلترا — وهم الذين تحولوا إلى المسيحية نظريّاً منذ معاهدة ودمور سنة ٨٧٨ م — يدخلون فى دين الكنيسة الإنجليزية أفواجاً تلو أفواج ، حتى أصبح الواردون على إنجلترا من الدانمارك والنرويج والسويد للتجارة يجدون بموانيها مسيحيين تربطهم بهم رابطة اللغة والدم ، مما أدى ببعض أولئك التجار إلى اعتناق المسيحية ، كما أدى ببعضهم الآخر إلى إزالة ما فى نفوسهم من كره للمسيحيين . وكيفما كان الأمر فالمعروف أن القساوسة الإنجليز باتوا موضع الطلب فى النرويج والدانمارك ، وأن عهد كانوت يوافق حركة التوسع فى الدعاية للمسيحية بهاتين المملكتين ، على يد الملك أولاف القديس ، وأخيه أولاف سكتكونج ، وكلاهما يدين باعتناقه المسيحية إلى مبشرين من الإنجليز ، كما يدين كلاهما بنجاحه فى عملـه إلى المساعدة

---

(١) انظر ما سبق ، ص ١١٥ . (زيادة) .

الإنجليزية ؛ وكانت حركتهما هذه من حركات الاتفاق والمجانسة فى الرأى والسياسة ، مما يحدث بدافع التقليد والمحاكاة فى فينات التاريخ .

ومن الأهمية بمكان أن كانوت ألقى بشخصيته الكبيرة فى كفة المسيحية أثناء تلك السنوات الحرجة فى التاريخ الأوربى ، لأن تملكه على إنجلترا جعله أقوى الملوك السكندناويين وأغناهم على الإطلاق ؛ فلو أنه رفض التحول إلى ديانة المسيح ، وأقام على دينه الأول مستعيناً بالروح الوثنية الكامنة بأعماق البلاد النرويجية مثلاً ، لتأخر استقرار الأحوال السياسية فى أوربا تأخراً كبيراً . غير أنه اتخذ عكس ذلك المسلك ، بل إنه حرص على أن يبدو سكسونياً أكثر من السكسون ، ولاتينياً أكثر من البابا ، كما حرص أن يكون ابناً تقياً باراً بالكنيسة المسيحية ، فعمر مدينة سنت إدمنذز بيورى تكريماً للملك الإنجليزى الشهيد الذى قتله الدانيون أثناء إغاراتهم الأولى ، وبعث إلى الدانمارك فئة من رجال الدين الإنجليز لتنظيم الكنيسة بها . وفى الحق أن سياسة كانوت آذنت بنهاية الخطر السكندناوى على المسيحية اللاتينية ، على الرغم من بقاء عبادة الآلهة ثور وأودن وفراى وغيرها فى بعض الأركان .

على أن المؤرخ يعلم — إذا هو أعرض عن عصر البطولة والتقشف والحماسة فى المسيحية الأولى — أن انتقال أوربا إلى ديانة المسيح لم يحدث إلا نتيجة تفكير فى فائدة عاجلة ، أو بسبب ضغط سياسى قريب ؛ فالقوط الغربيون والشرقيون ، والفرنجة ، والسكسون ، والسكندناويون ، لم يعتنقوا المسيحية أفراداً يحدوهم نور من أنفسهم ، بل شعوباً يجمعهم الإيحاء العام والطاعة لأولى الأمر فيهم من الرؤساء والملوك . وهذا القول لا يمنع من وجود أشخاص تحمسوا للمسيحية بعد أن مست حبات قلوبهم دعوتها إلى الفضيلة ومكارم الأخلاق ، أو سمت بهم كلمتها إلى حب التأمل فى الطبيعة الإلهية ، لأن من المعروف أن كثيراً من الناس اعتنقوا المسيحية من وحى الإيمان والتفكير . غير أنه من المعروف كذلك أن السواد الأعظم ممن تحولوا من الوثنية إلى المسيحية على عهد الإمبراطورية الرومانية ، أو أثناء المرحلة الأولى من العصور الوسطى ، لم يحركهم إلى ذلك دافع من الدين الخالص أو الأخلاق الفاضلة ، ولم تتغير قلوبهم

بعد أن أصبحوا مؤمنين . ومن الضروري أن يذكر المؤرخ دائماً أن قبول البرابرة جميعاً للديانة المسيحية لم يؤد إلى شيء من التغير العميق المفاجئ ، مما عسى أن يتطرق إلى الذهن من لفظ القبول ؛ فإن أوربا ظلت مسرحاً للأطماع الجامحة ، والشهوات الوحشية ، والخرافات المخزية . وفي الحق أن تثقيف البرابرة بآداب الدين المسيحي لم يعدُ وقتذاك مرحلة البداية الأولى ، وهو لا يزال بعيداً كل البعد عن التمام ؛ على الرغم مما بذل من جهد جهيد عبر القرون حتى العصر الحاضر . ومع هذا لا مشاحة في القول بأن المجتمع الأوربي على فطرته في العصور الوسطى منع اتخاذ القرابين من البشر ، وأبطل تعدد الزوجات ، وحرم الرق والعبودية .

غير أن موضع البحث هنا هو المملكة الأنجلو – دانية التي حكمها كانوت ، والتي يرجع الفضل في بقائها إلى شخصيته وحدها . ذلك أنه لم يكن بين أبنائه من استطاع الإبقاء على وحدتها بعده ، ولذا عادت إنجلترا بعد قليل من وفاته إلى أواصرها القديمة ، واستدعت إليها سليل الملك إثلرد – وهو إدوارد التقي – من منفاه في نورماندیا ، سنة ١٠٤٢ م ؛ وانتهى بذلك عهد الدانيين ، دون أن تفقد إنجلترا شيئاً من طابعها الوطني . أما إدوارد التقي فلم يكن قديساً أو ملكاً ضعيفاً كما شاء أصحاب الحوليات المعاصرة من الرهبان أن يصوروه ؛ بل كان رجلاً صادقاً ، حسن المقصد ، متوسط الذكاء ، تنقصه الخبرة بأحوال إنجلترا لأنه عاش بعيداً عنها مدة شبابه ، وتعوقه أساليبه الأجنبية ولسانه الأجنبي عن فهم ما حوله ، وتجبهه حزبية ضاربة الأطناب منذ أيام الدانيين ، دون أن تكون لديه القوة على ضبطها أو الحيلة لهدمها . ثم إن إدوارد لم يعقب ولداً ، فخلقت الشكوك المتولدة عن مسألة العرش مادة مثيرة للمناورات السياسية ، وأضافت بذلك إلى صعوبات الحكم صعوبة أخرى ، واختلف الرأي فيمن ينبغي لمجلس الدولة (The Witan) أن يختار لهذا الشرف : أيرسل في طلب حفيد أخي إدوارد من نورماندیا ، أم يضع التاج على رأس هارولد بن جُدون أمير وسكس وأقوى أمراء عصره وأشدهم طمعاً في المملكة ، أم سوف تمثل المصالح الأجنبية دوراً في تقرير المصير ؟ وكان هناك

أجنبيان ممن اهتم بعرش إنجلترا أكبر الاهتمام ، وأولهما هاردرادا ملك النرويج . وثانيهما وليم دوق نورمانديا ، وهو رجل وسعت أطماعه كل شيء ، وامتدت يده إلى كل ناحية ، وله من الصلة بالبيوت الملكية الإنجليزية أن عمته إما تزوجت من والد إدوارد التقى ، وبذا استطاع أن يدعى القرابة العائلية من بيت الملك إجبرت[١] .

ومن هنا يتطلب الموضوع شيئاً من عود على بدء ، لتوضيح الصلة بين حوادث الشماليين كلها وما تطورت إليه من نتائج . ذلك أن الإغارات الشمالية التى أدت فى كل من روسيا وأيرلندا وإنجلترا إلى تنشيط التجارة وتنمية المدن . وأدت فى أيسلندا ووديانها البعيدة إلى ازدهار عجيب فى الأدب الشمالى ، هى التى خلقت نورمانديا لأوربا والحضارة الأوربية . فالنورمان (Normans) اسم محرف من لفظ الشماليين (Northmen) الذين استقروا منذ ٩١١ م بوادى نهر السين ، واشتقت البلاد التى استقروا بها اسم نورمانديا منهم . ثم ما عتم أولئك النورمان أن برهنوا على أنهم أسطع الأجناس الأوربية عند الإطلاق . إذا أضافوا إلى ما اتصفت به أصولهم الشمالية من صفات الشهامة والرجولة والقوة جميع ما كسبوا — هم وأبناؤهم — من صقلة الشعوب اللاتينية وثقافتها التى اختلطت بحياتهم الجديدة ؛ فاستبدلوا بالوثنية ديانة المسيح . وباللغة الدانية لسان الفرنسيين ، واستعاضوا عن ذكرياتهم الشمالية الصاخبة تقاليد اللاتين وأسسها الواضحة ، وأحبوا التراتيل الدينية والقداس فى الصلوات الجامعة ، وهاموا ببناء الكنائس ، وشغفوا بالاستماع إلى الراوى وهو يغنى أغنية رولان ، ويرنم الأشعار التى خيلت مصرع البطل شارلمان على يد المسلمين ، فى وقعة تاريخية لم يشهدها لا شارلمان ، ولا المسلمون . وأضاف النورمان إلى مهاراتهم البحرية جميع ما عرف وقتذاك من فنون الحرب الراكبة وفنون الحصار ؛ ثم وجدوا مروج نورمانديا غنية بالخيل ، فهاموا بركوبها هياماً ساوى عندهم بين الفرس وهى تركض فى الأرض ، وبين السفينة وهى تجرى فى البحر . وهكذا لم يغير النورمان شيئاً مما بأنفسهم من الولوع بالقتال والنزال ، حتى

---

(١) انظر ما سبق . ص ١٢١ ، وما بعدها .

إذا خلوا من الحرب ضد عدو من الأعداء ، انقلبوا إلى المباراة المسلحة بالزرود والسيوف . فيذبح واحد منهم صاحبه فى ابتهاج يشبه ابتهاج الصبية فى ميادين الألعاب الرياضية .

ولم يكن بين أتباع ملك فرنسا من هو أقوى أو أعز نفراً من زعيم أولئك النورمان الغرانيق . الذين أقبلوا على ما وجدوا من مظاهر الحضارة الأوربية أيما إقبال . ولذا غدت نورمانديا أعظم الدوقيات الفرنسية . وبات أدواقها بعاصمتهم رُوان قادرين على الوقوف وقفة الند للند أمام ملوك فرنسا الذين استقرت عاصمتهم منذئذ بباريس. وطالما نشبت بين الفريقين حرب من أجل بلدة فكسان الواقعة على خط الحدود بين نورمانديا وجزيرة فرنسا (Ile de France) وتلك هى التسمية التى أطلقت على الأراضى الإقطاعية التابعة لملوك فرنسا تبعية مباشرة وقتذاك . غير أن مطالع النورمان لم تقف عند نورمانديا وحدودها . بل امتزجت فيهم محبة المغامرة بموهبة التقدير الدقيق والحرص . ففتحوا صقلية وإنجلترا فى القرن الحادى عشر الميلادى ، وكشفوا عن جزائر كناريا أو الخالدات فى القرن الحادى عشر الميلادى ، وبعد ذلك بقرنين اثنين كان المغامرون من سلائل النورمان أول الذين دخلوا نهر المسيسبي وفروعه الصغيرة بأمريكا الشمالية .

وسرّ ذلك كله أن نورمانديا أصبحت أواسط القرن الحادى عشر الميلادى تحت حكم سلسلة من أدواق أشداء ، وأضحت دولة قوية متماسكة الأجزاء ، بالقياس إلى سائر الدول بغرب أوربا دون استثناء . ففى نورمانديا دون غيرها من البلاد وقتذاك بدت الإقطاعية نظيمة مقيدة بأسباب النفع العام . إذ تعينت الخدمة الحربية وتأديتها على مقتضى العادة الجارية إزاء تملك الأفصال الإقطاعيين على إقطاعيات معينة ، وتحددت الحروب الخاصة ، وامتنع بناء المعاقل والقصور الحصينة إلا بإذن من الدوق ، وصارت العملة احتكاراً للدوق كذلك ، وأسندت الإدارة المحليـــة إلى النواب (vicecomes) الذين يمثلون المصالح الدوقية العامة ، لا المصالح الإقطاعية الخاصة . ولم تشذ الكنيسة عن تلك القاعدة ، بل هيمن الدوق على شئونها فى نورمانديا ،

برغم ما بلغت فى سائر أوربا من السلطان فى القرن الحادى عشر الميلادى ، مما لم تبلغه من قبل ومن بعد . ولم تستطع همجية الأرستقراطية التى اتصف بها المجتمع الشمالى القديم أن تتغلب على قوة الأدواق ، بل هدم دوق وليم ما تبقى منها حين قضى على تمرد النبلاء النورمان فى وقعة ڤال أسدون (Val és Dunes) سنة ١٠٤٧ م .

وليس من المغالاة هنا أن يمعن المؤرخ فى التأكيد على تلك الحقائق ، لأنه لم يكن من المستطاع أن يقام البناء الأوربى بعد الكارثة التى أعقبت وفاة شارلمان ، بحيث يعود المجتمع إلى شىء من الترتيب والنظام ، إلا إذا نمت دول إقطاعية صغيرة نمواً وئيداً على نسق حسن التركيب ؛ وكانت دوقية النورمان أول هذه الدول ، وأرقاها نموذجاً . ثم انتقلت التجربة النورمانية عبر المانش إلى الأراضى الإنجليزية ، بعد الفتح النورمانى ، وإلى جميع الأراضى الفرنسية التى استولى عليها النورمان — بعد أن أصبحوا ملوك إنجلترا — بالفتح أو عن طريق الزواج ، فامتدت ممتلكاتهم إلى مين وآنجو وأقطانيا ، وغسقونية ، وإلى الجزر المحيطة بإسكتلندا . وفى جميع أجزاء تلك الإمبراطورية النورمانية — إن صح هذا التعبير تجوزاً — باتت أسس الحكم ثابتة القواعد فى القرن الثانى عشر الميلادى ، وسرى القانون بعين عليه حارسة لمبدأ تعميمه على الناس فى لغة فرنسية إقليمية تداولها رجال القانون من خليج فورث بشمال إنجلترا إلى نهر الجارون بالجنوب الغربى من فرنسا .

ومن حسن المصادفة فى التاريخ أن أصبح النورمان فرنسيين ، وأن يظلوا كذلك نصف قرن من الزمان على الأقل ، قبل أن ينتصروا على الإنجليز فى وقعة هيستنجز سنة ١٠٦٦ م ، وقبل أن ينتقلوا بدولتهم إلى إنجلترا . فلو أنهم حفظوا لغتهم وعاداتهم الأصلية ، وبقوا عنصراً لم يتحلل فى جسم المجتمع الفرنسى ، لتضاءل تأثيرهم العام إلى مثل تأثير البسقاوية والبراطنة والإيرلنديين وأهل الغال فى إعادة البناء الأوربى . لكن الذى حدث كان غير ذلك ، ولذا حملوا معهم طابع الحضارة اللاتينية الخلابة إلى حيث ألقت بهم مغامراتهم الكثيرة .

ومن الدليل على تمكن المغامرة من قلوب أولئك النورمان أنهم بدءوا فى تصيد الحظ تحت السماء الإيطالية ، خمسين سنة قبل أن يستولوا على إنجلترا . ذلك أنه وصل إلى علم جماعة من الحجاج النورمانيين – العائدين من الأراضى المقدسة سنة ١٠١٥ م – أن جنوب إيطاليا يطفح بالشحناء بين الدول القائمة به ، وأن ثمة متسعاً لنشاط القادرين على الخدمة مرتزقة بجيوش المتشاحنين ، من فائض الشبان والأبناء المتبرمين بالحياة الرتيبة أو الفاقة بين أهلهم ، والراغبين فى التنقل والرحلة فى سبيل رغد العيش وذيوع الصيت . وانتشرت تلك الأخبار انتشاراً سريعاً فى نورمانديا ، وولى كثير من فرسان النورمان وجوههم شطر الجنوب ، وشاركوا فى الحروب المحلية الناشبة بجنوب إيطاليا ، ودلوا على كفايتهم الحربية دلالة قاطعة . ثم حدث سنة ١٠٣٠ م أن دوق نابلى منح جماعة المرتزقة فى جيشه من شجعان النورمان مقاطعة آفرسا ، مكافأة لهم على خدماتهم . ولا غرابة فيما صنع الدوق ، وما سوف يصنعه غيره من البيزنطيين واللمبارديين والمسلمين والإيطاليين ، من باب الإعجاب بأولئك النورمان ؛ فإن الفارس النورمانى بدهائه وشجاعته ، وطموحه وغطرسته ، وحبه الكسب والسعة فى الإنفاق ، مع دأبه على العمل ومثابرته ، وشغفه بالملابس الزاهية والعبارات المونقة ، فضلا عن إتقانه لأركان فن الحرب – كل ذلك جعله يبدو فى أعين الناس بإيطاليا الجنوبية مثال الذكاء اللامع ، ونموذج المهارة الفائقة . والحقيقة أن أولئك المغامرين بلغوا من علو الصيت مبلغاً غير متناسب مع أعدادهم ، حتى إنهم استطاعوا أن يستولوا على جنوب إيطاليا وصقلية كلها ببضع مئات من الفرسان ، بقيادة اثنى عشر من أبناء المعامر النورمانى الكبير تانكرد هوتفيل[١] .

ويندر أن يوجد فى تاريخ العصور الوسطى أعجب مما يرويه المؤلفون فى نهضة تلك الأسرة وأبنائها الذين انتزعوا جنوب إيطاليا من البيزنطيين ، وصقلية من بنى حماد المسلمين ، وأنطاكية فيما بعد من ولاة السلاجقة المسلمين الآخرين ، وذلك قبل أن يهاجموا الدولة البيزنطية فى عقر دارها بالبلقان .

---

(١) راجع شجرة الأنساب رقم ٢ ، فى آخر الكتاب . (زيادة) .

ومن أولئك الأبناء روبرت جوسكارد الذى بدأ حياته لصًّا من لصوص الماشية ، ثم غدا فارساً من فرسان الليل والخيل ، وصوّره أحد أتقياء المؤلفين الصقليين فى حولياته تصويراً يكاد يعيد النورمانى المغامر إلى الحياة ، إذ وصفه وأيامه الأولى وصفاً بديعاً ، واختتم القول فيه بأنه : « كان على جانب من أصالة الرأى والحيلة ، والذكاء والموهبة ، والكرم والجرأة » ، كما اختتم القول فى أخيه رُجار فاتح صقلية ، بقوله إنه كان « فارعاً طويل القامة ، مليح الوجه ، بليغ اللسان ، كثير الطموح » . وطاب لذلك المؤلف المتحمس أن يرى أبناء تانكرد هوتفيل والحظوظ ترقص لهم حتى جعلتهم ما جعلت ، وما أهمه فى شىء قليل أو كثير كونهم شياطين قادرين ، فإن قسوتهم وشدتهم فى الحروب يغفر لها أنهم مسيحيون ، وإذا هم أنزلوا الهزيمة بالجيش الذى سار على رأسه البابا ليو التاسع للحدّ من حركاتهم ، فإنهم أصلحوا ما سلف منهم حين وقع البابا أسيراً فى أيديهم سنة ١٠٥٣ م ، إذ أولوه من آيات الإجلال ما أرضاه عنهم وعن أعمالهم . وأدركت البابوية ما سوف تفيد من تحالف مع زعماء تلك الفئة الغالبة ، عساهم أن يخلصوا إيطاليا من البيزنطيين ، ويعيدوا صقلية إلى المسيحية ، ويجعلوا البابوية على عرشها آمنة مطمئنة . لذلك كله عقد البابا نقولا الثانى والنورمان معاهدة سنة ١٠٥٩ م ، واستناداً إلى الوثيقة المزيفة التى تنسب إليها هبة الإمبراطور قنسطنطين[١] أقطعت البابوية دوقية أبولية إلى روبرت جوسكارد ، كما عينت أخاه رجار نائباً بابويًّا لجزيرة صقلية ، مكافأة له — ولأعقابه من بعده — على طرد المسلمين من تلك الجزيرة .

كذا جرت المقادير حتى صار لأولئك المغامرين الشماليين أن يضعوا حجر الأساس لدولة متحضرة على شواطئ البحر المتوسط ، تحت عين البابوية ، وفى نور بركتها المباركة . ودلت سلالة تانكرد — بما أوتيت من مرونة نورمانية — أنها أهل لتحمل أعباء الحكم النظيم على طرز جديدة فى أحوال صعبة . وفى مملكة الصقليتين التى سميت بذلك الاسم بعد أن وحّد رُجار

(١) انظر ما سبق ، ص ٨٥ . (زيادة) .

الثانى ممتلكات النورمان فى جنوب إيطاليا وصقلية . شهدت أوربا دولة ، لا هى غربية ولا شرقية ، بل مزيج من الاثنين . وأهلها أخلاط من البيزنطيين والرومان والمسلمين واليهود ، وحكومتها أحسن الحكومات الأوربية وأكثرها تنظيماً فى ذلك العصر ، لمحافظتها على تراثها البيزنطى الإسلامى دون غيرها من الدول . وفى وسط بساتين البرتقال بمدينة پالرمو بصقلية استوى رُجار الثانى سليل الشماليين الأولين على عرشه ، لابساً خلعة النيابة البابوية ، فوق القباء الإمبراطورى البيزنطى ، وحوله وزراؤه ، ثلة من اليزنطيين وثلة من الإنجليز ، وجيشه نصفٌ من النورمان ونصف من المسلمين . ورجال أسطوله من اليونان . وحاشيته فيها الحرم والخصيان . وكل شىء بأصوله . من حيث الملاءمة بين هيبة الملك والنسيم العليل بجزيرة صقلية الجميلة . التى كانت وما فتئت يقاسمها الشرق والغرب فى ظل رغيد .

والدهر لم يتنكر لتلك الأسرة المنحدرة من آباء قراصنة متجرمين فى البحر ، ولا لما خلفوا من الآثار الدالة عليهم . بل رفق بهم وبآثارهم رفقاً عظيماً ؛ فلا تزال زينات الحوائط بكتدرائيتهم الفخمة بمدينة منريال بصقلية — وهى من أبدع ما صنع البيزنطيون من أنواع الفسيفساء — تضاهى فى الرونق والبهجة أزهار كونكادورو وحدائقها القريبة ؛ ولا تزال هذه البقعة الفيحاء تزدان بأروقة باقية من دير قديم ، حيث يتفيأ الزائر العابر ظلاً وارفاً ، ثم لا يستطيع — بعد أن يشهد ما هنالك من مبان وتماثيل وأحجار كريمة ونقوش بديعة — إلا أن يعجب بجلال الملوك النورمان . الذين جمعوا إليهم من آيات الفنون والصناعات فى القرن الثانى عشر الميلادى ، ما يدل على عظمتهم الممددة منذئذ فى قبور من الرخام السماقى الظليم .

والأمر على خلاف ذلك فى إسكندناوة التى تدفق الشماليون الأولون منها فى مناكب الأرض ، يذبحون الناس ، ويحرقون الغلات ، ويفتحون المدن المانعة . فلم تقم فى وديان السويد أو النرويج مدن مثل منريال بصقلية ، أو مدينة كان بنورمانديا ، أو مدينة درهام بإنجلترا . بل انصرفت الأرستقراطية السكندناوية إلى الحروب بين بعضهم وبعض حتى آخر رمق من الحياة ،

وآضت إسكندناوة فى القرن الثالث عشر الميلادى خلواً من أى أثر من آثار العظمة ، وذهب عنها سلطانها ، ولم يبق بها إلا فلاحون بؤساء يعملون فى أرض نكراء . فلا يحصلون منها إلا العيش القليل .

بعض المراجع لهذا الفصل

Elton (O.) : Saxo Grammaticus. (1894).

Haskins (C.H.) : The Normans in European History. (1915).

Haskins (C.H.) : Norman Institutions. (1918).

Keary (C.F.) : Vikings in Western Civilisation. (1891).

Kendrick (T.D.) : History of the Vikings. (1930).

Oman (C.) : A History of England before the Norman Conquest. (1910).

Orlik (A.) : Viking Civilisation. Ed. H. Ellekilde. (1930).

Philpotts (B.S.) : Edda and Saga. H.U.L. (1931).

Plummer .(C.) : The Life and Times of Alfred the Great. (1902).

Trevelyan (G.M.) : History of England. (1926).

الفصل الثامن

الملوك السكسونيون والفرنكونيون فى ألمانيا[1]

أوربا سنة ٩٠٠ م – ألمانيا والمجريون – هنرى الصياد – أوتو الأول – تأسيس الدولة الرومانية المقدسة فى الأمة الألمانية سنة ٩٦٢ م – أهميتها فى تاريخ ألمانيا – حدود السلطة الإمبراطورية – الخلاف بين الإمبراطورية والكنيسة – نهوض البابوية بعد سنة ١٠٤٦ م – البابا ليو التاسع – هلدبراند – البابا جريجورى السابع – حرب التقليد العلمانى – اتفاقية ڤورمز سنة ١١٢٢م – القصة الهلدبراندية – آثارها فى التفكير السياسى – الحركات الألمانية الاستعمارية فى سهول ألمانيا الشمالية وأواسط حوض الدانوب – قلة مكاسب الإمبراطورية فى ذلك الميدان – ألمانيا الصعبة وألمانيا السهلة – انعدام المسألة الألمانية الفرنسية فى العصور الوسطى .

بينما عكف الشماليون على مهاجمة الأطراف الأوربية ، عكفت أوربا على نفسها تبتغى مختلف المقومات السياسية التى أدت فى العصور الحديثة إلى تكوين قوميات منفصلة فى ألمانيا وإيطاليا وفرنسا . وفى بداية القرن العاشر الميلادى لم تملك واحدة من تلك البلاد شيئاً من النظم الضرورية لقيام دولة ، ولا شيئاً من الوعى القومى اللازم لنهضة أمة ؛ فكان للفرنجة الغربيين ملك من غير أن تكون هناك فرنسا ، وللفرنجة الشرقيين ملك دون أن توجد ألمانيا ،

(١) سمى المؤلف هذه الفئة الثانية من ملوك ألمانيا أوائل العصور الوسطى باسم الساليين ، ثم استخدم التسمية المثبتة بالعنوان هنا للدلالة على أولئك الملوك فيما يلى ، بالصفحة الأولى من الفصل الحادى عشر . وكلتا التسميتين صحيح سليم ، لأن لفظ الساليين مأخوذ من الصفة (Salic) أى البحريين ، وهى الصفة التى اشتهرت بها هذه الفئة من ملوك ألمانيا ، على حين أن لفظ الفرنكونيين نسبة إلى إقليم فرنكونيا بأواسط ألمانيا ، وهو الإقليم الذى جاء منه أولئك الملوك ، وهذه التسمية الإقليمية هى الأقل غموضاً على القارئ . انظر شجرة الأنساب بالقسم الثانى من هذا الكتاب ، (زيادة) .

وللمبارديين بإيطاليا ملك وليس من إيطاليا القديمة إلا الاسم والذكرى . ولم يكن مما يسمى الدولة الفرنسية فى العصر الحاضر سوى عدد من الأقاليم الإقطاعية ، ينهض بينها إقطاع اسمه جزيرة فرنسا [١] (Ile de France) وعاصمته باريس ، وهو الإقطاع الذى ضوى ما حوله من الإقطاعات حتى ساوى سلطانه امتداد الحدود الفرنسية الحالية . ولم تزد ألمانيا وقتذاك عن مجموعة مفككة من الدوقيات القبلية – وهى سكسونيا ، وفرانكونيا ، وباڤاريا ، وسوابيا – وتلك كلها تنتخب لمجموعتها ملكاً يحكم فيها حكماً اسمياً . أما إيطاليا التى عاش أهلها يوماً من الأيام سادة شامخين مميزين فى إمبراطورية عظيمة ، فإنها غدت نقضاً مبعثراً تحت دول متنافرة ، فدولة بابوية تحيّف الاغتصاب من أطرافها ، وولاية إقليمية بيزنطية لم يقو الإمبراطور البيزنطى على حمايتها ، وإقطاعات لمباردية فى الشمال والجنوب ، ومدن مستقلة تهوى أن يكون لها السلطان على شبه الجزيرة كلها . ولم يكن فى وسع الغسقونيين أو البراطنة أن يدعوا لأنفسهم أنهم من فرنسا ، ولم يشعر البنادقة أو الجنوية أنهم ملزمون بالخدمة تحت لواء مركيز إقليم إڤريا بالشمال الشرقى من إيطاليا ، أو تحت لواء دوق إقليم بنڤنتو بأقصى الجنوب منها . وامتاز الجرمان بالقياس إلى أولئك جميعاً بتجانسهم القومى ، غير أنهم دلوا على شهوة بالغة فى الفتنة والعصيان طوال العصور الوسطى . وهم المعرفون بخضوعهم للسلطان والنظام فى العصر الحاضر .

واختلفت ألمانيا عن فرنسا وإنجلترا كذلك فى عدم تعرضها للشماليين وإغاراتهم ، إلا قليلا . غير أنها تعرضت أوائل القرن العاشر الميلادى لما هو أشد خطراً من ناحية الخيالة المجريين ، وهم فرع من الغول الذين تسربوا إلى سهول پانونيا الرومانية بأواسط حوض الدانوب – منذ القرن الثامن الميلادى – وفصلوا بحركتهم هذه بين صقالبة الشمال والجنوب . وأنشب أولئك الخيالة العتاة أظفارهم فى أوربا مرة بعد مرة ، وأوغلوا فيها ، وأعملوا التخريب فى جوفها . بل امتد تخريبهم إلى إيطاليا وفرنسا وما وراءهما من بلاد الأندلس .

---

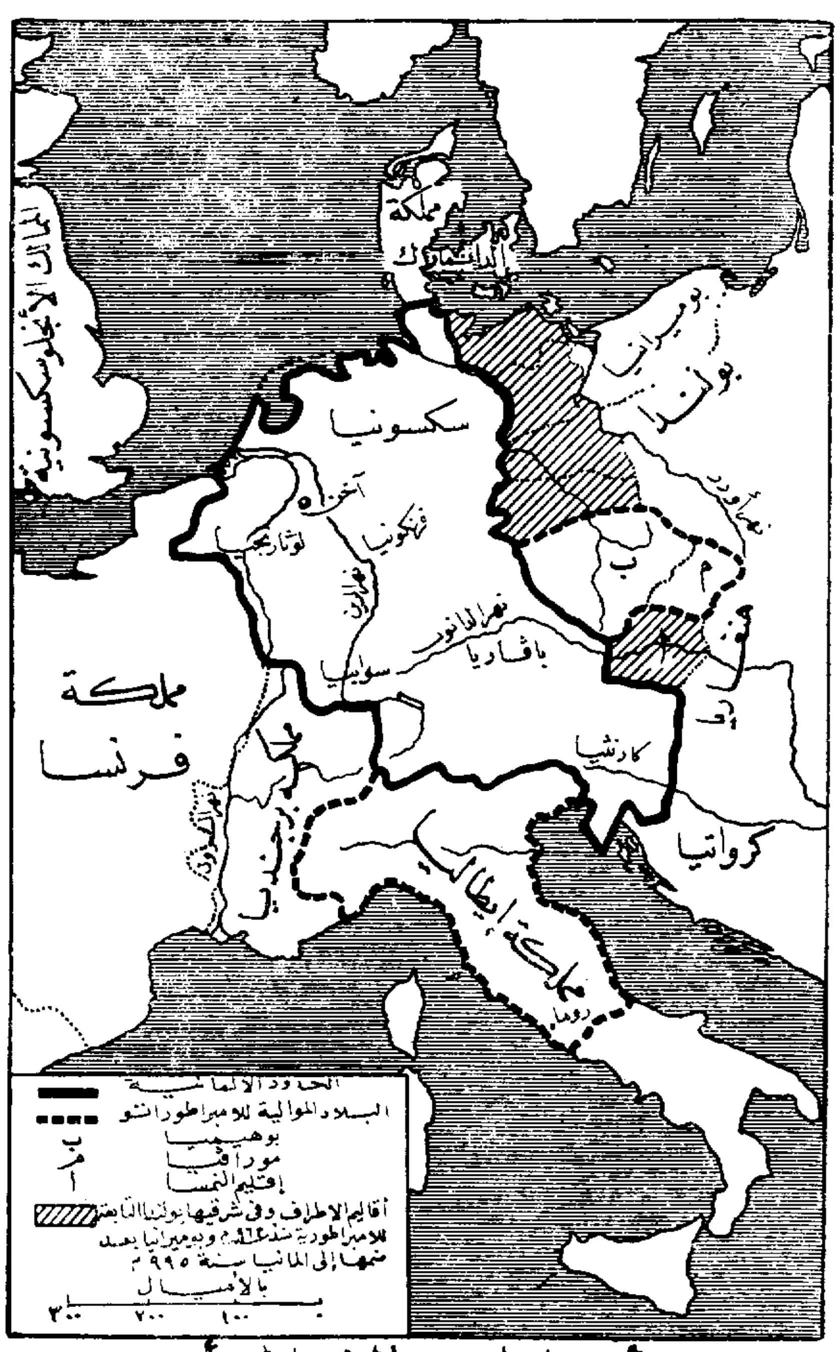
(١) انظر ما سبق هنا ، ص ١٣١ . (زيادة) .

وكما وقفت وسكس وملكها ألفرد تيار الدانيين ، وقفت سكسونيا وملكها هنرى الصياد تيار المجريين . غير أن هنرى لم يكن رجلا واسع العبقرية واضح العطف على رعيته مثل سلفه الإنجليزى ، بل عاش طول حياته جنديًّا ألمانيًّا صنديداً صارم التفكير ، وألفى نفسه أمام نوع من الهجوم جديد عليه ، فأخذ يكدّ فكره لاستنباط أحسن وسيلة للدفاع ، حتى وجد فى بناء القلاع الخشبية المشحونة بالعسكر — وفى استخدام الخيالة كذلك — وسيلة فعّالة لمقاومة الجيوش السريعة التى سددها العدو نحو بلاده بين فينة وأخرى . وانتصر هنرى على المجريين عند نهر أونسترت غربى ليبزج الحالية سنة ٩٣٣ م ، فكلل بيته بغار المجد ، ونفخ فى شعبه روح الأمل فى المستقبل . وأعقبه ابن أعظم منه مكاناً ورئيًّا ، وهو أوتو الأول الذى خلص بلاده من الوباء المجرى نهائيًّا فى وقعة نهر لخفلد قرب أوجزبرج الحالية سنة ٩٥٥ م . ثم كمل رجال الدين ما بدأه أصحاب التيجان ، حين أدخل المجريين المتوحشين راعيهم القديس ستيفن حظيرة المسيح سنة ١٠٠٠ م ، وغدا المجريون بعد ذلك ترس المسيحية عند الطرف الجنوبى الشرقى من أوربا ضد المسلمين العثمانيين .

وعلى الرغم مما ارتطمت فيه أوربا من الفوضى ، مدة النصف الأول من القرن العاشر الميلادى ، ظلت فكرة الدولة العالمية التى تسع أرضها ما وسعت المسيحية من الأرض تحيا حياة غامضة فى عقول الناس بعد شارلمان . وحق لأوتو دون غيره من المعاصرين أن يكون الرأس السياسية فى تلك الدولة ، وذلك قبل أن ينتصر انتصاره الحاسم عند لخفلد ، إذ علم الدوقيات الألمانية ، بعد لأي لم يخل من مقاومة ، أن تدين له ، وأخضع بوهيميا لسلطانه ، وقوى وسائل الدفاع والهجوم على طول الحدود السلافية . ثم إنه جعل من بعض الحوادث سبيلا للتدخل فى شئون إيطاليا سنة ٩٥١ م ، فأقام نفسه عليها ملكاً . وعين برنجار مركيز إفريا نائباً عنه بها فى غيبته ، وجاء انتصاره العظيم بعد ذلك فى لخفلد حلقة الختام فى سلسلة من أعمال باهرة . ومع أنه تحدر من قوم لم تمسسهم دائرة الدولة الرومانية يوماً من الأيام ، ولم يدخلوا حظيرة المسيحية إلا حديثاً ، لم يوجد من المعاصرين من أنكر أحقية أوتو

أن يكون إمبراطوراً إذا شاء هو أن يتقدم لذلك المنصب . لأنه بلغ من سعة السلطان والمجد ما لم يبلغه ملك فى أوربا منذ وفاة شارلمان . ولذا سار أوتو إلى روما استجابة لدعوة البابا حنا الثانى عشر ، وتتوّج إمبراطوراً رومانيًّا على يد ذلك البابا سنة ٩٦٢ م ، ورحب الناس بما حدث ترحيباً خالياً من رائحة الشك أو التذمر من أية ناحية ، إذ أروى إحياء الإمبراطورية غلة المجتمع ، وأشبع مثله العليا ، بدليل أن الإمبراطورية الرومانية المقدسة فى الأمة الألمانية — وهى الاسم الرسمى لإمبراطورية أوتو — بقيت رمزاً لروح النظام والمجانسة التى ما برح العقل البشرى دائباً على إعلاء شأنها ، وما برحت الجهالة البشرية عاملة على إفسادها .

كذا تأسست الدولة الرومانية المقدسة فى الأمة الألمانية . وهى لدى فئة من المؤلفين الألمانيين موضع الفخر والفخار ، ولدى فئة أخرى منهم موضع الأسف الأشيف ، فنظر الأولون إليها بعين الغبطة ، وخالوا فيها هيئة بلغت من الأوج ما أعجب دانتى وأشعل حماسته ، ومن الانحلال ما أضحك جيته وأثار سخريته . ويحلو لأولئك المؤلفين الألمانيين من الفئة الأولى أن يذكروا كيف رتب هنرى الصياد أسس الدفاع المشترك والنهوض السياسى فى سكسونيا الألمانية ، وكيف صار من المستطاع — بعد أن وفر ذلك الملك الصنديد لشعبه سبل الأمن — أن يصبح ابنه أوتو العظيم زعيم الشعوب الألمانية جميعاً ضد المجريين ، ثم ينقذ إيطاليا من وهدة الانحطاط ، ويعيد على البابوية احترامها فى غرب أوربا ؛ وكل ذلك حين ترددت أوربا فى حضيض الفوضى والانحلال . ويرى أولئك ومدرستهم التى تفسر التاريخ على ذلك النحو أن إحياء الإمبراطورية لم يكن ضرورة أوربية فحسب ، بل ضرورة ألمانية كذلك ، ويخالفون النظرية القائلة بأن الألمان ضُحى بهم من أجل التعلق بالشئون الإيطالية ، ويقولون بأن الألقاب الإمبراطورية جعلت للملك الألمانى مقاماً ، لا فى شعبه فحسب ، بل فى غيره من الشعوب ، وأن تلك الألقاب ساعدت على تنمية الروح القومية والعزة فى ألمانيا وأنها كانت الوسيلة التى ضمنت إخلاص الكنيسة الألمانية لخدمة الملوك الألمان .



أوربا على عهد الامبراطور أتو

غير أنه من المستطاع أن يقال فى صورة قاطعة إن إحياء الإمبراطورية فى الغرب جاء وبالا على الألمان ، فإن مساحة ألمانيا– حتى فى أيام هنرى الصياد – غدت أوسع بكثير مما يقوى على ضبطه ملك فى العصور الوسطى . فلما أضيفت إيطاليا إلى تلك المساحة الألمانية الواسعة بات الحكم العادل فى الاثنتين من المستحيل . ونتج عن ذلك ما ليس منه بدّ ، وهو أن ملوك الألمان أخذوا يبنون سياستهم على أسس شامخة ، حتى إن ألمانيا التى بدت فى القرن العاشر الميلادى أقرب أجزاء الإمبراطورية الشارلمانية لقيام ملكية متحدة ، صارت فى القرن الثالث عشر الميلادى اتحاداً مهلهلا من كثرة ما به من الإمارات والجمهوريات .

ومما أسهم فى تلك الكارثة السياسية أن الملكية فى ألمانيا بقيت مستندة إلى مبدأ الانتخاب ، على عكس ما حدث من تحول عن مبدأ الانتخاب إلى مبدأ التعاقب بالوراثة فى إنجلترا وفرنسا ، مما جعل تطور الدولة يمشى فى كل من هاتين الدولتين حسب خطة متصلة الحلقات . ففى فرنسا اتخذت الملكية لنفسها خطة الحكم المطلق ، على حين اتخذت فى إنجلترا صورة دستورية ؛ وفى كل منهما ظلت الملكية محوراً ثابتاً ، وهى والحكومة معنى واحداً ، ولذا أثرت الملكية تأثيراً بنائيًّا فى الحياة القومية بإنجلترا وفرنسا . أما ألمانيا فإنها سارت فى طريق مخالف ، لأنه لم يكن من مصلحة البابا والدوقات الألمان أن يصبح للملكية من القوة ما سوف يسبغه عليها مبدأ التعاقب بالوراثة ، فبقى مبدأ الانتخاب ، ولم يسمح الناخبون لأية أسرة من الأسرات أن تعمر الإمبراطورية ، فحلّ الفرنكونيون محل الأسرة السكسونية[١] ، ثم حل الهوهنشتاوفن[٢] محل الفرنكونيين . ولم تستقر الإمبراطورية فى عاصمة ما إلا بعد تجارب كثيرة ، تنقلت فى أثنائها إلى أطراف بعيدة مثل پالرمو فى صقلية ، وپراها (Prague) فى تشيكوسلوفاكيا الحالية ، حتى وجدت آخر الأمر من ڤينا بالنمسا مستقرًّا ، وفى الهاپسبورجيين النمسويين أسرة طال بها العمر .

(١) راجع ما سبق هنا ، ص ١٢٧ حاشية ١ . (زيادة) .

(٢) انظر الفهرس ، فى آخر الكتاب . (زيادة) .

ومن ذلك كله يتضح الاختلاف بين إمبراطورية الألمان والإمبراطورية البيزنطية التى قامت على محور نظيم ، فى عاصمة حصينة ، ترعاها كنيسة خاضعة ؛ لأن واحدة من تلك المزايا لم تتوافر لأوتو وأخلافه إلى حين ، بل ظل إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة فى الأمة الألمانية حائراً ينتقل فى حاشيته من ضيعة إلى ضيعة ، ومن ناحية إلى أخرى ، فيجلس فى أسفاره للحكم فى القضايا الإقطاعية التى ترفع إليه ، ويقضى فيها بمعونة المحيطين به من رجال الدين والأعيان ، على حين تكون روما — وهى عاصمة الإمبراطورية على نهر التيبر — تارة فى يد البابا ، وتارات فى يد عصبة من الأعيان الرومان الذين طالما رقدوا فى مراقد الضلال .

وإذا قامت الإمبراطورية الرومانية المقدسة نظريا على قاعدة عالمية ، لم يحدث أن إمبراطوراً امتد سلطانه إلى فرنسا ، أو إسبانيا ، أو إنجلترا ، أو إسكندناوة ، أو روسيا ، أو ممتلكات الإمبراطورية البيزنطية الواسعة ، بل تعينت سلطة أوتو بما حاطها من أطراف تلك البلاد المختلفة . لذا كان إحياء الإمبراطورية من أهم ما أثر فى شئون الشعبين الألمانى والإيطالى ، وفى أحوال البابوية ، فضلاً عن تطورات الحياة السياسية فى أوربا ، ومصائر الشعوب السلافية بأواسط أوربا . فنى أوربا الوسطى تشكلت الحوادث السياسية ، وتأثر الجدل السياسى قروناً متعددة ، بتلك المنظمة الشاذة التى لم يصل من ضوئها شىء إلى سائر أوربا إلا قليلا ، بل بدا إمبراطورها الرومانى المقدس أجنبيًّا ، ليس بين ألقابه ومزاعمه وسلطانه أية مناسبة .

ولم يكن ذلك الوضع على شذوذه مستعصى العلاج ، لولا أن تصادمت الإمبراطورية والبابوية أواسط القرن الحادى عشر الميلادى ، من أجل مسألتين ذاتى مساس بحياة الكنيسة المسيحية وشئون الحكم فى الدولة الألمانية ، وهما مسألة زواج رجال الدين ، وحق التقليد العلمانى . وتفصيل ذلك أن شارلمان جعل من سياسته أن يقف على الكنيسة الألمانية مختلف الأوقات والإقطاعات ، وأن يعتمد على رجالها فى مهمام الحكم . وجدّد الإمبراطور أوتو الأول وأخلافه تلك السياسة ، فأغدقوا على رجال الدين الألمان إغداقات كثيرة لم تخل من

بصيرة وفطنة ، وانتظروا إزاءها أن يقوم رجال الدين — الذين يرجع تعيينهم وإخلاصهم إلى أولئك الملوك — بضيافة الركب الإمبراطورى كلما حل بأرضهم ، وإعانة الخزانة الإمبراطورية بالمال كلما أعوزها المال ، وإمداد الجيش الإمبراطورى بوفرة من الجند كلما نشبت الحروب .

وألفى الأباطرة الألمان أن الكنيسة غنية ، عليها أساقفة شداد بالرجال أقوياء بالمال ، مما يلائم سياستهم تمام الملاءمة ؛ بل إنهم جعلوا من أولئك الأساقفة أساطين ارتكزت عليها حكومتهم ، إذ رأوا أن الاعتماد على رجال الدين فى شئون الإدارة والحكم — شمالى جبال الألب وجنوبيها — آكد لهم مما لو اعتمدوا على أدواق القبائل وكبار الإقطاعيين .

غير أنه لم يكن ثمة بد من أن تصبح تلك السياسة موضع الكره الشديد من الكنيسة غداة نهضتها الروحية فى أوربا ، مع العلم بأن بعض الفضل فى تلك النهضة الكبرى يرجع إلى الأباطرة أنفسهم . ولم يخفف من شدة ذلك الكره أن الأباطرة — رغم ارتباط إنعاماتهم الكنسية بأهداف سياسية — كانوا جميعاً من المتقين ، بالقياس إلى المستوى الغالب على زمنهم ، بل بلغ بعضهم فى مراقى التقوى مبلغاً عالياً ، مثل هنرى الثانى والثالث . ثم إن الأباطرة أحسوا — باعتبارهم حماة الكنيسة والذائدين عن بيضتها — أن عليهم صون البابوية من العنف والهون ، وأن عليهم أن يتدخلوا فى شئونها كلما دفع ضغط النبلاء الصاخبين ، أو رفع اختيار رجال الدين ، رجلاً إلى الكرسى البابوى من غير القمينين به . فمن أجل البابوية شنق الإمبراطور أوتو الأول ثلاثة عشر نبيلاً رومانياً ، وعين حفيده أوتو الثالث اثنين من البابوات ، فدل أحدهما — وهو جريجورى الخامس — على جدارة واحترام ، برغم سنه التى لم تعد الثالثة والعشرين ، على حين دل ثانيهما — وهو سلفستر الثانى — على أنه أكثر أهل زمانه علماً . ولم يخدم إمبراطور مصالح البابوية خدمة هنرى الثالث الذى خلع اثنين من البابوات — أو ثلاثة على قول آخر — فى مجمع دينى عقده بمدينة سوترى فى تسكانيا ، سنة ١٠٤٦ م ، وضمن بذلك تعيين أربعة من البابوات الصالحين ، وهم ليو التاسع (١٠٤٨ — ١٠٥٤ م)

وفكتور الثانى (١٠٥٤ – ١٠٥٧ م) ، وستيفن التاسع (١٠٥٧ – ١٠٥٨ م) ونيقولا الثانى (١٠٥٨ – ١٠٦١ م)[١] .

ونتيجة لتعيين أولئك الأربعة الصالحين – واحداً تلو آخر – تطهرت البابوية من المخازى والأدران التى لحقت بها ، واستعادت زعامتها الأدبية فى الكنيسة . ثم ما لبثت أن أوقعت البابوية بينها وبين الإمبراطورية نزاعاً ظل مدة قرنين إلا فترات متقطعة ، وتردت إيطاليا وألمانيا بسببه قروناً فى حمأة الفوضى السياسية والبؤس . وإذا سأل سائل : كيف تأتت تلك النتائج الوخيمة من تعيين أربعة من المكتهلين المتقين فى الكرسى البابوى ؟ فالجواب أن ليو التاسع – ومن جاء بعده – أودعوا البابوية ومنصبها عقيدة ذات قوة انفجارية كبيرة ، وهى عقيدة انتشرت بأوربا زمناً ، وفى استطاعتها تحت إرشاد بابوى أن تصبح قوة سياسية من الطراز العنيف . ذلك أن أولئك الأربعة كانوا من الكلونيين الذين انتموا إلى الحركة الإصلاحية التى نبعت من دير كلونى ببرجنديا أوائل القرن العاشر الميلادى ، وهدفت إلى نشر العفة والتقوى والنظام فى الأديرة ، ثم اتسعت كما تتسع أمثال تلك الحركات حتى استحالت منهجاً للإصلاح الكنسى العام . وكان أوائل الكلونيين راضيين بالعمل فيما نصبوا أنفسهم له ، من شرح فضائل الصفاء الروحى ، وإنكار الذات وضبط النفس ، وطلب الرضى من الله ؛ ثم تغيّوا أن يجعلوا نظام طريقتهم تحت رقابة مركزية ترعى أديرتهم الناشئة ، وتنمى مبادئها الخالصة لوجه الدين . أما الكلونيون المتأخرون ، فإنهم طمعوا فى أكثر من ذلك ، إذ خالوا أن تعاليم المسيح لن تمكث فى الأرض إلا أن توجد كنيسة مستقلة يرأسها بابا على كل شىء قدير ، واختلفت الآراء بين أولئك الكلونيين المتأخرين ، فمنهم من توسط ، ومنهم من تطرّف ، ولكن الروح العامة فى الحركة الكلونية كلها – وهى روح ملؤها الحماسة والصراحة – أجمعت على إعلاء شأن البابوية . وأصرت على مستوى مهنى واضح التقاسيم لرجال الدين . وفى كل جهة من جهات أوربا الوسطى – من اللورين إلى حوض الرين ، ومن بافاريا إلى شمال إيطاليا : احتدمت الآراء

(١) راجع تفصيل ذلك كله فى (Camb Med. Hist. Vol. III pp. 21-36) (زيادة) .

الدينية أشكالا وألواناً بين الدقة والبساطة فى أدمغة المنصرفين إلى الحياة الدينية ، ولا سيما رهبان الأديرة الذين أشبهوا عمال مناجم الفحم فى معيشتهم الخاصة بعيدين عن الناس ، وفى استعدادهم لاعتناق ما يرد عليهم من الآراء فى صورة حماسية .

ثم أيدت البابوية بسلطانها تلك الآراء البالية ، تنفيذاً لأمر البابا ليو التاسع ، لأن ليو بدأ حياته كلونيًّا ، فلما صارت إليه البابوية أضفى على عمله روح الحاكم المطلق الذى يعتبر الدنيا كلها وطناً واحداً هو واحدها . ويريد أن يصلح ما استطاع الإصلاح . ونظر ليو إلى البابوية ، لا كما نظر إليها أسلافه ، فلم ير فيها منصباً محدوداً بمكان ووظيفة تدرّ على صاحبها المال ، بل خالها مؤسسة عالمية ذات سلطان مطلق ، وسمو غير محدود ، واستقلال تامّ ، وتفويض إلهى بالرقابة الروحية والإصلاح والتوجيه إلى الخير . ومن دلائل سعة أفقه ونشاط روحه أنه عين للكردنالية من الأجانب غير الإيطاليين ، وعقد المجامع الدينية فى فرنسا وألمانيا ، وحالف النورمان أصحاب جنوب إيطاليا ، وأنفذ القصاد البابويين فى بعثات تأديبية إلى أنحاء أوربا . وحذا خلفاؤه حذوه فى السير على مقتضى مذهب السمو البابوى المطلق ، فشجعوا حركة البترية (Pataria) فى ميلان — وهى حركة شعبية معادية للحكم الألمانى — وأنكروا الهرطقة فى العقائد . كما أنكروا الإنعامات السياسية على رجال الدين .

ثم اهتبل الكلونيون الفرصة التى سنحت لهم بوفاة هنرى الثالث سنة ١٠٥٦ م ، وشغور المملكة الألمانية والمنصب الإمبراطورى إلا من قاصر لم يبلغ السادسة من عمره ، وهو هنرى الرابع ؛ فجعلوا اختيار البابا فى يد هيئة الكرادلة دون غيرهم من رجال الدين ، وذلك سنة ١٠٥٩ م . وهى السنة الثانية من بابوية نيقولا الثانى[١] . ومنذئذ صارت السياسة العليا فى الدوائر الكنسية مرهونة بعبقرية راهب قمىء دميم الوجه ، بدأ حياته فلاحاً خشناً فى تسكانيا ، وما زال يتقلب فى المراتب الدينية ، ويدل على توقده وسعة حيلته ، حتى

---

(١) انظر ما سبق هنا ، ص ١٤٥ . (زيادة) .

عرفه التاريخ كردينالا باسم هلدبراند . ثم عرفه بابا باسم جريجورى السابع . حين تم انتخابه للكرسى البابوى سنة ١٠٧٣ م .

ولا مغالاة فى القول هنا أن الفلسفة المشيئية (theocratic philosophy) التى نهضت بأوربا نهوض النار فى الهشيم . وهزت أغصان الحياة السياسية فى دولها الناشئة منذ أوائل القرن الحادى عشر الميلادى . ترجع فى معظمها إلى ذلك الرجل المثالى الصارم الذى لم يتزحزح عن رأيه مرة قيد أنملة . وخال ذلك الرجل . ونادى بصوت ملؤه الشجاعة الآمرة الناهية . أن العالم بأسره دولة مسيحية واحدة ، يسيطر عليها بابا . له العصمة ، وله القدرة . لا يحده قانون ، ولا يزعه وازع ، وهو الذى يخلع المسيئين من الملوك ويثل عروشهم ، ويقطعهم من رحمة الكنيسة ، ويحل رعيتهم من طاعتهم . واعتقاداً منه بأن الوقت حان لبناء قوة حربية تابعة للكنيسة الكاثوليكية ، نادى جريجورى بمذهب التبتل بين رجال الدين ، تحت رقابة البابا وحده ، باعتباره خليفة المسيح فى الأرض ؛ وأعلن استعداده للعمل فى كل ما من شأنه أن يحقق استقلال الهيئة الكنسية ، ولو أدى ذلك إلى فصم العرى العائلية بين المتزوجين من رجال الدين فى ألمانيا ، أو ترتب عليه إضعاف الملكية الألمانية إلى أقصى حدود الإضعاف . ولم تقف مطالب ذلك الرجل عند حد ، إذ طلب أن تحتفظ الكنيسة جميع ممتلكاتها من قصور وضياع وسائمة وغلات وأموال ، ولا تنزل عن شىء من ثروتها الهائلة التى جعلتها فى ألمانيا عماداً لا يستغنى عنه فى شئون الحكم . وأصر جريجورى كذلك على أن تكون الكنيسة مستقلة بشئونها تمام الاستقلال . أى أن تصبح إمبراطورية فى جوف إمبراطورية . وقال إنه لما كانت الروح أسمى من الجسم ، والشمس ألمع من القمر ، فالسلطة الدينية قياساً أعلى من السلطة السياسية .

وأخيراً أعلن جريجورى فى مجمع دينى عقده فى موسم الصيام الكبير سنة ١٠٧٥ م ، أنه ليس من حق الحاكم العلمانى – أى السياسى – كائناً من كان ، أن يقلد أحداً من رجال الكنيسة شارات المنصب الدينى ، وأن الإقدام على ذلك هدم للقانون الإلهى ، لا يطاق ولا يغتفر .

ويبدو من المؤكد أن جريجورى السابع لم يخط تلك الخطوة إلا بعد أن اطمأن إلى طريقه تمام الاطمئنان . إذ المعروف عنه أنه مهر فى جميع الأدوار الديبلوماسية التى قام بها مدة حياته الكنسية . ولا بد أنه أدرك أن إنكاره التقليد العلمانى علناً فيه تحد لقواعد الحكم الإمبراطورى فى ألمانيا وإيطاليا معاً . ولابد أنه توقع أن الإمبراطورية سوف تقابل تحديه بمثله ، كما لابد أنه اطمأن إلى النجاح . ولم يكن جريجورى غير منطقى فى تخمينه . فإن هنرى الرابع [1] لم يخلف أباه فى الإمبراطورية إلا سنة ١٠٦٥ م . بعد وصاية طويلة تيقظت أثناءها أنواع الفتنة فى ألمانيا . ثم إن هنرى لم يخرج عن كونه شاباً عنيداً قليل الخبرة ، وأن عهده افتتح بثورة خطيرة قام بها فلاحو سكسونيا الذين ضاقوا ذرعاً بحلوله بينهم . وبنائه عاصمة لنفسه فوق تلاهم الخضراء فى جزُلار السكسونية ، وهو الذى ينتمى إلى سوابيا بأقصى الجنوب الغربى من ألمانيا ، وليس من حقه أن يخمد أنفاس شعب حر بإقامة الحاميات الكثيرة التى شحنها بالسوابيين . ومع أن هنرى الرابع تغلب على تلك الثورة ، وأسر دوق سكسونيا ، لم يخل من أعداء كثيرين على جانبى جبال الألب ، من رهبان وديريين ، وفلاحين وإقطاعيين ، فضلا عن الساخطين على الحكم الألمانى من أهل المدن اللمباردية ، وهم الذين يستطيعون أن يكونوا عصبة قوية بزعامة البابوية . ثم إن البابوية ملكت على الناس أرواحهم إلى درجة لم تملكها الجيوش — ولو أرادت — فى ذلك العصر الطافح بالأوهام ، لأن البابوية إذا أنكرت صحة العبادات التى أقامها المتزوجون من رجال الدين ، أو أنذرت ملكاً من الملوك بالحرمان من رحمة الكنيسة ، أو قررت عند الضرورة القصوى خلعه ، فإن ذلك كان كفيلا بإلقاء الرعب فى القلوب ، والقضاء على ما بين الملوك ورعيتهم من طاعة ، وقطع الأسباب التى تربط الناس بالناس ؛ ولابد أن البابا جريجورى السابع فكر فى كل ذلك ملياً حين تحدى الإمبراطور هنرى الرابع تحديه الخطير .

---

(١) بلغ هنرى الرابع سن الرشد سنة ١٠٦٥ م ، فأخذ يعالج شئون مملكته وإمبراطوريته فى حماسة ودراية ، ولكنه لم يتوج إمبراطوراً فى روما إلا سنة ١٠٨٤ م . (زيادة) .

وافتتح النضال بمبادلات كشفت فى الحال عن اختلاف القوى المعنوية التى اعتمد عليها الفريقان المتنافسان . إذ نزع الإمبراطور البابا عن كرسيه ، ورد البابا بخلع الإمبراطور وقطعه من رحمة الكنيسة، فلم يتأثر مركز جريجورى بقرار هنرى فى قليل أو كثير على حين أدى قطع هنرى من رحمة الكنيسة بـ نتائج خطيرة فى مصير إمبراطور عقد الأقوياء من رعيته عزيمتهم على إذلاله . وفى مجمــع سياسى عقده الأمراء الألمانيون بمدينة تريبور على نهر الرين فى أكتوبر سنة ١٠٧٦ م . قال الأمراء الألمانيون للإمبراطور هنرى الرابع إنه إذا لم يُغْفر له غداة وصول البابا إلى ألمانيا فى الربيع القادم ، فسوف يفقد عرشه إلى الأبد . غير أن هنرى رأى ألا ينتظر حكم البابا عليه فى أرض ألمانية ملؤها الفتنة . فضرب بكبريائه عرض الحائط ، وجمع إليه شجاعته ، وسافر عبر جبال الألب والشتاء على أشده ، يبتغى المثول بين يدى البابا بمرتفعات كانوسا فى تسكانيا ، حيث أعلن الندم ، وفاز بالغفران . ورجع إلى ألمانيا أوائل سنة ١٠٧٧ م ليخبر أعداءه بما أذهلهم وأوقعهم فى حيرة من أمرهم .

ذلك أن الأمراء الألمانيين بلغوا فى فتنهم مبلغاً بعيداً يصعب منه الرجوع ، فانتخبوا رودلف دوق سوابيا ملكاً على ألمانيا أواسط سنة ١٠٧٧ م ، بعد اجتماع كانوسا ببضعة أشهر . فلما مات رودلف قتيلا فى وقعة على نهر إلستر أواخر سنة ١٠٨٠ م ، ألح الأمراء فى النكاية بهنرى إلى أقصى الحدود ، واستعاضوا عن رودلف القتيل هرمان دوق لكسمبرج . حتى إذا مات هرمان ، وأمسى هنرى الرابع شيخاً نصل الشيب رأسه ، لم تهدأ ثائرة الفتنة ، بل عمد الأمراء سنة ١١٠٤ م ، إلى تحريض ابنى هنرى ، على الثورة ضده . وفى جميع مراحل هذه الفتنة الألمانية التى هدفت إلى خلع ملك من شكيمة هنرى الرابع وصلابته ولباقته . حرص الأمراء الألمان من أول الأمر على استجلاب عطف جريجورى السابع . وما لبثوا إلا قليلا حتى حصلو على معونته الناشطة ، فاعترفت البابوية بقيام رودلف دوق سوابيا ملكاً على ألمانيا قبل مقتله بشهور ، ورد هنرى على ذلك بأن عين فى البابوية جويبرت

رئيس أساقفة راڤنا . وهكذا اشتعلت نيران الفتنة فى ألمانيا وإيطاليا معاً مرة أخرى ، وانضم إلى جانب الإمبراطور جميع الفلاحين ورجال الدين من أهل الجنوب الغربى بألمانيا ، وجميع صغار الإقطاعيين فى دوقيتى سوابيا وفرنكونيا ، فضلا عن معظم سكان المدن الألمانية . غير أن سكسونيا – وهى أكبر دوقيات ألمانيا وأشدها فى الحروب إطلاقاً – هبت فى وجه الإمبراطور هبة عنيفة بزعامة أوتو نوردهايم أشجع النبلاء الألمان فى عصره ، ولم يستطع هنرى أن يعبر جبال الألب إلى إيطاليا ، ليضع مواهبه الحربية تحت تصرف الموالين له من الإيطاليين ، إلا بعد أن طأطأت سكسونيا رأسها لحكمه سنة ١٠٨١ م .

غير أن إيطاليا لم تفد من مجىء هنرى الرابع إليها أية فائدة ، إذ حاصر روما أربع مرات ، واضطر إلى القناعة بالخذلان فى كل مرة . ولم يحصل جريجورى على شىء مما تحمد عقباه ، إذ لجأ إلى صقلية واستنجد بالدوق روبرت جريسكارد والدولة النورمانية بجنوب إيطاليا ، لإنقاذ روما من مخالب الإمبراطور ، ولما كانت الفرق الإسلامية التى استخدمها روبرت جويسكارد فى جيشه لا تقل عن الرومان الأقدمين مقتاً للمسيحية وأتباعها ، وما اتصفوا به من الوداعة والصبر على المكاره ، فإن روما ذاقت الأمرّين على أيدى أولئك المسلمين – وهم الذين جاءوا إليها للغوث وللنجدة – إذ لقوا من أهل روما مقاومة عنيفة أدت بهم إلى الانتقام من روما وأهلها أشد الانتقام . وبدا لجريجورى من فراش الموت بمنفاه البعيد فى سالرنو بصقلية أن لله فى خلقه شئوناً لا تدركها الأفهام ولا تتذوقها العقول ، فإن القوطيين والوندال المفسدين فى الأرض لم يحدثوا بمدينة القديس بطرس من الخراب والدمار مثلما حدث بها بسببه . وهو الذى وهب حياته لإعلاء شأنها فى العالمين .

وظلت حرب التقليد العلمانى قائمة إلى ما بعد وفاة جريجورى السابع سنة ١٠٨٥ م ، ووفاة هنرى الرابع سنة ١١٠٦ م . ثم انتهت سنة ١١٢٢ م باتفاقية نَصَفَة سميت اتفاقية ڤورمز ، نسبة إلى المدينة التى عقدت بها .

وخلاصة تلك الاتفاقية أن ينزل الحاكم العلمانى كائناً من كان عن تقليد الأساقفة خاتم الأسقفية وعكازها ، لأنهما رمز السلطة الدينية ، على أن يبقى مستحقاً ليمين التبعية والإخلاص عن الممتلكات الإقطاعية التى يتسلمها الأساقفة منه . ومما يدعو إلى الالتفات هنا أن كلا من الفريقين اعتبر تلك الاتفاقية نصراً له على صاحبه ، وحق لها ذلك ، فلا البابوية ولا الإمبراطورية خسرت شيئاً . وإنما وقعت الخسارة على ألمانيا وإيطاليا حيث أوذيت نظم الحكم أذى بليغاً من جراء ذلك النزاع الطويل .

ثم إنه لم يكن ثمة جديد فى فلسفة جريجورى السابع . فإن الصفات العفة والخضوع ، والمحبة والعدل ، طالما دعا إليها الداعون دون أن يجدوا أذناً صاغية . يضاف إلى ذلك أن النظرية القائلة بأن الكنيسة الكاثوليكية من صنع الله ، فهى أم المسيحيين على وجه الأرض ، وهى معصومة عن الخطأ فى العقيدة ، عالمية السلطان ، وهى وحدها سبيل الرحمة للذين يضلون السبيل — كل ذلك لم يكن جديداً على غرب أوربا ؛ بل لم يكن جريجورى السابع أول من قال بأن بابا روما هو الرئيس الأعلى والحاكم المطلق فى الكنيسة الكاثوليكية . أما الجديد فى ذلك الرجل الخارق ، فهو الحماسة والجرأة والمثابرة التى توسل بها فى حربه ضد المفاسد المتأصلة فى عصره ؛ غير أن هذه الحرب لم تكن حرباً بين الدينيين والعلمانيين . فإن رجال الدين الذين طلب إليهم جريجورى السابع أن يفصموا عرى عائلاتهم ، أو يطلقوا زوجاتهم ، أو يهجروا محظياتهم ، غضبوا على البابا مثلما غضب عليه الأساقفة ورؤساء الأساقفة والكرادلة الذين أرهقتهم مراقباته وهيمناته الدقيقة . وفى ألمانيا — حيث بلغ التدخل البابوى أقصاه — كره معظم رجال الدين تلك الحملة الدينية الحارة التى قام بها ذلك الأوتوقراطى المتطهر . ولا عجب ، فإن التبتل فضيلة صعبة ، والتغلب على طبيعة حب النساء تضحية بشرية صارمة تجعل نور الرجولة ظلاماً . والواقع أن الحرب التى أراد عليها جريجورى السابع رجال الدين فى القرن الحادى عشر الميلادى تطلبت زمناً طويلاً واستماتة أطول ، حتى إنها لم تنتصر إلا أواخر القرن السادس عشر الميلادى .

ومن المعقول أن نسأل هنا : أكان من الممكن أن تنتصر الكنيسة الكاثوليكية حتى فى ذلك القرن السادس عشر ، لولا أن قام فيها عبقرى ذو خلق وسيطرة على موارد الكرسى البابوى ، والكنيسة وقتذاك فى أحلك عصورها ظلمة ، ورجال الدين فى أسفل دنيوية ورذيلة ، وذلك العبقرى نفسه — وهو البابا بيوس الرابع — من الشجاعة بحيث ألزم التبتل وصرامته على رجال الدين ، دون أن يخشى هو أحداً ، أو يحابى أحداً ، متحدياً بذلك أكبر قوة سياسية بأوربا فى عصره .

ونشأ عن قضية جريجورى السابع جدل سياسى لا يزال محتدماً حتى العصر الحاضر ، إذ قال المؤيدون للنظرية البابوية إن العدالة فوق القوة المادية ، وإن السلطان السياسى مؤسس على مبدأ التعاقد ، وإن الملك الذى لا يعدل خلعه صحيح شرعاً . وقال أصحاب النظرية الإمبراطورية عكس ذلك ، فجادلوا مبدأ العقد ، وأنكروا السمو البابوى المطلق ، وادعوا أن للإمبراطورية سلطاناً مطلقاً موروثاً لا ينقض ولا ينسخ . وقلما يقرأ أحد فى العصر الحاضر شيئاً من المؤلفات التى كتبت فى هذه المواضيع ، مثل رسائل الكاتب البابوى مانجولد ، أو رسائل المؤلف الإمبراطورى بطرس كراسس . على أن فى هذه الرسائل الجافة ما سوف يظل نابضاً بما يثير الاهتمام ، مثال ذلك : هل الدولة هى الكل فى الكل ، أو هل القوة المادية هى الزعيمة وحدها بالتقديس ، أو هل المسيحية تشطر إخلاص المواطن شطرين ؟ وظلت هذه الأسئلة عالقة فى عقول الألمان خلال القرون حتى سنة ١٩٣٤ م ، حين طرحت على بساط البحث الحديث فى شكل أوضح ، وإن كان أقل شجاعة من الشكل الذى جودلت به أثناء القرن الحادى عشر الميلادى .

وبينما يناقش المناقشون تلك الأسئلة بألمانيا فى القرن الحادى عشر الميلادى ، أهابت فئة من كبار الأساقفة والأمراء فى سكسونيا بالشعب الألمانى أن ثمة عملا عظيماً يرتقب أيديهم العاملة ، ولو أنه جاء فى أوقات أحسن لكان مما نفع الملكية الألمانية أيما نفع . ذلك أن الأرض التى تقع

بين نهرى الإلب والنيمن ، وتمتد فى سهل طويل يشغى فى العصر الحاضر بالزراعة الرابحة والمدن العامرة والقرى الجميلة ، كانت وقتذاك أرضاً بائرة تخنقها الغابات ، وتغمرها البحيرات والمستنقعات ، ويسكنها قبائل تتكلم لساناً سلافيًّا غريباً ، وتعبد آلهة وثنية أغرب ، مثل ترجلاف ذى الرءوس الثلاثة ، ومثل رديجاست ، وسفانتوفيت الذى تطل بقايا معبده — فى أركونا بجزيرة روجن — على مياه البحر البلطى الداكنة . واستمال غموض تلك المساحات الشاسعة أساقفة سكسونيا وأمراءها وفلاحيها ، وأغراهم ما وراء نهر الإلب من أراض للزراعة ، وغابات للأخشاب ، ومستنقعات للردم ، ومواضع لبناء القرى ، وقبائل وثنية للتبشير والتنظيم وفرض الضرائب وجمع الزكاة العشرية ، فضلا عن الإخضاع إلى أقصى درجات الإخضاع . ومصداق ذلك قول زعماء الأساقفة والأمراء السكسونيين — فى وصف البلاد السلافية وأهلها : بأن « السلاف قوم ملاعين ، ولكن أرضهم تفيض عسلا وسمناً ، ولحماً وحبًّا ، ومن الطير ألواناً وأشكالا ، وتموج بكل ما تغل الأرض الخصيبة من الغلال التى لا تضاهيها أجود الغلال ؛ هكذا يقول العارفون . فيا أيها السكسونيون والفرنكونيون ، واللوثارنجيون ، وأهل الفلاندرز أصحاب الشهرة الواسعة ، انفروا خفافاً وثقالا ، فإنكم سوف تنقذون أنفسكم بخدمة الدين ، وسوف تحصلون على أخصب الأراضى لتعيشوا فيها رغداً » .

والواقع أن استعمار تلك السهول الشمالية الشرقية كان أكبر ما قام به الشعب الألمانى فى العصور الوسطى ، حين أخذ فى فتح أرض السلاف بالفأس والمسحاة والبال والمحراث ، وتولاها بالزراعة والتجارة وبناء الكنائس والمدن .

ولم يخل الأمر من المقاومة ، لكن الألمان استطاعوا شيئاً فشيئاً أن يتوغلوا فى تلك الأرض ، وأن يبنوا بساحل البحر البلطى قرى صغيرة لصيد السمك ، وما عتمت هذه حتى صارت مدناً تجارية كبيرة ، وتكونت منها العصبة الهنسية التى ملأت البحر البلطى بسفنها ، وجعلت من ذلك البحر ثانى الطرق التجارية العظمى فى تلك العصور . وعلم الفريزيون والفلمنكيون

والوالونيون[١] بتلك البلاد الحالية التى يستطيع الزارع أن يزرعها فى أمن وسعة ويسر ، فهرعوا إليها ليشاركوا فى تلك المزايا مع الرائدين الأولين من الألمان ، ويملأوا أفواههم بأغنيات ألمانية[٢] مرحة .

على أن تلك المغامرة الطويلة ، وما أدت إليه من رزق واسع ووفرة ، لم تخل من شرّ ليس بالقليل ، وهو أن الرائد السكسونى الذى أضفت عليه طبيعة بلاده شيئاً من غلظتها لم يخفض للأبدوريين والونديين[٣] السلافيين من جناح الرحمة ، ولا سيما حين تجرأ هؤلاء السلافيون على أرض الرائدين الألمان بين فينة وأخرى . ولم ينج من ذلك النوع من الرحمة إلا إقليم پومرانيا ، حيث تحول السكان إلى المسيحية فى هدوء على يد مبشر من أحسن المبشرين الألمان ، وهو أوتو أسقف بامبرج شمالى نورمبرج الحالية ؛ وبذا طفق الألمان يزحفون إلى الأمام دون حاجة إلى عنف أو غلظة . غير أن حركة استعمارية كبيرة ، وما يترتب عليها من حاول القوى محل الضعيف ، لا يمكن أن تتم دون شىء من صارخ الظلم ، ولم يكن النضال بين المسيحية الألمانية والوثنية السلافية بمنأى من بعض الفظائع التى اصطبغ بها استعمار الأجناس البيض — فيما بعد — للنصف الغربى من الكرة الأرضية ، فوقع كثير من المذابح والمقاتل ، والاغتيالات والمصادرات ، والاستعباد والاسترقاق ، ولم يخنع السلافيون دائماً

---

(١) تطلق هذه الأسماء فى العصور الوسطى على أهالى البلاد التى هى هولندا وبلجيكا تقريباً، فى العصر الحاضر . (زيادة) .

(٢) أورد المؤلف إحدى هذه الأغنيات ، وهى فى صورتها العربية هنا محاولة أمينة لمحاكاة ما فى أصلها المترجم بالكتاب إلى الإنجليزية من قوة التصوير ، على قدر الإمكان ، ونصها :

إلى الشرق نركب ، وإلى الشرق نذهب
فوق الربى الخضراء والأمواه نلعب
وفى الشرق نلقى أطايب الحياه
ومرتعاً خصيباً وترحيباً ونطرب
حين فى الشرق ننزل قرب معقل الغفاه
ويقول الناس مرحى للمقاديم العفاه

(٣) الأبدوريون والونديون فروع من السلاف التى استوطنت أواسط ألمانيا الحالية فى العصور الوسطى . (زيادة) .

لجبروت المستعمرين ، بل ثاروا بين حين وآخر ، مثل ما حدث سنة ٩٨٣ ، ١٠١٨ ، ١٠٦٦ م ، حين أمعنوا فى المستعمرات الألمانية السيف والنار .

وشبيه بتلك الحركة الاستعمارية على مقياس أضيق ما قام به الألمانيون الجنوبيون فى حوض الدانوب الأوسط وجوّه المعتدل ، حيث اصطدم الرائدون الباڤاريون بالشعب المجرى العنيد ، فضلا عن وعورة الغابات والتلال والقفور التى أعسرت جوانب زحفهم شرقاً . غير أن طبيعة المشكلة هى التى عينت سبيل الهجوم عليها . وذلك أن إقليم العواصم والثغور الباڤارية — وهو الإقليم الذى أنشأه شارلمان ضد الآڤاريين ، وجدده أوتو لصد المجريين ، ومدده هنرى الثالث فى حروب كثيرة — كان مستعمرة حربية مقسمة — منذ القرن التاسع الميلادى بين عدد من الأمراء والأساقفة ورؤساء الأديرة من الباڤاريين الذين أخذوا على عواتقهم حمايته ، ووكلوا إلى أقنانهم زراعته ؛ وهؤلاء وأولئك هم الذين استعمروا حوض الدانوب الأوسط . ومعنى ذلك أنه بينا استولى الألمانيون على السهول الشمالية الشرقية بفضل مجهود الرائدين من أهل سكسونيا دون خطة مرسومة . احتاج الأمر إلى تنظيم حربى واسع لتحويل حوض الدانوب الأوسط إلى النمسا الحالية . والسائح العابر الذى يسافر من حدود هولندا إلى حدود روسيا عبر شمال ألمانيا — فى العصر الحاضر — يخترق بلاداً أهلها من الألمانيين الذين يتكلمون اللسان الألمانى ، وتشيع فيهم الروح الألمانية ، ما خلا عدداً قليلا من القرى الوندية[1] . لكن المشتغل بعلم الأجناس البشرية ، أو المشتغل بعلم الآثار القديمة هو الذى يستطيع أن يدل ذلك السائح على بقايا السكان السابقين من الونديين الذين انغمروا أو أبيدوا فى عنف ، منذ قرون . والأمر على خلاف ذلك فى حوض الدانوب الأوسط حيث لم يندمج الألمانيون فى السكان الأصليين ، فلا مغريات ڤينا التى غدت مركز النور الألمانى زمناً فى تلك الناحية المتأخرة من أوربا ، ولا عظمة الإمبراطورية النمسوية ، ولا جبروت الكنيسة الكاثوليكية ، ولا سيطرة البيروقراطية الألمانية — كل ذلك لم يستطع أن يكسر من عناد التشكك ، أو السلوفاك ، أو

(١) انظر ما سبق هنا ، ص ١٥٤ . (زيادة) .

المجريين ، أو السلوفينيين . ولا يزال أولئك جميعاً يحملون بين جوانحهم قلوباً غير ألمانية ، ويتكلمون لغات لا تمت إلى الألمانية بسبب . واو أن ملوك ألمانيا فى العصور الوسطى لم ينصرفوا عن شئونهم إلى شئون السياسة الإيطالية . لكان فى استطاعتهم – فيما يبدو – أن يضمنوا لأنفسهم زيادة فى القوة إذا هم عُنوا بتلك الحركات الاستعمارية . لكنهم لم ينتهزوا تلك الفرصة . فلم يصبح جزء من أجزاء البلاد التى انتزعوها من السلاف تابعاً لممتلكات ملك من الملوك الألمان . بل صارت كلها لأدواق الأطراف فى براندنبرج وإقليم العواصم والثغور الباڤارية . وأولئك هم الذين جنوا الثمار التى لولا ظروف طارئة – مثل قبول أوتو الأول تاج الإمبراطورية ، وحرب التقليد العلمانى ، ومقاومة السكسونيين محاولة هنرى الثالث وابنه أن تصبح سكسونيا مقرا للمملكة الألمانية – لكان من المستطاع اجتناؤها للدولة الألمانية . وكان من أثر ذلك أن الزعامة الألمانية فى العصور الحديثة صارت قسمة بين جاليتين ألمانيتين كبيرتين ، وهما بروسيا والنمسا ، ومع العلم بأنه لا علاقة بين نمو الحركة التى تكونت منها هاتان الدولتان وبين الحروب الإيطالية والحروب البابوية التى تملأ تاريخ ألمانيا فى العصور الوسطى . ومع هذا ليس فى التاريخ الألمانى ما يمكن أن يكون أكثر أهمية من تاريخ تلك الهجرة العظمى التى جعلت من مجموعة ضخمة من العائلات الزراعية حدوداً متحركة حركة دائمة إلى الأمام نحو الشرق ، تقطع الغابات ، وتصلح الأراضى ، وتردم المستنقعات ، وتزرع الأرض زراعة جيدة بفضل ما حملت معها من محاريث كبيرة ، ومن ورائها يأتى الراهب والديار والقسيس . والتاجر والبناء ، واليهودى الجوال والصانع الماهر – سيل دافق من شعب ناشط خصيب ، مما خلف آثاراً باقية فى تاريخ الجنس البشرى .

ولأحد المؤرخين الفرنسيين موازنة سديدة بين جبهتى الإمبراطورية الألمانية فى الشرق والغرب فى العصور الوسطى : ففى الشرق أدواق الأطراف يحاربون على حوض نهر الدانوب الأوسط وفيما وراء نهر الإلب ، وفى الغرب رجال الدين يؤسسون للكنيسة على جانبي نهر الرين . وفى الشرق بدا الشعب

الألمانى فى أشق أعماله وأعنف صفاته وأقصى ما فيه من روح المغامرة ، على حين بدا الشعب نفسه فى الغرب كأنما هدّأت الحكومة الدينية والثروة المدنية من حدته ، حتى إنه كلما امتد المد الألمانى نحو الشرق وضح الجزر الألمانى فى الغرب . أما الأراضى المتوسطة التى صارت بحكم تقسيم الإمبراطورية الشارلمانية زمن لويس التقى إلى لوثير[1] وسرى عليها منذئذ اسم لوثارنجيا ، فإنها ظلت خليطاً مزعوماً لا يستقر على حال حتى استحال إلى عدد من الإقطاعات والإمارات والمدن ، بعضها لاتينى ، وبعضها جرمانى ، وكلها داخل فى الإمبراطورية الرومانية المقدسة فى القرن الحادى عشر الميلادى ، فضلا عن الألزاس واللورين ، والأراضى التى يطلق عليها سويسرا وفرانش كومتيه والأراضى المنخفضة ، فى العصر الحاضر . يضاف إلى ذلك أن الإمبراطور كنراد الثانى (١٠٢٤ — ١٠٣٩ م) ضم إليه عن طريق الإرث والفتح مملكة آرل التى اشتملت على بروڤانس ودوفينيه بالجنوب الشرقى من فرنسا الحالية ، كما ضمّ إليه ساڤوا بشمال إيطاليا ، وهى من أعرق البلاد فى الحضارة اللاتينية . غير أن حوزة الإمبراطورية الألمانية على ذلك الجزء من أراضيها الغربية المأهولة بعناصر لاتينية ظلت سطحية قلقة ، حتى إذا أخذت قوة الملكية الفرنسية تنمو ، بدأت الإمبراطورية الألمانية تتخلى عن بعض تلك الأراضى ، ولم يشرف القرن الخامس عشر الميلادى على الانتهاء حتى انتقلت أراضى حوض نهر الرون كلها — ما عدا مدينة آڤنيون — من أيدى الألمان إلى أيدى الفرنسيين .

ووقعت تلك التغيرات دون أن تحدث شيئاً من الارتجاج ، لأن حرباً فرنسية ألمانية لم تكن فى حيز الممكنات السياسية فى العصور الوسطى ، ولأن الأباطرة الألمان كانوا إذا خلت أيديهم من قمع الفتنة ببلادهم لا يلبثون أن يُشْغلوا بإيطاليا أو الجهة الشرقية . والواقع أن عيون الألمان امتدت وقتذاك إلى الشرق ، حيث الأراضى الخالية والفتح الهين ، لا نحو الغرب حيث انعكست تلك الأحوال ، ثم إن الجيرة الجغرافية التى طالما أثارت الحروب

---

(١) راجع ما سبق ، ص ٩٨ — ١٠٢ . (زيادة) .

فى العصور الحديثة لم تكن حدثت بعد ، بل حجز بين فرنسا وألمانيا حاجز من الإمارات والدوقيات والكونتيات ، واستطاعت الدولتان على ما بينهما من حب مفقود أن تتبادلا التحية والسلام ، عبر ذلك الحاجز القائم على طول الحدود . يضاف إلى ذلك سبب يزيد فى القوة على ما تقدم ، وهو أن فرنسا انصرفت معظم العصور الوسطى نحو الغرب ، حيث اشتبكت مع إنجلترا فى حرب هى أعظم الحروب فى تلك العصور .

بعض المراجع لهذا الفصل

Cambridge Mediaeval History. Vol. V.

Fletcher (C.R.) : The Making of Western Europe. (1912-1914).

Giesebrecht (W. Von) : Geschichte der deutschen Kaiserziet. 1881.

Hauk (A.) : Kirchengeschichte Deutschland 4 vols. 1904-1920.

Milman (H.H.) : The History of Latin Christianity. 1867.

Zeller : Histoire d'Allemagne. 1890.

الفصل التاسع

أسس الحكم فى فرنسا وإنجلترا

أحوال فرنسا فى القرن العاشر الميلادى – نهضة أسرة كابيه – منابع سلطانهم – فتح إنجلترا على يد النورمان – معنى ذلك الحادث – دخول إنجلترا دائرة الحضارة اللاتينية . فضل وليم الفاتح على إنجلترا – بقاء العادات السكسونية فى إنجلترا النورمانية – تقوية الملكية على عهد هنرى الثانى – انصراف إنجلترا عن شئونها بسبب أطماعها فى أرض الفرنسيين .

لم يكن فى أحوال فرنسا – مدة القرن العاشر الميلادى – ما يدل على شىء من القوة والوحدة التى اجتمعت للملكية الفرنسية فيما بعد . ففى شمال فرنسا حيث سمى اللسان الفرنسى لانج دوا (Langue d'oil) ، لم يعرف الناس من لســان لانجدوك (Langue d'oc) ، وهو لهجة إخوانهم من أهل بروفانس وأقطانيا فى الجنوب ، سوى أنه أقل أجنبية عنهم من لغــة الكلتيين فى بريتانى ، ومن لغة الشماليين فى بايو . ثم إن فرنسا استحالت إلى إقطاعات لا تحصى بسبب حروب الشارلمانيين ، وباتت فى حال من شدة ما أنزلت بها تلك الحروب من النهب والخلل وفقدان الأمن . ولم يشــذ الشمال عن تلك الحال ، حيث اصطدم الشارلمانيون بأفصال وأتباع لا يقلون عنهم قوة ، ولا يريدون أن يعترفوا لهم بسلطان ، برغم ما بقى على الملكية الشارلمانية من موهوم الاعتبار والشرعية ، وفى أقطانيا وغسقونيا بالجنوب ، غدت قيمة أولئك الملوك الأطياف مثل الصفر على

اليسار فى الحساب . لا أقل ولا أكثر . سواء فى المحافظة على السلام أو التوجيه السياسى العام .

ثم تخلصت فرنسا من ذلك الشلل السياسى على يد أسرة ملكية امتازت – فيما امتازت به من الصفات الطيبة – بأنها استطاعت أن تمد العرش الفرنسى بسلسلة من الملوك الشرعيين ، خلفاً بعد خلف ثلاثمائة من السنين ، وتلك هى أسرة كابيه . وظهرت هذه الأسرة على غيرها من الأسر الإقطاعية – أواخر عهد الشارلمانيين – بما أدت من خدمة عامة فى ساعة من ساعات الحرج ، وفى جهة من أحرج الجهات ، إذ ظل عميدها روبرت الصنديد كونت باريس يقاتل الشماليين عشر سنين حتى خر صريعاً فى حومة الميدان . وأشبهه فى هذه البطولة الرائعة ابنه يود صاحب الفضل فى الدفاع عن باريس ضد أساطيل الشماليين سنة ٨٨٥ – ٨٨٦ م ، فكوفئ على خدمته بدوقية فرنسا . وما كان من الكثير عليه فى زمن كثرت به الأطماع الجامحة ، لو أنه استعاض الملكية عن الدوقية ، وهو الذى أنقذ فرنسا كلها من خطر الشماليين إلى حين . ثم إن أبناء ذلك البيت امتازوا بالحرص امتيازهم بالشجاعة ، فظلوا مائة من السنين وهم قانعون بخدمة المملكة الفرنجية الشارلمانية القائمة ، مع انتظار الفرصة ، برغم ما اجتمع إليهم من قوة بالقياس إلى غيرهم من الإقطاعيين الفرنسيين . ثم حدث سنة ٩٨٧ م أن لقى لويس الخامس حتفه فى الصيد ، وهو آخر سلالة البيت الشارلمانى ، فافترص هيو كابيه الفرصة ، واستعان برئيس الأساقفة أدالبرت فى إقامة أسرته فى الملك ، وأقسم جهد أيمانه يوم التتويج أنه سوف يحكم بين الناس الذين أسلموا إليه مقاليدهم بالعدل والقسطاس المستقيم .

وربما تبادر إلى الذهن أن طول إقامة هذا البيت على العرش معناه أن مركزها لم يتعرض لخطر ما ، والحقيقة غير ذلك . فعلى الرغم مما تمتع به آل كابيه من المزايا دون غيرهم من البيوت الإقطاعية المتنافسة ، مثل التحكم فى باريس وأورليان ، والتسلط على مياه السين واللور – لم يكن انتخاب هيو ملكاً بالإجماع ، وهو وقتذاك أقوى نبلاء الفرنسيين وأكرمهم عند

الكنيسة . بل امتنع كونت فلاندز وكونت تولوز ودوق أقطانيا عن مبايعته ، وبدت بذلك سحابة منذرة بما سوف يحوط العرش الفرنسى من الأطماع والمنافسات العنيدة . على أنه لم يكن فى فرنسا أواخر القرن العاشر الميلادى من يستطيع مضاهاة أملاكه بأملاك هيو كاپيه وما امتازت به من موقع مركزى وسيط ، وعاصمة جزرية آهلة بالسكان . وهى باريس التى حماها السين وقتذاك من جميع الجوانب . وإذ دلت باريس الجزرية على أنها مفتاح الغلبة على فرنسا كلها . فإن شجاعة آل كاپيه وتدبيرهم جعلهم المالكين لذلك المفتاح .

ومزية أخرى اختص بها آل كاپيه ، ووضحت فيهم معالمها وضوحاً مضطرداً على مر الأيام ، أنهم قاموا ملوكاً على فرنسا من أقصاها إلى أقصاها ، وأنهم استمدوا من ذلك قوة ليس فوقها قوة ، مع العلم بأنهم ظلوا أقل ثروة وأقل نفراً بالقياس إلى غيرهم من البارونات الإقطاعيين التابعين لهم ، وطالما تعرضوا لأعمال بعض أولئك البارونات فى أطراف أملاكهم ، بل طالما اضطرّوا إلى الكدّ فى سبيل العيش من مزارعهم . وسر ذلك كله أن الملك الفرنسى من تلك الأسرة ورث التقليد الإمبراطورى الرومانى بعد الشارلمانيين ؛ وذلك فضلا عن أنه سليل الملك كلوڤس ، « أكبر أبناء الكنيسة ، وأكثر الملوك تعلقاً بالمسيحية » ، وأنه رئيس المجتمع الإقطاعى الجديد ، وهو المجتمع الذى كره الملكية أولا ، ثم صار بعد تنظيمه منبع امتيازات التاج مما لم تعهده العصور السالفة . وعلى هذه الأسس الثلاثة بنى النظريون بناء شاهقاً من الامتيازات الملكية ، فقال القانونيون الإقطاعيون إن الملك سيد على مجموعة من السادة ، وإن أولئك السادة أفصال يدينون له بالتبعية والإخلاص والمساعدة الحربية ، وإن الملك هو الذى يقطع الأرض للأفصال مباشرة أو فى غير مباشرة . وقال رجال الدين إن تتويج الملوك على يد الكنيسة هو السر القدسى الثامن[1] وقال القانونيون الإمبراطوريون — فيما بعد — إن

(١) الأسرار القدسية فى الديانة المسيحية سبعة ، والقول بأن تتويج الملوك على يد الكنيسة هو سر القدسى الثامن لا يعدو — فيما يبدو — أن يكون إشارة لتعظيم شأن التتويج . (زيادة) .

الامتيازات الملكية ليست ذات حدود ، وأمّن القانونى الشاعر فيليب دى ريمى – بارون بوڤواسيس بفرنسا الحالية على ذلك تأميناً واضحاً فى القرن الثالث عشر الميلادى ، حين ردد المبدأ الرومانى الشهير بأن كلمة الإمبراطور تقوم دائماً مقام القانون ، فى كتابه الذى عنوانه التقاليد المرعية فى بوڤواسيس (Coûtumes de Beavoisis) .

على أن الأمر فى استحقاق الأربعة الأولين من ملوك آل كابيه مكانهم بين أصحاب الفضل على فرنسا – وهم هيو كابيه وروبرت التقى وهنرى الأول وفيليب الأول – يرجع إلى أنهم كانوا ممن طال عمره وحسن عمله (٩٨٧ – ١١٠٨ م) ، وأنهم دأبوا على تتويج الابن فى حياة أبيه . ثم إنهم بقوا بمنأى من عاصفة الحروب التى نجمت عن مشكلة التقليد العلمانى ، بفضل إغضاء البابا جريجورى السابع عما يجرى على يدهم من سيمونية صارخة ، لئلا يدفع بفرنسا إلى صفوف أعدائه . وليس معنى ذلك أن أولئك الملوك لم يقوموا بما يوجبُ الاعتراف لهم بفضل ، فإنهم حفظوا مركزهم على الأقل ، كما أنهم انتصروا فى جميع الحروب التى خاضوها خدمة للملكية : ما عدا مرة واحدة ، وهذه حين تدخل الملك هنرى الأول بين دوق أنجو ودوق نورمانديا ، ومال إلى الجانب الضعيف ، وانهزمت جيوشه فى وقعة مورتمر سنة ١٠٥٤ م ووقعة ڤاراڤيل سنة ١٠٥٨ م ، وهما أول أدوار النضال الذى ظل ما يقرب من أربعة قرون بين الفرنسيين والإنجليز .

وإذ يرجع تأسيس الملكية الفرنسية إلى معونة الكنيسة ، فإن مثل تلك المعونة أدى فى إنجلترا إلى قيام ملكية كادت تمزق فرنسا فى العصور الوسطى شر ممزق ، مع العلم بأن وليم دوق نورمانديا – وهو صاحب تلك الملكية الجديدة – لم يوصف يوماً من الأيام بميله إلى رجال الدين ، بل دل على كرهه لسيطرتهم فى نورمانديا وإنجلترا سواء . ولكن وليمَ حرص على أن يفيد من أى جهة فيها تحقيق لأطماعه ، شأنه فى ذلك شأن جميع الفاتحين السياسيين ؛ وكانت البابوية غير راضية عن أحوال الكنيسة فى إنجلترا ، فعاهدها على تنفيذ رغباتها إن هى ساعدته على تحقيق مشروع طالما أعمل فيه فكره .

وهكذا تم فتح إنجلترا ونهبها على يد النورمان ، تحت لواء أرسلته البابوية إلى وليم علامة الرضا عما عقد هو النية على تحقيقه .

ولم يكن ذلك الفتح عسيراً على وليمَ ، فإن الأحوال السياسية والحربية فى إنجلترا على عهد الملك إدوارد التى ساءت من كل ناحية إلى درجة جعلتها أقل قوة من نورماندیا ، حيث تركز السلطان كله فى شخص الدوق ، على حين امتلأ المسرح فى إنجلترا بتنافس إرلات (Earls) وسكس ومرسيا ونورثمبريا وإيست آنجليا ، ولا سيما إرل هارولد بن جودون . ثم إن النورمان حذقوا الحرب الراكبة والقوس والنشاب ، على حين عجز الإنجليز عن استخدام تلك الأسلحة ، لانصرافهم عنها إلى المنافسات الداخلية ، واستيلاء روح المحافظة البليدة على نفوسهم ، وهذا مما اختص به يومئذ خلقهم العام . أما نتائج ذلك الاختلاف فى الاستعداد للقتال ، فهو مما يدعو إلى العجب العجاب ، لأن الجيش الذى جهزه وليمَ النورمانى ، لإخضاع أمة عدتها مليون ونصف مليون ، لم يزد عن اثنى عشر ألف بمقاتل على أقصى تقدير . ومع ذلك لم تنته وقعة هيستنجز سنة ١٠٦٦ م — وهى الواقعة التى انهزم فيها إرل هارولد ابن جودون ومات — حتى بدت إنجلترا جثة هامدة تحت أقدام الفاتح ، ما عدا قليلا من الثورات المحلية التى ساء تنظيمها وسهل التغلب عليها .

والواقع إن وليم فتح إنجلترا فتحاً مبيناً ، وأخضعها لسلطانه إخضاعاً تامًّا . ولئن حسب الإنجليز أنهم يلقون من وليم مثلما لقوا من كانوت خمسين سنة قبله ، فسرعان ما تبينوا خطأهم . ذلك أن المغامرين الذين نفروا من نورماندیا وآنجو ، وبريتانى وفلاندرز ، تحت لواء وليم ، لم يأتوا إلى إنجلترا لقضاء حاجة فى نفس الدوق أو البابا ، بقدر ما أتوا لقضاء حاجة فى أنفسهم ؛ ثم إنهم لم يقاتلوا فى سبيل إقامة ملك نورمانى على عرش إنجلترا إلا بعد أن أطمأنوا إلى ما سوف يفيئون من أرض ومغانم إنجليزية . ولم يخيب وليم آمال أولئك السادة المغامرين ، بل عكف على إحلالهم فى أملاك الأنجلوسكسونيين وأرضهم كلما تم لهم فتح جزء من أجزاء الجزيرة . وهكذا تكونت بإنجلترا أرستقراطية جديدة ، ترطن باللسان الفرنسى ،

وتتميز بصفات هى – بالقياس إلى ما اتصف به سلفها من الأنجلوسكسونيين – أقصى ما يكون من العناد والعنف والقسوة والمداورة . وذلك فضلا عن إرهاقها الفلاحين البؤساء إشباعاً لغاياتها المتغطرسة ، وفضلا عن تحكمها فى البلاد والناس من معاقلها الشامخة ، مما غير الحياة العامة فى إنجلترا تمام التغيير .

ذلك أن إنجلترا أضحت جزءاً من العالم اللاتينى كرة أخرى ، فحيثما كان السادة النورمان ، سواء فى معاقلهم ، أو فى مجالس الحكم ، أو فى ميادين الصيد والطرد ، بل حيثما اجتمع أولئك السادة فى عمل أو لهو ، لم تكن تسمع منهم إلا لسان الفرنسيين . ومعنى ذلك أنه لم يعد ثمة أمل فى تطور الحياة بإنجلترا على أسس أنجلو سكسونية خالية من التخليط الأجنبى . كما لم يبق ثمة احتمال لانضوائها إلى إمبراطورية إسكندناوية شاملة للبلاد الشمالية ، بعد أن اجتذبها الفتح النورمانى إلى دائرة الحضارة اللاتينية من جديد . وهى التى خرجت عن تلك الدائرة منذ القرن الخامس الميلادى ، وأكثر من هذا أن الفتح النورمانى جعل إنجلترا شريكة الوارثين للحضارة الرومانية فى فقههم وعمارتهم ، وأدبهم وقانونهم ، ونظامهم الاجتماعى والسياسى . كما جعلها على صلة بكل ما يجرى بالبلاط البابوى فى روما ، وفى مدرسة القانون بمدينة پاڤيا ، وفى أديرة نورمانديا وبرجنديا واللورين . فتولى إيطاليان عظيمان منصب رياسة الأساقفة فى كانتربرى واحداً بعد الآخر ، وهما لانفرانك البافى ، وآنسلم الأوستى ، وحمل إليها كل منهما من العلم والنظام والفلسفة ما لم تذق إنجلترا طعمه منذ زمن بعيد ، ثم خفف من عنف الفتح النورمانى ما جاء به الفاتحون من ثقافة أنبتت كتدرائيات فسيحة سامقة ، على مقياس بدا فى عين الفلاح السكسونى مثلما تبدو ناطحات السحاب فى عين الصبى القادم على مدينة نيويورك من بطن الريف بالولايات المتحدة الأمريكية .

على أن الحكم الاستبدادى الذى أسسه وليم فى إنجلترا لم يكن سوى نعمة خافية ، برغم ما يبدو فى هذا القول من تناقض . وتفسير ذلك أن أوربا

كلها ابتليت منذ انهيار الحكومة الرومانية ، وزوال الحكومة الشارلمانية بعدها ، بآفة الفوضى والحروب الخاصة ، دون أن تجد لتلك الحال علاجاً حتى زمن الفتح النورمانى إنجلترا . وبذلت الكنيسة ما استطاعت أن تبذل من نفوذ للتخفيف عن المجتمع الأوربى من جثام الحروب الدائمة ، فابتدعت فكرة التحالف على السلام المحلى بين الأقاليم ، ثم أعقبتها على مقياس أكبر بفكرة « هدنة الله » لتحريم الحروب أيام الأحد وأيام الأعياد الدينية الكبرى . غير أن النفوذ الكنسى شيء والحكومة النظيمة شيء آخر ، ولذا ظلت الفوضى والحروب الخاصة طاغية على أوربا مدة القرن الحادى عشر الميلادى ، بل العصور الوسطى جميعاً . ولم يكن ثمة سبيل إلى إعادة نسيم الحرية إلى أوربا إلا بعد استكمال ثلاثة من الأركان الرئيسية فى الحكم ، وهى قانون يحترمه الناس ويسيرون على هديه ، وحصيلة مالية معلومة المبلغ والمواعيد ، وقوة حربية كافية لشئون الدفاع عن البلاد .

واجتمعت تلك الأركان فى الحكومة التى تدين بها إنجلترا للملك وليم الفاتح ، ولئن بدت تلك الحكومة استبدادية ملؤها القسوة ، فإنها دلت آخر الأمر على ما فيها من محمدة ، إذ أخذ وليم جميع العصاة الأنجلو ــ سكسونيين والمتمردة من النورمانيين أخذاً واحداً ، وقسم الإقطاعات الأنجلوسكسونية التى صادرها إلى أقسام كثيرة ، ثم وزع تلك الأقسام بين البارونات النورمانيين توزيعاً جعل ضياعهم أجزاء مبعثرة فى أنحاء البلاد بحيث قلل من أخطار مقاومتهم إلى درجة ملحوظة . وإذا كان معنى ذلك أن وليم دعم الإقطاعية فى إنجلترا ، فمعناه كذلك أنه حررها من أكبر شرورها فى أمور الحكم ؛ لأن وليم جعل التمليك على الإقطاعات فى إنجلترا ــ كما فى نورمانديا ــ من حقوق التاج مباشرة مقابل الخدمة الحربية فى جيش الملك ، ولم يسمح أن تغدو شئون الحكم فى الدولة وقفاً على الإقطاعيين يوماً من الأيام ، بل حرص على أن تظل كلمة الملك هى العليا ، وأن يدأب نوابه على التنقل فى مختلف النواحى ، وأن

يترأس رجاله المحاكم الكلية (County Courts) . ثم دل كتاب الروك النورمانى (Doomsday Book) الذى تم إنجازه سنة ١٠٨٦ م — رغبة فى تنظيم ضريبة الدانيين[١] — على مبلغ الدقة التى بذلها عمال المالية النورمانية فى الكشف عن كل مصدر من مصادر المال . ثم كان للنورمانيين من نظام المحلفين المحليين (Local Jury) الذى نقلوه عن الدولة الشارلمانية أداة ، لا لضبط الأمور المالية فحسب ، بل لتقرير الأمور القضائية كذلك ، حتى إذا بدأت محكمة الملك (Curia Regis) فى استخدام المحلفين على عهد هنرى الثانى فى قضايا التمليك ، وهى أغلب أنواع القضايا فى عصر ملؤه العنف وضياع الحقوق ، ألف الناس ذلك النظام واطمأنوا إليه ، لأنهم وجدوا فيه إنصافاً غير باهظ التكاليف . وحرصت محكمة الملك منذئذ أن تكون منبعاً لذلك الإنصاف حتى جمعت إليها معظم الأعمال القضائية فى البلاد ، وبذا وضعت أسس القانون العام (Common Law) الذى تسير بحسبه الشعوب الأنجلو — سكسونية على جانبى المحيط الأطلسى حتى العصر الحاضر .

وترجع أصول تلك الأسس إلى أعمق أعماق الحضارة الأنجلو — سكسونية . لأن الملك وليم النورمانى وأخلافه اتخذوا لأنفسهم جميع ما وجدوا فى إنجلترا من قديم التقاليد . كما تعمدوا المحافظة عليها كل المحافظة ، فاعتبر وليم نفسه الوريث الشرعى بعد إدوارد التقى ، وحرص على قيام مجلس الدولة (الويتان) بتتويجه ، واستخدام المحاكم الجزئية والكلية القديمة فى جميع شئونه بعد أن حولها إلى محاكم إقطاعية . ودل وليم بذلك كله على أن ما اشتهر به من قسوة وصرامة ليس إلا ناحية واحدة من شخصية ذات سجايا ومواهب سياسية عظيمة ، إذ رأى ما بقواعد المواطنة التى درج عليها الأنجلو — سكسونيون من فائدة له ، فسار على مقتضاها سيراً حرفياً ، مثل الدعوة العامة إلى حضور المحاكم ، والمشاركة فى البحث عن المجرمين والخدمة فى النفير العام ، والإسهام فى تعمير القناطر والجسور والحصون . والواقع أن

---

(١) انظر ما سبق ، ص ١٢٥ . (زيادة) .

إنجلترا النورمانية احتاجت إلى معاونة الأنجلوسكسونيين أهل البلاد فى شئون الحكم ، وظلت القوانين والعادات الأنجلو ـ سكسونية مرعية رغم ما استحدثه النورمان من متجددات ، وذلك بفضل ما عكف النورمان أنفسهم على إدخاله فى الحكم من نظام مركزى شديد ، مما أثر أكبر الأثر فى حياة الأمة الإنجليزية .

ومما سهل قيام الحكومة المركزية على عهد النورمان أن إنجلترا بلد صغير المساحة ، وأن الغال وأسكتلندا وأيرلندا لم تدخل فى ممتلكات وليم ، وأن نورثمبريا غدت خراباً صفصفاً عقوبة لها على ما شقت من عصا الطاعة ، فلم تعد مصدراً لأى خطر . ولذلك كله استطاع نواب الحكم من النورمان أن يقوموا على تنفيذ مشيئات الملكية فى إنجلترا الصغيرة أحسن قيام ، وأن يجدوا من قرب المسافات بين بلادها وسيلة لتوكيد السلام العام .

كذا قامت الأسس التى بنيت عليها دولة نظيمة بإنجلترا بعد الفتح النورمانى ، وتصاهر[١] النورمانيون مع الإنجليز ولما يمض على ذلك الفتح سوى جيل واحد . وفى ظل تلك الدولة التى سخرت قوتها للحد من تنفذ أرباب الإقطاعية ، بقيت طبقة المزارعين حافظة لكيانها ، فعاشت عيشة رغيدة محترمة على خشونتها ، ومنها تكونت الطبقة الوسطى التى امتازت بها إنجلترا على سائر جيرانها الأوربيين فى العصور الوسطى ، حتى إذا جدّ الجد بدت تلك الطبقة محوراً رئيسياً فى الحكم الدستورى بالبلاد . على أن الدولة النورمانية لم تسلك سبيل التقدم دوماً ، فغلب عليها الطغيان مدة وليم الثانى ، وتردت فى حمأة الفوضى على عهد ستيفن ؛ لكن طغيان وليم الثانى وجد من رئيس الأساقفة آنسلم عوداً لا يلين ، وانتهت فوضى ستيفن بقيام حكومة هنرى الثانى . ثم لم ينته عهد هنرى الثانى الذى بلغ بقوة عقله

(١) المعروف أن هنرى الأول بن وليم الفاتح – وهو ثالث ملوك إنجلترا من النورمان – تزوج من أميرة إنجليزية ، من بنات إحدى الأسر الملكية القديمة . انظر ترجمتى لكتاب التاريخ الإنجليزى ، ص ٤١ ، وراجع شجرة الأنساب رقم ٦ ، فى آخر الكتاب ، لمعرفة ترتيب الملوك الواردة أسماؤهم فيما يلى . (زيادة) .

إنجلترا النورمانية احتاجت إلى معاونة الأنجلوسكسونيين أهل البلاد فى شئون الحكم ، وظلت القوانين والعادات الأنجلو – سكسونية مرعية رغم ما استحدثه النورمان من متجددات ، وذلك بفضل ما عكف النورمان أنفسهم على إدخاله فى الحكم من نظام مركزى شديد ، مما أثر أكبر الأثر فى حياة الأمة الإنجليزية .

ومما سهل قيام الحكومة المركزية على عهد النورمان أن إنجلترا بلد صغير المساحة ، وأن الغال وأسكتلندا وأيرلندا لم تدخل فى ممتلكات وليم ، وأن نورثمبريا غدت خراباً صفصفاً عقوبة لها على ما شقت من عصا الطاعة ، فلم تعد مصدراً لأى خطر . ولذلك كله استطاع نواب الحكم من النورمان أن يقوموا على تنفيذ مشيئات الملكية فى إنجلترا الصغيرة أحسن قيام ، وأن يجدوا من قرب المسافات بين بلادها وسيلة لتوكيد السلام العام .

كذا قامت الأسس التى بنيت عليها دولة نظيمة بإنجلترا بعد الفتح النورمانى ، وتصاهر[١] النورمانيون مع الإنجليز ولما يمض على ذلك الفتح سوى جيل واحد . وفى ظل تلك الدولة التى سخرت قوتها للحد من تنفذ أرباب الإقطاعية ، بقيت طبقة المزارعين حافظة لكيانها ، فعاشت عيشة رغيدة محترمة على خشونتها ، ومنها تكونت الطبقة الوسطى التى امتازت بها إنجلترا على سائر جيرانها الأوربيين فى العصور الوسطى ، حتى إذا جدّ الجد بدت تلك الطبقة محوراً رئيسيًّا فى الحكم الدستورى بالبلاد . على أن الدولة النورمانية لم تسلك سبيل التقدم دوماً ، فغلب عليها الطغيان مدة وليم الثانى ، وتردت فى حمأة الفوضى على عهد ستيفن ؛ لكن طغيان وليم الثانى وجد من رئيس الأساقفة آنسلم عوداً لا يلين ، وانتهت فوضى ستيفن بقيام حكومة هنرى الثانى . ثم لم ينته عهد هنرى الثانى الذى بلغ بقوة عقله

(١) المعروف أن هنرى الأول بن وليم الفاتح – وهو ثالث ملوك إنجلترا من النورمان – تزوج من أميرة إنجليزية ، من بنات إحدى الأسر الملكية القديمة . انظر ترجمتى لكتاب التاريخ الإنجليزى ، ص ٤١ ، وراجع شجرة الأنساب رقم ٦ ، فى آخر الكتاب ، لمعرفة ترتيب الملوك الواردة أسماؤهم فيما يلى . (زيادة) .

ومضاء عزيمته مبلغ العباقرة ، حتى غدا القضاة الملكيون يروحون إلى دوائرهم فى طول البلاد وعرضها للنظر فى مختلف القضايا الكلية ، على غرار ما يفعلون حتى العصر الحاضر ، فعبروا بذلك عن سلطان الملكية وجلالة القانون ، وأحلوا المحلفين محل الوسائل البدائية فى تحقيق الجنايات والدعاوى المدنية ، مثل امتحان المدعى عليه بالنار ، أو الاحتكام إلى السيف . وهكذا أضحى الملك مصدراً للعدل وحارساً للسلام العام ، وزالت العنصرية التى جعلت النورمانيين طبقة ممتازة ، وتغير تكوين الجيش تغيراً تاماً ، بحيث صار للملك قوة دفاعية أوثق له وأطوع من فئات الإقطاعيين ، وأقل نفقة عليه من جماعات المرتزقة . وبلغت الإدارة المالية من النظام على عهد هنرى الثانى ما لم تبلغ فى غيرها من البلاد ، ما عدا صقلية النورمانية ، فلم يذهب درهم واحد بغير حساب ، وبدت الخزانة الإنجليزية مضرب الأمثال فى الدقة بالقياس إلى النظم المالية الفالتة فى ألمانيا وفرنسا فى العصور الوسطى .

غير أنه يلاحظ أن وليم الفاتح لم يفقد دوقيته فى نورماندیا عندما أصبح ملكاً على إنجلترا سنة ١٠٦٦ م ، ولم يكن ثمة تناقض فى عين وليم وأتباعه وسلالته أن يظل ملوك إنجلترا أصحاب دولة أخرى عبر بحر المانش . ولئن ذهبت صقلية مع أبولية بجنوب إيطاليا للنورمان من آل جويسكارد ، فلا أقل من أن تذهب إنجلترا مع نورماندیا إلى آل وليم الفاتح . ولذا بقى ملك إنجلترا بحكم دوقيته النورمانية فصلاً إقطاعياً تابعاً للملكية الفرنسية ، وارتبط كذلك كثير من كبار الإقطاعيين فى إنجلترا بإقطاعاتهم وذوى قرابتهم فى نورماندیا ، ولم تستهو تلال غالة ومروج أسكتلندا أو غياض أيرلندا أحداً منهم إلى مغامرة حربية استهواء أراضى فرنسا التى درجوا على المعيشة فيها قبلا ، وعرفوها تمام المعرفة . وطالما بقى جزء من فرنسا فى أيدى ملوك إنجلترا ، بقى ذلك الجزء مثل المغناطيس فى السياسة الإنجليزية ، كما بقيت هانوفر الألمانية على عهد جورج الثانى ، فيما بعد . وشاءت المقادير أن تمضى القرون قبل أن تصبح ملك إنجلترا ملكاً فى إنجلترا فحسب ، لأنه حتى

بعد ذهاب نورمانديا ومعها آنجو ومين وتورين الفرنسية من يد الملوك الإنجليز ، بقيت إنجلترا متملكة على جبين وأوفرن وأقطانية بفرنسا ، وهى الأقاليم التى جاءت بها الملكة إلينور — مطلقة لويس السابع ملك فرنسا — إلى زوجها الجديد هنرى الثانى ملك إنجلترا .

ونتج عن ذلك التعاشق الجغرافى بين المملكتين الإنجليزية والفرنسية ، مضافاً إليه ما هنالك من تصادم دائم بين البحارة والتجار من أهل البلدين ، أن حالة من العداء تمكنت من ملوك إنجلترا وفرنسا تمكناً شديداً — عدا فينات متقطعة — حتى أواسط القرن الخامس عشر الميلادى . وبدأ ذلك العداء بحرب حول العرش الفرنسى ، ثم تطور الأمر حتى صار نضالا بين قوتين ذاتى وعى متوثب وصفات متباينة . على أن ذلك النضال الطويل العقيم لم يستخدم جيوشاً ضخمة ، ولم يتطلب معارك حربية مطولة ، ولم تتمخض عنه فلسفات فى الحكم والسياسة . ومرجع ذلك أن الحرب فى العصور الوسطى ، ما لم تكن نابعة من حركة صليبية ، أو ناتجة عن كيد شخصى أو كرامة مثلومة ، لم تخرج عن أن تكون تقليداً من تقاليد المجتمع ، وسبيلا من سبل اللهو ، وأداة من أدوات المضاربة المالية . غير أنه مهما بدت حرب العصور الوسطى ضئيلة طفيفة بالقياس إلى مذابح الحرب الحديثة ومقاتلها الشنيعة ، فلا شك أن الحروب التى ظلت ناشبة بين إنجلترا وفرنسا حتى أواسط القرن الخامس عشر الميلادى أدت إلى نتائج بعيدة فى تاريخ البلدين ، إذ تولدت عنها أمتان ، بينهما من اختلاف البناء الاجتماعى وتضاد الأمزجة والطباع مثلما صار بينهما من عداء تقليدى مسموم . ذلك أن فرنسا خرجت منتصرة ، دون أن تفيد من انتصارها شيئاً مذكوراً لعدة قرون ، على حين أن إنجلترا انهزمت ، ففقدت روان سنة ١٢٠٤ م ، وبردو سنة ١٤٥٣ م ، وكاليه سنة ١٥٥٢ م ، بل نزلت عن كل شبر لها من أرض فرنسا ، وضحت بكل غرض من الأغراض التى كان من أجلها النضال ، ولا تزال مقبرتا وليم الفاتح وهنرى الثانى فى أرض أجنبية . غير أن إنجلترا لم تأخذ طريقها المتئدة نحو الأعمال العظيمة التى ارتقبت نهضتها إلا بعد أن ذاقت تلك الهزيمة الساحقة ،

فجعلت من الجزر البريطانية مملكة متحدة، وكونت لنفسها إمبراطورية فيما وراء البحار. والواقع أن إنجلترا لم تستطع أن تتبين طريقها الحقيقى نحو التقدم طالما هى منصرفة إلى النضال ضد فرنسا، إذا أهملت الفرصة بعد الفرصة، ولم تقو على إبرام أمر من أمورها فى سرعة، فلم تضم غالة التى انتهى فتحها على يد إدوارد الأول فى القرن الثالث عشر الميلادى إلا زمن هنرى الثامن فى القرن السادس عشر الميلادى، ولم تخضع إسكتلندا إخضاعاً حقيقياً للتاج البريطانى إلا بعد هزيمة آخر الإستوارتيين فى وقعة كلدن سنة ١٧٤٥ م، ولا يزال الأيرلنديون على تحديهم وعنادهم حتى العصر الحاضر.

بعض المراجع لهذا الفصل

Bainville : Histoire de France.

Benedictus Abbas : Chronicles of .. (Rolls Series). 1867.

Davis (H.W.C.) : England Under the Normans and Anjevins. 1905.

Du Taillis (Petit) : La Monarchie Feodale en France et en Angleterre. 1899.

Green (Mrs. J.R.) : Henry II, 1888.

Lavisse (E.) : Histoire de France, Vol. II. 1903.

Maitland (F.W.) : Memoranda de Parliamento. (Rolls Series). 1893.

McKechnie : Magna Carta. 1905.

Pollard, (A.F.) : Evolution of Parliament. 1926.

Pollock & Maitland : History of English Law before Edware I. 2 Vols. 1898.

Stubbs (W.) : Constitutional History of England, 3 Vols. 1880.

Tout (T.F.) : Edward I. 1893.

الفصل العاشر

الحروب الصليبية الأولى والدولة البيزنطية والمسلمون

حروب الدولة البيزنطية زمن الأباطرة المقدونيين سنة ٨٦٧ – ١٠٥٩ م – مواضع الضعف فى الحضارة البيزنطية – قيام السلاجقة – وقعة مانزكرت سنة ١٠٧١ م – استنجاد الإمبراطور ألكسيس كومنين بغرب أوربا – البابا إربان الثانى والأراضى المقدسة – انفصال الكنيسة البيزنطية عن الكنيسة الكاثوليكية – أهداف الملوك النورمانيين بصقلية – نتائج الانفصال فى الكنيسة المسيحية – العوامل المساعدة على مشاركة غرب أوربا فى الحملة الصليبية المعروفة بالأولى – نجاح تلك الحملة الصليبية – ازدياد البغضاء بين البيزنطيين والفرنجة – نصيب المدن الإيطالية – الفرنجة والسوريون فى فلسطين – سقوط الرها فى أيدى المسلمين – الحملة الصليبية المعروفة بالثانية – فقدان الاتفاق بين الدولة البيزنطية ومملكة بيت المقدس الصليبية – فتوح صلاح الدين الأيوبى – الحرب الصليبية المعروفة بالثالثة – نتائج الحركة الصليبية حتى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى .

بينما عملت الملكية الإنجليزية جهد أيمانها لحفظ إنجلترا من إغارات ...انيين بغرب أوربا ، بذل أباطرة البيت المقدونى (٨٦٧ – ١٠٥٩ م) ...معهم فى الدفاع عن إمبراطوريتهم البيزنطية بالطرف الأوربى الآخر ، ...د حلقة من الأعداء الذين هددوا كيانها . وكادوا يقضون عليها قضاء ...يرماً . غير أن العوامل التى ساعدت المقدونيين على المضى فيما هم بصدده

الفصل العاشر

الحروب الصليبية الأولى والدولة البيزنطية والمسلمون

حروب الدولة البيزنطية زمن الأباطرة المقدونيين سنة ٨٦٧ – ١٠٥٩ م – مواضع الضعف فى الحضارة البيزنطية – قيام السلاجقة – وقعة مانزكرت سنة ١٠٧١ م – استنجاد الإمبراطور ألكسيس كومنين بغرب أوربا – البابا إربان الثانى والأراضى المقدسة – انفصال الكنيسة البيزنطية عن الكنيسة الكاثوليكية – أهداف الملوك النورمانيين بصقلية – نتائج الانفصال فى الكنيسة المسيحية – العوامل المساعدة على مشاركة غرب أوربا فى الحملة الصليبية المعروفة بالأولى – نجاح تلك الحملة الصليبية – ازدياد البغضاء بين البيزنطيين والفرنجة – نصيب المدن الإيطالية – الفرنجة والسوريون فى فلسطين – سقوط الرها فى أيدى المسلمين – الحملة الصليبية المعروفة بالثانية – فقدان الاتفاق بين الدولة البيزنطية ومملكة بيت المقدس الصليبية – فتوح صلاح الدين الأيوبى – الحرب الصليبية المعروفة بالثالثة – نتائج الحركة الصليبية حتى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى .

بينما عملت الملكية الإنجليزية جهد أيمانها لحفظ إنجلترا من إغارات الدانيين بغرب أوربا ، بذل أباطرة البيت المقدونى (٨٦٧ – ١٠٥٩ م) وسعهم فى الدفاع عن إمبراطوريتهم البيزنطية بالطرف الأوربى الآخر ، ضد حلقة من الأعداء الذين هددوا كيانها . وكادوا يقضون عليها قضاء مبرماً . غير أن العوامل التى ساعدت المقدونيين على المضى فيما هم بصدده

فاقت جميع ما استقام وقتذاك لغيرهم من ملوك الغرب ، إذ بدت عاصمتهم القسطنطينية فى القرن التاسع الميلادى أبهى وأكثر حصانة وأكثر سكاناً من باريس على عهد فيليب أغسطس ، فى القرن الثالث عشر الميلادى ، ولندن على عهد شارل الثانى فى القرن السابع عشر الميلادى . وتوافرت لهم طبقة من الموظفين حاذقة ، وإدارة مالية حسنة ، ونظام قضائى متين ، وجيش عماده الخيالة الثقيلة ذات الأطبار – أى الفئوس الحربية – وبحرية فيها من كل ما اجتمع بشرق البحر الأبيض المتوسط من فنون البحر ، ونقد ذهبى أساسه البيزانط المعروف بجميع بلاد الأرض . على أن أهم ما امتازت به الإمبراطورية البيزنطية على دول الغرب الناشئة هو المهارة والخبرة بالديبلوماسية ، حيث عرف الساسة البيزنطيون نفسية الشعوب المتبربرة أحسن معرفة ، وأتقن ديوان الإنشاء (وزارة الخارجية) نهج الملوك المتبربرين وشعوبهم أعظم إتقان ؛ ولذا امتلأت القسطنطينية التى جمعت بين آسيا وأوربا بحركة ديبلوماسية واسعة لم توجد فى غيرها من عواصم الأرض . وللمبشرين من رجال الكنيسة البيزنطية فضل يفوق فضل القادة العسكريين فى إعلاء شأن الإمبراطورية . لأنهم هيمنوا على عقول المتبربرين . لا بالعقائد التى ألقوا بها فى أذهانهم فحسب ، بل بجلال العادات الكنسية البيزنطية وما فيها من بخور وشموع . وموسيقى وملابس كهنوتية رائعة . وخطبت الإمبراطورية ودّ الملوك التابعين بمختلف الوسائل ، فألطفت لهم الهدايا السنية والأموال الوافرة ، وزوّجت بعضهم من عقيلات البيوت البيزنطية الكبيرة ، وأسبغت على الكثيرين ألقاباً إمبراطورية ضخمة ، وتوخت أن يكون الآيين (البروتوكول) الإمبراطورى من الهيبة والجلال والإكرام ، حتى يبدو الإمبراطور فى أعين الوافدين على القسطنطينية – زيارة أو سفارة أو تأكيداً للولاء – كأنه شخصية مؤلهة فوق البشر . والواقع أن أعظم ماامتازت به تلك الإمبراطورية العريقة فى الحضارة هو القدرة التى مكنت لها أن تحوط نفسها بشبكة من الصداقات والمودّات القريبة والبعيدة ، فضلاً عن المعرفة التى تمت لها بشعوب السهوب الآسيوية وأحوالها . والسرعة التى استطاعت بها أن تدعو حليفاً ليس فى الحسبان ضد أعدائها فى أحرج مراحل القتال .

ثم إنه لما كانت الإمبراطورية البيزنطية وريثة للرومان وتقاليدهم الشامخة ، لم يكن لها بد أن تطمع الأطماع الواسعة كلما صارت حكومتها إلى إمبراطور قوىّ شديد ، مثل أربعة المقدونيين — باسل الأول ونقفور فوقاس وحنا شميشق وباسل الثانى[1] — الذين توافرت لهم من الصفـات العسكرية والخلق الإسبارطى والإرادة العتيدة ما جعلهم أصلح الأباطرة لتلك العصور الصارمة . وآية ذلك ما أمعن فيه أولئك الأربعة من هجوم على طول جبهات الإمبراطورية ، حتى امتدت أطرافها فى زمنهم امتداداً لم تعهده منذ أيام جستنيان العظيم ، إذ خلّص نقفور فوقاس جزيرة إقريطش ومدينة أنطاكية من أيدى المسلمين ، واجتاح شميشق قليقية وسورية وفلسطين ، وأعاد باسل الثانى جنوب إيطاليا وأرمينية إلى حظيرة البيزنطيين . على أن جميع ما ظفرت به الإمبراطورية على عهد المقدونيين لا يقاس من حيث أهميته بما اتفق لها من القضاء على الدولة البلغارية زمن باسل الثانى ، بعد ثلاثين سنة كلها حروب دامية وديبلوماسية أريبة بارعة ، حتى إذا توفى باسل هذا سنة ١٠٢٥ م ، وهو الذى سماه المعاصرون جزّار البلغاريين (Bulgaroctonos) بدت الدولة البيزنطية أعظم ثروة ، وأكبر صولة ، وأقوى منعة ، من أية دولة فى أوربا .

غير أن معظم التاريخ البيزنطى خليط من المتناقضات الحادة الباعثة على الاكتئاب ، ففينات من القوة الحربية والنصر المبين تعقبها فترات من الاضطراب الداخلى والتآمر السافل ، وعلم غزير وأدب جم يجتمعان إلى وحشية صارخة وغض عن الإجرام — وكل ذلك فى شخصية واحدة . وإنك لتقرأ سيرة إمبراطور من الأباطرة ، فيروقك نشاطه وعلمه وتشجيعه الفنون والآداب ، ثم يُخْلِف هذا البيزنطى المهذّب ظنك حين تعلم أنه نظم الأشعار البذيئة ، وأمر بكتابتها على جباه ثلاث من الهراطقة بعود من الحديد المحمى فى النار . وتقرأ بعد ذلك مؤلفات أميرة بيزنطية ملمة بمعظم الآداب اليونانية القديمة ، فيعجبك أنها أحبت أباها حب العبادة ، وأنها كتبت تاريخاً رائعاً تمجيداً له ، ثم تعلم أنها شاركت فى مؤامرة لاغتيال أخيها . وأدهى من ذلك أن الدولة

(١) انظر شجرة الأنساب رقم ٤ ، فى آخر الكتاب . (زيادة) .

البيزنطية التى نقش صناعها أبدع النقوش والفسيفساء بكنائس رافنا والبندقية . ونشأ أرباب السياسة فيها من اللاهوتيين ، ونشأ اللاهوتيون فيها من أرباب السياسة ، وردد شعراؤها أصداء ملياجـّر وكاليماخوس فى الشعر ، واستظل علماؤها بظل هوميروس ، هى التى أنبتت بعاصمتها دهماء من أعنف أنواع الدهماء فى أوربا ، وتدنت إلى أدنى ألوان المثلة والتشويه فى عقاب المجرمين والمخالفين السياسيين — مثل فقوء العيون ، وقطع الأيدى ، وصلم الآذان . وجدع الأنوف .

ولذا يرى الباحث الحديث كثيراً مما يستوجب اللائمة فى تاريخ الدولة البيزنطية ، وهو لا يلبث أن يرى ما بحكومتها كذلك من عيوب ، كافتقار إلى النظم المعتدلة التى تشجع فى الناس روح الابتكار والاعتماد على النفس . وعجزها عن ضبط إغراء الفلاحين بحياة المدن والأبعاديات ، ورزوحها تحت ضغط قاصف من ناحية الرهبان والديارين والدهماء . ومع هذا كله بدت القسطنطينية فى القرنين التاسع والعاشر الميلادى ربة الثقافة الأوربية ولا منازع ، وبدا مجتمعها مبرزاً فى الفنون والعلوم والحضارة بالقياس إلى سواه بأية مدينة من مدن الغرب ، حتى القرن الحادى عشر الميلادى ، حين أخذ الغرب يلاحق البيزنطيين فى الميدان . ثم إن الدولة البيزنطية قامت مقام الرقيب على مجموعة هائلة من الشعوب التى اشتهر بعضها بالخسة والفساد والقذر ، فأدت بذلك خدمة جليلة . ولذا كان من الكارثة أن يعقب وفاة الإمبراطور باسل الثانى سنة ١٠٢٥م مدة طولها سبع وخمسون سنة ، كلها ضعف فى الحكم . وفتنة بين الناس . وانكماش فى الجيش بسبب الإهمال ؛ وترتبت على ذلك نتائج خطيرة . إذ فقدت الدولة كل ممتلكاتها بجنوب إيطاليا للنورمانيين . وانهزمت على يد أعداء جدد ، هم الأتراك السلاجقة .

ففى أواخر القرن العاشر الميلادى خرجت من سهوب تركستان فئة من غزاة الترك ، يحملون أقواساً قصيرة وسيوفاً مقوسة ، يطلبون الرزق من وراء الحروب والمغانم ، وعلى رأسهم أبناء زعيم من زعمائهم اسمه سلجوق . واعتنق أولئك الأتراك دين الإسلام ، وتحمسوا له حماسة الحديث العهد بالدين .

ولازمهم التوفيق فى كل أعمالهم ، فتطوروا من فئة إلى قبيلة ، ومن قبيلة إلى أمة ؛ وخطوا نحو القوة خطوات بالغة فى السرعة ، ففتحوا خراسان وإيران ، وقام زعيمهم طغرل بك سلطاناً فى بغداد سنة ١٠٥٥ م ، وأغدقت عليه الخلافة العباسية العاجزة جميع ألقاب التعظيم الدالة على الصدارة السياسية فى العالم الإسلامى . وظل تيار الفتوح السلجوقية يجرى مجراه الدافق بفضل ألب أرسلان بعد طغرل بك ، فامتد إلى الشام وفلسطين التى انتزعت من يد الخلافة الفاطمية فى مصر . ثم ما لبث الغزاة أن ولوا وجوههم شطر الدولة البيزنطية الباقية بآسيا الصغرى . فانتصروا عليها انتصاراً ليس كمثله انتصار ، حيث حصد ألب أرسلان زهرة البيزنطيين فى وقعة مانزكرت ، شمالى بحيرة وان بأرمينية سنة ١٠٧١ م ، وأسر الإمبراطور رومانوس ، ديوجينيس ، وباتت آسيا الصغرى هامدة خامدة لا حراك بها تحت أقدام عدو لا يرحم .

وكثيراً ما غلب البيزنطيون على أيدى أعدائهم من المسلمين وغير المسلمين ، ولكنهم لم يُغلبوا يوماً من الأيام كغلبهم فى مانزكرت ، إذ اعتمدت الإمبراطورية كل الاعتماد على أقاليمها الآسيوية التى ولت عنها إلى المسلمين بعد هذه الوقعة الحربية الواحدة ، فمن تلك الأقاليم جنّد الأباطرة خيرة الجند ، ومنها جاء إليهم أمهر القادة العسكريين ، ومن سواحلها أتت معظم قوات الأسطول . ثم إن الأقاليم الأخرى لم تكن على شىء من روح النشاط والمغامرة التى طفحت بها أقاليم الأطراف الآسيوية ، ولم يوجد بين باروناتها من تقاليد المجد والخدمة الحربية مثلما افتخر به بارونات آسيا الصغرى ، الذين جعلوا من جيوشهم المسلحة بأحسن سلاح ، ومن مواردهم المادية الواسعة أداة ماضية للدفاع عن الإمبراطورية ، ما داموا غير منصرفين إلى فتنة أو عصيان . كل ذلك راح مع الريح ، ولم يبق للدولة البيزنطية منه بقية ، ثم حجز السلاجقة بين البيزنطيين وأبهى أقاليمهم الآسيوية حين اتخذوا من نيقية أولا — ومن قونية ثانياً — عاصمة لدولتهم .

ولم تنهض الدولة البيزنطية لمقابلة ذلك التحدى الهائل بشىء ما مدة

عشر سنين ، لأن شللاً سياسياً أعقب ما نزكرت ، فضاعف ما بالدولة من شلل سابق بسبب الفتنة الداخلية والتهاون الأحمق فى قوات الجيش .
ثم قذفت ثورة من الثورات الحميدة إلى العرش البيزنطى سنة ١٠٨١ م رجلا على جانب من المقدرة ، وهو ألكسيوس كومنين الذى اتصف بصفات جعلته قميناً بإنقاذ الدولة من وهدتها العميقة . ذلك أن ألكسيوس جاء من أسرة من أكبر الأسرات العسكرية بآسيا الصغرى ، وامتاز بسعة الحيلة والثقافة والشجاعة ، وامتزج فيه حب الجدل الدينى بحماسة المصلح فى شئون التربية والتعليم . ووجد ألكسيوس أن الفوضى ضاربة فى كل دائرة من دوائر الحكم ، وأن اليونانيين يهددون الإمبراطورية من ناحية الغرب تهديد العناصر السلافية لها من ناحية الشمال ، فعكف على معالجة تلك المشاكل التى واجهت عهده بما أوتى من فتوة وبصيرة ورصانة ، وسلط عليها من ذكائه قدراً كفيلا بحلها أوفق الحلول ، حتى إذا تغلب عليها بتنظيم الجيش والبحرية وإخراج روبرت جويسكارد ملك النورمانيين من دالماشيا ، ومطاردة العناصر السلافية عبر الدانوب ، أخذ على نفسه مدافعة الخطر السلجوقى الداهم . وعقد الإمبراطور النية على طلب النجدة من الغرب اللاتينى ، لإنقاذ الإمبراطورية وأهلها — والمسيحية وكنائسها — قبل فوات الأوان ؛ فإن بيت المقدس وأنطاكية والرها صارت فعلا للمسلمين ، ولا غرو أن تصير هم القسطنطينية فى العاجل القريب . بهذا كله أرسل ألكسيوس إلى البابا إربان الثانى كتاباً هو فى الواقع مفتاح العمل الذى أدى إلى الحملة الصليبية المعروفة بالأولى فى التاريخ العام .

ولعشرين سنة خلت فكر البابا جريجورى السابع ، فى مثل ذلك العمل وأضفى عليه من معهود همته وحدته ، استجابة لدعوة إمبراطور بيزنطى سابق ، ومنه يتضح أن فكرة الحروب الصليبية نبعت ، لا من القسطنطينية بل من روما . والواقع أن ألكسيوس كومنين أراد الحصول على جيوش من غرب أوربا لاستعادة ممتلكات الدولة البيزنطية فى آسيا فحسب ، على حين اهتم إربان الثانى اهتمامه المعروف من أجل استعادة بيت المقدس والأراضى

المقدسة ، وجعل من ذلك محور بيانه فى الخطبة التى ألقاها بمجمع كليرمونت الدينى بفرنسا الحالية سنة ١٠٩٥ م ، وفى سائر الخطب التى استنهض بها الفرنسيين أبناء جنسه . ولم يكن بين هذين الهدفين من تناقض أو خطر سوى أنه لمـــا كان من المستطاع تحقيق كل منهما على حدة صار من المحتمل منذ البداية أن يتغلب حب إنقاذ الأراضى المقدسة على فكرة الدفاع عن إمبراطورية البيزنطيين ، لما فى إنقاذ الأراضى المقدسة من روعة فى أخيلة الفروسية الأوربية .

وزاد فى ذلك الخطر أن الكنيسة البيزنطية انفصلت عن الكنيسة الرومانية الكاثوليكية انفصالا رسمياً ، وانقطعت علاقتها بها تمام الانقطاع ، لثمانى عشرة سنة قبل وقعة مانزكرت ، بسبب ما قام بينهما من خلاف مذهبى . غير أنه من الخصائص العامة فى الخلافات التاريخية العظمى أن أقوى أسباب الفرقة لا تكون أوضح الأسباب أو أكثرها ذيوعاً بين الناس ! وتفصيل ذلك هنا أن الخلاف بين الكنيستين الشرقية والغربية بدا فى مظهره خلافاً مذهبياً ، فبينا اتفقت الكنيستان فى العقائد والأصول التى قررتها المجامع المسكونية (Ecumenical Councils) احتج البيزنطيون على اللاتينيين أنهم أضافوا إلى نص العقيدة المسيحية ألفاظاً تجعل روح القدس صادراً من الإله الابن صدوره من الإله الآب ، وأنهم استعملوا الخبز الفطير فى القداس ، وأنهم عكفوا على صيام السبوت ، وأباحوا لقساوستهم حلق اللحى . على أن مواضع الخلاف لم تقتصر على تلك المسائل التى ملأت ما لا يحصى من المقالات والمؤلفات ، بل تعدتها إلى مسائل أخرى جذورها الأطماع السياسية والدينية القديمة ، فضلا عن المزاج القومى والخصائص الخلقية التى ساعدت على تسميم الخلاف وإحباط جميع المساعى لإصلاح ذات البين . ذلك أن احتقار اللاتينيين للبيزنطيين ، وهو ممـــا يرجع عهده إلى القرن الثانى الميلادى أيام جوفنال وأهاجيه اللاذعة فى أخلاق اليونان الأقدمين ، بقى إلى ما بعد القضاء على الدولة الرومانية فى الغرب ، وظـــل ماثلا فى ازدراء الكريم للمتزمت واستخفاف العريق بمحـــدث النعمة . أما البيزنطيون

فإنها اعتدوا أنفسهم لا ورثة اليونان القديمة فحسب ، بل الدولة الرومانية كذلك ، واعتبروا الفرنجة والنورمان والألمـــان فروعاً من شجرة البرابرة ، كما اعتبروا إمبراطورية شارلمان اغتصاباً أضفى عليه البابوات من سلطانهم ما لا يليق . ومع هذا رضى البطارقة البيزنطيون أن يتمتع الكرسى البابوى بشىء من الصدارة عليهم ، وأن يفد القصاد البابويون إلى القسطنطينية على الرحب والسعة ، وأن يكون البابا حكماً فيصلاً عند الحاجة ، ولكنهم لم يرضوا أن يذعنوا لحظة واحدة لما ادعته روما لنفسها من السلطان والتصرف فى شئون الكنيسة البيزنطية بالنقض والإبرام . وليس فى ذلك الموقف ما يصعب على الفهم ، فإن القرنين التاسع والعاشر الميلادى شهدا تدهور البابوية وضعفها ، على حين بدت الـــكنيسة البيزنطية فى عزّ أيامها وقوتها ، إذ نقَل الكتب المقدسة إلى اللغة السلافية اثنان من المبشرين البيزنطيين وهما كيرلس ومثوديوس ، وبفضلهما صارت الكتب المقدسة فى متناول السلافيين ، وتأسست الكنيسة البيزنطية فى روسيا ، وتغلبت العقيدة الأرثوذكسية على العقيدة الكاثوليكية فى بلغاريا — كل ذلك فى غضون هذين القرنين .

والواقـــع أن الكنيسة البيزنطية كسبت من وراء الفتوح التى أتمها الأباطرة المقدونيون مكاسب دينية واسعة ، حين اقتفى القساوسة والرهبان أثر الجيوش الإمبراطورية إلى أبولية وقليقية ، وجبال أرمينية وحوض الدانوب . وبرغم ما أعقب الأسرة المقدونية من سنوات كلها فوضى سياسية ونكبة ، ظل الروح الإمبراطورى شامخاً فى نفوس البطارقة الأرثوذكسيين ، حتى إذا قام البابا ليو التاسع يفتخر بنهضة البابوية فى القرن الحادى عشر الميلادى ، انبرى له البطريق ميخائيل كريولاريوس سنة ١٠٥٤ م يفتخر باستقلال كنيسته عن روما وفسادها البغيض .

والحاصل أن الإمبراطورية البيزنطية بدت فى عين الغرب اللاتينى ذات صفتين متباينتين ، فهى دولة مسيحية قبالة أعداء غير مسيحيين ، وحقّ على اللاتينيين مساعدتها ، وهى كذلك دولة ملوثة بالهرطقة ، متحدية روما أشد التحدى ، معادية لكل محاولة تبشيرية كاثوليكية فى الجنوب

الغربى من أوربا . ثم إنه على الرغم من اعتراف رجال الدين من الكاثوليكيين والأرثوذكسيين بأن انفصال الكنيستين جاء وبالا على الطرفين ، وعلى الرغم من قول هؤلاء وهؤلاء بوجوب اتخاذ الخطوات الكفيلة بانتهاء القطيعة ، فإن أحداً لم يظهر شيئاً من الميل للنزول عن قليل من رأيه المبتسر أو كرامته الجوفاء . على أن اللاتينيين رأوا أن ثمة سبيلين لإقرار السلام ، أولهما الاتفاق وهو سبيل وعر ولكنه غير مستحيل مع شيء من الضغط السياسى ، وثانيهما سبيل الحرب والاستيلاء وهو ما ذهب إليه النورمانيون منذ البداية ، إذ قالوا إن أقرب السبل وأسهلها فى معالجة البيزنطيين هو خلع الإمبراطور ، وفتح القسطنطينية ، وإخضاع الإمبراطورية البيزنطية بالقوة لحكم اللاتينيين . ذلك ما قال به روبرت جويسكارد ، وابنه بوهمند ، وقريباه رجار الثانى ووليم الثانى ملوك صقلية ، وهو بعبارة أخرى قول تلك الزمرة من المغامرين الشماليين الذين أخرجوا البيزنطيين من جنوب إيطاليا ، وعاشوا فى خشية أن تنتقم الدولة البيزنطية منهم انتقاماً حربيًّا ، فرأوا أن يعاجلوها قبل أن تفلت منهم الفرصة . وصادف ذلك القول هوى فى نفوس الكثيرين ، ولا سيما تجار البندقية الذين وجدوا فى الدولة البيزنطية مجالا واسعاً للتجارة والنهبة ، فضلا عن غلاة السياسيين ورجال الدين أمثال سوجر والقديس برنارد ؛ بل حدث أكثر من مرة (سنة ١١٠٨ م ، وسنة ١٢٨١ م من باب التمثيل) أن البابوية نفسها أبدت استعدادها للمشاركة فى هدم الإمبراطورية المسيحية بالشرق .

ولا سبيل إلى المبالغة فى هول النتائج التى ترتبت على تلك العداوة التى نفرت بين شطرى العالم المسيحى ، فإن خيبة الصليبيين فى استرجاع الشرق الأدنى من المسلمين لا يعود إلا إليها ، وكفى . وإلى تلك العداوة وما امتزجت به من الشعوبية والخلاف المذهبى ، فضلا عما ارتكضها من الطموح السياسى والمنفعة المادية ، يرجع تحول الحملة الصليبية المعروفة بالرابعة عن غرضها الصليبى إلى هدم الإمبراطورية البيزنطية ، مما أدى إلى فتح القسطنطينية ونهبها سنة ١٢٠٤ م ، وتمزيق أكبر الدول الأوربية وأغناها حضارة فى

العصور الوسطى . ثم استعاد البيزنطيون عاصمتهم سنة ١٢٦١ م ، بعد خمسين سنة تقريباً من الحكم اللاتينى ؛ وإذا لم يكن بينهم وبين اللاتينيين قبل تلك الحملة سوى حب مفقود ، فليس من العسير علينا أن نتصور ما تأجج فى نفوسهم بعدها من بغض شديد لأولئك الذين أذاقوهم مرير الذلة ، وأضاعوا عليهم ديارهم عشرات السنين . لذا راحت هباء جميع المحاولات التى بذلت لتوحيد القوى المسيحية ضد الخطر العثمانى الزاحف ، ورفض رهبان القسطنطينية وقساوستها أن يقبلوا ما جادت به قرائح رجال الدين من الاقتراحات فى المجمع الكنسى بمدينة ليون سنة ١٢٧٤ م ، أو فى المجمع الكنسى بمدينة فرارا سنة ١٤٣٨ م . ولم يكن من سبيل إلى التغلب على تلك المعارضة العنيفة إلا أن يجىء اللاتينيون بانتصارات حربية كبيرة على العثمانيين ، لكن تلك الانتصارات لم تتيسر وقتذاك ، فبقيت الهوة التى حفرتها منافسات البابوية والبطريقية سنة ١٠٥٤ م فاغرة فاها ، ومهد انقسام العالم المسيحى على نفسه للعثمانيين أن يثبتوا أقدامهم فى أرض أوربا ، فلم يلبثوا أن زحفوا بجيوشهم نحو الدانوب ، وفتحوا بلاد اليونان وجزائرها ، وحققوا منتهى آمالهم السياسية حين استولوا سنة ١٤٥٣ م على مدينة القسطنطينية نفسها ، حيث بقى العثمانيون بفضل تلك المنافسات إلى العصر الحاضر .

على أن تلك السحب القاتمة لم تظهر فى الأفق حين بدأت الحروب الصليبية بدأها الصاخب المحموم ، لأن عاطفة الأخوة المسيحية تغلبت على المنافسات والكراهات التى صدع أشباهها وحدة الكنيسة بعض أحيان التاريخ ، ولأن المسيحيين تركوا ذكريات انقساماتهم جانباً وضربوا مواضع الريبة بينهم عرض الحائط فى سبيل المشاركة فى حرب عامة من أجل قضية مقدسة . والأدلة كثيرة على تلك الحال العاطفية التى غمرت فروسية غرب أوربا ، وهى تعد العدة للذهاب إلى الشرق ، استجابة لنداء البابا إربان الثانى ، إذ آن الأوان لأوربا التى طالما تعرضت لإغارات المغيرين عليها من كل جانب أن تشن هى عليهم الحرب فى عقر دارهم ، ولاسيما بعد أن ذهب المسلمون عن صقلية و إفريطش ، وسيطرت أساطيل البندقية وجنوة و بيزا

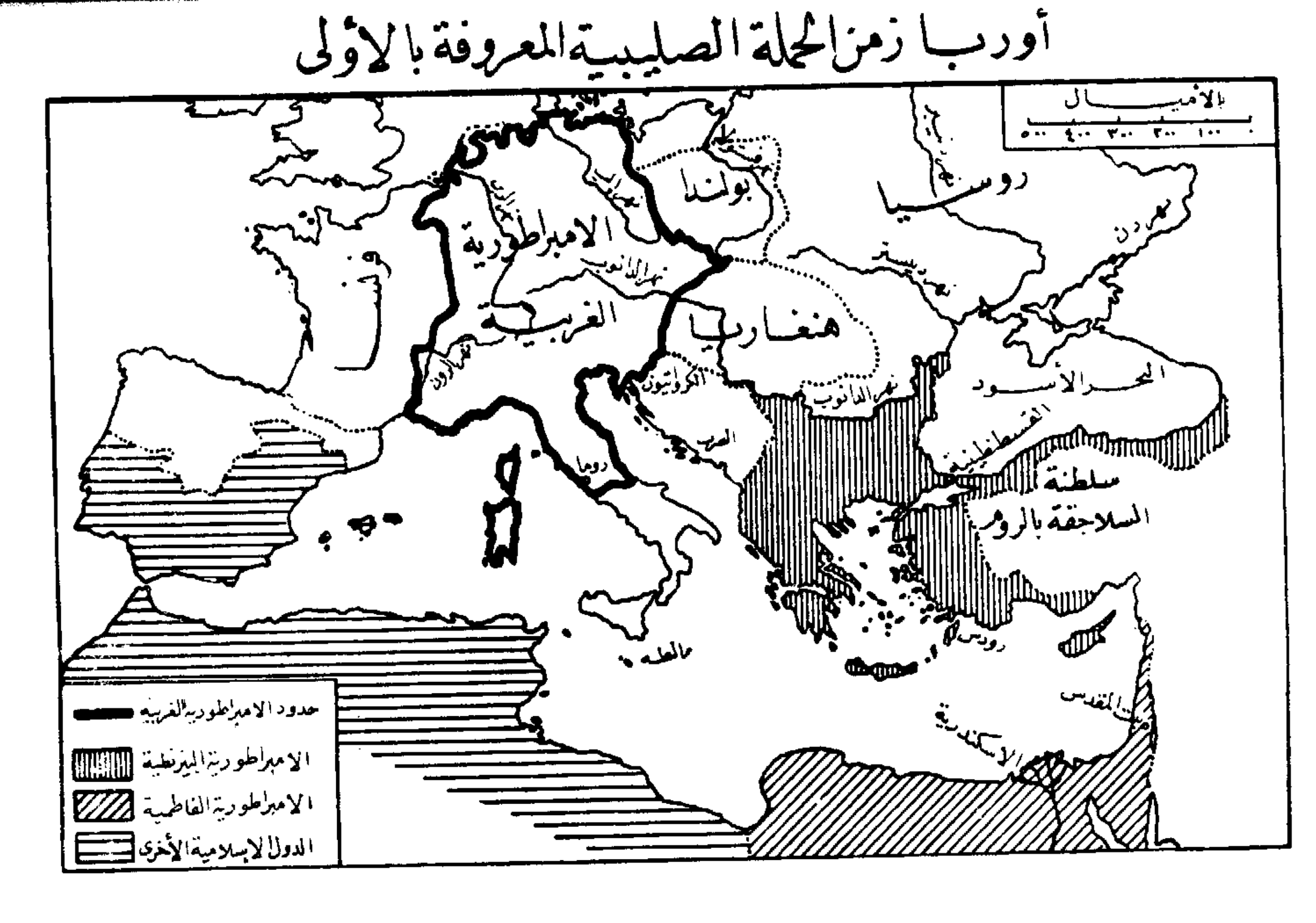
على البحر الأبيض المتوسط ، وغدا الطريق البرى من غرب أوربا إلى القسطنطينية مفتوحاً للأسفار منذ تحول المجريون إلى المسيحية واندمج البلغاريون فى الدولة البيزنطية . يضاف إلى ذلك أن المسيحيين استولوا على طليطلة بإسبانيا من الأمويين ، وأن النورمانيين هاجموا إفريقيا الإسلامية من صقلية ، وأن السيل الألمانى الدافق نحو شرق أوربا ظل يدفــع السلافيين وآلهتهم إلى الوراء دفعاً لا رجعة فيه ، على حين تقهقرت إسكندناوة إلى غدائر التاريخ ، فلم تعد مصدراً لخطر ما ، بعد أن خلت من سكانها الأشداء الذين طالما دوخوا أوربا وهزوا أركانها هز العاصفة للهشيم ، بل بقيت لا حراك بها ولا هى تريم ، حتى نهض ملــكها جستاف أدولفس لنصرة البروتستانية الألمانية ، بروعة سيفه وقوة شخصيته فى النصف الأول من القرن السابع عشر الميلادى .

ومما يجدر ذكره كذلك أن الكنيسة فى فرنسا أضفت على طبقة الفرسان شيئاً من طموحها الروحى ، ولذا امتازت نظم الفروسية الفرنسية أواخر القرن الحادى عشر الميلادى — أى غداة الحروب الصليبية — بتقديرها لواجبات القوى نحو الضعيف ، واصطبغ الإعداد لرتبة فارس بكل مظاهر القداسة التى ابتكرتها التقوى المهيمنة على ذلك العصر ، فيغتسل المتأهل للفروسية بماء تباركه الكنيسة ، ثم يحيى ليلته بالصلاة ، حتى إذا أقبل الصبح قصد إلى الكنيسة ، حيث يعترف بذنوبه وخطاياه ، ويتناول العشاء الربانى ، ويتلو عليه القس واجبات طبقته ، وهى الدفاع عن الدين ، وإيواء الأرمل واليتيم والبائس والمحروم والمظلوم ، أى أن الفارس يضحى صليبيًّا بمعنى الكلمة وذلك قبل أن تبدأ الحروب الصليبية بدأها المعروف .

وأهمية ذلك هنا أن فرنسا قامت فى الحروب الصليبية مقام الروح من الجسد بالقياس إلى غيرها من الدول ، وأن فرسانها غدوا نموذجاً لغيرهم من الفرسان الأوربيين . على أن أول الجموع الصليبية التى تمخضت عنها أوربا المتحدة لم تكن على شىء من النظام ، بل امتاز الصليبيون الذين خرجوا من ديارهم جامحين إلى الشرق فى فورة من الحماسة — بالخلو من جميع

ما احتاجوا أشد الحاجة إلى معرفته ، فلم يفقهوا شيئاً من جغرافية البلاد التى اختاروا السفر عن طريقها ، ولا شيئاً من جوها أو أهلها . ثم إنهم أعوزتهم المؤونة الكافية ، وعطلت سبيلهم أفواج تلو أفواج من غير المحاربين ، الجاهلين بأمور الصحة ، الساخرين من الترتيب والنظام . يضاف إلى ذلك أن أولئك الصليبيين المتحمسين الذين جاء معظمهم من أقاليم الشمال الغربى من فرنسا — واللورين وألمانيا — اتخذوا الطريق البرى إلى القسطنطينية على وعورته، دون أن يتخذوا الزعيم لحشودهم على كثرتهم وحاجتها إلى الزعامة ، فعاثوا بالبلاد التى مروا عليها أشد العبث ، وجزاهم أهلها أقسى الجزاء ، فهلكت منهم أعداد عظيمة عبر بافاريا والمجر ، ولم تكد بقيتهم تنزل بالشاطئ الآسيوى قبالة القسطنطينية حتى أبادهم السلاجقة عن آخرهم ، ومن بينهم بطرس الناسك الشهير . وتوافرت تلك النقائص على صورة أصغر فى الجيوش الإقطاعية الضخمة التى يممت نحو القسطنطينية من غرب أوربا فى أغسطس سنة ١٠٩٦ م على أربعة طرق مختلفة ، إذا افتقرت إلى القيادة الموحدة ، وأطبق عليها جهلها بالجغرافية ، وأثقلت حركاتها أرسالٌ من الصعاليك والحرافيش الذين أساءوا إلى الحروب الصليبية واسمها بما اقترفت أيديهم من السلب والنهب فى أشتات البلاد . غير أن تلك الجيوش — وهى التى اصطلح المؤرخون على تسمية مجموعتها باسم الحملة الصليبية الأولى — احتوت على فئات من الجند الخبيرة بالحرب الراجلة والراكبة تحت قيادة رؤساء على جانب من المهارة والسطوة ، مثل جودفرى بويون وأخيه بولدون وعساكرهم من اللورين ، وبوهمند وتانكرد ابن أخيه زعماء النورمانيين من أبولية ونورماندیا ، وريموند صاحب تولوز الذى كانت عساكره أبهى تلك الجيوش وأحسنها سلاحاً وعدة . ولهذه الفئات يرجع الفضل فى إحراز ما أحرزته الحملة الصليبية المعروفة بالأولى من نتائج عظيمة ، وهى أنها حققت غايتها ، إذ استطاعت الجيوش الأربعة أن تصل إلى القسطنطينية بعد أن تحملت خسائر غير قليلة ، وأن تعبر البوسفور إلى آسيا الصغرى ، وأن تستولى بمساعدة البيزنطيين على نيقية عاصمة السلاجقة ، وأن تعيد إلى الدولة

أوربا زمن الحملة الصليبية المعروفة بالأولى



البيزنطية لا شواطئ آسيا الصغرى فحسب ، بل كثيراً من أقاليمها الداخلية ، وأن تخترق الطريق إلى قونية وأنطاكية دون أن يقتلها الظمأ والتعب ، أو يعييها الزرد الثقيل ، أو يغلبها هجوم الأعداء عليها كلما استطاعوا إلى الهجوم سبيلا . ثم استطاعت تلك الجيوش أن تحاصر أنطاكية الشهيرة بحصونها المنيعة ، وأن تستولى عليها عنوة ، وأن تحبط محاولة إسلامية عنيفة لا ستردادها ، وأن تتوج تلك الأعمال بالاستيلاء أخيراً على بيت المقدس نفسها . ومن الواضح أن حملة صليبية أخرى لم تستطع أن تحقق ما حققته تلك الحملة ، وكفى أن جيوش جودفرى و بوهمند هى التى أسست الإمارات اللاتينية بالشرق ؛ ولئن زالت هذه الإمارات من مسرح التاريخ منذ سبعة قرون ، فلا تزال ذكراها باقية للقارئ فى مؤلفات تاسو وسكوت ، وللسائح فى آثار القلاع الهائلة التى تشخص صامتة شامخة بين تلال فلسطين .

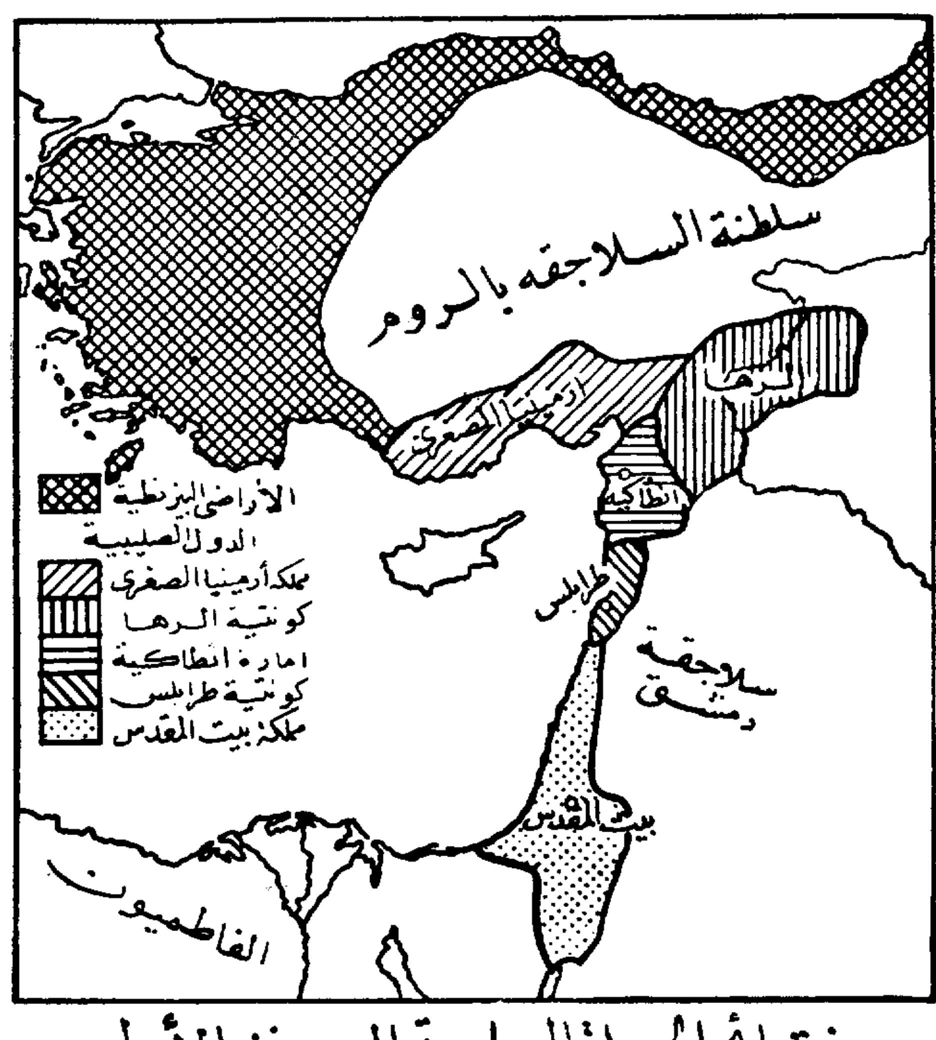
وللضربات المتتابعة التى كالتها الفروسية الأوربية للأتراك السلاجقة خاصة ، وللمسلمين عامة ، تدين الدولة البيزنطية بطول سلامتها مدة ثلاثة قرون أخر . غير أنه يندر فى حرب من الحروب – حتى لو انتهت تلك الحرب بالظفر والتوفيق – أن يشعر الحلفاء بعد الحرب بشىء من الاعتراف بالمساعدات التى بذلت أو الرضى بالنتائج التى تحققت . فما لا شك فيه أن اللاتينيين مدينون بكثير من الفضل للإمبراطور ألكسيوس ، فلولا الحرسية البيزنطية ، والأمداد البيزنطية ، والأدلاء البيزنطيون ، ما استطاع اللاتينيون أن يتغلبوا على رحلتهم الطويلة من البلقان إلى الشام . غير أنه يساوى ذلك – إن لم يزد عنه – ما يدين به ألكسيوس للجيوش الغربية التى طردت السلاجقة من عاصمة لهم (نيقية) هى أدنى إلى القسطنطينية من قاب قوسين ، وأعادت إلى الدولة البيزنطية عدداً من أقاليمها الغنية ، وحلت عقدة الخوف التى ساورت الناس من استيلاء السلاجقة على تراقيا الأوربية . ومع هذا كله لم يرض أحد الفريقين عن أخيه ، فشكا اللاتينيون أن الإمبراطور البيزنطى استغل مركزه – على رأس دولة غنية عتيدة – فى حمل زعمائهم على حلف يمين التبعية له قبل مغادرتهم القسطنطينية ، واتهموه بالنكث فى تأدية ما وعدهم

به من أمداد ومعونة حربية كفاء أيمانهم . وأكدوا تأكيداً لم يخل من الصحة أنه لولا وصول المؤونة إليهم من أوربا عن طريق البحر لماتت جيوشهم المظفرة جوعاً وهى على حصار أنطاكية . ثم إنهم نسبوا جميع ما تم من نصر إلى شجاعة جيوشهم ، وردوا كل هزيمة أو خطأ حربى إلى غدر الجيوش البيزنطية ، وأشاعوا بين الناس بغرب أوربا أن البيزنطيين ملأوا طريق الصليبيين إلى الشرق بالمصاعب والمخاطر إشباعاً لما التاعت به قلوبهم من خوف ومقت للغربيين ، وازدادت الإشاعة رواجاً وقوة كلما نزلت كريهة بأحد الجيوش الصليبية . أما الإمبراطور ألكسيوس ، فلم تعوزه الدلالات المثيرة فى نفسه ألوان الريبة والغيظ ، إذ حارب أول حروبه ضد النورمانيين الذين احتلوا ثغر دورازو ، وأعلنوا عزمهم على تقويض عرشه خمس عشرة سنة قبل وصول الصليبيين إلى الشرق ، ولم يكن من المعقول أن تغير أهداف الحروب الصليبية شيئاً فى قلوب النورمانديين وزعيمهم بوهمند حال قدومهم مع القادمين إلى القسطنطينية سنة ١٠٩٧ م ، بل وضح من سلوكه وسلوك أغلبية رفقائه أن غايتهم تكوين الدول لأنفسهم ، لا استعادة المدن للإمبراطورية . ولذا كان طبيعيًّا أن يعمل ألكسيوس جهده فى الحصول على التأكيدات التى تستطيعها الأيمان والمعاهدات بإعادة ما سوف يفتحه الصليبيون من سالف البلاد البيزنطية إلى البيزنطيين . لكن الصليبيين أقسموا تلك الأيمان مكرهين ، ووقعوا المعاهدات التى طلب إليهم توقيعها كذلك مكرهين ، ثم ما لبثوا أن أنكروا أيمانهم ومعاهداتهم تمام الإنكار حين استولى بوهمند على أنطاكية لنفسه ، وتعين جودفرى حاكماً على بيت المقدس نزولا على رغبة أتباعه أهل اللورين . ولم يحلم أحد من الصليبيين المتحمسين للدين أن يمد البيزنطيون يد المساعدة لدول قامت على هذه الصورة .

ومن المعلوم أن جرأة المحاولة لتأسيس دول صليبية – على نمط أوربى تحت سماء شرقية لافحة – لم تلق ما لقيت من التوفيق إلا بسبب ما تردت فيه القوى الإسلامية وقتذاك من شقاق . ثم إنه لم يكن باستطاعة تلك الدول الصليبية أن تعمر طويلا لولا شىء واحد ، وهو أن الجمهوريات الإيطالية

الكبرى اهتمت كل الاهتمام بنشر تجارتها فى الشرق ، فاشتركت أساطيل من البندقية وجنوة وبيزا فى حصار الموانى السورية . وبفضل هذه الأساطيل تم الاستيلاء على تلك الموانى . ومع هذا ظلت الدول الصليبية فى حال غير آمنة ، لأن اهتمام الجمهوريات الإيطالية لم يتعد بلاد السواحل،ولأن الحجاج المسيحيين الذين وفدوا من وراء البحار إلى الشرق لم يهمهم من الأمر سوى طريق مأمون إلى الأماكن المقدسة . ثم إنه يبدو أن زعماء الصليبيين أنفسهم لم يدركوا أهمية الاستيلاء على الشام كلها حتى أطرافها الطبيعية من المسلمين ، وما كان باستطاعة ما لديهم من جند أن تنهض بذلك العمل الكبير دون أمداد متواصلة من أوربا . لكن أمداداً كهذه لم تأت ، واضطر ملوك الدولة الصليبية ببيت المقدس أن يتركوا أطرافهم الشرقية فى أيدى أعدائهم ، وأن يبيتوا عرضة لهجوم دائم على طول تلك الأطراف المفتوحة التى خلفوها عارية من وسائل الدفاع .

وأسس ملوك بيت المقدس وأمراء أنطاكية والرها وطرابلس حكوماتهم الجديدة حسب قواعد الإقطاعية الحربية التى درجوا عليها فى فرنسا ، ولكنهم أضافوا إليها شيئاً من الصرامة التى استلزمتها ضرورات اليقظة الحربية فى محيطهم الجديد ، وتدل قوانين بيت المقدس (Assizes of Jerusalem) التى رتبها القانونى القبرسى حنا إبلين — فى القرن الثالث عشر الميلادى — على ما اتصف به المجتمع الصليبى من استعداد حربى يشبه استعداد إسبارطا القديمة ، وليس فى العصور الوسطى كلها هيئة من هيئات الحكم أو أداة من أدواته تشرح أسس المجتمع الإقطاعى والواجبات المترتبة على التمليك الحربى مثلما تشرح تلك القوانين. غير أن القوانين إنما تستمد من روح أهلها عند التطبيق ، ولم تلبث روح الصرامة التى امتاز بها الصليبيون أن وهنت تحت السماوات الدافئة ومغرياتها ، بعد أن استهوت النساء الشرقيات والأطعمة الشرقية أولئك المغامرين ، بعد أن خففت حياة الشرق من خشونتهم وتعصبهم ، إذ وجدوا بالشام مجتمعاً غريباً عليهم كريهاً إلى حدما ، بنسائه المكنونات فى الحجاب ، ولكنه من نواح كثيرة مجتمع أكثر وجاهة وثقافة



نتائج الحملة الصليبية المعروفة بالأولى

الكبرى اهتمت كل الاهتمام بنشر تجارتها فى الشرق ، فاشتركت أساطيل من البندقية وجنوة وبيزا فى حصار الموانى السورية . وبفضل هذه الأساطيل تم الاستيلاء على تلك الموانى . ومع هذا ظلت الدول الصليبية فى حال غير آمنة ، لأن اهتمام الجمهوريات الإيطالية لم يتعد بلاد السواحل، ولأن الحجاج المسيحيين الذين وفدوا من وراء البحار إلى الشرق لم يهمهم من الأمر سوى طريق مأمون إلى الأماكن المقدسة . ثم إنه يبدو أن زعماء الصليبيين أنفسهم لم يدركوا أهمية الاستيلاء على الشام كلها حتى أطرافها الطبيعية من المسلمين ، وما كان باستطاعة ما لديهم من جند أن تنهض بذلك العمل الكبير دون أمداد متواصلة من أوربا . لكن أمداداً كهذه لم تأت ، واضطر ملوك الدولة الصليبية ببيت المقدس أن يتركوا أطرافهم الشرقية فى أيدى أعدائهم ، وأن يبيتوا عرضة لهجوم دائم على طول تلك الأطراف المفتوحة التى خلفوها عارية من وسائل الدفاع .

وأسس ملوك بيت المقدس وأمراء أنطاكية والرها وطرابلس حكوماتهم الجديدة حسب قواعد الإقطاعية الحربية التى درجوا عليها فى فرنسا ، ولكنهم أضافوا إليها شيئاً من الصرامة التى استلزمتها ضرورات اليقظة الحربية فى محيطهم الجديد ، وتدل قوانين بيت المقدس (Assizes of Jerusalem) التى رتبها القانونى القبرسى حنا إبلين — فى القرن الثالث عشر الميلادى — على ما اتصف به المجتمع الصليبى من استعداد حربى يشبه استعداد إسبارطا القديمة ، وليس فى العصور الوسطى كلها هيئة من هيئات الحكم أو أداة من أدواته تشرح أسس المجتمع الإقطاعى والواجبات المترتبة على التمليك الحربى مثلما تشرح تلك القوانين. غير أن القوانين إنما تستمد من روح أهلها عند التطبيق ، ولم تلبث روح الصرامة التى امتاز بها الصليبيون أن وهنت تحت السماوات الدافئة ومغرياتها ، بعد أن استهوت النساء الشرقيات والأطعمة الشرقية أولئك المغامرين ، بعد أن خففت حياة الشرق من خشونتهم وتعصبهم ، إذ وجدوا بالشام مجتمعاً غريباً عليهم كريهاً إلى حدما ، بنسائه المكنونات فى الحجاب ، ولكنه من نواح كثيرة مجتمع أكثر وجاهة وثقافة

مما عهدوا فى بلادهم ، فتولدت بين الكثيرين من زعماء العرب والصليبيين أنواع الصداقات ، وهدّأت شجاعة المسلمين ودماثتهم من ثائرة التعصب الدينى فى قلوب المسيحيين ، حتى إن الإسپتارية (Hsospitallers) والداوية (Templars) ، وهى الهيئات الديرية العسكرية التى أنشئت خاصة لحماية الأراضى المقدسة ، لم تستطع أن تنجو من آثار الشرق ، وتدل سيرة الأمير العربى أسامة ابن منقذ – الذى قلد الداويةُ مناهجه – على سعة الهوة بين ليونة الصليبى المتوطن وسخريته وحماسة أخيه الصليبى وصرامته غداة قدومه من الغرب .

على أن الدول الصليبية الأربع استطاعت برغم قلة مواردها من الرجال والمال أن تبقى على حالها بالشام ما دام الأمراء المسلمون المحيطون بها فى استقلال بعضهم عن بعض . غير أنه لم يكن لتلك الحال أن تدوم والشرق الأدنى يتمخض عن ثلاثة من أقدر الرجال الذين غيروا موازينه وأوضاعه فى مدة لا تتجاوز نصف قرن من الزمان ، إذ استولى زنكى أمير الموصل على حلب سنة ١١٢٨ م ، والرها سنة ١١٤٤ م ، وامتدت مملكة ابنه نور الدين إلى دمشق سنة ١١٥٤ م ، والقاهرة سنة ١١٦٨ م ، حتى إذا توفى نور الدين سنة ١١٧٣ م حل محله صلاح الدين الكردى الذى جعل الشرق الأدنى كله – من دجلة إلى النيل – مملكة واحدة ، بفضل ما اجتمع فيه من خصائص الزعامة المطبوعة .

وأدى سقوط الرها فى أيدى المسلمين سنة ١١٤٤ م – وهو أول حلقة من سلسلة الحوادث التى أخذت تلحق بالصليبيين – إلى حركة هائلة من ثائر الشعور فى أوربا ، إذ تراءى للناس فى ذلك الحادث لا كارثة مروعة بذاتها فحسب ، بل كارثة نذيرة بما هو أشد ترويعاً ، لأن للرها ما يقرب ما لبيت المقدس نفسه من القداسة فى أخيلة العالم المسيحى ، ولأنها تمتّ بأصولها إلى المسيحية الأولى ، وهى أول الدول الصليبية ، وترس الصليبيين من ناحية الشرق . وفى حرارة ذلك الشعور الذى ألهبت نيرانه بلاغة القديس برنارد ، اعتزم كنراد الثالث إمبراطور ألمانيا ولويس السابع ملك فرنسا الذهاب فى حملة صليبية ، وسارت جيوش كل منهما

عبر الطريق البرى إلى الشرق ، فتعثرت بما احتوت عليه من غير المحاربين ، ولو اقتصر الأمر على ثلة طيبة من الفرسان تحملهم سفن البنادقة عن طريق البحر لكان أجدى على الصليبيين من تلك الجيوش الجرارة بقيادة ملكين هما أكبر ملوك الغرب فى القرن الثانى عشر الميلادى . والدليل على صحة ذلك أن الجيوش الألمانية إلا قليلا منها بادت بآسيا الصغرى قبل أن تصل إلى الشام ، وأن الفرنسيين الذين لزموا الطريق الساحلى الطويل اجتناباً للسلاجقة لم يلبثوا أن هزموا على يد هؤلاء بإقليم فيرچيا ، فلم يصل منهم إلى الشام سوى الفرسان الراكبة من أضاليا عن طريق البحر . وهكذا خابت الحملة الصليبية المعروفة بالثانية خيبة تامة منذ البداية ، إذ ضيعت معظم جيشين من أحسن الجيوش الأوربية قبل وصولها إلى الشام ، ثم تحولت عن غرضها — وهو استعادة الرها — إلى حصار دمشق حصاراً ضعيفاً رفعه بلدوين الثانى ملك بيت المقدس بعد بضعة أيام ، مما أحنق كنراد الثالث ولويس السابع ، وآذى قضية الصليبيين أذى لا يدرك مداه .

ومن الطبيعى أن يتطلع ملك بيت المقدس إلى طلب المساعدة من القسطنطينية بعد أن أخفق الغرب إخفاقه الذريع فى إصلاح الموقف . غير أن الإمبراطور الجديد مانويل كومنين (١١٤٣ — ١١٨٠ م) لم يهمه أن تصبح مملكة بيت المقدس فى دعة من الخطر ، وما دام فى استطاعته أن يسترد أنطاكية التى دار عليها محور أطماعه فى الطرف الجنوبى الشرقى من الإمبراطورية البيزنطية فلا عليه إذا ظل ملك بيت المقدس مهدد الجانب من ناحية المسلمين ، بعد أن زوجه هو من إحدى قريباته تغطية لموقفه . ولذا لم يغمر الأوساط اللاتينية المتوطنة بالشرق مثلما غمرها من الخيبة حين زحف ذلك الإمبراطور الطرير بجيش ضخم نحو بلاد الشام ، صيف سنة ١١٥٩ م ، ثم ارتد عنها مثلما ذهب إليها دون أن يشتبك مع المسلمين فى وقعة واحدة ، وربما كان سر إيثاره محالفة نور الدين على محاربته وقتذاك أن أنطاكية التى أراد استردادها صارت إليه قبلا عن طريق التسليم .

وعلى الرغم من ذلك كله ظلت صداقة البيزنطيين للصليبيين أمراً ليس

من الحكمة أن يغضى عنه ، حتى إذا اعتلى أمورى الأول عرش بيت المقدس سنة ١١٦٣ م ، وتحولت سياسة المملكة عن التفكير فى فتح حلب ودمشق إلى فتح مصر ، استطاع هذا الملك أن يحصل على تأييد الأسطول الإمبراطورى فى إحدى الحملات الأربع التى أنفذها لغزو البلاد المصرية . وحوصرت دمياط فعلا سنة ١١٦٩ م . ولهذا الحصار الفاشل أهميتان ، وهما أنه آخر عمل تعاونى بين اللاتينيين والبيزنطيين فى الحروب الصليبية ، وأنه أول نصر حربى لصلاح الدين بعد أن صارت له الوزارة بالقاهرة .

ثم صار صلاح الدين سلطاناً على مصر والشام وأعالى العراق حتى الموصل ، فناصب الصليبيين حرباً لم تهدأ نارها إلا بعد ظفره بهم فى وقعة حطين . والذى يدعو إلى الانتباه هنا أن قطرة واحدة من الدم البيزنطى لم تهرق فى تلك الوقعة التى ختمت على مصير مملكة بيت المقدس ، والسبب فى ذلك أنه منذ أواخر عهد مانويل كومنين والدولة البيزنطية مرة أخرى فى محنة بعد عز طالما نعمت به تحت حكم الكومنينيين على العموم ، إذا غلبت جيوشها فى آسيا الصغرى غلباً جمّ الخسائر سنة ١١٧٤ م على يد قلج أرسلان سلطان قونية ، وساءت علاقتها بالبندقية سنة ١١٧٥ م سوءاً ينذر بالشر ، حتى إذا توفى مانويل وصارت أرملته الإمبراطورة مارى الأنطاكية وصية على ابنها القاصر ، لم تلبث القسطنطينية أن كرهت مارى وبطانتها من الفرنسيين والإيطاليين ، وأنزلت بهؤلاء وأولئك مذبحة شنيعة سنة ١١٨٢ م ؛ وذلك على حين استولى النورمانيون على سالونيك سنة ١١٨٥م، وهددوا القسطنطينية نفسها بالغزو القريب ، اعتقاداً منهم بنظريتهم القديمة أنه لن يستطيع مقارعة المسلمين إلا دولة لاتينية تحلّ محلّ البيزنطيين فى عاصمتهم على البوسفور . تلك حال الدولة البيزنطية وسحب الجهاد الذى أعلنه صلاح الدين ترعد وتبرق فى سماء الشام ، فلا عجب إذا لم يوجد من البيزنطيين جنود فى حطين ، بل العجب أن الدولة الصليبية لم تستطع أن تجمع من جنودها سوى ألف وثلاثمائة فارس وخمسة عشر ألفاً من العسكر الراجلة لمنازلة الجيش اللجب الذى أعده المسلمون لذلك اليوم . وما عسى أن تجدى

الشجاعة الرائعة ضد العدد الكثير ؟ فأبيد الصليبيون عن آخرهم إلا قليلا ، واستولى المسلمون على صليب الصلبوت ، وصارت كنيسة القيامة فى أيديهم سنة ١١٨٧ م .

وإذا وصلت تلك الأخبار المروعة إلى أوربا ، هب ثلاثة هم أكبر ملوك الغرب وقتذاك – لا البابا وحده – لتنظيم حملة صليبية تكفل إعادة الأمور إلى نصابها ، أولئك هم فردريك برباروسا إمبراطور ألمانيا ، وفيليب أغسطس ملك فرنسا ، ورتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا . غير أن عتاد الملوك الثلاثة على ضخامته وامتيازه بالاتفاق الفنى بعد قرن من الاتصال بين الشرق والغرب ، لم يأت بشىء يذكر ، ما عدا استيلاء الصليبيين على عكا ، وموافقة صلاح الدين على هدنة تضمن للحجاج المسيحيين حرية الوصول إلى كنيسة القيامة ببيت المقدس . ومن هذه النتيجة الضئيلة تتضح شناعة الخاتمة التى حلت بما عقد على تلك الحملة من آمال ، كما تتضح فداحة الدليل على عجز أوربا عن توحيد المسيحية الغربية وتوجيهها نحو هدف عام . وربما قيل هنا من قبيل الدفاع أن الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة صدمت أشد صدمة فى أول أمرها بوفاة فردريك برباروسا غريقاً فى نهر سالف بقليقية ؛ فلو عاش ذلك القائد الألمانى الذى استحقّ لقب الجندى الأول بغرب أوربا فى عصره ، ودلّ على مدى مقدرته حين عبر بجيوشه آسيا الصغرى فى مهارة حربية فائقة وقلة فى الخسائر واضحة – بالقياس إلى تجارب ما تقدمه من جيوش – لوجد صلاح الدين من يستطيع معارضته سيفاً بسيف وقوة بقوة ، ولاختلفت النتائج اختلافاً تامًّا أكبر الظن . لكن ذلك لم يكن ، واقتصرت الحملة على كشف ما بين إنجلترا وفرنسا من حسد قومى ، وما بين جنوة وبيزا من دخَن وسوء سريرة ، فضلا عن مؤامرات كونراد مونتفرات وجاى لوزْجنان كل منهما ضد الآخر ، فى سبيل التّاج الذى لم يوجد إلا رمزاً بعد ذهاب مملكة بيت المقدس وأرضها إلى صلاح الدين . وفى ذلك المحيط القاتم بما فيه من صغار الحقد والكيد ، سطعت قوة رتشارد قلب الأسد وطبيعته الكريمة سطوعاً لا فائدة منه .

ولم يبق للصليبيين حينذاك سوى عدد من الموانى السورية أهمها عكا ، وهذه يرجع فضل المحافظة عليها إلى المطامع التجارية الإيطالية بالشرق ، حتى إذا بدأ ماركو بولو الإيطالى رحلته الشهيرة إلى الصين ، واقترب من سواحل الشام ، ألفى علم الصليبيين خافقاً على بعض القلاع ، وسمع جرس النواقيس المسيحية من بعض الكنائس . ولو قيض للصليبيين أن يتعرفوا محاسن ما أنتجت آسيا فى تلك العصور ، وأن يتشربوا ما تصل إليه أيديهم من تلك المحاسن ، لدخلت رباعيات عمر الخيام — وهو أكبر قادة الفكر فى القرن الحادى عشر الميلادى إطلاقاً — فى التراث الفكرى الأوربى بدلا من بقائه خلواً منها إلى أيام فيتزجرالد[1] . لـكن الصليبيين لم يوغلوا فى البلاد حتى يتصلوا بأرقى الشعوب الآسيوية وأعلاها ثقافة ، فلم يحتكوا بالفرس أو أهل الصين والهند ، بل اقتصرت علاقتهم على شعوب السهوب والصحارى من الترك والعرب ، وعلى أبناء شرق البحر الأبيض المتوسط الذين طالما خضعوا لحكومات الترك والكرد من الأيوبيين والمماليك . وعلى الرغم من ضيق هذه الحدود اتسعت خبرة الصليبيين وثروتهم المادية اتساعاً عظيماً ، فوقفوا على فنون الشرق وصناعاته وما فيها من رونق وفن ودقة وغناء ، وعرفوا بلاداً وشعوباً غريبة عليهم وعلى مجتمعهم الأوربى الذى بربرته سلسلة من الكوارث العظمى ، ولم تخرج من مضارب الفوضى والخوف إلا حديثاً . ثم ما عتمت الثروة المتدفقة من الشرق أن ملأت مدن إيطاليا ، فانتشرت منها إلى الشمال الغربى من أوربا حيث سرت فى المدن روح جديدة من القوة والعزة . ولم يقف الأمر على الناحية المادية الاقتصادية فحسب ، بل تجاوزه إلى الدين وغيره من المعنويات ، إذ تولد بالدول المسيحية شعور بالاتحاد لم يزل باقياً حتى العصر الحاضر ، وتحركت عناصر الابتداع فى لغة الأدب القومى ، واستخدم الناس شيئاً من الطب العربى والكيمياء والحساب التجارى ، واتسعت معرفتهم بما فى العالم من غير المسيحيين ، كما اتسعت معلوماتهم

---

(١) عرفت أوربا رباعيات الخيام لأول مرة حين ترجمها الشاعر فتزجرالد إلى الإنجليزية ، منتصف القرن التاسع عشر الميلادى . (زيادة) .



نتائج الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة

فى الجغرافيا سواء بسبب الحروب الصليبية نفسها ، أم نتيجة الرحلات التبشيرية التى أعقبت الحروب الصليبية : وربما قيل كذلك إن شئون الحكم صارت أحسن حالا ، بذهاب كثير من العناصر الإقطاعية المشاغبة فى تلك الحروب الصليبية ، لكن ما الذى عاد على المسيحية من تلك الحروب ؟ وهنا تحمل الصراحة على الاعتراف بأن أعظم ما نتج عن تلك الحركة الهائلة التى اختلطت المغامرة فيها بالتقوى ، حب الاستطلاع بالأطماع ، لم يكن ازدياد معرفة الإنسان بالله ، بل تأسيس إمبراطورية البندقية فى البحر الأبيض المتوسط .

بعض المراجع لهذا الفصل

Cambridge Mediaeval History. Vol. IV.

Chalandon (F.) : Histoire de la Domination Normande en Italie et en Sicile. (1907).

Delarc (O.) : Les Normands en Italie. (1883).

Derenbourg (H.) : Ousama ibn Mounkidh : Un Emir Syrien au Premier Siècle des Croisades. (1886).

Finlay (G.) : History of Greece, B.C. 146 to A.D. 1004 ed. H.F. Tozer. (1887).

Gay (J.) : L'Italie Méridionale et l'Empire Byzantin. (867-1071 A.D.). (1904).

Haskins (C.H.) : The Normans in European History. (1915).

Heyd (W.) : Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age. (1885).

Oman (C.) : A History of the Art of War in the Middle Ages. (1924).

الفصل الحادى عشر

الإمبراطور فردريك بربار وسا

صدمة الوحدة الألمانية بانتخاب لوثير الثالث ملكاً على ألمانيا — أصل القطيعة بين الجولفيين والجبلينيين — توحيد الأسرتين فى شخص فردريك بربار وسا — ضعف أثر ذلك فى تقوية الوحدة الألمانية — حروب فردريك ضد البابوية والمدن اللمباردية — حربه ضد هنرى الأسد — تكوين اتحاد ألمانى على قاعدة القانون الرومانى — غرابة القانون الرومانى على الإقطاعية الألمانية — توحيد ألمانيا وصقلية سنة ١١٨٦ م — أطماع هنرى السادس — وفاته .

لم يكن من حسن الطالع للملكية الألمانية ومستقبلها أن يعتلى لوثير الثالث — وهو لوثير سپلنبرج — عرش ألمانيا بالانتخاب سنة ١١٢٥ م ، بعد وفاة هنرى الخامس دون أن يخلف ولداً . فمنذ أوائل القرن العاشر الميلادى تولى العرش الألمانى أربعة أجيال من السكسونيين ، وأربعة مثلهم من الفرنكونيين[1] ، وكل ينادى به ملكاً منتخباً فى حياة أبيه ، والرؤساء الناخبون راضون ، والكنيسة كذلك راضية ، مما مهد لمبدأ التوريث فى الملكية الألمانية أحسن تمهيد . وبينا أصبح من المنتظر أن يظل مبدأ التوريث ثابت الأوتاد فى ميدان السياسة الألمانية فى العصور الوسطى ، حدث سنة ١١٢٥ م ما برهن برهاناً واضحاً على غير ذلك ، ودل دلالة أكيدة على أن مبدأ الانتخاب هو الأثبت ، وأن التاج الألمانى رهن مشيئة الرؤساء القبليين الناخبين فى ألمانيا ، ومن ثم غدا تيار الحوادث يجرى نحو المبدأ الانتخابى ، حتى صار أولئك

---

(١) انظر ما سبق هنا ، ص ١٢٧ ، حاشية ١ . (زيادة) .

الرؤساء سنة ١١٥٦ م ركناً هاماً فى دستور الملكية الألمانية .

وأعظم من ذلك نكبة ما اشتعل من عداء بين أسرتين من الأسر الألمانية الكبرى ، وهما أسرة الجولفيين وأسرة الجبلّينيين[١] — أى الهوهنشتاوفن — مما ظهر دخانه على عهد لوثير الثالث نفسه ، واحتدمت نيرانه على عهد خلفه كونراد الثالث . وهذا العداء الذى امتلأت به ألمانيا وإيطاليا ، واختلطت به مسائل وأصول سياسية هامة ، لم يكن له من سبب سوى خيبة الأمل الإمبراطورى فى نفوس الهوهنشتاوفن . ذلك أنهم كانوا عشيرة جرمانية قوية من سوابيا فى الجنوب ، وكان من أملهم أن يصير التاج الألمانى — بعد وفاة هنرى الخامس — إلى رئيسهم فردريك هوهنشتاوفن[٢] ، قريب الملك المتوفى ووصيه ، ووريث أملاكه . ثم ما لبث ذلك الأمل أن تهدم حين فضل الناخبون على فردريك غريمه لوثير سبلنبرج ، وهو سكسونى مغمور إلا من

(١) يملأ هذان الاسمان تاريخ ألمانيا وإيطاليا فى العصور الوسطى ، وهما صيغتان إيطاليتان (Guelfs & Ghilbellines) لاسمين ألمانيين (Welf & Gaiblingen) ؛ وأولها اسم دوق من دوقات سكسونيا بشمال ألمانيا أواسط القرن الثانى عشر الميلادى ، ثم أضحى علماً على دوقات هذا الإقليم كائنة ما كانت أسماؤهم الشخصية ؛ وثانيهما اسم معقل من المعاقل الإقطاعية التابعة لأسرة الهوهنشتاوفن (Hohenstaufen) دوقات سوابيا بالجنوب الغربى من ألمانيا ، منذ أوائل القرن الثانى عشر الميلادى ، ثم أضحى كذلك علماً على دوقات هذه الأسرة فضلا عن اسمهم العائلى — أى الهوهنشتاوفن واقتصر استعمال اسمى الجولفيين والجبلينيين بصيغتهما الألمانية فى تاريخ ألمانيا وحوادث التنافس على التاج الألمانى بين البيوت الألمانية الكبرى ، حتى إذا كان عهد الإمبراطور فردريك بربارosa — وهو الجبلينى الهوهنشتاوفن الذى جرى فى عروقه دم الجولفيين (انظر ما يلى هنا ، ص ١٩٧) ، واصطدمت سياسة فردريك الإمبراطورية فى إيطاليا بمصالح البابوية وسياستها ، انتقل اسم الجبلينيين إلى إيطاليا حتى صار مرادفاً للإمبراطوريين أعداء البابوية ، كما صار اسم الجولفيين مرادفاً للبابويين أعداء الإمبراطورية . ثم انتهى النزاع والتخاصم فيما بين البابوية والإمبراطورية من ألمانيا وإيطاليا ، بإعدام آخر الهوهنشتاوفن سنة ١٢٦٨ م . غير أن الاسمين بقيا فى إيطاليا ، للتدليل على الحزبية والحروب الداخلية الناشبة بين المدن الإيطالية ، فى القرن الرابع عشر الميلادى . واقترن استعمالها بعد ذلك — على المعنى القديم تقريباً — حين استولى لويس الثانى عشر ملك فرنسا على مدينة ميلان أوائل القرن السادس عشر الميلادى ، إذ قامت بسبب ذلك حروب صار الفرنسيون ومؤيدوهم فيها بإيطاليا حزب الجولفيين ، كما صار الإمبراطور مكسمليان ومؤيدوه حزب الجبلينيين . وامتد هذان الاسمان كذلك إلى ميادين الشعر السياسى ، فكان دانتى مؤلف الكوميديا الإلهية من الجبلينيين ، كما كان بترارك الشاعر المشهور من الجولفيين . (زيادة) .

(٢) انظر الحاشية السابقة ، وكذلك شجرة الأنساب رقم ٥ ، فى آخر الكتاب . (زيادة) .

روابط الصداقة القديمة ببيت الجولفيين والزواج من ذلك البيت سنة ١١٠٠ م . واحتجاجاً على ذلك قرر فردريك هوهنشتاوفن وأخوه كُنراد الاحتكام إلى السيف والقوة ، ولم يخش أحدهما أوكلاهما ما سوف يحلّ بألمانيا من فواجع الفتنة الداخلية فى سبيل أطماعهما . ثم نجح الملك لوثير الثالث فى إقناع هذين العاصيين بتجنيب البـــلاد ويلات الحرب ، بعد أن هلكت على أيديهما مدينة أوجزبرج وأهلها رجالا ونساء وأطفالا ؛ وبذا نعمت ألمانيا بأعوام من السلام . غير أن لوثير لم يلبث أن توفى سنة ١١٣٨ م ، فتجدد النضال بين الأسرتين ، لكن مع اختلاف الكفتين ، إذ صار الهوهنشتاوفن أرباب الحكم فى شخص كُنراد الثالث ، والجولفيون أرباب المعارضة بزعامة هنرى المتكبّر دوق سكسونيا وبافاريا معاً . ومن المعقـــول والحالة هذه أن تكون الغلبة لأصحاب التاج وما يصاحب التاج من وسائل البطش والنفوذ ، لولا أن وجد كُنراد الثالث غريماً مساوياً فى هنرى المتكبّر ؛ ولذا لم يترك كُنراد فرصة إلا افترصها لإضعاف ذلك التابع العنيد ، ولم تعنّ وسيلة إلا توسل بها لإذلاله ، فجرّده من بافاريا ، وحاول أن ينزع عنه دوقية سكسونيا . لكن عقبة كؤوداً عجز كُنراد عن اقتحامها برغم ما هو معروف من جسارة الهوهنشتاوفن ، وتلك العقبة هى أهل سكسونيا الذين لم يحبوا السوابيين يوماً من الأيام ، بل ثبتوا على إخلاصهم للأسرة الجولفية ثباتاً لا عوج فيه ولا أمت ، حتى إذا توفى هنرى المتكبّر فجأة ، ولم يخلف سوى صبى فى العاشرة من العمر — وهو الذى سُمّى هنرى الأسد فيما بعد — وقف السكسونيون وقفة رجل واحد لحفظ الدوقية للجولفيين . لذا اضطر كنراد الثالث إلى الاعتراف بأن عدوه أقوى من أن يُقهر ، وأن السبيل إلى إنقاذ البلاد من بلايا الفتنة الداخلية هو الصلح النصفة ، بإعادة سكسونيا — دون بافاريا — إلى الجولفيين ؛ وتمّ ذلك الصلح سنة ١١٤٢م . غير أن الضغائن بقيت على حالها ، ترمى بالشرر على ذلك العهد المنكود ، وتنذر بتمزيق المملكة الألمانية شذر مذر ، إلا إذا تدخلت حكمة عليا قبل فوات الأوان .

ثم توفى كنراد الثالث سنة ١١٥٢ م ، وأنقذ المملكة الألمانية من الخطر

المحدق بكيانها أن دم الأسرتين الجبلينية والجولفية امتزج فى عروق فردريك بربار وسا ابن أخى كنراد الثالث ووريثه ، لأن الأميرة جوديث أم فردريك هى أخت هنرى المكتبّر ، وعمة ابنه هنرى الأسد . ولهذا بدا كأن المقادير أعدت فردريك بربار وسا لإصلاح ما بين الأسرتين من ذات البين ، نجح فردريك فى ذلك لعدة سنين ، إذ آخى ابن خاله هنرى الأسد زعيم الجولفيين ، وأعاد عليه دوقيتى سكسونيا وباڤاريا ؛ وتعالت الأصوات بمدح الملك الجبلينى ذى اللحية الصهباء ، لأنه خلص ألمانيا من شر الفتنة التى أنزلت بكثير من المدن الألمانية أفظع ألوان الخراب .

وحاطت مدائح المعاصرين فردريك بربار وسا طول حياته ، ولا تزال أصداء تلك المدائح تتردد فى نغمات حماسية متفاوتة القوة فى أجيال المؤرخين . وكيف لا يكون ذلك وجميع الشيم التى افتخرت بها فروسية ذلك العصر مجتمعة فيه ، من شجاعة فائقة وهمة خارقة ومرح مفرط ، فضلا عن شغف بالقتال والنزال ، وولوع بالمغامرة ، وحب للعدل بين الناس عدلا عرفيًّا مصدره حسن الإدراك — لا القانون ، ومؤانسة منبعها صحة جسمية رائعة . والواقع أنه لم يعتل عرش ألمانيا — منذ شارلمان — ملك تم فيه من الخلال المؤهلة لحكم الألمانيين مثلما تم فى بربار وسا ، إذ كان باستطاعته أن يخيف العقول ويسحرها بلطفه فى آن واحد ؛ ولمس رجال الدين والأمراء الإقطاعيون والفلاحون تلك الناحية من شخصيته الممتازة ، واعتبروه مثال الفارس الكامل .

غير أنه مما يحار له الباحث الحديث أن يتولى ملك مثل فردريك بربار وسا — وهو فردريك الأول كذلك فى تاريخ ألمانيا — حكم دولة عظيمة قريبة العهد بالفتنة الداخلية ، وأن يبدأ حكمه أحسن بداية ، ثم يسمح لنفسه أن تغويها مطامع بعيدة محفوفة بمصاعب هائلة لا يعرف مداها ، وليس من المحتمل أن تربح رعيته بسببها أى ربح على أية حال . لكن الألمان أنفسهم لم يفكروا مثل ذلك التفكير ، ولم يدر بخلدهم أن يلوموا ملكاً يذهب عنهم إلى روما ، لكى يضع التاج الإمبراطورى على رأسه ، ثم يعود إليهم إمبراطوراً ؛ ولم يروا فى الحملات الحربية التى أنفذها فردريك إلى إيطاليا — برغم ما تكلفت من

نفقات فى الرجال والأموال — إلا ما رأوا حين قام فردريك نفسه . وهو فى سن الشيخوخة ، للاشتراك فى الحملة الصليبية التى أدت إلى وفاته غريقاً فى قليقية[١] سنة ١١٩٠ م . ولم يقل أحد من الألمان إن الإمبراطور تغيب عن ألمانيا كثيراً ، أو إنه حكمها حكماً قليلا ؛ ولم يرتفع صوت ناقد بكلمة احتجاج على تضحيته المصلحة العامة . بمنح الأمراء الألمانيين أفدح الامتيازات والإعفاءات بغير حساب ، فى سبيل الحصول على معونتهم له فى حروبه الإيطالية ، مثل تأسيسه دوقية النمسا ، وسماحه لدوقها بامتيازات خارجة عن حد المعقول . وأكثر من هذا أن فردريك ظل حياته يسبـــح فى عالم القديم ومجده ، ويتغنى بالشعر اللاتينى ورصانته ، ويحسب أن باستطاعته إعادة الدولة الرومانية القديمة ، وينسى أن يدرك ما أعدته القومونات[٢] اللمباردية الجديدة — والبابوية الناهضة، والمملكة الصقلية العفية — من قوة مثلثة ضده . وشاركه الألمانيون فى ذلك كله مشاركة تامة ؛ بل أعجبوا بفروسيته أشد الإعجاب ، وأولوه ثقتهم إلى النهاية ، ولم يقبلوا عنه بديلا ، ولو كان ذلك البديل أعظم العباقرة على وجه الأرض

أما الإيطاليون فلم يروا فى مجىء الجيوش الألمانية إلى بلادهم نعمة غير مشوبة ، وربما خفى ذلك المعنى على فردريك بربا روسا نفسه ، اعتقاداً منه أنه يؤدى واجباً يمليه عليه مركزه حين ذهب إلى روما ، لتخليص البابا — هادريان الرابع[٣] ، من صخب جمهوريتها الجديدة ، أو حين جاء إليها كيما يُتوّج إمبراطوراً ، أو حين زحف على شمال إيطاليا ليقضى على أعدائه

---

(١) انظر ما سبق هنا ، ص ١٩١ . (زيادة) .

(٢) هذا اللفظ ترجمة حرفية لكلمة (commune) . وكان استعمالها فى العصور الوسطى للدلالة على المدن الإيطالية — وكذلك الفرنسية — التى استطاعت بفضل ثروتها الاقتصادية الجديدة أن تحصل على براءات (charters) تخولها الهيمنة على شئونها الداخلية ، وأن تصبح الحكومة فيها بيد غير أرباب الإقطاع ، أى طبقة التجار وأرباب المهن ، مع ملاحظة ما لهذا اللفظ فى العصور الوسطى من معنى مخالف لمعناه فى العصور الحديثة . أما صاحب هذه الترجمة الحرفية فهو القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٨ ، ٤٦) ، حيث ورد أن ديوان الإنشاء المملوكى بالقاهرة استعمل هذا اللفظ فى مكاتباته للمدن الإيطالية . انظر كذلك (Lammens : Corresp. Diplom. etc. p. 26 Extrait de la Revue de l'Orient Chrétien. 1904) (زيادة) .

(٣) هذا هو البابا الإنجليزى الوحيد فى تاريخ البابوية . (زيادة) .

ويأخذ بيد أصدقائه ، أو حين عاد إلى شمال إيطاليا مرة أخرى لاسترداد الحقوق الإمبراطورية التى ذهبت بسبب إهمال سلفه ، ولئن اعتقد فردريك أن هذه الأهداف فى متناوله دون صعوبة أو مقاومة ، فإن رحلته الأولى إلى روما سنة ١١٥٥م ما لبثت أن خيبت ذلك الاعتقاد ، وسرعان ما أدرك بنفسه قلة احترام الجمهوريين من أهلها للإمبراطور الذى خان زعيمهم المختار آرنولد البريشى ، وللبابا الذى أمر بإعدام ذلك الزعيم المحبوب حرقاً بالنار ، فإنه لم تكد حفلة التتويج الإمبراطورى تنتهى حتى هوجم الجيش الألمانى - المرافق للإمبراطور - مهاجمة عنيفة اضطرت فردريك إلى الانسحاب .

غير أن الزيارة الإمبراطورية الثانية ، سنة ١١٥٨ م ، هى التى أثارت النضال الطويل مع القومونات اللمباردية ، وهو النضال الذى افتتح بمرسومات مجمع رونساليا تلك السنة ، ولم يختتم إلا فى صلح البندقية بعد ذلك بسنين[١] ، حين اعترف الإمبراطور مكرهاً بهزيمته أوضح اعتراف . ومن عادة المؤلفين المتحمسين للقومية الإيطالية أن يعدوا ذلك النضال الشهير خطوة من خطوات الإيطاليين نحو الحرية ، ولا مشاحة فى ذلك ، فإن نفحات رائعة من الشجاعة والعزم ظهرت فى أثناء النضال ، لا فى ميلان فحسب — وهى المدينة الآهلة بالناس بالقياس إلى غيرها من المدن الكبيرة بشبه جزيرة إيطاليا — بل فى كثير من المدن الإيطالية الصغيرة ، التى وقفت وقفة المستميت للجيوش الإمبراطورية وأسلحتها ومعداتها الحربية الهائلة . فلما أن وقعت هزيمة فردريك وجيوشه على يد أهل ميلان فى وقعة لينيانو — وهى خاتمة النضال بين فردريك والمدن اللمباردية[٢] ، كان ذلك نذيراً لأوربا بمطلع عصر جديد سوف يحسب السياسيون فيه كل حساب للقوة الحربية فى الطبقة الوسطى . ثم بدا جديداً كذلك أن يصبح عدد من المدن الإيطالية عصبة تعقد الاتفاقات مع الهيئات المجاورة ، كما فعلت عصبة القومونات اللمباردية مع البابا والنورمانيين والبيزنطيين والبنادقة ، لأن هذا التكتل — على فرض إخفاقه — دل دلالة منبئة بأهمية المدن وسكانها فى السياسة الأوربية . ولكن من الخطأ

(١ ، ٢) انظر ما يلى ، ص ٢٠٣ . (زيادة) .

أن يقال بأن هذا النضال الطويل غدا فى نظر المعاصرين نضالا بين الأمتين الإيطالية والألمانية ، فإن الإيطاليين أنفسهم لم يكونوا إلبًا واحداً ، بل ظل كثير منهم – ولا سيما الأرستقراطية الألمانية فى لمبارديا – متعلقاً بأصله الألمانى القديم ؛ ووقفت بعض المدن الإيطالية إلى جانب الإمبراطور ، على حين انحاز بعضها الآخر إلى جانب البابا . ثم إنه ليس من العدل أن يقول أحد بأن فردريك ادعى لنفسه حقوقاً ليست له ، إلا أن يكون ملكاً يأخذ كل حقوقه غصباً ، إذ أفتى علماء القانون بجامعة بولونيا بأن مطالبـة من العصبة اللمباردية وغيرها من القومونات الإيطالية – حسبما ورد فى مرسومات ونساليا – لم تعد أن تكون حقوقه الموروثة ، على قاعدة أنه وريث الأباطرة الرومان .

واختلط نضال العصبة اللمباردية ضد الإمبراطور بمشكلة النزاع والتخاصم فيما بين الإمبراطورية والبابوية ، وهى مشكلة لا سبيل إلى تجنبها ما دامت آراء هلدبراند [١] باقية على حالها ، وفى العرش الإمبراطورى رجل يهوى أن يحكم إيطاليا حكمًا حقيقيًّا ، كما أنه لا سبيل إلى تعديلها أو تحويرها مهما تنوعت الأسباب المباشرة والمراحل المتعاقبة ، لأنها تدور حول مسألة السمو ، و « هل الإمبراطورية أو البابوية هى الأسمى ؟ » أو على قول المصطلح الإقطاعى فى ذلك العصر : « هل يتملك الإمبراطور وظيفته كأنها إقطاع من البابا ؟ » غير أنه من باب الحكمة فى السياسة أن يتجنب السياسى طرح الأسئلة الواسعة ، لأنه لم تكد تلك المشكلة تأخذ صورتها النهائية فى حلبة الجدل حتى تولدت عنها حشود من الخلافات الصغرى تولُّدَ الذباب فى حرارة الصيف ، كالقانون وإجراءاته ، والإدارة ومقتضياتها ، والكنيسة وسياستها الراهنـة . فهل من واجب الإمبراطور أن يقود فرس البابا ، وأن يمسك بركاب السرج حتى يركب ؟ وهل فى استطاعـة الإمبراطور قانوناً أن يعين الأساقفة ، أو يستولى على موجود [٢] الأسقفيات الشاغرة ؟ وهل من حقـه أن يأخذ مقرر [٣] الإقامة لجيوشه ، فضلاً عن مقرر [٤]

---

(١) انظر ما سبق ، ص ١٤٧ . (زيادة) .

(٢ ، ٣ ، ٤) تطلب النقل إلى العربية هنا شيئاً من الاستعانة بمصطلح التاريخ المصرى فى العصور الوسطى . لإيجاد المرادف لبعض الألفاظ الإقطاعية الواردة فى الأصل الإنجليزى . (زيادة) .

الضيافة لقصاده من مختلف الأقاليم ؟ والبحث فى تلك الأسئلة لا ينتهى ، ما عدا السؤال الأول منها ، إذ المعروف أن الأمراء الألمان لم يختلفوا فيه أى اختلاف ، بدليل ما حدث بمجمع بيزانسون بفرنسا فى أكتوبر سنة ١١٥٧ م ، حين وقف الكردينال رولان يسأل فى جرأة — وهو القانونى الضليع الذى ناب عن البابا هارديان الرابع فى ذلك المجمع — « ممن يتسلّم الإمبراطور إمبراطوريته إذا هو لم يتسلمها من البابا ؟ » ، فكاد يفقد حياته على يد الأمراء الألمان ، لولا أنه لاذ بالهرب .

وبعد سنتين من ذلك الحادث مات هادريان الرابع ، فانتخبت فئة من هيئة الكرادلة هذا الكردينال رولان للكرسى البابوى ، لما عُرف عنه من قوة الحجة فى الدفاع عن النظرية البابوية ، واعترافاً بفضله فيما تم من صداقة بين روما وصقلية ؛ وتلقب البابا الجديد إسكندر الثالث . غير أن الكرادلة الآخرين انتخبوا الكردينال الإمبراطورى أوكتافيان للبابوية—إما نزولا على رغبة الإمبراطور، أو خوفاً من رولان وأصدقائه الصقليين — وتسمىّ هذا البابا فكتور الرابع . ثم اشتكى الباباوان إلى فردريك ، فدعاهما إلى عرض شكاتهما على مجمع يعقد خصيصاً فى پاڤيا برياسته .

وهنا برهن إسكندر الثالث للعالم أن روح هلدبراند لا تزال نابضة ، إذ رفض الدعوة إلى مجمع پاڤيا ، وأبى أن يعترف بحضوره أن للإمبراطور حقاً فى رياسة مجلس من مجالس الكنيسة ، أو تصريف شأن من شئون الكرسى البابوى . فأجاب فردريك على ذلك بإعلان إسكندر الثالث عدواً للبابوية ، وردّ إسكندر الثالث بقطع الإمبراطور من الكنيسة ، وإحلال رعيته من واجب التبعية ، وأهاب بفرنسا أن تنصف البابا وتلجئه .

وجرَت النجوم فى مسالكها ، وهرعت إلى نجدة هذا البابا الداهية المتين ؛ فثار اللمبارديون فى وجه الإدارة الألمانية الظالمة . بعد خضوعهم لجبروتها بضع سنين ، وشجعتهم البندقية وصقلية والدولة البيزنطية بالمال ، فبنوا أسوار ميلان التى سوى فردريك بها الأرض قبلاً ، وأعادوا إليها أهلها الذين تفرقوا

بأشتات[١] البلاد . ثم حلت بالكنيسة رحمة عليا صيف سنة ١١٦٧ م ، بعد أن هبط فردريك على إيطاليا للمرة الرابعة[٢] بجيش كبير ، وفى عزمه أن يهدم مراقد الثورة ضده ، وهى روما التى اتخذ منها إسكندر الثالث بعد عودته إليها من فرنسا مركزًا لتوجيه حلفائه ؛ وصقلية التى غدت أكبر مصدر لما احتاجت إليه الثورة من مال . غير أن الحظ بسم أولا للإمبراطوريين ، إذ انهزم جيش البابا هزيمة كبيرة ، وانتهك الجيش الإمبراطورى حرمة كنيسة القديس بطرس ، ولاذ البابا إسكندر الثالث بالفرار ؛ وتتوج فردريك إمبراطوراً مرة ثانية على يد البابا فكتور الرابع ، ودخل أسطول من بيزا نهر التيبر معلناً قرب الاستيلاء على صقلية . وبعد ساعات من ذلك الإعلان قلب الحظ ظهر المجن ، وانتقمت حرارة الشمس للبابا إسكندر الثالث من الإمبراطور فردريك برباروسا أشد انتقام ، إذ اشتعل بالجيش الألمانى وباء مفاجئ لم يبق ولم يذر ، واضطر فردريك إلى النجاة بنفسه عبر جبال الألب ، بعد أن شهد زهرة الفروسية الألمانية طريحة الموت الوجيع الأليم ، فى ربى روما وسهولها المترامية .

ولم يستطع فردريك أن يفيق من تلك الضربة التى سددتها إليه المقادير ، حتى إذا جاء إلى إيطاليا للمرة الخامسة — سنة ١١٧٤ م — لم يكن لديه سوى جيش ألمانى صغير لا يكفل إعادة الأمور إلى نصابها . فلم يقو الإمبراطور على مغالبة أعدائه الذين أفادوا من شغله عنهم بألمانيا وشئونها سبع سنين . ثم دنت خاتمة النضال حين تهدم الجيش الألمانى الصغير أمام جيش كبير من أهل ميلان ، عند بلدة لنيانو ، فأدرك فردريك أنه لم يبق فى قوس الأمل منزع ، وعقد النية على مفاوضة البابا وإجابة طلباته . وتمت المقابلة بين فردريك وإسكندر الثالث فى اليوم الرابع والعشرين من شهر يولية سنة ١١٧٧ م ، بمدينة البندقية ، حيث توجد حتى العصر الحاضر ثلاثة ألواح من الرخام

---

(١) حملت هذه الأخبار فردريك على المجىء للمرة الثالثة إلى إيطاليا سنة ١١٦٣ م فى حاشية صغيرة ، حيث أصاخ بأذن صماء لشكاة المدن الإيطالية من ولاتها الإمبراطوريين ، ثم لم يلبث أن قفل راجعاً إلى ألمانيا فى السنة التالية . انظر (Brook : A History of Europe p. 445) . (زيادة)

(٢) انظر الحاشية السابقة .

الأحمر بمدخل كتدرائية القديس مرقس ، تخليداً للبقعة التى ركع عندها الإمبراطور أمام البابا ، ليحظى منه بقبلة الصلح والسلام . على أن المنظر خلف بالعقول ما هو أبقى من ألواح الرخام الأحمر ، إذ أيقنت الأجيال البشرية – لا أهل البندقية فحسب – أن القوة الحربية متاع الغرور ، وأن النصر للمبادئ الروحية فى شئون الإنسان . ومع هذا ، فالحقيقة التى لا ريب فيها أن فردريك فاز فوزاً عظيماً ، بالحصول على الصلح دون أن ينزل عن سبب واحد من أسباب الخلاف ، وأنه استطاع بعد هذا الصلح أن ينصرف لشئون ألمانيا وما جد عليها من عداء قريبه وتابعه هنرى الأسد [1] .

ذلك أن هنرى الأسد ظل يحكم دوقيتى سكسونيا وباڤاريا أربعاً وعشرين سنة ، دون أن يتدخل فردريك فى قليل أو كثير من شئونه فى الدوقيتين . ثم بدا فى أفق العلاقات بين الرجلين سحابة خلاف لم يتبين أحد أصلها ، على وجه التحقيق : هل كان أصلها أن فردريك اشترى ضياعاً وأراضى جولفية فى تسكانيا وباڤاريا ، وأن هنرى اشتهى تلك الأراضى لنفسه ؟ أو أن هنرى عاف الحروب والمغامرات الإيطالية بعد أن شبع منها ، فرفض مرافقة الإمبراطور فى حملته الخامسة إلى إيطاليا ، رغبة منه فى الانصراف إلى مشاغله الجسيمة فى الشمال ، حيث اقترن اسمه بتطهير الونديين [1] من الوثنية ، وصار له من الأثر فى توجيه حياتهم الجديدة ما لا تمحوه الأيام ؟ وكيفما كان أصل ذلك الخلاف فموضع الأهمية هنا أن هنرى الأسد – دوق سكسونيا وباڤاريا – رفض مرافقة قريبه الإمبراطور فردريك بربار وسا فى حملته الخامسة إلى إيطاليا ، فذاق فردريك مرارة الهزيمة فى وقعة حاسمة ، على حين كان هنرى من الغائبين عن ميدان القتال .

ثم أعقبت سحابة الخلاف فترة تراكمت فيها سحب العداوة تراكماً أدى إلى نتائج خطيرة فى تاريخ الألمانيين ، إذ كان بين الأمراء ورجال

---

(١) انظر ما سبق ، ص ١٩٧ – ١٩٨ . (زيادة) .

(٢) انظر ما سبق هنا ، ص ١٥٤ ، حاشية ٣ . (زيادة) .

الدين فى سكسونيا من يكره هنرى الأسد وغطرسته أشد الكره ، ويتمنى لو حانت الفرصة للتشفى منه والإلقاء به إلى الأرض . ولم يلبث أولئك الكارهون حتى وجدوا ثغرة ينفذون منها إليه ، فاتهموه تهماً معينة ، ولكنه لم يشأ أن ينزل إلى مذلة المثول بين قضاة يضمرون له السوء ، بل آثر أن ينزل ميدان القتال والفتنة الداخلية والعصيان . وما زال هنرى يحارب الإمبراطور حتى حلت به الهزيمة كما هو منتظر ، وجاء إلى فردريك خاضعاً ، فعاقبه عقاباً صارماً ، إذ نفاه عن ألمانيا وأرضها ، وصادر أملاكه كلها ما عدا مدينتى برنزويك ولونبروج . ثم قسم فردريك دوقيتى سكسونيا وباڤاريا بين بضعة من الإقطاعيين ، فخص أتُو وتلسباخ جزء من باڤاريا ، حيث تأسست أسرة ظلت قائمة حتى الثورة الألمانية سنة ١٩١٨ م ، عقب الحرب العالمية الأولى ، وهى أسرة هوهنزوازن .

ولمؤرخ أمريكى هنا وقفة بكاء واستبكاء على مقبرة الدوقية السكسونية التى كانت ، إذ تراءت له سكسونيا نواة لاتحاد ألمانى يجمع الدوقيات القبلية الكبرى فى دولة واحدة مزاجها البساطة والانسجام ،فتظل كل دوقية على سجيتها وقانونها التقليدى العام (land recht) الشامل لحقوق الحاكم فيها كائناً من كان ، أى أن تنبت العصور الوسطى سلفاً — فى قلب أوربا الإقطاعية — نظم الولايات المتحدة الأمريكية ومبادئها الجمهورية، برغم ما فى ذلك من تحميل الشىء ما ليس منه ، وبديهى أن مثل تلك النظم والمبادئ لم توجد ألبتة على عهد هنرى الأسد ، أو فردريك ذى اللحية الصهباء ، أو أضرابهما من الإقطاعيين . بل كيف توجد تلك النظم والمبادئ فى رأس هنرى الأسد ، وهو الإقطاعى الألمانى الذى ملأت عظمته الأسماع ، وتحدثت بجبروته الألسنة ، حتى إذا هدأت ثورته وحروبه ، وسمح له فردريك بالعودة من منفاه ، صار فى شيخوخته من المشغوفين بالفن والأدب والمعمار ، فبنى كتدرائية القديس بليز (St. Blaise) التى حرص أن يكون بناؤها تحفة الناظرين ؛ وهى لا تزال فتنة الزائر لمدينة برنزويك فى العصر الحاضر . غير أن هنرى الأسد لم يرع يوماً حقوق الغير فى معاملاته . كما لم يرع

أعداؤه الذين هدموا شامخ عظمته شيئاً من حقوق الغير فى معاملاتهم . وشبيه بذلك فردريك ذو اللحية الصهباء ، فهو برغم ما اتصف به من الشدة على المجرمين والمفسدين ، وبرغم ما امتاز به عهده من القوانين الجنائية الصارمة ، لم يظهر أى موهبة فى إنشاء شىء مما ينفع الناس ، حتى إذ خلا مسرح الحوادث من شخصيته الرائعة وضح أن عهده الطويل ، وما تخلله من وافر الإنعام على أصدقائه وبالغ القسوة على أعدائه ، لم يكن سوى مدخل نحو الفوضى الإقطاعية .

غير أن هالة من المجد أضاءت أواخر عهد فردريك إضاءة رائعة ، بزواج ابنه هنرى (السادس[1] فيما بعد) أواخر يناير سنة ١١٨٦ م من الأميرة كونستانس وريثة المملكة الصقلية ؛ إذ غدت الجزيرة وما فيها من ثروة وقوة جزءاً من متاع الهوهنشتاوفن ، بموجب عقد مكتوب وزيجة هانئة ، وهى الجزيرة التى تمنى فردريك الاستيلاء عليها قسراً بأى ثمن . والواقع أن تلك الزيجة التى نزلت من سماء الدبلوماسية – على غير انتظار – عوضت جميع ما لقى فردريك من مذلات على أيدى أهل روما ولمبارديا والبندقية ، فضلا عن البابا . وكيف لا يكون ذلك بعد أن أصبحت ألمانيا الشمالية – وزعماؤها الإقطاعيون العسكريون – طوع إشارة الإمبراطورية ، وبعد أن أمست صقلية وأموالها الوفيرة – وأسطولها العتيد وجيشها المؤلف من المسلمين – رهن مشيئة الإمبراطور ، مما سوف يجعل الجالس على العرش الإمبراطورى يملى إرادته على البابوات والقومونات الإيطالية ، فى غير خشية أو حساب . لكن البواعث التى جعلت من اجتماع هذه النعم صورة زاهية الألوان فى عين الهوهنشتاوفن الإمبراطوريين ، هى البواعث التى حملت البابوية أخيراً على إبادة تلك الأسرة من الوجود ، حتى إذا بدأ النضال بين البابوية والإمبراطورية مرة أخرى ، لم يستطع ذلك النضال إلا أن يكون طويلا مريراً ؛ وبذا حقق البابوات غرضهم باستئصال الهوهنشتاوفن ، وجذورهم وفروعهم . غير أن البابوية اشترت ذلك الانتصار بثمن باهظ ، وهو الخضوع لفرنسا ، مما أدى

---

(١) انظر ما يلى ، ص ٢٠٧ . (زيادة) .

– أثناء سنوات « الأسر البابلى » فى آڤينون – إلى تدهور اسم البابوية ، وإلى تطور الكنيسة نحو الإصلاح الدينى والبروتستانتية[1] .

على أن موضع الأهمية هنا أن اتحاد دولتى ألمانيا وصقلية خلق سلسلة من المشاكل ، لما بين الدولتين من الاختلاف السياسى ، فضلا عما بينهما من قطيعة جغرافية طولها شبه جزيرة إيطاليا ، فالملكية فى صقلية وراثية ، على حين هى فى ألمانيا انتخابية ؛ وفى صقلية اعتبر الملوك أن البابوية صاحبة السيادة الإقطاعية فى البلاد ، على حين أن ألمانيا رفضت كل الرفض أن تستمع لدعوى البابوية بأن البابا صاحب السيادة الإقطاعية على الإمبراطور . وفضلا عن ذلك صار من المتفق عليه أن رئيس أساقفة كولونيا هو الذى يتوّج الملك فى ألمانيا ، على حين جرى العرف التقليدى أن رئيس أساقفة بالرمو هو الذى يتوج الملك فى صقلية . ثم إنه إذا كره الصقليون قيام ملك ألمانى فى مملكتهم ، فلم يكن الألمان أقل كرهاً لما عسى أن تأتى به الأيام حين يستبدل ملك من ملوكهم بمدينة آخن وأجوائها القاسية مدينة بالرمو ونخيلها وأعنابها وحدائقها الوارفة الظلال ، بل حين تصبح شئون الإمبراطورية فى أيدى طائفة خليطة من المسلمين واليونانيين والإنجليز وخصيان البلاط ، وتغدو المصالح الألمانية فى المرتبة الثانية بعد مصالح الجزيرة الصقلية الضئيلة .

ولا ريب أن معظم هذه الصعوبات تراءى لبصيرة الإمبراطور هنرى السادس (١١٩٠ – ١١٩٧ م) ، بدليل ما ألقى ذلك الإمبراطور الذكى إلى الأمراء والبابا سلستين الثالث من اقتراحات توجب الالتفات ؛ وخلاصتها أن يوافق الأمراء والبابا على أن يكون العرش وراثيًّا فى أسرة الهوهنشتاوفن خالفاً عن سالف ، وأن يتوج البابا فردريك بن هنرى السادس وكونستانس الصقلية ملكًا على إيطاليا . وفى مقابل ذلك يقرر هنرى السادس للأمراء

---

(١) اجتاز المؤلف فى هذه الأسطر القليلة مرحلة عرضها قرنان من الزمان تقريباً ، وهى زاخرة بالحوادث التى غيرت مجرى التاريخ الأوربى . ولا حيلة للمترجم هنا إلا أن يظل مربوطاً إلى عربة المؤلف ، فيجتاز هذه المرحلة الشاسعة اجتياز المؤلف لها ، وينصح القارئ بالرجوع إلى كتاب واسع من كتب العصور الوسطى ، ليقرأ فيه تفصيل تلك الحوادث ، إذا شاء هو أن يستجلى لنفسه ما لم تتسع له هذه الأسطر القليلة . (زيادة) .

الألمان أن يجعل إقطاعاتهم وراثية فى ذوات الأرحام وفى الفروض ، وأن ينزل للكنيسة عن موجود[١] رجال الدين (fas spolii) المندرجين بالوفاة ، وهو شىء غير قليل من الدخل الإمبراطورى ، وأن يعترف للبابا أن الإمبراطورية إقطاع للإمبراطور من لدن البابوية خليفة المسيح فى الأرض . غير أن البابا والأمراء الألمان رفضوا تلك الاقتراحات ، وبذا انهار مشروع إدماج المملكتين الألمانية والصقلية فى تاج واحد انهياراً لا انجبار له .

والمؤرخ حين يستعرض حياة هنرى السادس لا يستطيع إلا أن يقف موقف الإعجاب والاشمئزاز — فى آن واحد — من شخصية ذلك الإمبراطور الماكر الكدود ، الذى خاله المعاصرون من زمرة العلماء المنصرفين عن الدنيا إلى العلم . ذلك أن هنرى السادس توفى سنة ١١٩٧ م ، ولم تزد مدة حكمه عن سبعة أعوام ، وقام فى تلك المدة على قصرها بكثير من الأعمال التى ينبئ بعضها عن عقل راجح وحكمة ، وبعضها الآخر عن وضاعة بالغة وقسوة . ويبدو هنرى السادس كذلك — فى سعة أطماعه السياسية وأساليب حملاته الحربية — من عباقرة السياسيين المجددين ، على أن موضع الأهمية فى حوادث حكمه لا يقف عند استيلائه على صقلية وشروعه فى الاستيلاء على القسطنطينية ، ولا عند تهدئته خواطر الجولفيين ، ولا عند استغلاله أسر رتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا ، من أجل الحصول على المال والسلطان . ولا عند جهوده فى مصادقة البابا ودعوته إلى حملة صليبية ضد المسلمين ؛ بل ينحصر موضع الأهمية فى أن هنرى السادس مات فى مقتبل العمر ، وأنه ترك ابناً صغيراً وهو فردريك هوهنشتاوفن ليخلفه ، وأن وجه العالم الأوربى تغير تماماً فى المدة الواقعة بين وفاة هذا الإمبراطور الداهية وبلوغ هذا الابن الصغير الرشد .

---

(١) هذا اللفظ مأخوذ من مصطلح التاريخ المصرى فى العصور الوسطى ، إذ تستعمله المراجع العربية ، مثل ابن واصل وبيبرس الدوادار والمقريزى وابن إياس ، بمعنى المتاع الخاص الذى يتركه الأمير الأيوبى أو المملوكى مثلا بعد وفاته ، وهو المعنى المقصود هنا . (زيادة) .

بعض المراجع لهذا الفصل

Cambridge Mediaeval History. Vol. V.

Freeman (E.A.) : Historical Essays (Frederic Barbarossa). 1892.

Giesebrecht (W. von) : Geschichte der Deutschen Kaiserzeit. (1881-8).

Gregorovius : History of Rome in the Middle Ages. Tr. A. Hamilton. (1894-1900).

Poole (A.L.) : Henry The Lion. Lothian Historical Essay. 1912.

Stubbs (W.) : Germany in the Early Middle Ages.

Thompson (F.W.) : Feudal Germany. 1928.

Tout (T.F.) : The Empire and the Papacy. 1903.

الفصل الثانى عشر

الحركة الفكرية والحركة الديرية فى العصور الوسطى

النهضة الفكرية فى القرن الثانى عشر الميلادى— الدراسات الطبية فى سالرنو — إحياء القانون الرومانى — القانون الإنجليزى العام — جامعة بولونيا — جامعة باريس — أصول جامعة أكسفورد — الحركة الجامعية فى العصور الوسطى الأديرة والحركة الديرية .

بينما أثرت الحروب الصليبية فى أحوال التجارة والسياسة ما أثرت فى غرب أوربا ، وهو شىء ليس بالقليل ، بدت الحياة الفكرية على أبواب تأثير من نوع أكثر عمقاً فى نتائجه مما حدث فى ميادين التجارة والسياسة ؛ إذ شهد القرن الثانى عشر الميلادى نهضة هى — برغم ضيق نطاقها — أشبه ما تكون فى حيويتها وإبداعها بحركة النهضة الأوربية الكبرى ، التى تفصل العصور الحديثة عن العصور الوسطى ، وذلك بما أحدثت من توسعة فى الأوضاع والتقاليد ، ذلك أن التعطش للمعرفة— وهو أحد الميول الغريزية فى الإنسان — أخذ مرة أخرى فى الظهور بغرب أوربا منذ القرن الحادى عشر الميلادى ، أى منذ بدأت الأحوال السياسية العامة فى الاستقرار ، وغدا التنقل آمناً بين البلاد ، وباتت كماليات العيش أسهل منالا من ذى قبل . ولذا دبت الحياة من جديد لدراسة القانون والطب والمنطق واللاهوت ، وعمرت السبل والمسالك المؤدية إلى البلاد التى اشتهرت بوجود مدرسين ممتازين فى هذه العلوم ، وامتلأت تلك السبل بأصناف الطلاب من شبان لم يبلغوا سن الحلم إلى رجال نصل رءوسهم الشيب . ثم تكوّنت نقابات من المتعلمين فى بولونيا وغيرها من المدن بإيطاليا ، وتكوّنت نقابات من المدرسين فى باريس وغيرها من المدن بفرنسا ، واستنبط كل من هاتيك وتلك مجموعة من القواعد واللوائح

لتنظيم شئونها . ومن هذه النقابات نشأت فكرة الجامعة ، التى جعلها بعض كتاب العصور الوسطى فى مرتبة البابوية والإمبراطورية ، من حيث الأهمية ، ولم يتردد بعض آخر من أولئك الكتاب فى اعتبارها قوة عالمية قيضها الله لهدى الإنسان وترقيته .

ومن غريب التناقض الظاهرى أن إيطاليا مقر البابوية والكرسى البابوى ظلت — طوال تاريخها فى العصور الوسطى — أكثر البلاد الغربية إمعاناً فى الدنيوية ، حتى إذا كان عهد تنشئة الجامعات فى أوربا فى القرن الثانى عشر الميلادى ، نشأت الجامعات فى إيطاليا بفضل عوامل وهيئات دنيوية ، وصرفت معظم نشاطها — لا كله — فى تنظيم دراسات دنيوية كذلك . على حين تولدت الجامعات بالشمال الغربى من أوربا عن مدارس تابعة للكتدرائيات ، ووجهت جهودها الرئيسية نحو دراسة اللاهوت ، والفلسفة اللاهوتية . وأول الجامعات التى نشأت فى إيطاليا جامعة سالرنو التى يرجع أصلها إلى العصور القديمة ، والتى اشتهرت فى العصور الوسطى بدراسة الطب من مؤلفات أبقراط وجالينوس ، مضافاً إليه ما جد من تجارب طبية فى مؤلفات أبى يعقوب إسحاق بن سليمان الإسرائيلى الأندلسى المتوفى سنة ٩٢٣م[١] . ومن السهل علينا أن نسخر من هذا الطب الذى عرفته العصور الوسطى ، وأن نهزأ لخلوه من أدنى معرفة بعلم التشريح ، فضلاً عن اختلاطه بالتنجيم ، وإصرار أصحابه على اعتبار مؤلفات أرسطو مدخلا ضرورياً للدراسة الطبية . غير أن ذلك الطب — على الرغم من هذا كله — هو الأصل الذى نبتت منه علوم النهضة الأوربية الكبرى ، وليس من المقبول عقلا أن يكون منهجه خلواً من جميع القيم التعليمية ، وهو المنهج الذى أضفى على دانتى تبحره العميق فى الفلسفة الأرسطاطالية ، وأثار فى جاليليو ولعه المشهود بدراسة الكواكب والنجوم .

وأهم من ذلك الطب ودراسته — من حيث النتيجة والأثر فى نهضة العصور الوسطى ما كان من إحياء لدراسة القانون الرومانى وشرحه على يد إرنيريوس ،

---

(١) انظر (Camb Med. Hist. Vol. VI. p. 562) ، لمعرفة ما كان للمؤلفات العربية التى كتبها أبو يعقوب هذا — فى القرن العاشر الميلادى — من أثر فى تطوير الدراسات الطبية فى أوربا المسيحية . (زيادة) .

أوائل القرن الثانى عشر الميلادى . مع العلم بأن تلك الدراسة لم تندثر أو تختفى بإيطاليا يوماً من الأيام . غير أن دراسة أهل العصور الوسطى لكتاب شرح الأحكام الرومانية[١] — مع دلالتها على كثير من التعمق واللباقة — لم تستند إلى قواعد علمية أكثر مما استندت إليه دراسة الطب فى تلك العصور . وذلك لأنها لم تعتمد على أسس تاريخية فى الشرح والتعليل . وعلى الرغم من ذلك تسنى للشريعة الرومانية من قوة التأثير فى السياسة والمجتمع خلال العصور الوسطى ما لم يتسن لغيرها من العوامل الفكرية فى تلك العصور . لا بسبب امتداد أصولها إلى القانون الكنسى الآخذ وقتذاك فى النمو . ولا بسبب الإصلاح الذى تم بفضلها فى تعديل النظم القانونية فى ألمانيا وفرنسا ، بل لأنها زخرت كذلك بطائفة كبيرة من المبــادئ الاستبدادية الأوتوقراطية التى لم يحجم كبار الفقهاء فى القانون بمدينة بولونيا عن الاستمداد منها . رغبة فى إحاطة المنصب الإمبراطورى — فى الدولة الرومانية المقدسة فى الأمة الألمانية — بمثل السمو المطلق الذى أحاط به رجال القانون — فى الدولة الرومانية القديمة — منصب الإمبراطور ، على عهد دقلديانوس وقنسطنطين . وفى أثناء النزاع والتخاصم فيما بين الإمبراطورية والبابوية أيد القانونيون المدنيون موقف الأباطرة من البابوات تأييداً منبعه أصول الشرائع الرومانية ، وقلما تردد ملك من ملوك أوربا فى التزود من تلك الأصول المبررة للحكم المطلق عن طريق علماء القانون المدنى ، وأولئك لم يبخلوا يوماً من الأيام بما توافر لديهم من نصوص وشروح مواتية .

غير أن الفقه الرومانى — على فحولته وقوة تأثيره — لم يستطع أن يبلغ من الأثر فى إنجلترا ما بلغه فى غيرها من سائر غرب أوربا . فى إنجلترا لم يتلق المشتغلون بالقانون علومهم فى الجامعات . حيث توافرت دراسة القانونين المدنى والكنسى ، بل تلقوها فى مدارس مهنية اسمها دور الحقوق (Inns of Court) وهو اسم لصق بها منذ تنشئتها لأول مرة فى لندن على عهد الإدواردين فى القرن الرابع عشر الميلادى ، وظل لاصقاً بها حتى العصر الحاضر . ولهذه الظاهرة

(١) انظر ما سبق هنا ص ٥٤ . (زيادة) .

– فيما يبدو – يرجع السبب الذى جعل القانون العام فى إنجلترا محتفظاً بكيانه الواقعى الحسى ، وجعل ذلك القانون قوة تجنح دوماً نحو الحرية ؛ لا نحو الاستبداد .

وفى جامعة بولونيا التى غدت كلية الحقوق بها أشهر الكليات الأوربية لدراسة القانون ، فى القرن الثانى عشر الميلادى ، قامت نقابة من الطلاب على شئون الإدارة ، فهى التى تختار الأساتذة وتدفع رواتبهم ما استطاعت ، وتتوقف عن دفعها إذا لم تستطع ، حتى بات الأساتذة أحياناً كثيرة – على قول الدكتور راشدال[1] – « فى حال أذل من الذاة » . ذلك أن هذه النقابة فرضت غرامة على الأستاذ إذا تأخر عن محاضرته دقيقة واحدة ، أو تجاوز الوقت المحدد للانصراف ، أو عبر نصاً صعباً ، أو فشل فى إنهاء ما شرطت الجامعة تدريسه من النصوص القانونية فى الوقت المحدد لتلك النصوص . وكانت لجنة من الطلاب اسمها لجنة تحذير الأساتذة (denunciatores doctorum) هى التى تراقب سلوك الأستاذ ، وتحيط المديرين علماً بكل مخالفاته ، فإذا أراد الأستاذ أن يتزوج سمحت له اللجنة فى شىء من التلطف أن يتغيب يوماً واحداً ، لا شهراً كاملا كالمعتاد . ثم أنقذت السلطات المحلية جامعة بولونيا من ذلك النظام المتناهى فى السماجة ، فأنشأت حكومة المدينة كراسى لأساتذة اختارتهم وأجرت عليهم الرواتب ؛ وما لبث أولئك الأساتذة – بعد أن صارت رواتبهم نظيمة وفيرة – أن يحتكروا التعليم المدنى تمام الاحتكار ، ثم ما لبثت الجامعة أن غدت أمراً مألوفاً وجزءاً لا يتجزأ من الحياة المدنية بأنحاء إيطاليا ، حتى إنه لم يبق من الدول الإيطالية الكبيرة أواخر العصور الوسطى دولة بغير جامعة .

أما جامعة باريس العظيمة ، وهى الجامعة التى صارت نموذجاً لسائر الجامعات بشمال غرب أوربا ، فاختلفت فى طابعها ونظامها تمام الاختلاف عن جامعة بولونيا . ففى جامعة باريس سادت دراسة اللاهوت لا القانون ،

---

(١) ألف الدكتور راشدال كتاباً كبيراً فى تاريخ الجامعات : وهو مثبت بقائمة المراجع فى ذيل هذا الفصل ، ومنه جاء الاقتباس الوارد هنا بالمتن . (زيادة) .

وبدأت الإدارة فى يد نقابة من المعلمين لا الطلاب . وإذا نشأت تلك النقابة من المدرسة الكاثدرائية بباريس ، وعاشت فى ظل الكاثدرائية نفسها — أى كثدرائية نوتردام — فإنها بقيت موضع الريبة مدة طويلة ، واعتبرتها الهيئات الكنسية المحلية هيئة غير مشروعة تريد القضاء على سلطات الأسقف ووكيله ورجال أسقفيته . وأيد تلك الريبة فى بعض النفوس ما امتلأت به باريس من فورة فكرية جامحة ، بسبب الحركة الجدلية الحرة التى أثار نارها بطرس أبيلارد . (١٠٧٩ — ١١٤٢ م) ، وهو الأستاذ البريتونى العظيم الذى مكن لباريس أن تصبح مركزاً للفكر الحر والبحث العلمى .

وما كان للكنيسة الكاثوليكية — وهى الهيئة الدينية الكبرى — أن تخشى خاشية وقتذاك من جدل الفلاسفة الجامعيين ، أو توجس خيفة من صوت هرطقة ما كاد يظهر حتى اختفى زمن القديس برنارد (١٠٩٠ — ١١٥٣ م) ، حين أرغم أبيلارد على النزول عن آرائه ، والذهاب إلى دير من الأديرة ، ليقضى بقية حياته فى أحضان السكون . وعندما صارت مؤلفات أرسطو فى متناول الدراسات الجامعية فى باريس — منتصف القرن الثالث عشر الميلادى — بذلت طائفة من رجال الدين جهداً جهيداً خالصاً ، لتطويع ما اشتملت عليه تلك المؤلفات الضخمة من واسع المعرفة القديمة والفكر القديم ، إلى أداة صارمة ماضية لتأييد المذهب الكاثوليكى وترسيخه فى القلوب .

ومن جامعة باريس تفرعت جامعة أكسفورد سنة ١١٦٨ م ، ومن أكسفورد نبتت كمبردج سنة ١٣٠٩ م . وإذا أردنا أن نستحضر الحياة الصاخبة التى درجت فيها الفئات الأولى من الطلاب والمعلمين الذين تمخضت عنهم الجامعات فى إنجلترا ، فعلينا أن نستبعد عن أخيلتنا مجموعة الأبنية الرائعة ، والكليات والمكتبات وحجرات المحاضرات ، وغيرها من المظاهر المعمارية التى تضفى على الجامعة الحديثة صفة الاستقرار والثبات . ذلك أن الطالب الإنجليزى — فى القرن الثانى عشر الميلادى — كان أشبه شىء بالجندى الصليبى ، كلاهما حاج على سفر يحمل ما خف حمله فحسب . وكلاهما ساع فى طلب العلم من منابعه ولو طال السفر والسعى . وإذ كان

التعليم وقتذاك بالمشافهة . وكانت اللاتينية اللغة المشتركة بين المتعلمين بأنحاء غرب أوربا ، ولم يوجد من الرواتب والأرزاق الجارية ما يربط أحداً إلى بلد دون غيره من البلاد ، أخذ المعلمون والطلاب فى التنقل من مدينة إلى أخرى ، ومن إقليم إلى آخر . تارة فرادى ، وتارة فئة قليلة العدد . وتارة فئة كثيرة شاملة لقوم من المعلمين والطلاب بنى جلدتهم جميعاً ، تنفيذاً لأمر ملكى يصدر إليهم . أو إعلاناً باحتجاج أو سخط على حيف نزل بهم ، شأنهم فى ذلك شأن إضراب نقابة من النقابات الحديثة — ضد أصحاب الأعمال ورءوس الأموال — ما عدا أن المعلمين والطلاب كانوا يهجرون البلد بقضهم وقضيضهم ، وكثيراً ما كان مثل هذه الهجرة نواة لجامعة جديدة .

تلك على الأقل — فيما يبدو — هى الحالة التى أدت إلى تكوين جامعة أكسفورد ، وإن لم ينهض الدليل التاريخى التام على صحة ذلك ، لأن أقصى ما نعلم لا يعدو أن طائفة كبيرة من المعلمين والطلاب الإنجليز رحلوا عن باريس سنة ١١٦٧ — ١١٦٨ م ، بناء على أمر أصدره إليهم هنرى الثانى ملك إنجلترا ، بسبب نزاعه مع لويس السابع ملك فرنسا ، وأن نقابة من الأساتذة الإنجليز — على غرار نقابة باريس — قامت سنة ١١٨٥ م فى أكسفورد ، حيث درس جيرالد الكامبرنسى (Giraldus Cambrensis) كتابه الخطط الأيرلندية (Topographia Hibernica) فى تلك المدينة . وإذا كان من الجلى أن قيام نقابة الأساتذة فى مدينة من المدن بغرب أوربا دليل على قيام المنظمة التعليمية (Studium Generale) التى هى الجامعة ، فليس لدينا دليل مباشر على أن المعلمين والطلاب الذين أعيدوا إلى إنجلترا من باريس استقروا فى أكسفورد بالذات . على أنه من المحتمل أن ذلك هو ما حدث ، وأن المطابقة الدقيقة الملحوظة بين نظام الجامعتين فى أكسفورد وباريس ترجع لذلك السبب . فى أكسفورد نشأت الجامعة تحت إشراف وكيل الأسقف ، مثلما حدث فى باريس ؛ وفى أكسفورد قامت الجامعة على نظام الأروقة الأربعة والعمداء الأربعة ، مثل باريس ؛ بل نشأت فى أكسفورد على مر الأيام كليات معدة للسكنى والدراسة ، على نمط كليات باريس . يضاف إلى ذلك أن

الجامعتين اشتهرتا دون غيرهما من الجامعات الأوروبية الأخرى بعلو الكعب فى الفلسفة المدرسية ، واجتذب كل منهما إليه الطلاب من أنحاء أوروبا .

أما جامعة كمبردج[1] الإنجليزية التى سلخت من أكسفورد ، وجامعة أورليان الفرنسية التى اشتهرت بدراسة القانون . وكذلك جامعة مونپلييه التى اشتهرت بدراسة الطب فى فرنسا . فتبدو كلها فى المحل الثانى من الأهمية بالقياس إلى ما للجامعتين العملاقتين فى باريس وأكسفورد من حظ فى الحياة الفكرية فى أوروبا خلال العصور الوسطى .

غير أن الحياة الفكرية فى أوروبا الوسيطة اختلفت عن نظيرتها فى العصور القديمة ، من حيث أصناف المتعلمين . ففى العصور القديمة اقتصر التعليم على طبقة النبلاء ، حتى صارت الثقافة والنبالة صفتين متلازمتين . ثم كان من سوء الحظ فى أوروبا الوسيطة أن افترقت هاتان الصفتان المحمودتان فى الإنسان افتراق النقيضين ، فغدت مهنة الفارس للحرب والصيد والقنص والطرد ، وغدا واجب المتعلم التعلم والصلاة . لأنه كان فى العادة من رجال الدين . ولذا لم تنشأ الجامعات فى العصور الوسطى لتهذيب الأرستقراطية العنيفة — بعد أن صارت إليها شئون الحكم فى أوروبا عقب غزوات المتبربرين — بل نشأت طواعية لحركة تلقائية تحت حماية الكنيسة وفى ظل إرشادها ، تلبية لمسيس حاجة المجتمع إلى أطباء ومحامين ومثقفين من رجال الدين . وتمخضت تلك الحركة عن جدل وضجيج ونقاش فلسفى بين المثقفين حول الواقعى والاسمى فى الوجود ، والعام والخاص فى الحياة ، دون أن يحفل بها الفارس النبيل المشغول بفروسيته ونبله ومقتضياتهما من الحروب والصيود . ولذا جاء الطلاب الذين هرعوا آلافاً إلى مختلف الجامعات الأوروبية من الطبقة الوسطى ، وما وليها من الطبقات فى المجتمع الأوربى فى العصور الوسطى . إذ رأى الفقير الطموح طريقاً مفتوحاً لمواهبه العقلية . وهنا لا يسع الباحث إلا أن يسأل مستفهماً : كم كان عدد الطلاب الذين استطاعوا متابعة خمسة

---

(١) هذا اللفظ نسبة لاتينية مشتقة من كلمة كامبريا (Cambria) ، وهى الاسم اللاتينى لإقليم الغال . (زيادة) .

أعوام أو ستة فى الآداب ثم اثنى عشر عاماً أو ثلاثة عشر فى اللاهوت ، وهى الأعوام المطلوبة للتخرج ؟ والجواب أن ساقطى الأستاذية فى الآداب ، وساقطى الدكتوراه فى اللاهوت ، فى العصور الوسطى ، ضارعوا فى كثرتهم عدد ساقطى البكالوريوس فى الآداب لجامعة كلكتا فى الهند زمن الحكم البريطانى . وعلى الرغم من ذلك لم تخل الحال الثقافية العامة فى العصور الوسطى من بعض الربح ، فبفضل الحركة الجامعية التى استنبطتها تلك العصور تكونت فى غرب أوربا قشرة رقيقة من الثقافة مزاجها قليل من اللاتينية وقليل من المنطق .

ثم كان من طبيعة الحركة الجامعية أن تأخذ فى النمو المضطرد ، من حيث الأهمية فى الدوائر الرسمية ، فضلا عن الاتساع فى التعليم ؛ فصار من المتواضع عليه أن البابا أو الإمبراطور لا غير هو الذى يمنح إجازة التدريس العام (Jus ubique docendi) ، وهى الإجازة التى أضحت سمة للمنظمة التعليمية أو الجامعة . وتبع ذلك أن حل عصر الهبات والأوقاف محل عصر التقشف الرسولى ؛ ففى سنة ١٢٥٢م أسس روبرت دى سوربون — إمام لويس التاسع ملك فرنسا — الكلية الأولى من الكليات الستين التى تأسست فى العصور الوسطى لإيواء الطلاب الجامعيين فى باريس ، وحذا حذوه والتر مرتون فى أكسفورد ، بعد بضع سنوات من ذلك التاريخ . ويستطيع زائر باريس فى العصر الحاضر أن يرى شارع دى فوار — على الضفة اليسرى لنهر السين — حيث عاش دانتى عيشة الطلاب بين المحاضرات وحجراتها فى كلية من تلك الكليات . بل يستطيع هــذا الزائر أن يدخل كنيسة القديس يوليان الفقير (St. Julienle Pauvre) وهى الكنيسة الصغيرة المتعة التى اتخذها الرعيل الأول من المتخرجين فى الآداب من جامعة باريس مكاناً لاجتماعهم . أما الكلية التى بناها روبرت دى سوربون فلم يبق منها إلا اسمها ، يطلقه الباريسيون على أبنية حديثة ليس فيها مسحة من جمال المعمار ، وهى جامعة باريس الحالية التى لم يبق من قديم كلياتها الستين التى أنشئت فى العصور الوسطى سوى الذكرى . وهنا كانت إنجلترا أحسن حظاً من فرنسا ، فلا تزال أبنية الكليات قائمة شامخة فى أكسفورد وكمبردج ، لتشهد بما انطبعت

عليه العصوى الوسطى فى إنجلترا وغيرها من البلاد بغرب أوربا من السخاء والتقوى .

تلك صورة عامة للحياة الفكرية بغرب أوربا فى العصور الوسطى . وهى تصف فى الواقع ناحية واحدة فحسب من نواحى المجتمع الأوربى الوسيط ، كما تصف الديرية وهيئاتها فى تلك العصور ناحية أخرى . وكانت الأديرة منذ نشأتها فى العصور الوسطى موضع النقد والإصلاح أحياناً غير قليلة ، وتعاقبت الهيئات الديرية فى غرب أوربا بعضها تلو بعض ؛ فظهرت شارترو بعد كلونى (Cluny) وجاءت سيتو بعد شارترو ، ثم حلت بريمونتريه (Prémontré) محل سيتو . وكلها بفرنسا وجميعها من حيث البداية والنهاية على وتيرة متناسقة واحدة ؛ وتلك أن كلا من هذه الأديرة بدأ فى فورة من الغيرة الدينية والحماسة ، وانتهى فى غمرة من النقص والانحلال . غير أنه مما يدعو إلى الالتفات أن أحداً فى تلك العصور التى اعتبرت العزوبة — على صرامتها — أفضل الفضائل الإنسانية ، لم يتعرض بكلمة واحدة لما يحدث للمجتمع من خسارة فى الرجال والنساء بسبب العزوبة التى تطلبتها الديرية ، ولم يدر بخلد أحد منذ أيام روتيليوس ناماتيانوس — الشاعر الرومانى الوثنى فى القرن الخامس الميلادى — أن يجادل فى قيمة الديرية ، أو يقول بأنها مدعاة للرجس والرذيلة فى الإنسان بعض الأحيان .

ويوضح السبب فى ذلك تمام الإيضاح أن الأديرة — فضلاً عن إيوائها أهل التقوى والنسك والهدوء من عواصف الحياة القاسية فى العصور الوسطى — أدت من الخدمات للمجتمع فى تلك العصور ما أضحى المجتمع الحاضر مستغنياً عنه ، أو قادراً على الوصول إليه من مصادر أخرى . فالدير كان فى كثير من الأحوال مركزاً لأعمال التبشير بالمسيحية فى بلاد وثنية ، ومصرفاً لإيداع الأموال ، ومنزلاً لراحة أصحاب الأسفار ، ومالكاً للأراضى المفتقرة إلى الإصلاح والزراعة ، ومقراً للتعليم والتوفر على العلم ، ومجمعاً للفنون والحرف والصناعات التى تتطلبها مؤسسة كبيرة مستقلة بشئونها وحاجاتها الكثيرة . والدير كان فضلاً عن ذلك كله ملتقى الأخبار السيارة وسجلها ، ومخزن المخطوطات

النادرة وحافظها . وهو كذلك مودع المسائل السياسية الخارجية منها والداخلية ، وأداة استصلاح الأراضى البور ، وسبيل إيصال المدنية إلى قفار الهمجية والوثنية . وما الخدمات التى قامت عليها الأديرة العظيمة فى فولدا وكورفيه بأطراف ألمانيا فى العصور الوسطى . والأعمال التى اضطلع بها الديريون السسترشيون (Cistersians) فى إسبانيا وشمال إنجلترا ، إلا من ذلك النوع ، إذ اجتمعت فيها صفات التبشير والتعليم وتملك الأراضى . والواقع أن امتدد المدنية وانتشارها فى شرق ألمانيا — وإسبانيا وشمال إنجلترا — يرجع فيما يرجع أولا لاندفاع تلك الطوائف المنظمة من الرجال والنساء المنقطعين للديرية نحو تلك الأقاليم ، فى شىء من القـــوة والجرأة والصبر على المكاره . ثم إننا ندين بكثير مما نعرف عن أوائل العصور الوسطى إلى كتب الحوليات التاريخية التى ألفها الديريون فى اللغة اللاتينية ، حتى إذا طلع القرن الثالث عشر الميلادى انتقل التأليف فى التاريخ من الديريين وأديرتهم إلى العلمانيين الذين أخذوا يضعون فى لغاتهم القومية ما يرون بأعينها من الأشياء ، ويسجلون ما يسمعون بآذانهم من الناس ، ومن ذلك النوع العلمانى التاريخ الرائع الذى كتبه ڤلهاردوين فى حوادث الحملة الصليبية المعروفة بالرابعة ، والترجمة الممتعة التى ألفها جرانڤيل فى سيرة القديس لويس التاسع ملك فرنسا فى القرن الثالث عشر الميلادى ، ثم الحوليات الفياضة التى جمعها فرواسار الفلمنكى فى تاريخ إنجلترا وفرنسا ، وڤيلانى الفلورنسى فى تاريخ فلورنسا فى القرن الرابع عشر الميلادى. ثم إذا شاء قارئ بعد ذلك مزيداً من تراث القرن الرابع عشر الميلادى ، فليقرأ فى سجلات القوانين المعروفة باسم التقارير السنوية الإنجليزية . حيث يجد أكداساً من أسفار فوق أسفار — لا مثيل لها فى الكمية — من لغة التخاطب الشائعة وقتذاك بين المتقاضين أمام المحاكم من الإنجليز . وهى لغة فرنسية محلية . على أن أهل الأديرة هم الذين دونوا أخبار القرون الواقعة بين الغزوات الجرمانية وقيام الجامعات فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى ، حين كانت مكتبية الدير (Scriptorium) دون غيرها آمن الأمكنة للدرس ، وكان الديرى الكاتب دعامة أساسية

للعلم . وإذا بدا كثير من عمل هذا الديرى ردىء الخط . أو قليل القيمة التاريخية ، أو طافحاً بالغباء ، فإن بعض الأخبار التى دونها لم تخل من الحيوية وجودة الإسناد . بل لم تعجز الأديرة عن أن تنجب مؤرخاً بمعنى الكلمة بين حين وحين . وقمين بالأجيال المتتالية منذ القرن الخامس الميلادى ألا تنكر ما تدين به لأديرة العصور الوسطى مثل مونتى كاسينو وبوبيو بإيطاليا ، وريخناو وسانت جال بسويسرا الحالية ، وكورڤيه وفولدا بألمانيا وبيك وميِت سان ميشيل بفرنسا . وجارو ، وسانت ألبانز بإنجلترا ، لأن الفضل فى كثير مما لدينا من معرفة . وفى غير قليل من معلوماتنا التاريخية كذلك ، يرجع إلى دأب أولئك الديريين الكاتبين الذين جهلت بطون المخطوطات أسماءهم ، مع أنهم هم الذين عكفوا على نسخ تلك المخطوطات المغلقة العسيرة القراءة تحت ضوء شمعة خافتة ، فى قلاية ملؤها البرد والزمهرير ، يبتغون أن تحظى جهود أقلامهم بمرضاة الله .

ثم تطورت المدنية الأوربية إلى مرحلة هى المرحلة الحاضرة ، حيث تغيرت أوضاع الأديرة فى المجتمع الأوربى تمام التغير ، مع بقاء ما بقى منها على حاله القديمة ووظيفته . ذلك أن أوقاف الأمراء والنبلاء على الأديرة لم تعد وسيلة كفيلة بالنجاة من عذاب الآخرة ، فانقطعت هذه الأوقاف وأشباهها عن الأديرة والديريين ، وبطل ذهاب الناس إلى الأديرة لسماع الأخبار ، بعد أن كفتهم الصحف اليومية وآلات الإذاعة مؤونة ذلك ، كما بطل ذهابهم إليها استجماماً أو طلباً للراحة والسكون ، بعد أن توافرت لديهم الفنادق والمستشفيات . أما التعليم فاضطلعت به الجامعات والمدارس ، وانتهت وظيفة المكتبية ، بعد أن أخذت المطابع فى طبع الآلاف من الكتب ، وقامت المكتبات ، على حفظها وصيانتها . وانتهت كذلك أعمال المواساة وتوزيع الإحسان على الفقراء من الأديرة ، وتحول أرباب الحكم إلى ينابيع جديدة ينشدون منها النصيحة والشورى فى الأمور السياسية . وصفوة القول أنه يصعب على السائح فى ريف إنجلترا مثلا أن يصور لنفسه وهو يجيل النظر فى أطلال دير من الأديرة القديمة بين المراعى الإنجليزية الجميلة — كيف كان ذلك الدير

الذى لم يبق منه قائماً إلا أطلاله الموحشة قطب دائرة الحيـاة الاجتماعيه فى إقليمه ، وحلقة هى أقوى حلقات الاتصال بين ذلك الإقليم والعالم الخارجى ، حين كان المجتمع على وجه التعميم أقل تعقيداً وأقل فى عدد السكان من المجتمع الحديث .

ومهما يكن من موقف المجتمع الحديث من الأديرة ، فسوف يظل هذا المجتمع حريصاً على الإفادة مما تقوم به الراهبات بالمجان من الخدمة الاجتماعية ، ولا تزال طوائف الراهبات فى البلاد الكاثوليكية تؤدى كثيراً من العمل الإنسانى الذى وجب عليها تأديته فى العصور الوسطى ، مثل خدمة المرضى ومواساة الفقراء ، وتعليم الصغار مبادئ القراءة والكتابة والدين ، وتلقين المشرفين على الموت أثناء احتضارهم صلاة استقبال الآخرة ولا يزال معظم تعليم البنات كذلك فى أيدى الراهبات ، ومعنى ذلك أن أولئك النساء الزاهدات لازلن يقمن فى العصر الحاضر – بما هو أعظم ما قامت به الديرية فى أوربا العصور الوسطى .

مراجع لهذا الفصل

Coulton (G.G.) : Five centuries of Religions 1923-27.

Coulton (G.G.) : Monastic Schools in the Middle Ages. 1913.

Coulton (G.G.) : The Mediaval Scenes. 1930.

Coulton (G.G.) : Mediaeval Studies. 1905-21.

Haskins (C.H.) : The Renaissance of the Twelfth Century. 1927.

Haskins (C.H.) : Studies in Mediaeval Culture. 1929.

Mallet (C.) : History of the University of Oxford. 1924.

Mullinger, (J.B.) : The University of Cambridge from the Earliest Times. 1873-84.

Poole, (R.L.) : Illustrations of the History of Mediaeval Thought and Learning. 1920.

Rashdall (H.) : Universities of Europe in the Middle Ages. 1895.

Waddell (Helen) : The Wandering Scholars 1927.

الفصل الثالث عشر

نمو المدن وحكوماتها فى العصور الوسطى

عادت حركة التجارة والصناعة فى أوربا الغربية — منذ أوائل القرن الثانى عشر الميلادى — إلى شىء من النشاط بعد الفتور الذى لزمها لعدة قرون ، بسبب المسلمين وسالف حروبهم فى البر والبحر . ولذا لم تلبث بعض المدن فى غرب أوربا أن نهضت نهضة مباركة ، مؤذنةً بنمو الحريات البلدية فى حكومتها ؛ فاستعادت المدن الرومانية القديمة بعضاً من ماضى عظمتها وثروتها ، بعد أن ظلت زمناً كالخالية من أهلها ، نتيجة انهيار تجارتها الخارجية ؛ وتطورت القرى إلى مدن مسوّرة ؛ وانتشرت ضواحى التجار ، وأرباب المهن والحرف . حول القصور الإقطاعية والقلاع ؛ وظهرت فى فرنسا أسماء جديدة مثل ڤيل نوڤ (Villeneuve) أى المدينة الجديدة ، وسوڤتيه (Sauveté) أى المعقل ، وباستيد (Bastide) أى المدينة النموذجية ؛ وهى مسميات تدلّ على حركة تجمعية لتكوين مدن جديدة ، فى طول البلاد الفرنسية وعرضها . ونتج عن هذه التطورات أمران على جانب من الأهمية كبير : إذ انتظم التجار والصناع فى مختلف المدن طوائف (نقابات) عكفت على المطالبة بشروط تضمن تثمير الأموال ، عن طريق التجارة والصناعة فى شىء من الاطمئنان . كالسماح بتضمين ما هو مقرر من ضرائب المدينة (Firma burgi) نظير مبلغ معلوم ؛ والإذن بتشريع ما يلزمها من قوانين محلية لتنظيم المعاملات ؛ والإعفاء من السخرات الإقطاعية الثقيلة ، والاعتراف بحق النظر فى القضايا غير الجنائية أمام المحكمة الخاصة بالمدينة داخل أسوارها ، فضلا عن حق اختيار الموظفين الإداريين ، وتحرير الأقنان الذين تتجاوز إقامتهم فى البلدة أو المدينة مدة سنة ، ولو لم يبلغ هذا التجاوز سوى يوم واحد . تلك على وجه التعميم خلاصة تقريبية للحريات والامتيازات التى امتلأت بها عهود المدن وبراءاتها الإعفائية (Charters) ، فى القرن الثانى عشر الميلادى ، مع الفوارق المتنوعة فى التفاصيل

والتحاميل . على أن البحث فى الوسائل التى حصلت بها المدن على تلك البراءات ، سواء بالنضال والثورة كما حدث فى لاءُون بشمال فرنسا ، أو عن طريق الشراء بالمال كما وقع فى لندن ، أو نتيجة التطور السلمى الناجم عن عملية النمو الطبيعى كما صار لكثير من المدن ، لا يساوى من الأهمية شيئاً ، بالقياس إلى معرفة ما استقام بغرب أوربا لجميع المدن الكبيرة — ومعظم المدن الصغيرة — فى مدارج الامتيازات والإعفاءات ، أواخر القرن الثانى عشر الميلادى . وأقصى هذه الامتيازات والإعفاءات وأعظمها الجمهورية المدنية التى حصلت عليها البندقية ومرسيليا ، ثم لندن على مقياس أصغر ؛ وأقلها ما حصلت عليه بعض المدن الريفية الصغيرة من السماح لها بتضمين الضرائب المقررة على أهلها ، ودفعها مرة واحدة بدلا من تحصيلها من أفراد السكان .

غير أن الإنسان مخلوق يحب التقليد والمحاكاة ، ولذا غدت الامتيازات والإعفاءات التى حصلت عليها بعض المدن الكبيرة — فى غير ضنانة أو تقتير من ناحية الملوك وأمثالهم من أرباب الدول — موضع المطالبة لدى مدن أخرى تقلّ عنها مقاماً وثروة . وهكذا أخذ سلطان الطبقة الثالثة[١] طريقه فى النمو الدائب ، منذ أخذت هذه الطبقة فى الظهور والتأثير فى الشئون العامة .

ثم اقتضت ضآلة المساحة وقلة الأمن فى مدن العصور الوسطى أن يكون للمدينة فى تلك العصور قلعة ، لحمايتها من المعتدين ، والدفاع عنها من المغيرين . كذا كان الحال بمدينة لندن التى لم يزد سكانها وقتذاك عن عشرين ألف نفس[٢] ، وكذا كان الحال بسائر المدن الإنجليزية التى لم تبلغ واحدة منها عشر معشار ذلك العدد من السكان ، وكذا كان الحال فى الأراضى المنخفضة — أى هولندا وبلجيكا الحالية — حيث جرت العادة حتى أواخر العصور الوسطى أن تنفق المدينة — على تقدير المؤرخ پيرن — ما لا يقل عن خمسة أثمان ميزانيتها العامة فى حفظ الأسوار وإعداد المعدات للحرب والدفاع .

---

(١) المقصود بهذا التعبير الاصطلاحى فى التاريخ العام طبقة الناس من أرباب التجارة والمهن المختلفة ، دون رجال الدين الذين هم الطبقة الأولى ، ودون النبلاء الذين هم الطبقة الثانية . (زيادة) .

(٢) يبلغ عدد سكان لندن فى العصر الحاضر حوالى عشرة ملايين نسمة ، وتبلغ مساحتها بإضافة ضواحيها إليها سبعمائة ميل مربع . (زيادة) .

وفى إيطاليا كذلك عكفت المدن الكبيرة على إقامة الحصون وتنظيم الجيوش . لأن الحروب لم تنقطع بين المدن الإيطالية المختلفة ، على الرغم مما غدا لشبه الجزيرة من زعامة مطلقة فى مختلف الصناعات والتجارة الدولية ؛ إذ قاتلت المدينة جارتها بسبب الخلاف على الحدود الإدارية والحقوق الإقطاعية ، أو بسبب الأسواق وضرائب الطرق والجسور ، أو بسبب التنافس على الأراضى الزراعية وغير الزراعية المجاورة (Contando) . أو بسبب المشاركة فى العداوات القديمة والضغائن المتوارثة بين البيوت الكبرى ، حتى أضحت الجيرة فى حدّ ذاتها من أقوى العوامل فى إثارة الأحقاد الطويلة الآماد . ويكفى أن تكون فلورنسا فى طرف من نزاع قائم ، لتكون بيزا وسيينا وجنوة فى الطرف الآخر من ذلك النزاع . وإذا تحالفت ميلان مع بعض المدن ، فلن تكون هذه المدن كريمونا وباڤيا أبداً ، لأنه لم يكن من المعقول أن تحالف ميلان عدوة الإمبراطورية مدناً ضالعة مع الإمبراطوريين . وشبيه بتلك الحال ما كان بين پيزا وجنوة من التنافس الذى ظلّ على أشده ، طالما ظل استغلال قورسيقا وسردينيا بينهما موضع الخلاف الشديد . ولهذا كله لم يكن هدف من الأهداف السياسية الجليلة الشأن هو الذى عين أغراض المدن الإيطالية المختلفة من التدخل فى مسألة النزاع والتخاصم فيما بين الإمبراطورية والبابوية ، فحسبُ فلورنسا أن تغدو من حزب البابوية والجولفيين [١] ، لتغدو جارتها سيينا فى جانب الإمبراطورية والجبلّينيين [٢] ، وإذا أضحت مدينة كريمونا جبلينية ، فلابد أن تضحى مدينة كريما جولفية . ومعنى ذلك أن النزاع والتخاصم فيما بين الإمبراطورية والبابوية هيج العداوات الداخلية القديمة بين المدن الإيطالية ، دون أن يخلقها ألبتة . لأن تلك العداوات — التى كان منها على سبيل المثال لا الحصر انتقامات العصبة اللومباردية (Consorzeria) من مدن الإمبراطوريين ، وحروب التوسع والمنافسة على المجال التجارى بين الجنوية والبيازنة ، فضلا عن حروب الكرامات والحزازات الفردية بين مختلف المدن — بدت كلها متأججة هائجة بين ربوع إيطاليا قبل أن تبدر بادرة من النضال العام بين الإمبراطورية والبابوية . والواقع

(١ ، ٢) انظر ما سبق هنا ، ص ١٩٦ . (زيادة) .

أن ذلك النضال السياسى الهائل لم يكن له من الأثر فى المدن الإيطالية سوى أنه صبغ ضغائن قديمة بصبغة جديدة . وسعر نيراناً كان سعيرها القديم لهيباً ، بدليل أن كلّ مدينة من تلك المدن استطاعت أن تجعل من سكانها جنداً من الخيالة والرجالة المنظمة ، غداة دخولها ذلك النضال .

وعلى الرغم من ذلك خطت التجارة والصناعة بمختلف المدن الإيطالية — فى القرن الثانى عشر الميلادى — خطوات متواصلة . فأخرجت دار الصناعة فى كل من البندقية وجنوة أساطيل بحرية للحرب وحمل المتاجر . وبلغت هذه الأساطيل من ضخامة العدد وسرعة الإنجاز ما لو شهده أحد من الجيل السابق للحملة الصليبية المعروفة بالأولى ، لامتلأت عينه تعجباً ودهشة . ولم يقتصر ذلك التقدم على إيطاليا فحسب ، بل تعدّاه إلى غيرها من البلاد ؛ فى فرنسا أصبحت الأسواق السنوية الستة بإقليم شامبانيا مراكز رئيسية لتبادل السلع وتسوية الديون الدولية ؛ وغدت تلك الأسواق ملتقى التجار من أنحاء غرب أوربا ، منذ أواسط القرن الثانى عشر الميلادى . وفى سنة ١١٢٧ م حصلت مدينة سانت أومر بإقليم الفلاندرز عن براءاتها الإعفائية ، فكانت هذه أول حلقة فى سلسلة طويلة من البراءات الدالة على مبلغ الثراء الذى نعمت به المدن الفلمنكية جميعاً . وفى القرن الثانى عشر الميلادى كذلك أخذت أقمشة إقليم فريزيا وأقمشة مدينة أوجزبرج —والأصواف الخام من إنجلترا ، والمنسوجات الحريرية من باريس ، تحرز شهرة دولية ، بقدر ما لكلمة الدولية من معنى فى العصور الوسطى .

وبلغ أذواق الفلاندرز من المهارة والحذق — فى تلك العصور — ما جعلهم يدركون قيمة النقد الثابت والعيار الواحد فى الموازين والمكاييل ببلادهم ، وذلك حين كان علم الاقتصاد السياسى فى طىّ الغيب البعيد . ومن ثَمّ أخذت بعض المدن مثل غنت وبروج بالفلا ندرز — وكولونيا وهمبرج بألمانيا — تشقّ طريقها نحو العظمة والظهور ؛ وتأسست ميناء لويباك بشمال ألمانيا على البحر البلطى ، سنة ١١٤٣ م ؛ وأضحت مدينة لندن من ضخامة الثروة — فى عهد الملك ستيفن منتصف القرن الثانى عشر الميلادى — ما جعل زائراً إيطاليًّا يشيد بما صار إليه تجارها من وافر المال ، فضلا عن شامخ السلطان . ونتيجة

لذلك كله غدت أنهار الدانوب والراين ، والرون والسين ، سبلا سابلة لتنشئة العلاقات التجارية بين أنحاء العالم المتمدين . وتوضحت مبادئ النظام الاقتصادى الذى ثبتت على معالمه أوربا حتى كشف القارة الأمريكية ، أى حتى أوائل العصر الحديث .

غير أن المدن الأوربية التى خطت تلك الخطوات الرائعة فى طريق الحياة ، بفضل ما امتازت به من قوة الاعتماد على النفس وحرية التنظيم النقابى ، أثناء القرن الثانى عشر للميلادى ، لم تتشابه فى مصائرها النهائية ، بل اختلف مصير كل منها عن الأخرى تمام الاختلاف . ففى إنجلترا اندمجت المدن فى نظام برلمانى قومى حدّ من استقلالها ، ولكنه زاد من فائدتها ؛ وفى فرنسا بدأت المدن بحركة قومونية[1] ، وانتهت بالرضوخ لسلطان الملوك . أما فى ألمانيا وإيطاليا ، فلم توجد حكومة مركزية تستحق الذكر ، فلا ملك مهيمن على شئون المدن ، ولا برلمان ضابط لنواحى النشاط المدنى . وهذا هو السبب الذى أدى بالمدن أن تبلغ — فى ألمانيا وإيطاليا — أقصى ما تستطيع من قوة واستقلال فى العصور الوسطى ، حتى صار عدد منها دولاً داخل الإمبراطورية ، وألف بعضها اتحادات للتجارة والحرب ، وأنزل بعضها الآخر بالإمبراطورية نفسها هزيمة ساحقة . ومن هذه الصور وما تحتها من ألوان الحياة التى امتلأت بها المدن الإيطالية ، ومن أنواع النشاط الذى أسهمت به عصبة المدن الهنسية[2] فى التجارة وفن العمارة بشمال ألمانيا ، من ذا الذى يقول بعد هذا كله بأن انهيار المركزية وحكومتها الإمبراطورية — الشاملة لإيطاليا وألمانيا — كان كارثة على الجنس[3] البشرى ؟

أما عصبة المدن الهنسية فأيام عظمتها هى القرن الرابع عشر الميلادى ، حين كانت نقابات التجار وسيطرتها فى مدن البحر البلطى لا تزال بنجوة من عوامل الفتنة الداخلية ، وذلك قبل أن يغير كشف العالم الجديد طرق التجارة

---

(١) انظر ما سبق هنا ، ص ١٩٩ ، حاشية ١ . (زيادة) .

(٢) انظر ما يلى بهذه الصفحة ، وما بعدها . (زيادة) .

(٣) يشير المؤلف هنا إلى ما سبق أن أشار إليه فيما سبق (ص ١٤٠ – ١٤٢) من عقم المحاولات الألمانية فى توحيد ألمانيا وإيطاليا ، تحت تاج إمبراطورى ألمانى واحد . (زيادة) .

الأوربية ، وقبل أن ينشئ الإنجليز لأنفسهم أسطولا تجاريًّا . فى القرن الرابع عشر الميلادى سنحت الفرصة للتاجر الألمانى — دون غيره من التجار — أن يصبح وسيط المبادلة والمتاجرة بين بلاد الشمال الغربى من أوربا ؛ وكثر عدد التجار الألمان الذين أيسروا من حمل الأصواف الخام من إنجلترا ، والأقمشة الصوفية من إيطاليا ، والغلال من شمال فرنسا ، والأنبذة من غسقونيا ، والفراء الثمينة من البلاد السكندناوية ، والمنسوجات الرفيعة من الأراضى المنخفضة ، والأسماك من مياه البحر البلطى . والواقع أن التجار الألمان وأشباههم من تجار البلاد الأوربية الواقعة شرقى إنجلترا — وهم الذين أطلق عليهم الإنجليز اسم إيسترلنج (Easterling) أى الشرقيين ، غدوا عاملا هامًّا فى تجارة إنجلترا الخارجية ، بل أصبحوا شخصيات مألوفة فى لندن قبل بداية القرن الرابع عشر الميلادى . وبلغ أولئك التجار من الثراء والاستقرار بنقاباتهم (Hans) الخاصة بهم فى لندن ، وبالغرفة التجارية (Guild Hall) الخاصة بالعاصمة الإنجليزية نفسها ، أن صيغة مختزلة من لفظ إيسترلنج — أى إسترليني (Sterling) — صارت علماً على الوحدة الذهبية فى النقد الإنجليزى ، حتى العصر الحاضر .

غير أنه لا ينبغى أن يتبادر للذهن أن التجارة كانت آمنة أو سهلة لدى التاجر الألمانى فى تلك العصور ، فالبحار لم تكن خالية من القراصنة ، والطرق لم تكن خالية من اللصوص ، وهؤلاء وأولئك بالإضافة إلى النبلاء الإقطاعيين ، أصحاب المكوس والمقررات الباهظة على الجسور والمعادى التى يمر عليها التاجر بتجارته . وفضلاً عن هذه المعاثر الكثيرة سيطر الدانيون بشبه جزيرتهم (الدانمرك) على مضيق السوند الواصل بين بحر الشمال والبحر البلطى ، وجعلوا من وضعهم الجغرافى العاصف شجًى فى حلق ألمانيا ، ومصدراً لإيذاء السفن الألمانية المستخدمة فى التجارة وصيد الأسماك . ولذا وجب على التجار الألمان أن يأخذوا الدانيين المزعجين بشىء من السياسة ، وأن يحيطوا محطات التجارة الألمانية فى إنجلترا وإسكندناوة بشىء من الامتيازات عن طريق الشراء بالمال ، وأن يؤمنوا سفن التجارة وصيد السمك ببعض وسائل التأمين . غير أن القيام على تلك الواجبات لم يكن فى مقدور مدينة من المدن الألمانية بمفردها ، بل تعين عليها جميعاً أن تتحد ، وأن تعتمد على اتحادها كل الاعتماد ، لأن الإمبراطور

كان معظم الأحيان فى شغل بشئون الإمبراطورية فى إيطاليا البعيدة ، ولأن دوقية سكسونيا بشمال ألمانيا — وهى الدوقية التى طالما حمت المتاجر والمصالح الألمانية عموماً من عادية الدانيين وغير الدانيين بحكم وضعها الجغرافى — لم تعد فى شيء من سالف قوتها وهيبتها بعد موت هنرى الأسد[1] . ومع هذا كله لم تستجب طوائف التجار إلى نداء المصلحة إلا بعد تردد طويل ، ومفاوضات أطول ، فاتحدت لوبيك وهمبرج أخيراً سنة ١٢٤١ م ، وأخذ ذلك الاتحاد يتسع رويداً رويداً حتى شمل محيطه جميع المدن الهامة من نوفجورود فى روسية إلى بروج ببلجيكا الحالية . غير أنه ظل اتحاداً من التجار فحسب ، ولم يكن لنبيل من النبلاء الإقطاعيين أو صاحب مهنة من المهن الصناعية الناهضة شيء من السلطان فى هذه الجمهوريات المدنية التجارية ، ولم يظهر من برلماناتها رجل ذو عبقرية سياسية كبيرة ، بل لم يصبح تجارها من أهل السياسة إلا صدفة واضطراراً لحل المشاكل الخاصة بالتجارة . ثم إنه لا يوجد لدينا ما يحمل على الظن بأن أولئك التجار فكروا يوماً من الأيام فى تكوين اتحاد سياسى دائم ، يشمل البلاد الواقعة على البحر البلطى ، وينهض بأعباء شئونها العامة ؛ بل قنعوا بمعالجة الشئون التجارية التى تعرض لهم ، دون أن يجعلوا لاجتماعاتهم أوقاتاً معينة ، أو يلتزموا عدداً معيناً لعقد تلك الاجتماعات ؛ بل لم يقم أولئك التجار بدور حاسم فى سياسة البلاد الأوربية الشمالية إلا مرة واحدة ، حين اصطدمت مصالحهم بمصلحة فالديمار الثالث ملك الدانمارك ومطامعه ، وخاضت جيوشهم ضده حربين شهيرتين فى تاريخ العصبة الهنسية . ثم انتهى القتال بين الفريقين المتحاربين سنة ١٣٧٠ م ، بمعاهدة سترالسند ، وهى المعاهدة التى جعلت للعصبة المظفرة حق الإشراف على مضيق السوند ومصايد الأسماك فى البحار المجاورة ، فضلا عن حق التدخل فى اختيار الملك بالدانمارك ، وبدا كأن إمبراطورية تجارية مركزها مدينة لوبيك توشك أن تتأسس على شواطئ البحر البلطى . وكانت لوبيك زعيمة بتلك المكانة لو أن إمبراطورية حلت محل العصبة الهنسية بشمال أوربا ، بدليل ما كتبه السائح الإيطالى الموهوب

(١) انظر ما سبق ، ص ٢٠٤ — ٢٠٥ . (زيادة) .

إنياس سلفيوس سنة١٤٥٨م: «إن لوبيك بلغت من وفرة الثروة والقوة ما جعل كلا من الدانمارك والسويد والنرويج يرى من الطبيعى أن يكون تعيين ملوكها أو عزلهم رهن مشورتها المحلية» . غير أن حلم الإمبراطورية أو ما يشبه الإمبراطورية بشمال أوربا لم يتحقق ، لأن العصبة الهنسية لم تستطع أن تنجب عبقريًّا من بناة الدول مثل روبرت كليف الذى أنجبته شركة الهند الشرقية ، ولأن روح التعاون فى ألمانيا العصور الوسطى لم تستمر فى مستوى ثابت أو مثمر ، بأية جهة من الجهات الألمانية يوماً من الأيام .

وفى النصف الثانى من القرن الخامس عشر الميلادى أخذت عصبة المدن الهنسية تمشى فى طريق الانحلال تدريجاً ، حتى ذهب عنها سلطانها ومغناها ؛ إذ حولت الأسماك أنوفها المونقة عن شواطئ البحر البلطى إلى شواطئ بحر الشمال ، فغدت مصايد الجزر البريطانية مصدر العيش الحلال لأجيال وأجيال من الصيادين الإنجليز والإسكتلنديين ، واختفى التجار الإيسترلنج من ميادين التجارة البريطانية ، وحلّ محلهم تجار بريطانيون . وفى أواخر ذلك القرن تطورت الأوضاع السياسية تطوراً غير ملائم لمصالح الشركة العامة للتجار الألمان (General Company of German Merchants) ، وهو الاسم الرسمى لعصبة المدن الهنسية ، فطغت سلطات الملكيات السكندناوية — وغيرها من الملكيات الشمالية — على سلطات أرباب المدينة من تلك المدن . بل تبين أن ولاء الواحدة من تلك المدن للمملكة التابعة لها أقوى بكثير من ولائها لاتحاد لم يكن فى الواقع ونفس الأمر إلا شركة تجارية ، متحاسدة متنافساً أعضاؤها بين بعضهم وبعض ، برغم ما بينهم من مصالح متعددة ومنافع مشتركة . ثم ما ابث كل من براندنبرج وبرجنديا والسويد أن قضى على عصبة المدن الهنسية ونفوذها فى إقليمه ، حتى إذا انتهى القرن الخامس عشر الميلادى أمست تلك العصبة ومدنها فى حال بعد حال .

ولو كان بين الممالك السكندناوية وحدها شىء من الرابطة فى اتحاد متين ، لاستطاعت أن تناهض التقدم التجارى بشمال ألمانيا فى العصور الوسطى مناهضة خطيرة . لكن اتحاداً حقيقيًّا بين الممالك السكندناوية

لم يوجد ألبتة ، اللهم إلا اتحاد كالمار (١٣٩٧ – ١٥٢٣ م) ، حين غدت الدانمارك والسويد والنرويج كلها تحت التاج الدانمركى . ومع هذا لم يكن حكم الدانمرك نافذاً أو خالياً من المقاومة فى السويد ، بل تطورت المقاومة السويدية ضدّه إلى حركة ثورية عنيفة ، وألقى السويديون نير التبعية الدانية عن عواتقهم وسط حوادث جعلتهم يبغضون الدانيين بغضاً لا تمحوه الأيام . ذلك أن الملك الطاغية كرستيان الثانى – ثالث الملوك من أسرة أولدنبرج الألمانية التى حكمت فى كوبنهاجن منذ سنة ١٤٤٨ م – ظنّ أنه يؤسس للحكومة الدانية فى السويد – وهى حكومة أعوزتها مبادئ الثقة والمهابة – إذا هو دبر لأعدائه السويديين مذبحة تجهز عليهم أجمعين ، فى غير شفقة أو هوادة ؛ فكان له ما دبر فى يوم شهدته مدينة أستوكهلم وهى فى بحر من الدماء . غير أن السويد لم تلبث أن انتقمت لنفسها من تلك الجريمة الشنيعة ، إذ قام شاب من شبانها – وهو جستاف إريكسون الذى عُرف فيما بعد باسم جستاف ڤازا – على رأس مواطنيه من الفلاحين السويديين لطرد الأجنبي عن البلاد . وكانت قيادة هذا الشاب السويدى حرب التحرير (١٥٢٠ – ١٥٢٣ م) هى التى جعلت منه مؤسس أسرة قومية مالكة ، وأذنت للسويد بعصر البطولة فى تاريخها ، مثلما أذنت أعمالٌ شبيهة للزعيم وليم ولاس بعصر الكفاح الإسكتلندى ضد الإنجليز [١] .

بعض المراجع لهذا الفصل

Ashley (W.J.) : Economic Organisation of England. 1914.
Gross (C.) : The Gild Merchant. 1890.
Lodge (R.) : The Close of the Middle Ages. 1923.
Pirenne (H.) : Histoire de Belgique. 1909.
Pirenne (H.) : Mediaeval Cities, their Origin and the Revival of Trade. Tr. H.P. Halsey. 1925.
Schaefer (D.) : Die Hanse. 1903.
Sismondi (J.C.L.) : History of the Italian Republics. (Everyman's Library). 1907.
Zimmern (H.) : The Hansa Towns. 1889.

(١) انظر الفصل التاسع عشر ، فيما يلى بالقسم الثانى من الكتاب . (زيادة) .

الفصل الرابع عشر

البابوية والبابا إنوسنت الثالث

بلوغ البابوية أوج سلطانها زمن البابا إنوسنت الثالث — الإحياء الإنجيلى — القديس فرنسيس — تحدى الألبيجنسيين سلطان البابوية— القديس دومنيك — الفرنسسكانيون والدومنيكانيون — هرطقة يواقيم الفلورى وسيجر البرابانتى — انتصار الكنيسة على نقادها :

شهدت مطالع القرن الثالث عشر الميلادى حلم السيادة على العالم يبعث بعثاً جديداً فى سياسة أحد البابوات ، بعد أن خيل للناس أن ذاك الحلم ذهب بذهاب الإمبراطور هنرى السادس[1] سنة ١١٩٧ م . وهذا البابا هو إنوسنت الثالث ، الرومانى المعتز برومانيته العريقة المتكبرة ، والقانونى الضليع فى القانون الكنسى ؛ وهو الذى اقتعد الكرسى البابوى منذ السابعة والثلاثين من عمره ، واستغل ما غشى نجم الإمبراطورية من أفول مؤقت ، فرفع من شأن البابوية وسلطانها إلى أعلى عليين . هذا هو البابا الذى فرض الكنيسة الرومانية الكاثوليكية فرضاً على القسطنطينية وكنيستها الأرثوذكسية ، ولم يتهيب أن ينزل الحرمان الدينى بإنجلترا وفرنسا ، أو أن يبدأ أعظم الحروب الصليبية الإسبانية نجاحاً ضد دولة المسلمين الموحدين[2] ، أو أن يحصل من ملوك إنجلترا وأراجون والبرتغال على الاعتراف بأنهم يتولون حكم بلادهم إقطاعاً من الحضرة البابوية . وهذا هو البابا الذى لم يحجم عن إصدار القرار بحرمان حنا ملك إنجلترا من رحمة الكنيسة ، حتى إذا أقرّ الملك بخطيئته وأمسى خاضعاً للبابوية ، التفت البابا

---

(١) انظر ما سبق ، ص ٢٠٧ — ٢٠٨ . (زيادة) .

(٢) يشير المؤلف هنا إلى نجاح البابا إنوسنت الثالث فى إثارة ملوك أوربا لمساعدة ألفونس الثامن ملك قشتالة ، فى حملة صليبية أوربية ضد الموحدين أصحاب إسبانية الإسلامية وقتذاك ، وهى الحملة الصليبية التى انتهت بهزيمة الموحدين فى وقعة لاس نافاس دى تولوزا ، سنة ١٢١٢ م .
(Orton : A History of Europe. Methuen. p. 152) . (زيادة) .

إلى البارونات الذين ثاروا ضد حنا حتى استكتبوه العهد الأعظم ، فضرب أولا بالعهد الأعظم عرض الحائط ، ثم أصدر قراراً بحرمان أولئك البارونات كذلك من رحمة الكنيسة ، فى غير وجل أو خشية . وهذا هو البابا الذى طرد الألمان من أواسط إيطاليا وصقلية ، وحفظ حقوق وصيه فردريك بن هنرى السادس فى مملكة صقلية ، وأثار حرباً أهلية مروعة فى ألمانيا ، وأخذ من ثمّ يعين الأباطرة ويعزلهم وفقاً لشروط ملائمة للكنيسة ، وما زال يعمل فى القضاء على الهرطقة الألبيجنسية [١] التى انتشرت بجنوب فرنسا حتى هدمها وأهلها ، وهدم بذلك حضارة شعب ذى همة ونشاط [٢] .

وهذه الأعمال الدنيوية المتشعبة توحى بأن بابوية إنوسنت الثالث ثيوقراطية استبدادية ، تقبلها الناس فى ذلة وخنوع . غير أن هذا القول ليس من التاريخ فى شىء ، لأنه مع التسليم بأن الحقوق التى ظل إنوسنت يدعيها لمنصبه السامى لم تعرف حدّاً ، فالسرّ فى ذلك الادعاء أنه اعتقد اعتقاداً حرفيًّا أن البابوية خليفة المسيح فى الأرض ، وأن البابا ملك فى أمور الدين والدنيا ، مثل مَلكى صادق (Melchisedec) الذى جاء ذكره فى سفر التكوين بكتاب العهد القديم[٣] . ومعنى ذلك عند إنوسنت الثالث أن للبابا السلطة المطلقة فى كل شىء ، (plenitudo potestatis) ، ومن حقه أن يكون اختيار الأباطرة وقفا على مشيئته ، مثله فى ذلك مثل البـــابا ليو الثالث الذى نقل الإمبراطورية من البيزنطيين إلى الفرنجة فى شخص شرلمان .

---

(١) الألبيجنسية حركة دينية ظهرت بجنوب فرنسا أوائل القرن الحادى عشر الميلادى ، وهى تنكر على الكنيسة الكاثوليكية ورجال الدين ما انغمسوا فيه من مباذل ومفاسد وقتذاك . واشتقت هذه التسمية من كلمة (Albi) ، وهى مدينة بأقصى الجنوب من فرنسا الحالية ، لانتشار الحركة منها إلى غيرها من البلاد الفرنسية الجنوبية . ولهذه الحركة تسمية أخرى ، وهى الكاثريين (Catharists) أى المتطهرين ، لأن أتباعها دعوا إلى التطهر والتخلص من الشر والخطايا الناجمة عن التعلق بالدنيوية والاستسلام للماديات ، وحرموا على أنفسهم التملك والزواج وأكل لحوم الحيوان وسفك الدماء . (انظر ما يلى ، ص ٢٣٨ — ٢٣٩) . (زيادة) .

(٢) عمد المؤلف هنا إلى إحصاء أعمال البابا إنوسنت الثالث كلها فى عبارات مختصرة سريعة ، مما سوف يشرح بعضه فيما يلى بهذا الفصل ، مثل الهرطقة الألبيجنسية (ص ٢٣٧ — ٢٣٨) هنا ، وفى ص ٢٤٩ كذلك . على أن معظم هذه الأعمال البابوية يتعلق بتاريخ إسبانيا وألمانيا وفرنسا ،

(٣) انظر العهد القديم : سفر التكوين الإصحاح الرابع عشر ، ١٨ — ٢٠ . (زيادة) .

ولم ير أحد من معاصرى إنوسنت فى هذه الآراء شيئاً استبدادياً أو خارقاً للمألوف . إذ جرى العرف منذ القديم أن السلطـــة الروحية تسمو على السلطة الزمنية ، وأن البابا فى المسيحية هو الملاذ الأعظم والموئل النهائى فى كل الأمور المتعلقة بالعقيدة والنظام الكنسى . ولا قبل لكائن من كان أن ينكر ما للبابا من قدرة على حرمان الملوك من رحمة الكنيسة . فضلاً عن دكّ المجتمع ونظامه فى أية دولة من الدول ، بإحلال أهلها من واجب الولاء والطاعة لملوكهم ، أو بتطبيق عقوبة الحجر الصارمة على بلادهم . ذلك أن أهل القرن الثالث عشر الميلادى توافقوا على أنه لابدّ من سلطة مركزية فى الدين ، بحيث تكون تلك السلطة هى الفيصل الروحى الأعلى فى الشئون الدينية ، والمصدر الذى تنبع منه القدسية والعدل ، والمحكمة العليا التى يرفع الناس إليها ظلاماتهم . ولا جرم أن المحكمة البابوية أشبعت تلك الحاجة الأخيرة تمام الإشباع وقتذاك ، بدليل الكثرة الهائلة فى عدد الدعاوى التى رُفعت إلى المقام البابوى ، منذ أضحى من المعروف أن روما — على عهد إنوسنت الثالث — هى الملجأ لكل ذى مظلمة أو شكاية مهما كان مصدرها .

غير أن هذا التوافق الظاهر أخفى تحته ألواناً كثيرة من العقيدة والخبرة بأساليب الحياة ، لأن العصور الوسطى لم تكن من التقوى والفضيلة والاستقامة فى الدين — ولا من الغباء والبلادة — مثلما يتبادر إلى أخيلة الكثيرين من الناس ، بل نبت بالمجتمع الوسيط من الفساد والرذيلة الأخلاقية والاعوجاج مثلما نبت به من الزهد الشديد ، وتكوّن فيه من الهرطقة مثلما تكوّن بأرجائه من الإذعان والإيمان بما جاءت به الكنيسة . وظهر به من التقدم الفكرى ما لو تسلط وقتذاك على أسرار الطبيعة بالفحص لاهتدى إلى العلم الحديث وما فيه من الفوائد منذ قرون ، لا منذ القرن التاسع عشر الميلادى فقط .

والواقع أن المشكلة التى واجهتها البابوية فى القرن الثالث عشر الميلادى ، هى مشكلة العثور على أضمن الوسائل التى تكفل لها السيطرة على مجتمع أضحى وافر المعرفة من أثر الحروب الصليبية ، كما أضحى على شىء من الخبرة ، بفضل ما شاع به من حبّ الأسفار والرغبة فى التملّك والجرى وراء

اللذات ، وهو بالإضافة إلى هذا كله مجتمع غدا مبلبل الأوضاع ، بسبب ما تفتح له من واسع الآفاق بالشرق الأدنى وما وراءه من البلاد ، وما استتبعه ذلك من تطور هائل فى الأهداف السياسية ، فضلاً عن النشاط الفكرى فى الحياة العقلية . ومن الدليل على هذا وذاك أن عصر البابا إنوسنت الثالث يوافق عصراً باهراً فى نمو الشعر القومى فى اللغتين الألمانية والفرنسية ، وهو شعر يدين بدوافعه ومؤثراته فى غير شك إلى روعة الحرب الصليبية ، وإن استوحى مادته من أحداث قومية سابقة لتلك الحروب ، واستمد مثله العليا من عواطف الفروسية التى سادت وقتذاك فى أوساط العلمانيين من الإقطاعيين . وهذا هو العصر الذى أنتج فيه النظامون المعروفون باسم المنيسنجرز (Minnesingers) فى ألمانيا ، والتروبادور (Troubadours) فى بروڤانس بفرنسا الحالية ، أبدع ما أنتجوا من القصص الغنائى المنظوم ، مثل قصة پارسيفال التى ألفها ولفرام إشنباخ ، وقصة ترستان وإيزولده التى كتبها جوتفريد سالزبرج ، وقصة نيبلجنليد التى أحيا بها مؤلفها روح التاريخ الألمانى البعيد .

على أن ظهور الروح العلمانية الجديدة — فى الآداب القومية لم يكن سوى الناحية الأولى من نواحى الشعور بالحرية التى أدركت أوربا ، فى ذلك القرن . وكانت حركة الإحياء الإنجيلى هى الثانية ، وحركة الهرطقة الإيجابية القوية هى الثالثة . أما حركة الإحياء الإنجيلى التى بدأها القديس فرنسيس الأسيسى والقديس دومنيك القشتالى ، فهى إحدى الحركات التى تصدر من أعماق القلوب ، وتتسم بسمة التضحية الخالصة . فتظل حتى بعد اختفاء أصولها ومقاصدها النقية ذات أثر دائم فى نفوس الناس ، على مرّ الأجيال والعصور . وأما القديس فرنسيس فمولده سنة ١١٨١ م — أو سنة ١١٨٢ م — ببلدة أسيسى الصغيرة فى إقليم أمبريا بأواسط إيطاليا ، حيث كان أبوه تاجراً غنيًّا من تجار الأقمشة . وغدا فرنسيس شابًّا مرحاً عارماً معطاءً ، يتعشق الفروسية ويهوى حياة الجندية . ثم طرأ على حياته ما غيره تغييراً كليًّا ، إذ اشترك ذات يوم فى معركة بين بلدته وبلدة پيروچيا المجاورة ، فوقع أسيراً فى أيدى البيروچيين . وظلّ فرنسيس فى أسره مدة مرض أثناءها مرضاً كشف عن صفات العبقرية

الدينية التى انطوت عليها نفسه ، من حب خالص ، وبساطة متناهية ، ولطف ومرح ، مع سرعة الاستجابة لآلام الغير ، فضلاً عن النجدة والدماثة والرمزية الرفيعة ؛ وهى الصفات التى جعلت من القديس فرنسيس تميمة ساحرة تجمع دائماً بين المسيحيين ، على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم . فى يوم من الأيام لقى فرنسيس القديس رجلاً أبرص ، فنزل عن بغلته ، وقبل الرجل دون أن يتحرّج أو يتصوّن . واستمع فرنسيس مرّة لصوت يهتف به أن يقوم بإصلاح كنيسة خربة قرب أسيسى ، وهى بلدته الأصلية ، فتنسك وانقطع عن أهله جميعاً ، وعاش على صدقات المتصدقين ، وعمل بيديه فى ترميم الكنائس المهجورة بالجهات المجاورة لبلدته . واستمع ذات مرة أخرى فى ٢٤ من فبراير سنة ١٢٠٨م إلى واعظ — بكنيسة پورتيونكولا (Portiuncula) فى بلدته أسيسى — يقرأ الإصحاح العاشر من إنجيل متّى ، ونصه « وفيما أنتم ذاهبون اكرزوا قائلين إنه قد اقترب ملكوت السموات ، اشفوا المرضى ، أبرئوا الأبرص ، وأقيموا الموتى وأخرجوا الشياطين ، مجاناً أخذتم مجاناً أعطوا ، لا تقتنوا فى مناطقكم ذهباً ولا فضة ولا نحاساً ، ولا تتخذوا مزوداً للطريق ، ولا ثوبين ولا خفين ولا عصاً ، لأن الأجير مستحق لأجره » ! فأصابت هذه الكلمات هوى فى قلب فرنسيس ، فانطلق على وجهه فى العالم عارى القدمين يدعو إلى التوبة .

وألفى فرنسيس ذلك العالم بحاجة كبيرة إلى التوبة ، فالأحوال الدينية على أشد ما تكون من القلق والاضطراب . والمؤسسات الديرية العظيمة التى نشأت فى جرامون وكليرڤو وپريمونتريه بفرنسا ، مدة القرن الثالث عشر الميلادى ، غدت — بعد حماستها الأولى — راضية بالانغماس فى إدارة ممتلكاتها ، وبيع أصواف أغنامها ، والاضطلاع بمختلف المسئوليات التى تنجم عادة عن امتلاك الأراضى . وأدهى من ذلك أن أعظم البابوات نفوذاً وسلطة — وهو إنوسنت الثالث نفسه — أخذ يجرى وراء مشاريع دنيوية ضخمة ، دون أن يأبه لما راح فى سبيل تلك المشاريع من دماء[١] . وحارت عقول كثيرة

(١) يشير المؤلف هنا إلى الدور الذى قام به إنوسنت مدة التنافس على الإمبراطورية بين أتو الرابع وفيليب أخى هنرى السادس ، مما أدى إلى فتنة داخلية دامية فى ألمانيا ، من سنة ١١٩٧ إلى =

من هول الاختلاف بين ما كانت علية المسيحية الأولى ، وما أصبحت فيه الكنيسة من غنى ودعة وعافية وطموح ! وذاعت التنبؤات بين الناس باقتراب عصر جديد عماده المحبة ، وقوامه روح القدس ، لإزالة ما انغمر فيه العالم من استهتار بالقانون والرحمة الإلهية . وانتشرت الهرطقات بين الطبقات الفقيرة التى لم يمسسها شىء من التربية أو التعليم ، وكان انتشارها احتجاجاً على ما ناءت به تلك الطبقات من المطالب الدينية ، وسخطاً من المادية التى خالها الناس من عمل الشيطان ، حتى قيل إنه كان فى ميلان وحدها سبعة عشر مذهباً هرطقياً . وفى إيطاليا بالذات — وهى البلد الذى خربته الحرب الأهلية والكراهية والأحقاد — أخذ الناس يتلمسون من البابوية شيئاً يستطيعون الركون إليه فى حياتهم المضطربة القلقة ، دون أن تستطيع البابوية أن تمدهم بشىء ، لأنها — وهى مصدر الفطنة والدراية بالقانون الكنسى ، ومصدر العدل الخالص والقسطاس المستقيم — عاشت بعيدة كل البعد عن الفقير والبائس والمحروم .

ولذا كان إنوسنت الثالث حكيماً كل الحكمة حين أقرّ بعد شىء من التردد طريقة القديس فرنسيس ، وحين أجاز لهذا القديس أن يصبح قسيساً داخل الهيئة الكنسية ، فاندمجت بذلك فى سلك الكنيسة قوة دينية هائلة لو لم تندمج فى صفوفها لكانت خسارتها فادحة . هذا هو أصل الفرنسسكانيين إخوان القديس فرنسيس ، وهم الذين أطلق عليهم اسم الإخوان الفقراء (Fratres Minores) أو الفقراء الرماديين (Grey Friars) إشارة إلى لون طيالسهم ، أو الفقراء (Minorites) من غير صفة ما[١] . ولم يلبث أولئك الإخوان أن انتشروا فى أرض إيطاليا ، يعظون بالإيطالية بين قوم هم قومهم وعلى شاكلتهم فى البساطة ، ويدعون إلى التقشف والتوبة حيثما وجدوا إلى الدعوة سبيلاً ، بمختلف القرى الصغيرة على بعد مزارها ، وفى الأحياء الفقيرة بالمدن الكبيرة رغم هرطقتها . ومما زاد فى قوة تلك الحركة أن دعاتها الأولين لم يكونوا من رجال الدين أو من

= سنة ١٢٠٩ م ، وهو ما أشار إليه المؤلف إشارة عابرة فيما سبق هنا ، بأول صفحات هذا الفصل ، ص ٢٣١ — ٢٣٢ . انظر كذلك (Camb. Med. Hist. Vol. V. pp. 49-71) (زيادة) .

(١) يسمى الإخوان الفرنسسكانيون كذلك باسم الكورديليين (Cordeliers) ، إشارة إلى الزنار الذى يشدون به أوساطهم . (زيادة) .

المدرسين المتمرسين بأساليب الجدل والحوار والإقناع . لأن الدعوة الخالية من المحسنات اللفظية والتزويق أدخلُ إلى قلوب الطبقات الأمية وعقولها حين يلقيها إليهم — فى لغتهم الدارجة — رجال ونساء اتخذوا من جمال التقشف والقناعة والمحبة والتواضع شعائر لأنفسهم ، وجعلوا من تلك الشعائر أساساً لمواعظهم . وبفضل تلك القوة الدينية الدافقة انقلب الذين لم يكن لهم من الإيمان فيما مضى إلا الاسم . فأصبحوا متمسكين بالدين ، وأخذ الذين تهرطقوا فى التخلى عن هرطقاتهم . والخلاصة أنه ليس من المبالغة فى القول أن تجنيب إيطاليا ويلات حملة صليبية — على غرار الحملة التى أنزلت بالألبيجنسيين فى فرنسا ما أنزلت من الخراب — إنما يرجع إلى القديس فرنسيس وتلاميذه ، الذين أشبعوا الإيطاليين من طعام رطيب سوّغته الكنيسة ، بعد أن بدا أن الإيطاليين لن يجدوا شبعاً إلا عن طريق الثورة الجامحة والعصيان .

أما القديس دومنيك مؤسس الطريقة الدومنيكانية ، فيختلف عن القديس فرنسيس فى أنه تعلم بمدرسة من المدارس اللاهوتية التى تؤهل أبناءها لوظائف الكنيسة . بل كان دومنيك من كبار الموظفين الكنسيين فى إحدى الكتدرائيات الإسبانية . حين طرأ عليه ما غير من حياته تمام التغيير . ذلك أن هرطقياً من هراطقة مدينة تولوز صادف دومنيك وهو يعمل فى الحملة الصليبية ضد الألبيجنسيين . وجادله جدالاً جعل غايته الكبرى طوال حياته أن يحمى الإيمان الصحيح من دعاة الهرطقة الألبيجنسية — أو الكاثرية[1] — التى اجتاحت جميع ما خالفها من عقائد قديمة بجنوب فرنسا . وظل دومنيك خلال السنوات الإحدى عشرة (١٢٠٥ — ١٢١٦ م) ، التى ناضلت فيها البابوية ضد الألبيجنسية ، يناضل هو تلك الحركة فى ميدانها ، بالقيام بين الألبيجنسيين بتفسير العقيدة الصحيحة ودحض الهرطقات ، حتى جمع حوله طائفة على شاكلته من الواعظين المتوقدين حماسة للدين .

واقتنع ذلك القديس الإسبانى : منذ المرحلة الأولى من هذا النضال ، بأن السبيل إلى التغلب على الألبيجنسية لا يتأتى إلا عن طريق مقارعة

---

(١) انظر ما سبق ص ٢٣٢ ، حاشية ١ . (زيادة) .

الحجة بالحجة ، ومقابلة القوة الخلقية عند الألبيچنسيين بقوة مساوية . وتفصيل ذلك أن أولئك الألبيچنسيين اعتنقوا طريقة متطرفة فى الزهد ، وراضوا عليها أنفسهم إلى حد كبير ، وجعلوا من لزوميات الداخل فى طريقتهم أن يتخذ فى حفل ترسيمه (Consolamentun) خيطاً مقدساً ، كما يفعل براهمة الهند ، وأن يتبرأ من أعمال الشيطان الرجيم والكنيسة الكاثوليكية . ونزولاً على الاعتقاد بأن المادة فى ذاتها شرّ وبلاء ، حرّم الألبيچنسيون الزواج ، وعاشوا على الخضراوات ، وأنكروا سفك الدماء ، فى السلم أو الحرب سواء . غير أن بلوغ مرتبة الكمال فى هذه المدرسة الصارمة — القائمة على مبدأ التصوف وتهذيب النفس بالتقشف — لم يكن منتظراً أو مستطاعاً لدى جميع الألبيچنسيين ، بل اقتصر على الذين يطيقون بلوغ هذه المرتبة ، وهم قليلون ؛ وأولئك إذا ماتوا استحالوا — على قول الألبيچنسيين — إلى أجسام روحانية دون توقف أو حساب ، وتعين على الكنيسة أن تجعل أرواحهم المصطفاة الطاهرة موضع التقديس والإجلال . وتلفت دومنيك حوله ، فأبصر أن الألبيچنسى بجنوب فرنسا سوف يتغلب بتقشفه وروحانيته على المبعوثين البابويين والرؤساء الديريين الذين أفسدتهم نعومة الحياة ، وسوف يعجز هؤلاء وأولئك عن إرجاعه إلى حظيرة المسيحية . ومن أجل ذلك أخذ دومنيك على نفسه — وهو القشتالى الذكى — أن يعيش طوعاً عيشة المتقشف ، ودعا إخوانه ومريديه أن يحذوا حذوه ، لا حبًّا فى التقشف والروحانية ، بل ابتغاءً لوسيلة من وسائل التأثير فى الناس . ثم التقى دومنيك بفرنسيس فى إيطاليا ، حيث تحقق لديه فى صورة واضحة أن الإعراض عن متاع الدنيا ليس أداة للنضال ضد الهرطقة الألبيچنسية المتطهرة بجنوب فرنسا فحسب ، بل مصدراً فياضاً بالقوة الروحية لكل مكان وزمان . ولذا عقد دومنيك النية على تأسيس هيئة للوعظ والإرشاد [1] يكون الفقر عروتها الوثقى ، وتكون طاعتها لرئيس هيئتها وللبابوية مطلقة . وبارك

---

(١) أطلق على أتباع هذه الهيئة اسم الإخوان الواعظين (Preaching Friars) ، والإخوان السود (Black Friars) ، إشارة إلى لون طيالسهم ، كما أطلق عليهم وعلى الفرنسسكانيين كذلك اسم الإخوان المتسولين (Mendicant Friars) ، إشارة إلى اتخاذهم الفقر والتسول والسؤال وسيلة للعيش والاتصال بالناس . (زيادة) .

إنوسنت الثالث ذلك المشروع سنة ١٢١٥ م ، كما بارك لمشروع القديس فرنسيس من قبل . وبات بيد البابوية جيش كبير من المخلصين للدين .

ومن الواضح أن ذلك الجيش الذى صار فى خدمة البابوية اختلف عن أى جيش سبق انضواؤه إلى لوائها ، لأن الإخوان الفرنسسكانيين والدومنيكانيين كانوا على أهبة الذهاب إلى كل مكان ، والقيام بجميع ما يطلب إليهم أن يقوموا به من أعمال بعيدة الأسفار ، أو كبيرة الأخطار ؛ لأن الأسفار والأخطار لم تكن شيئاً عند أولئك الرجال الذين وهبوا أنفسهم للخدمة فى سبيل الدين ، وعاشوا خارجين عن سلطة الأسقفيات . مستقلين عن كل أسقف ما عدا أسقف روما ، وهو البابا . ولذا قلّ أن كان بأوربا إقليم لم يتسرب إليه أخ من أولئك الإخوان ، وفى قلبه نفحة من نفحات الخدمة فى سبيل الدين . ولذا قلّ كذلك أن قام من المبشرين فى مختلف العصور بمثل ما قام به الفرنسسكانيون والدومنيكانيون فى البلاد الخارجة عن دائرة المسيحية . إذ تنقلوا بين مراكش وتونس ، وارتحلوا إلى فارس والهند وأقاصى أجزاء الصين ، ووعظوا أخلاط العامة فى موانى الشام . على أن جهودهم لم تقتصر على الخدمة الدينية والتبشير . لأن القديس دومنيك أراد أن تهتم طريقته وأهلها بالعلم ، بعد أن وضح له أن الوقت حان للدفاع عن الإيمان ضد خصومه من العقليين ، فاستعاض شرط التعليم — وهو شرط غير مألوف وقتذاك — عن شرط العمل اليدوى الذى تطلبته الديرية البندكتية ، فى القرن السادس الميلادى . ومن ثمّ غدا فرضاً على الدومنيكانيين أن يعدوا أنفسهم للكفاح العقلى والعمل المتواصل ، فى ميادين الهرطقة والخطر على الدين . ثم لم يلبث الفرنسسكانيون كذلك حتى طرحوا كراهية زعيمهم فرنسيس للتعليم من باب التقوى . ووردوا مناهل العلم والمعرفة التى سبقهم إليها الدومنيكانيون : فملأوا الجامعات ، وأسهموا فى علوم اللاهوت . وإذا فخر الدومنيكانيون على الفرنسسكانيين بالعبقريين ألبرت العظيم وتوماس أكويناس ، فأعظم عباقرة العصور الوسطى كان فرنسكانيّاً من أكسفورد ، وهو روجر بيكون الذى اتسمت نظرياته وتجاربه بالجرأة البالغة ، وامتاز عقله بالعمق وسعة الأفق ، حتى أضحى من العسير على الباحث أن يعرف من عسى يكون أكثر مقتاً لذلك العملاق الجبار — هل يكون القديس

فرنسيس الذى خشى العلم وما يؤدى بصاحبه من الكبرياء العقلى ؟ أو يكون القديس دومنيك الذى مقت التحقيق فى طبائع الأشياء كل المقت ؟

وكيفما يكن الأمر فى هذه المسألة الصغيرة ، فالبحث فى تاريخ الفرنسسكانيين والدومنيكانيين يتطلب التعريف بموضوع التملك عند أولئك الذين وهبوا أنفسهم لخدمة الدين ؛ وخلاصته من الناحية النظرية أن الإخوان لا يتملكون على شىء من متاع الدنيا . ولكن الفرنسسكانيين والدومنيكانيين فى الواقع تملكوا على كثير من الأراضى والبيوت والأموال ، مما وقفه الواقفون باسمهم على البابوية ، أو على مدينة من المدن ، أو على فرد من الأفراد . غير أنه مهما أنكر الروحانيون من الفرنسسكانيين والدومنيكانيين على أنفسهم وحركتهم مبدأ التملك ، فمن الواضح أن قيام الإخوان على أعباء واجباتهم الرسولية فى صورة مجدية أو متصلة — ولا سيما فى المدن — أوجب شيئاً من الأوقاف ، للصرف من دخلها على حاجاتهم الضرورية . ثم لم يلبث الفرنسسكانيون والدومنيكانيون أن أصبحوا من أهل الثروة ، فجرّ عليهم ذلك ما تجرّه الثروة على أصحابها من أخطار ؛ ولم ينته القرن الثالث عشر الميلادى حتى أضحى الإخوان موضع الاتهام بالترف والبخل والجشع . ولم تكن هذه هى التهم الوحيدة ، لأن وعظ الجماهير — مع اشتهار الواعظ وطائفته بالثروة — جعل الإخوان عرضة لاتهامات أخرى . والواقع أن بعض متأخرى الواعظين من الإخوان الفرنسسكانيين والدومنيكانيين عمل مالا يعمل من قلة الحشمة ، وقلة الإدراك ، وقلة العلم ، فى سبيل التأثير فى جماهيره وتسليتها ، حتى غدا الإخوان فى نظر الناس من أهل القرى طائفة من المتشردين الفضوليين المهرّجين ، بالقياس إلى الرهبان مهما بلغوا من حب العافية والخمول ، وإلى القساوسة المحليين مهما بلغوا من التزمت والجمود .

بعض المراجع لهذا الفصل

Cambridge Mediaeval History. Vol. VI.

Gebhart, (E.) : L'Italie Mystique. 1906.

Lea. (H.C.) : History of the Inquisition of the Middle Ages. 3 vols. 1906.

Renan, (I.E.) : Etudes d'Histoires Religieuse. 1858.

Sabatier : Vie de. St François d'Assise. 1931.

الفصل الخامس عشر

الحملة الصليبية المعروفة بالرابعة

إنوسنت الثالث وسياسته الصليبية – نجاح البنادقة فى تغيير اتجاه الحملة الصليبية المعروفة بالرابعة – فتح القسطنطينية على يد الصليبيين – ضعف الصليبيين – التنافس بين البندقية وجنوة – تضييع الفرصة السانحة لنشر الثقافة البيزنطية – انحلال الدوافع الدينية والأفكار الثيوقراطية

ليس فى تاريخ القرن الثالث عشر الميلادى ما يمكن أن يدل على حقيقة السلطة البابوية – فى ذلك القرن – مثلما يدل الإخفاق الذى أصاب إنوسنت الثالث فى سياسته الخارجية . ذلك أن معظم ما تمنى هذا البابا العظيم هو استرجاع الأراضى المقدسة من المسلمين ، فى حملة صليبية يكون له – وهو خليفة المسيح فى الأرض – الفضل كل الفضل فى إعدادها وتوجيهها . ولتحقيق تلك الأمنية رأى إنوسنت أنه لابد من تسوية المنازعات السياسية بين ملوك أوربا ، وإزالة الانقسامات الدينية الضاربة فى ممالكهم ، فضلاً عن توحيد الكنيستين البيزنطية الأرثوذكسية والرومانية الكاثوليكية ، ليكون منهما إلباً كفيلاً بالقضاء التام على دولة المسلمين .

غير أن إنوسنت الثالث لم يفلح فى إنجاز شىء مما حواه هذا البرنامج الضخم ، مع دأبه على تنفيذه خلال بابويته ؛ فلم تتحد أوربا ألبتة ، وظلت الأرض المقدسة فى أيدى المسلمين ، وحوّل البنادقة جيوش الحملة الصليبية الهائلة التى تجهزت لاسترجاع الأراضى المقدسة عن وجهتها الأصلية إلى الاستيلاء على القسطنطينية ، برغم تحذير البابا .

على أن المسألة التى تدعو إلى الالتفات هنا ليست إخفاق أقوى البابوات فى تحقيق ما تمناه من هذه الحملة الصليبية المعروفة بالرابعة ، بل انحلال الدافع الدينى الذى دلّ عليه ذلك الإخفاق الذريع . ومن الدليل على ذلك

الانحلال قول رتشارد الأول ملك إنجلترا مخاطباً فولك دى نُيى داعى دعاة هذه الحملة الصليبية ، فى شىء من السخرية المرة ، « تنصحنى بالإقلاع عن خلالى الثلاث — الكبرياء ، والشراهة ، والشهوانية . هأنذا أهبها إلى أعظم الناس استحقاقاً لها ، فالكبرياء لهيئة الفرسان الداوية ، والشراهة لرهبان سيتو[1] ، والشهوانية لكبار الكنيسة » . وكيفما كان الأمر لم يستطع فولك دى نيى أو غيره من دعاة هذه الحملة الصليبية أن يغرى رتشارد الأول ملك إنجلترا ، أو فيليب أغسطس ملك فرنسا ، أو زعيمى الجويلفيين والجبلينيين[2] المتنافسين على الإمبراطورية فى ألمانيا ، بأن يستبدلوا بشئونهم الداخلية هذه المغامرة البعيدة . ولذا انتقل أمر هذه الحملة — بعد سلسلة من الحوادث المفاجئة — إلى جمهورية البندقية التى اعتمد على سفنها نبلاء فرنسا والفلاندرز وغيرهم ، ممن لبوا دعوة البابا فى السفر عبر البحر الأبيض المتوسط . غير أن جو الريالتو (Rialto) — وهو مقر الحكومة البندقية — اختلف كل الاختلاف عن جو الفاتيكان ، إذ جمع البنادقة من الثروة والمال بفضل نشاطهم التجارى بين بلاد الشرق الأدنى وأهلها ما صرفهم عن التفكير فى إتلاف قوة المسلمين ، وامتزجت قلة اهتمامهم لأمور الدين ، وكثرة أطماعهم فى التجارة ، بكبرياء جمهورية أضحت حديثاً فى حل من نير البيزنطيين . وغدت غير حريصة على قبول أى إملاء من روما . ولم تقنع البندقية بهذا الموقف الخطير ، بل رأى أنريكو داندولو دوجها العجوز حاجة الصليبيين إلى المال ، لدفع نفقات عبورهم إلى الشرق ، فافترصها فرصة لخدمة مواطنيه ، وعرض على الصليبيين أن تقوم البندقية بنقلهم على مراكبها إلى الشرق دون مقابل ، على شرط قيامهم لها أولاً بخدمة أصر البنادقة على تأديتها لهم قبل كل شىء .

وفكر الصليبيون أول ما فكروا فى الهجوم على مصر ، اعتقاداً منهم أنهم إذا فتحوها أصبح استرجاع فلسطين أمراً مقضياً . لأن مصر مركز القوة الإسلامية فى الشرق الأدنى . غير أن البنادقة رأوا عكس ذلك ، لأنهم لم يريدوا

---

(١) انظر ما سبق ، ص ٢١٨ . (زيادة) .

(٢) انظر ما سبق ، ص ١٩٦ . (زيادة) .

حرب مصر ، بل عقدوا مع سلطانها الملك العادل أخى صلاح الدين حلفاً يحوى عدداً من الامتيازات الهامة فى الأسواق المصرية ، ولذا بذلوا كل جهد فى تحويل الصليبيين عن ذلك الهدف . وخال البنادقة أن الهدف الذى تفيد منه البندقية أكبر الفائدة ، يكون فى حملة ضد الإمبراطورية البيزنطية وإمبراطورها ألكسيوس الثالث أنجليوس ، الذى ضيق على البنادقة وجاليتهم التجارية بالقسطنطينية أشد تضييق ، على حين أغدق الامتيازات على منافسيهم من البيازنة[1] البغيضين . ومن حسن حظ البندقية أن الحوادث ساعدت على تصوير ذلك المشروع فى صورة خلابة لسذاجة الصليبيين ، مع العلم بأنه لم يكن مشروعاً للانتقام من ألكسيوس الثالث وسياسته نحو البنادقة ، بقدر ما كان محاولة — فى الواقع — للقضاء على مدينة بيزا ومنافستها للبندقية وقتذاك ، فى تجارة البحر الأبيض المتوسط . أما تفصيل ذلك كله فهو أن ألكسيوس الثالث أنجليوس عرّض نفسه لسخط الساخطين حين اغتصب الإمبراطورية من أخيه إسحاق ، بعد أن أمر بحبسه وسمل عينيه ؛ ولم يخفف من هذه الفعلة فى نظر الناس أن الإمبراطورية البيزنطية كانت متخبطة على عهد إسحاق المخلوع فى أقصى مهاوى الضعف والانحلال . ثم انطلق ابن إسحاق هذا — واسمه ألكسيوس كاسم عمه المغتصب — فى رحلة إلى غرب أوربا ، وراح يطلب العون والنجدة لإعادة أبيه إلى العرش ، ولم يلبث أن اجتذب إليه عديله فيليب سوابيا زعيم الجبلينيين فى ألمانيا ، وقريبه بونيفاس مونتفرات قائد الحملة الصليبية الجاثمة بإيطاليا ؛ فى انتظار ما سوف يكون من أمر البندقية وأسطولها الذى لابدّ للصليبيين من الاعتماد عليه ، فى الوصول إلى الشرق . على أن الأمير البيزنطى الجرىء لم يتكلف شيئاً حين وعد رجال الحملة وعوداً تروى ظمأ الظامئ إلى المغامرة والأسفار ، وتثلج صدر التقى الراغب فى الرحلة إلى الأراضى المقدسة خدمة للدين . ذلك أنه تعهد بأن ينفق على الحملة مائتى ألف مارك من الفضة ، وأن يشترك فى أعمالها بنفسه ، وأن يقدم عشرة آلاف رجل لإعادة فتح فلسطين ، وأن يعدّ جيشاً مكوناً من خمسمائة فارس لحماية الهيئات المسيحية

(١) البيازنة أهل بيزا بإيطاليا . راجع القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤١١ . (زيادة) .

فى الشرق . واغتر الصليبيون بهذه الوعود العريضة ، فوافقوا على مشروع البندقية . وبيتوا النية على خلع الإمبراطور المغتصب ، دون أن يفكروا فيما عسى أن يتمخض عنه التدخل فى شئون الدولة البيزنطية على هذه الصورة .

وبسمت الحوادث أول الأمر للبندقية وأسطولها الهائل فى البوسفور . إذ سقطت القسطنطينية فى أيدى الصليبيين فى يوليو سنة ١٢٠٣ م ، بعد حصار قصير ؛ ولاذ ألكسيوس الثالث أنجليوس بالفرار ، واعتلى إسحاق وابنه عرش الدولة البيزنطية من جديد . وكان من المأمول أن ينصرف الصليبيون إلى الغرض الأصلى من حملتهم ، بعد أن أعادوا الإمبراطور إسحاق إلى عرشه ، وبعد أن حققوا للبندقية أهدافها على هذه الطريقة . غير أن ذلك المأمول لم يتحقق ، إذ أخطأ الصليبيون حين ظنوا أن البيزنطيين سوف يلتفون حول إسحاق وابنه ، مع أن أولهما أعمى البصيرة والبصر ، وثانيهما صاحب فضل عظيم فيما لحق الدولة البيزنطية وعاصمتها من هوان ، وكلاهما صنيع أولئك الصليبيين الذين غدوا موضع البغض الشديد بين البيزنطيين . والواقع أنه لم يكن من المعقول أن يرضى البيزنطيون عن إمبراطورهم إسحاق أو ابنه ألكسيوس ، أو أن يقفوا مكتوفى الأيدى أمام الصليبيين وغطرستهم . بل كان من المعقول أنهم قاموا بثورة عنيفة ضد إمبراطورهم والصليبيين معاً . وتطلب إخماد تلك الثورة حصار الصليبيين مدينة القسطنطينية ، والاستيلاء عليها عنوة مرة ثانية سنة ١٢٠٤ م ؛ ومن ثم أضحى تأسيس دولة صليبية لاتينية على شواطئ البوسفور أمراً لا محيص عنه .

ولو استطاع الصليبيون أن يضفوا على الدولة اللاتينية التى خلقوها بالقسطنطينية شيئاً من خالص الجد الذى أضفاه النورمان على إنجلترا وصقلية بعد استيلائهم على كل منهما ، لظل الهدف الأساسى للحملة الصليبية فى حيز الإمكان . غير أن سادة القسطنطينية الجدد لم يملكوا من العزم على تأييد السياسة الصليبية إلا نزراً مشابهاً لعزم البعض من البيزنطيين المخنثين ، الذين رضوا أخيراً بما حل بهم من عنف على أيدى اللاتين . والواقع أن سادة القسطنطينية الجدد لم يعجزوا فحسب عن الاشتراك فى تخليص فلسطين ، بل لم يستطيعوا الاحتفاظ بكيانهم القلق داخل الإمبراطورية البيزنطية وهيكلها المنهار إلا ببذل الجهد الجهيد ، وذلك

لقلة عددهم وكثرة انقساماتهم بعضهم على بعض ، فضلاً عن الضغط الشديد الواقع عليهم من البلغاريين فى الشمال ، ومن البيزنطيين أنفسهم فى إپيروس بأقصى الجنوب ، وكذلك من الدولة السلجوقية الإسلامية بآسيا الصغرى ، ومن الإمبراطوريتين البيزنطيتين فى نيقية وإطرابزون . ولذا عاشت الدولة اللاتينية الصليبية بالقسطنطينية مزعزعة الأركان والجوانب ، وظلت حياتها متوقفة على الحملات الأوربية التى كان من الأجدى إنفاذها — لو أمكن — إلى فلسطين ، بل وصل الحال من الخطورة فى تلك الدولة أن هنرى فلاندرز — وهو ثانى أباطرة اللاتينيين بالقسطنطينية — حالف السلاجقة بآسيا الصغرى ضدّ الإمبراطورية البيزنطية فى نيقية سنة ١٢٠٩ م .

وشبيه بتلك الحال السيئة ما زعم اللاتينيون لأنفسهم من المقدرة على إتمام الاتحاد بين الكنيستين الأرثوذكسية والكاثوليكية ، مع العلم بأن ذلك الاتحاد لم يصادف هوى إلا عند البابوية التى أشبع من كبريائها أن نبيلاً من نبلاء البندقية صار بطريقاً بالقسطنطينية ، وأن شعائر الكنيسة الكاثوليكية غدت قائمة بكنيسة أيا صوفيا . ثم إن ذلك الاتحاد لم يستند إلى وفاق حقيقى ، بدليل أن رئيس أساقفة أثينا وكبار رجال الكنيسة البيزنطية أنفوا الاعتراف بسلطة البابا ، وآثروا النزول عن مراكزهم الكنسية والهرب إلى الإمبراطور تيودور لاسكاريس فى نيقية ، حيث تلقاهم البلاط الإمبراطورى بالترحاب ، ومن ذلك المنفى القريب من القسطنطينية ، عمل أولئك الرجال على تعضيد إخوانهم الأرثوذكسيين فى كراهيتهم ونضالهم وتعصبهم ضد سادتهم الكاثوليكيين .

أما البندقية صاحبة الفكرة فى تحويل الحملة الصليبية المعروفة بالرابعة عن غرضها الصليبى ، فهى التى ربحت أعظم الأرباح الناجمة عن ذلك التحويل ، إذ خصتها من الغنيمة ثلاثة أثمان القسطنطينية ، فأنشأت إلى جانب الإدارة الحكومية المرهقة بمطالب السادة البندقيين إدارة تجارية امتدت عناكبها إلى أنحاء البلاد ، وجعلت على هاتين الإدارتين حاكماً ذا سلطة استبدادية وسيادة مطلقة ، فى ربع ونصف ربع من مساحة الإمبراطورية البيزنطية ، على قول المصطلح الجارى وقتذاك . ثم ما لبثت الجمهورية أن

استولت بفضل أعيانها المغامرين على أهم الثغور البحرية المسيطرة على الطرق التجارية إلى شبه جزيرة القرم فى الشمال ، وإلى مصر فى الجنوب ؛ فاستولت على زانتا وكيفالونيا ومودون من جزر بحر الأرخبيل ، وكورون بشبه جزيرة المورة ، كما أخذت جزائر سيكلاديز بمدخل بحر الأرخبيل ، وغاليبولى بمدخل الدردنيل ، وكريت بشرق البحر الأبيض المتوسط . ويستطيع السائح بين الجزائر اليونانية — فى العصر الحاضر — أن يشهد بنفسه ضخامة الاستحكامات الدالة على حكومة العنف والجمود الذى طبقته البندقية على تلك الجزائر . واستحقت البندقية من أجله أن تكون أول دولة استعمارية فى العصور الوسطى .

ومن ذلك يتضح أن مفتاح تاريخ الشرق الأدنى — فى العصور الوسطى — لا يعدو مسألة النضال بين المدن الإيطالية على السيطرة التجارية ، فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، وإذا كان البنادقة هم الذين أقاموا الدولة الصليبية اللاتينية بالقسطنطينية لأغراض تجارية بحتة ، فإن هذه الأغراض بعينها هى التى قوّضت تلك الدولة بعد خمسين سنة تقريباً ، حين عاد البيزنطيون إلى عاصمتهم سنة ١٢٦١ م ؛ بفضل المساعدة الكبيرة التى أمدّتهم بها جنوة عدوة البندقية وسيادتها التجارية .

غير أنه مما يدعو إلى الالتفات هنا أن احتلال اللاتينيين مدينة القسطنطينية — وأثينا وكورنثة وطيبة — لم يؤدّ إلى شىء من النهضة فى ميادين العلوم ، وأن مخطوطاً يونانيًّا واحداً لم يصل إلى غرب أوربا نتيجة لتلك السيادة السياسية التى فرضها اللاتينيون على البيزنطيين . والعلة فى ذلك أنه لم يدر بخلد أحد من الصليبيين — شأنهم فى ذلك شأن الأتراك العثمانيين بعد احتلالهم القسطنطينية — أن فى الآداب اليونانية القديمة كنوزاً من المعرفة والنور ، و بذا ضاعت على غرب أوربا فرصة الاتصال بروائع الآثار الباقية من الشعر اليونانى والحياة الفكرية عند اليونان الأقدمين . على أن شعاعاً من ذلك النور العظيم اتخذ سبيله إلى أوربا خلال القرن الثالث عشر الميلادى ، لا عن طريق اللاتينيين أو البيزنطيين أنفسهم ، بل على طريق المسلمين أصحاب إسبانيا الإسلامية .

وكيفما كان الأمر فى حوادث الحملة الصليبية المعروفة بالرابعة ، ونتائجها

السالبة والموجبة ، فالمعروف أنه ليس أسهل عند الناس من احتذاء المثل السيئ بعد وقوعه ، ولا سيما إذا لم يترتب على ذلك المثل من العواقب ما يدعو إلى الخشية من احتذائه . والواقع أن سيطرة البنادقة على الحملة الصليبية المعروفة بالرابعة ، وتسخيرها لمنافعهم الخاصة ، علم أوربا درساً مغرياً خلاصته أن من الممكن توجيه الحملات الصليبية ضد الدول المسيحية الأوربية ، على غرار توجيهها ضد المسلمين . ولقى ذلك الدرس رواجاً سريعاً فى الأوساط البابوية ، فقال قائلها إن المسلمين فى مصر وفلسطين ليسوا وحدهم هم الذين أقلقوا مضاجع إنوسنت الثالث ، بل إن من أعداء الدين والبابوية أهل بروسيا الوثنيين ، وطوائف المسلمين بإسبانيا ، وجماعات الهراطقة الألبچينسيين بجنوب فرنسا ، فضلاً عن أعداء إنوسنت السياسيين ، أمثال حنا ملك إنجلترا الذى رفض تعيين استيفن لانجتن لمنصب رئيس الأساقفة فى كانتربرى . ورأى إنوسنت الثالث أن يدعو إلى حملة صليبية هنا وهناك ضد هؤلاء وأولئك من أعداء الثيوقراطية الرومانية ، وأخذ فى توزيع صكوك الغفران فى غير حساب على جميع الذين لبوا دعوته . غير أنه لو كانت قوانين النقد التى اكتشفها الاقتصاديون فى العصور الحديثة معروفة فى القرن الثالث عشر الميلادى ، لما فات هذا البابا الذكى أن الإسراف فى منح صكوك الغفران — كالإسراف فى إصدار البنكنوت — يؤدى إلى التضخم وما يتأتى مع التضخم من المساوئ ، وأن الوعود المكتوبة — كالسندات والقراطيس المالية — تفقد من قيمتها كلما ازدادت كميتها بين الناس .

ثم غدا واضحاً للعيان بعد ذلك بقليل أن أوربا لن تقبل الرضوخ لحكومة ثيوقراطية ولو كان مركزها روما ، لأن تيار الحوادث أضحى متجهاً نحو فكرة الحكومة القومية ، لا حكومة بابوية عليا . ومصدر ذلك أن انتصار فرنسا على إنجلترا والإمبراطورية الألمانية فى وقعة بوفين (٢٧ يولية سنة ١٢١٤ م) — وهو الانتصار الذى مكن لإنوسنت الثالث أن يسحق الإمبراطور الجوالى أوتو الرابع الذى انقلب جبلينياً[١] ناكث الوعد للبابوية — ساعد على تقوية الحكومة القومية الناشئة فى فرنسا ، كما أفاد التقدم الدستورى فى إنجلترا ، حيث أفسد

---

(١) انظر ما سبق ، ص ١٩٦ . (زيادة) .

على الملك حنا مشروعه لاسترداد ممتلكاته الفرنسية الضائعة .

وهنا يبدو أن البابا انتصر على الإمبراطور والإمبراطورية فى تلك الجولة التى سقط فيها أوتو الرابع سقطة ليس بعدها نهضة ، إذ قهرته فرنسا ، ونبذته ألمانيا ، وأجلست على العرش الألمانى مكانه الصبى فردريك هوهنشتاوفن الذى نشأ فى كنف البابا إنوسنت الثالث ، وذلك بعد أن حصل إنوسنت من فردريك على جميع التعهدات التى اعتاد الحصول عليها من المرشحين للعرش الإمبراطورى ، وهى الامتيازات الهائلة التى تجعل إدارة الكنيسة الألمانية رهن مشيئته البابوية ، والاعتراف بانفصال صقلية عن ألمانيا . غير أن هذه الظواهر البراقة أخفت تحتها شيئاً من اللغط والقلق ، إذ تساءل بعض الألمان عن غرض البابا من التدخل فى أمورهم الخاصة إلى هذا الحد البعيد ، وقام بعض الإنجليز للدفاع عن العهد الأعظم الذى ضرب به البابا عرض الحائط تأييداً للملك حنا ، ولم يخشوا خاشية البابا ، ولا حسبوا للملك حنا مواقفه المتقلبة أى حساب ، كما قام بعض الفرنسيين لمساعدة أولئك الإنجليز ضد ملكهم برغم ما تولد عن بوفين من تباغض . يضاف إلى ذلك لغز الموقف الذى ترتب على إقامة فردريك هوهنشتاوفن إمبراطوراً سنة ١٢١٥ م ، فهو فضلاً عن منصبه الإمبراطورى ملك على ألمانيا وصقلية ، ووريث للتقاليد الصقلية والجبلينية معاً . فهل كان من المنتظر عقلاً أن يسلك هذا الأمير الصقلى الجبلينى معاً مسلك الجولى الخاضع للبابا ؟ أما فردريك ، فإنه ما عتم حتى أجاب إجابة سريعة حاسمة مليئة بالنتائج الهامة فى التاريخ الأوربى كله .

بعض المراجع لهذا الفصل

Bréhier (L.) : L'Eglise et l'Orient au Moyen Age. 1907.
Cambridge Mediaeval History. Vol. VI.
Luchaire (A.) : Innocent III. 1905-1908.
Miller. (W.) : The Latins in the Levant. 1908.
Pears. (E.) : The Fall of Constantinople. 1885.
Villehardouin. (G. de) : La Conquête de Constantinople. Ed. Bouchet, 2 vols. 1891.

الفصل السادس عشر

سقوط أسرة الهوهنشتاوفن

فردريك الثانى هوهنشتاوفن — عظمته وأثره فى عصره — معارضة البابا جريجورى التاسع والبابا إنوسنت الرابع للإمبراطور فردريك — حملة فردريك الصليبية — حكومته فى صقلية — دعايته ضد البابوية — خلع فردريك عن الإمبراطورية بأمر البابا إنوسنت الرابع — انهيار أسرة فردريك — نتائج النزاع والتخاصم فيما بين الإمبراطورية والبابوية فى القرن الثالث عشر الميلادى — فترة الشغور فى ألمانيا — ضياع الهيبة البابوية — تحدى البابا بونيفاس الثامن مملكتى فرنسا وإنجلترا — العلاقة بين هدم أسرة الهوهنشتاوفن على يد البابوية ووقوع البابوية فى الأسر البابلى .

من خلال السحب التى أثارتها مذمّات المعاصرين يبدو فردريك الثانى — آخر أباطرة العصور الوسطى — شخصية ملؤها التقلب والحيلة والتحدى . فى صورة تبهر عظمتها العقول والأبصار . والحقيقة أن فردريك الثانى اتصف بصفات قلّ أن تجتمع فى رجل واحد ، إذ أجاد الكتابة والكلام فى ست لغات ، ونظم الشعر العاطفى فى نغم دافئ دفء أنغام الصقليين الذين نشأ بينهم ، وأغدق من ماله وعنايته لتشجيع العمارة والنحت والتعليم ، وهو إلى جانب ذلك جندى بارع وسياسى لبق إلى أقصى درجات اللباقة ، مع الجسارة التى لا تخشى خاشية ، والنزعة الفكرية الجانحة إلى ميادين الفلسفة والفلك والهندسة ، والجبر والطب والتاريخ الطبيعى . وألّف فردريك فى البيزرة[1] كتاباً هو أصل من أصول العلوم التجريبية فى غرب أوربا ، واصطحب فى أسفاره مجموعة من الفيلة والهجائن وعجائب المناطق الاستوائية الحارة من أنواع الحيوان . ولم تكن الكوابت

(١) البيزرة علم تربية الطيور الجوارح وتدريبها على الصيد والقنص . (زيادة) .

والتقاليد المسيحية التى التزمها أمثال ملك فرنسا القديس لويس فى ذلك العصر ، مما يأبه له فردريك الذى نشأ فى صقلية ، حيث ملتقى الأجناس والأديان ؛ بل اصطنع فردريك للمسلم واليهودى ، وعرف لكل منهما قدره ومقامه ، مع أنه سلك مسلك الرهبان الدومنيكانيين فى الصرامة الدينية ، فلم يتردد يوماً ما فى إعدام هرطيق من الهراطقة المسيحيين حرقاً بالنار ، على شرط أن يكون من وراء ذلك منفعة سياسية . ودهش المعاصرون لإمبراطور مسيحى يتكلم العربية إلى رعاياه من المسلمين ، ويقتنى الجمّ من الجوارى المنشآت فى القصور ، وينأى عن التعصب الذى طفح به اعتقاد ذلك العصر من أن اليهود يأخذون أولاد المسيحيين ويذبحونهم أضاحى بعض الأحايين . وكيف لا يكون فردريك موضع دهشة المعاصرين ؟ أليس هو الذى كتب — على ما قيل — كتاباً عنوانه الأدعياء الثلاثة (De Tribus Impostoribus) ، حيث اعتبر موسى وعيسى ومحمداً من الكاذبين ؟ الواقع أن ثمة صفات خارقة اجتمعت فى ذلك الإمبراطور الذى عالج شئونه السياسية فى نشاط هائل وواقعية بصيرة ، واشتهر بدقة الذوق الفنى ، وبدا كالشرقى فى عاداته وحياته الخاصة ، كما اشتهر بالتصوف والتشكك فى آن واحد ، مع الجرأة والثورة على القديم فى جميع مناهجه وآرائه . وإذاً فلا غرو أن ينعت المعاصرون فردريك بأنه « أعجوبة العالم » (Stupor Mundi) ، وأن يظل ذلك الإمبراطور كذلك على مرّ القرون ، وثمة صفة أخرى اتصف بها فردريك دون سائر عظماء التاريخ ، وهى أن حياته وأعماله لم تكن ملكاً لبلد من البلاد الأوربية أو غيرها ، فبينما تعتزّ ألمانيا بالإمبراطور بربار وسا ، وفرنسا بالقديس لويس ونابليون ، وإنجلترا بسيمون دى مونتفرت ، لا تستطيع أمة من الأمم الادعاء بأن فردريك جزء من تراثها التاريخى . فلا ألمانيا ذاتها تستطيع أن تدعيه لنفسها ، مع أن الأسس التى قام عليها النفوذ الألمانى بين البروسيين أصحاب الروح الألمانية الحديثة ترجع إلى أوائل عهده ، أى سنة ١٢٢٩ م ؛ ولا صقلية كذلك تستطيع أن تدعيه لنفسها ، مع أنه هو الذى طرد المسلمين من تلك الجزيرة . على أن أعمال فردريك الثانى كلها تهدمت وذهبت مع الريح ، كما ذهبت أسرته بعده ، أى أن أعظم شخصيات العصور

الوسطى لم يكد يظهر على مسرح التاريخ حتى اختفى ، كالشهاب لم يومض حتى خبا ، اللهم إلا تأثيره ذو الأهمية الباقية فى حلبة الأدب . ذلك أن المغنين البروفنساليين (التروبادور) — وهم الذين لجأوا إليه فراراً من الاضطهاد الدينى فى بلادهم الفرنسية — لقوا كل ترحيب فى بلاط بالرمو وتسامحه المشهور ؛ فأخذ النظامون الصقليون فى مباراتهم قصيداً بقصيد ، وغدت دائرة الشعراء الذين حاطوا الإمبراطور الشاعر مصدراً لنبع من الشعر الصقلى الرقيق . ولم يلبث ذلك النبع حتى ازداد مجراه عمقاً وسعة ، ولا سيما بعد ملتقاه شمالاً بلهجة التوسكانيين ، وما زال حتى أضحى نهراً فحلاً دافق الأنغام ، فى دانتى والكوميديا الإلهية . أما سبب إخفاق فردريك فى حلبة السياسة ، فمرجعه معارضة اثنين من مشهورى البابوات له ، وهما جريجورى التاسع وإنوسنت الرابع ، وأولهما شخصية متعصبة متزمتة ، وثانيهما نبيل جنوى ضالع فى القانون الكنسى ماهر فى الأمور المالية ، لا تؤوده عظيمة عند اشتداد الخصومات . ذلك أن فردريك هدف إلى إدماج إيطاليا وصقلية فى مملكة متحدة داخل الإمبراطورية ، وأن البابوية تؤيدها عصبة المدن اللومباردية — بعد نهضتها وازدياد قوتها — هدفت بدورها إلى إفساد ذلك المشروع ، فى دأب لا هوادة فيه . غير أن البابوية هى التى كسبت المعركة النهائية فى ذلك النضال ، وتلاشى فردريك أمام هيئة ذات شخصية معنوية ، وتلاشت معه آخر فرصة لبناء إمبراطورية رومانية متنفذة فى وسط أوربا ، كما تأجل تكوين مملكة إيطالية متحدة لعدة قرون .

وبدأ ذلك النضال حول حملة صليبية أقسم فردريك — فى حماسة الشباب — أن يقوم بها إرضاء للبابوية ، ثم عكف على تأجيلها مرة بعد مرة . والعقل الحديث لا يستطيع إلا أن يرى شيئاً من الغرابة فى موقف البابوية التى توقعت من إمبراطور — حديث السن — أن يقوم بحملة كثيرة التكاليف عبر البحار ، غداة اعتلائه عرش إمبراطورية مزقتها الفوضى فى أثناء وصاية طويلة . وتراءت تلك الغرابة كذلك لفردريك ، فلم يبحر إلى فلسطين إلا بعد أن نظم الحكومة فى صقلية ، حيث أخضع المسلمين والنبلاء الصقليين والمدن الصقلية ، وأنشأ جامعة نابولى الحكومية . وفى أثناء ذلك أصدر البابا جريجورى التاسع

قراراً بحرمان فردريك من رحمة الكنيسة ، بسبب تأجيلاته المتكررة ، حتى إذا أبحر فردريك فعلاً إلى فلسطين سنة ١٢٢٨ م ؛ أصدر هذا البابا قراراً ثانياً بحرمانه من رحمة الكنيسة بسبب إبحاره ، بل دعا إلى حملة صليبية لمحاربته فى أوربا ، وهو غائب بفلسطين عنها . ثم عاد فردريك إلى أوربا ليصطلى بغضب الكنيسة ، مع روعة ما حققه على الرغم من المعارضة البابوية التى تعقبته من إيطاليا إلى الشام ، إذ عقد فردريك البعيد النظر مع صديقه السلطان الكامل ابن العادل الأيوبى معاهدة تبيح للحجاج المسيحيين زيارة الأماكن المقدسة مدة عشر سنوات ، وذلك دون أن يضيع وقتاً ، أو ينفق مالاً أو يهدر دماً . تلك هى ثمار المهارة السياسية ، حين تحل الإنسانية والإدراك السليم محل الحقد الأعمى الذى ينجم عن التعصب الدينى والكراهية بين أجناس البشر .

ثم أراد فردريك أن يقيم فى إيطاليا حكومة استبدادية مستنيرة ، على نسق الحكومة التى أقامها قبلاً فى مملكته الصقلية ، حيث جعل لنفسه الإشراف التام على القضاء الجنائى ؛ وحدّ من حريات النبلاء ورجال الدين والمدن ؛ وبنى نظاماً ملكياً لا نظير له إلا فى مملكة إنجلترا على عهد الأنجويين[1]. والواقع أن مملكتى صقلية وإنجلترا تشابهتا فى منعة السلطة المركزية ، ودقة الإدارة المهيمنة على جمع الضرائب ، ونظام الدوائر القضائية الملكية المتنقلة ، واستخدام القائمين على وظائف الحكومة من مختلف الطبقات التى امتزجت فى كل من المملكتين امتزاجاً طيباً ، وذلك كله فضلاً عن أن برلمانات فردريك الثانى — وهى المجالس العامة التى جمعت نواب النبلاء ورجال الدين وأهل المدن — سبقت التطورات البرلمانية التى حدثت فيما بعد بإنجلترا . غير أن ثمة فارقاً ملحوظاً كان بين المملكتين اللتين امتازتا بأبدع ما فى الإمكان من أنواع الحكم فى القرن الثالث عشر الميلادى ، وذلك الفارق هو أن قوة الملكية فى إنجلترا استندت إلى جيش من الإنجليز ، على حين اعتمد فردريك على جيش من المرتزقة المأجورة من المسلمين والألمان .

غير أن مزايا الحكومة الراقية التى أقامها فردريك فى إيطاليا لم تستطع أن تبدو مقبولة لدى الإيطاليين ، وهم فى نضالهم ضد الإمبراطور ؛ إذ عرفت

(١) انظر الفهرس ، فى آخر القسم الثانى من الكتاب . (زيادة) .

المدن اللومباردية فى فردريك عدواً لحرياتها ، واعتبره البابا صابئاً غايته تقويض سلطة الكنيسة . إذ رأى فردريك أن قمع اللومبارديين يتطلب جيشاً قوياً ، فإنه رأى أن حرب البابا تتطلب ولا بد سلاحاً مذهبياً مضاداً لمذهب البابوية ، واستوحى فى سبيل ذلك ما امتلأت به رأسه من أحلام المتنبئ وتنبؤات المنجم ، بالإضافة إلى القانون الرومانى . ثم ما لبث فردريك حتى دلته سجيته السياسية النافذة على أنه ليس أمضى سلاحاً من مذهب التقشف عند الفرنسسكانيين ، لمحاربة الدعاوى الدنيوية التى أضحت ديدن البابوية ، فسلط من طلاوته وعمقه فى الجدل ما شاء أن يسلط ، وكتب سنة ١٢٢٧ م « إن الكنيسة المسيحية الأولى قامت على الفقر والبساطة فى تلك الأيام التى كانت فيها أماً رءوماً لجميع القديسين ، وليس لأحد أن يشرع للناس قواعد غير التى شرعها السيد المسيح » .

وبينما يمتد النزاع وتشتد حرارته ومرارته عاماً بعد عام ، فيسيطر الإمبراطور على مجلس ليون الدينى بمنشوراته سنة ١٢٤٥ م ، ويتآمر البابا — على ما قيل — لاغتيال الإمبراطور ، أعلن فردريك فى عبارات غامضة عن قرب إقامة كنيسة إمبراطورية جديدة تحل فضائلها محل مفاسد روما . ولمَ لا يستطيع الإمبراطور أن يقيم تلك الكنيسة الجديدة ؟ أليس لمولده بمدينة عيسى (Jesi) بصقليا مغزى دينى ، أليس وزيره الأول بطرس دلافينى (Pierre de la Vigne) وبطرس هو الصخرة الحقيقية ، وهو الذى جاء فى الإنجيل أنه الصخرة التى تقوم عليها كنيسة المسيح[1] ؟ وأليس فى لقب دلافينى — ومعناه صاحب الكرمة — إشارة إلى قول المسيح عليه السلام « أنا الكرمة وأبى الكرام[2] » ؟ . غير أن كنيسةً تقوم على الفقر والبساطة ، وتقوم عليها إمبراطورية أوتوقراطية استبدادية ، لم تكن مما يستهوى عقول الناس فى العصور الوسطى . ثم أصدر البابا إنوسنت الرابع من مدينة ليون سنة ١٢٤٥ م قراراً بخلع خصيمه اللدود فردريك ، وأخذ يصب جام كراهيته الشديدة على الإمبراطور المخلوع ؛ فعرض تاجه على روبرت أخى القديس لويس التاسع ملك فرنسا ، وعلى هاكون ملك النرويج ،

(١) انظر ما سبق ، ص ١٠٧ . (زيادة) .

(٢) إنجيل يوحنا : الإصحاح الحادى عشر ، السطر الأول والخامس . (زيادة) .

فضلاً عن أمير من أمراء الدانمارك ؛ ثم عرضه أخيراً على هنرى الثورنجى فقبله سنة ١٢٤٦ م ، وسط سخط الساخطين على البابوية من الأمراء ورجال الدين فى ألمانيا . وأخذ إنوسنت الرابع فى الدعوة للاعتراف بهنرى الثورنجى ، بمختلف الوسائل الدينية وغير الدينية . فلما توفى هنرى هذا سنة ١٢٤٧ م ، رشح البابا لتاج ألمانيا صنيعة أخرى[1] من صنائع البابوية ، وهو وليم الهولندى ؛ ورضى هذا المرشح الثانى بالمشاركة فى هدم الهوهنشتاوفن ، وإشباعاً لأطماعه الخاصة.

غير أن بيت الهوهينشتاوفن ظلّ عظيم القدر فى ألمانيا ، إذ بقى الأمراء ورجال الدين الألمانيين – برغم نشاط الوكلاء البابويين – على الولاء لذلك البيت ، وللأميرين الصغيرين هنرى وكنراد اللذين جىء بهما إلى العرش مكان أبيهما فردريك ، كفاءً لما أغدق فردريك على أولئك الأمراء ورجال الدين من وافر الإعفاءات والامتيازات التى أنذرت بالخطر على السلطات الملكية وكيانها . ومما يدلّ على سابق الولاء للهوهنشتاوفن وفردريك قبل تلك السنوات ، أنه حين شق هنرى – وهو الابن الناقص العقل – عصا الطاعة على أبيه ، ألفى فردريك الجزء الأكبر من المملكة الألمانية مؤيداً له فى إخضاع هذا الثائر المأفون وإيداعه السجن أخيراً سنة ١٢٤٢ م ؛ فى أحد قلاع أبولية بالجنوب الشرقى من إيطاليا . حيث كانت وفاته . يضاف إلى ذلك أنه على الرغم من تصديق المجلس الدينى العام بمدينة ليون على خلع فردريك ، لم يتحرك من رجال الكنيسة الألمانيين إلا عدد قليل لتأييد هنرى الثورنجى ووليم الهولندى اللذين رشحتهما البابوية ، وتولى كل منهما بدوره عرش المملكة الألمانية .

غير أن النضال ظلّ محتدماً حتى توفى فردريك سنة ١٢٥٠ م ، بعد أن خلف اسماً لا يقلّ – فى عظمته واختلاف الناس فى تقديره – عن اسم نابليون فى العصور الحديثة . ومثال ذلك أن فردريك الذى يعتبر « مطرقة الكنيسة الرومانية » اعتبرته فئة من الإخوان الفرنسسكانيين – وهى فئة الفراتيسلّى (Fraticelli) – بطلاً من الأبطال ، لأن أولئك الإخوان المتحمسين المخلصين للقديس فرنسيس ومبادئه الأصلية ، لم يذكروا لفردريك أنه كان

---

(١) انظر تفصيل ذلك كله فى (Camb. Med. Hist. Vol. VI. pp. 105-109) (زيادة) .

إمبراطوراً باذخاً يعيش عيشة نصف شرقية . وتسنده ثلة من الجند المرتزقة من المسلمين فى الجنوب ، وثلة من الطغاة الأنكاد من الإيطاليين فى الشمال ، ولم يذكروا له أنه كان ظنيناً فى الدين ومنجماً وشاعراً عاطفيًّا حارّ العاطفة ، بل رأوا فيه داعياً خالص الدعوة إلى المسيحية الأولى . أما المتمسكون بحرفية العقائد الدينية ، فجعلوا فردريك المسيخ الدجال ، وأودعه دانتى أعمق أعماق الجحيم .

ومن المعلوم أنه مهما أوتى إنسان من خارق الموهبة والذكاء ، فلن يستطيع أن يسبق معاصريه فى كل شىء . ولذا عاش فردريك حبيس عصره ، من حيث الموارد والاتجاهات الفكرية ، برغم ما امتاز به على سائر الملوك فى العصور الوسطى ، من حرية الفكر وسعة الأفق . ذلك أن أكبر جيش من جيوشه — وهو على أية حال أصغر من فرقة حربية إنجليزية فى العصر الحاضر — لم يكن كفؤاً لأية مدينة لومباردية حصينة ، فامتنعت عليه مدينة فاينزا مدة ثمانية أشهر ، وهى مدينة من الدرجة الثانية ، ونجحت ميلان فى إفساد خطته لتوحيد إيطالية . وبرغم ادعاءاته وأحقياته التى لا تعرف حدوداً جغرافية ، وبرغم سعة أغراضه وأهدافه ومراميه التى جعلته زعيماً بلقب « الأوربى الأول » ، لم يستطع فردريك أن يسيطر على السهل اللومباردى سيطرة حربية تامة . ثم إنه برغم ما اتصف به من صفات عقلية توجب الالتفات فى كل عصر — مثل البعد عن التعصب للون أو جنس ، وهو التعصب الذى يشين الكثيرين من المحدثين أبناء العصر الحاضر ، ومثل حب الاستطلاع الدائم فى أسرار الطبيعة ، وقوة الإيمان بأن كل امرئ ميسرٌ لما خلق له — ، فإنه جمع فى نفسه بين هذه الصفات النادرة والخرافات المألوفة فى عصره — مثل الاعتقاد فى المنجمين ، والإذعان الأحمق لمشورات العرافين والكهان ، والعجز عن التمييز بين الأسئلة التى تؤدى إلى إجابات علمية دقيقة . ذلك أنه على حين أدت بعض أسئلة فردريك إلى كشف شىء من الحقيقة ، لم يكن فى استطاعة أحد أن يجيب عن بعض آخر منها إلا أن يكون شاعراً متديناً ذا خيال واسع ، ومثال ذلك : كم عدد الجهنمات ؟ وما الأرواح التى تسكنها ؟ وما أسماؤها ؟ وأين جهنم ؟ وأين المطهر ؟ هل تعرف روح الإنسان روحاً ثانية

فى الحياة الأخرى؟ وهل يمكن أن تعود الروح إلى الحياة الدنيا لتتحدث وتظهر لأحد من الناس؟ على أن دانتى استطاع فيما بعد عصر فردريك أن يجيب عن تلك الأسئلة وأشباهها إجابات عريضة ، لم يخالجه فيها شك أو ريب.

ولثمانى عشرة سنة بين وفاة فردريك أعجوبة العالم وانقراض أسرته بمقتل حفيده الشاب كنرادين ، غداة وقعة تاليا كوزّو سنة ١٢٦٨ م ، ظلّ النضال مستعراً بصقلية وسائر إيطاليا بين الجولفيين والجبلينيين ، أو بعبارة أخرى بين الإمبراطوريين والبابويين ، كما ظل الشقاق والانقسام قائماً بين المدن والطبقات والأسرات ؛ وكل ذلك لتحقيق ما هدف إليه البابوات من إتلاف الهوهنشتاوفن ، وإزالة الخطر الذى يخلقه أمثالهم لتعويق اتساع الدولة البابوية. غير أن المملكة الصقلية على عهد مانفرد — وهو ابن غير شرعى لفردريك — وانقسام الإيطاليين أنفسهم بين الجولفيين والجبلينيين ، اضطر البابوية إلى الاعتماد على الأجنبى لإنهاء النضال بنصر بابوى ، إذ عرض البابا إربان الرابع — وهو أول فرنسى جلس على الكرسى البابوى — تاج صقلية على شارل أنجو أصغر إخوة القديس لويس التاسع ملك فرنسا ، وذلك بعد فشل جيشين بابويين كان الفضل فى تكوينهما لأموال إنجليزية سنة ١٢٦١ م . ولم يكن تاج صقلية فى ذاته هو الذى حمل ذلك الأمير الفرنسى للغنى الطموح على قبول العرض البابوى ، بل كان سرّ قبوله أنه اعتبر المملكة الصقلية خطوة لفتح الإمبراطورية البيزنطية. وأخيراً تم الاتفاق بين شارل أنجو والبابا كلمنت الرابع — وهو كذلك من الفرنسيين — ، وجاء إلى صقلية جيش فرنسى يفوق فى عدته ودربته ونظامه وقيادته ما أعدّ مانفرد وكنرادين بعده من عدّة للقتال . فأحرز ذلك الجيش الفرنسى للبابوية نصرها النهائى سنة ١٢٦٨ م ، كما أحرز للجولفيين الغلبة على غرمائهم الجبلينيين ، وضمن لشارل الأنجوى عرش المملكة الصقلية .

وهنا يستطيع الباحث أن يلخص لنفسه نتائج ذلك النضال الطويل وهى أن إيطاليا ضاعت من الإمبراطورية الألمانية إلى الأبد ، وأن الحضارة النورمانية الصقلية التى كانت إحدى مفاخر أوربا فى العصور الوسطى تهدمت تحت معاول الاستبداد الفرنسى الذى ضربه شارل أنجو على مملكته ، والذى بلغ

من كراهية الناس له ما حملهم على الثورة المريعة المعروفة باسم الصلوات الصقلية (Sicilian Vespers) ، فى ٣٠ من مارس سنة ١٢٨٢ م ؛ وهى الثورة التى أدت بعدئذ إلى انفصال جزيرة صقلية عن مملكة نابولى الفرنسية ، وإلى ذهاب صقلية من موازين السياسة الأوربية . ذلك أن القوات الفرنسية ، التى دعاها البابا للقضاء على أواخر الهوهنشتاوفن ، طاردت إلى شمال جبال الألب جميع الموظفين والجنود المرتزقة من الألمانيين الذين أقاموا النظام الإمبراطورى فى إيطاليا . غير أن ذلك العمل — على ما فيه من خدمة حقيقية لإيطاليا — لم يساعد على تقدم الحرية بين الإيطاليين . إذ تطلبت مطاردة الألمانيين حروباً متواصلة ، ولم ينجم عن تلك الحروب التى كانت وبالاً — ومشغلة ولهاة — للمدن الإيطالية سوى نوع غريب من الحياة السياسية انفردت به إيطاليا ؛ سُدَاه استبداد محلى ولحمته قسوة وظلم فى أغلب الأحيان ، مع امتيازه برعاية مستنيرة مشجعة للآداب والفنون .

أما أثر ذلك النضال الطويل فى ألمانيا ، فهو أن وحدتها ذهبت إلى غير رجعة ممكنة ، لأن طول غيبات فردريك وتكرارها ، وسخاء الامتيازات التى اضطر أن يمنحها للأمراء الألمانيين — من العلمانيين والدينيين — سنتى ١٢٢٥ ، ١٢٣١ م ، فضلاً عن عنف الحروب الأهلية التى دأب البابا على تحريكها ، فى صورة جعلت أواخر أيام فردريك وبالاً فى وبال ، — كل ذلك قطع الأمل فى عودة الحكم الإمبراطورى الفعلى إلى ألمانيا . ولعل أكبر دليل على انصراف الأمراء الألمان عن الإمبراطورية — والحكم الإمبراطورى — ما حدث من الحوادث بعد مقتل وليم[1] الهولندى ، فى بعض حروبه سنة ١٢٥٦ م . ذلك أن أموراً لا تزال غير تامة الوضوح حتى العصر الحاضر ، جعلت اختيار الإمبراطور — أو ملك الرومان على قول المصطلح السياسى فى العصور الوسطى — فى أيدى سبعة من الناخبين ، ثلاثة من الدينيين ، وأربعة من العلمانيين . ولم يطلب هؤلاء الناخبون من المؤهلات فى المرشح الإمبراطورى بعد ذهاب الهوهنشتاوفن إلا أن يكون هذا المرشح غنياً أجنبياً غير ألمانى لا تهمه الإقامة فى ألمانيا ، على أن يكون عليماً بقيمة الأصوات السبعة الناخبة ، مستعداً لدفع

(١) انظر ما سبق هنا ، ص ٢٥٤ . (زيادة) .

أثمانها . غير أن الناخبين انقسموا فريقين سنة ١٢٥٧ م . إذ أقرت الأغلبية ترشيح رتشارد أمير كورنوال وأغنى رجل فى إنجلترا وقتذاك . وانحازت الأقلية إلى جانب ألفونسو أمير قشتالة وهو سليل الهوهنشتاوفن من ناحية الأم ، وحبيب فرنسا والبابوية . ثم أعلن أنصار كل من هذين المرشحين صحة انتخاب صاحبه إمبراطوراً ، أى ملكاً على الرومان . وأقلّ ما يقول عن المرشح الإنجليزى أن رشاويه بلغت مبلغاً هائلاً ، وأنه أنفق المال عن سعة تتفق مع المنتظر منه ، وأنه جعل نفسه موضع الترحيب فى مدن نهر الراين . أما المرشح القشتالى ، فاقتنع بحكمة البقاء فى قشتالة . وأما ما دلّ عليه الانتخاب ، فهو إصرار الأمراء الألمان ألا يتولى أمرهم ملك قوى ، وألا تكون هيمنتهم على أعظم سلطة زمنية فى أوربا سوى فرصة للربح الفردى والمؤامرات الدولية . غير أن الفوضى المريعة التى سادت البلاد — فى ظل الحكم الاسمى لإمبراطور إنجليزى غائب — أدت إلى التشكك فيما تفيده ألمانيا من تكاليف علاقتها الدائمة بالإمبراطورية الرومانية المقدسة ، فلما مات رتشارد كورنوال سنة ١٢٧١ م أتيحت الفرصة للألمانيين أن يختموا الإمبراطورية ، وأن يبدءوا فى تأسيس دولة ألمانية قوية ، على غرار جيرانهم الفرنسيين والإنجليز . لكن حال دون ذلك ما اتصف به الناخبون من محافظة وكبرياء ، وإيثار للمنفعة الشخصية ؛ بل إن مسألة الإمبراطورية عموماً لم تعرض ألبتة على بساط البحث بعد وفاة الإمبراطور رتشارد كورنوال . ولذا ظل العرش الإمبراطورى الألمانى شاغراً مدة سنتين ، حتى وقع اختيار الناخبين على رودلف هابسبرج ، وهو نبيل سويسرى من مقاطعة آرجاو ، أجمع المعاصرون على وداعته وقلة خطره ، وشاءت له المقادير أن يكون مؤسس الأسرة الإمبراطورية الشهيرة التى يعزو الساسة البروسيون إلى أخطائها السياسية انفصال هولندا وسويسرا عن الرايخ الألمانى ، وكارثة حرب الثلاثين سنة ، ووقوع الحرب العالمية الأولى فى القرن العشرين ، وهى الحرب التى هدمت الإمبراطوريتين البروسية والنمسوية معاً .

والحاصل أنه ليس فى هذه الحقبة المظلمة المضطربة من التاريخ الألمانى سوى شعاعين اثنين من النور : أحدهما الاتحاد الذى تكون من مدن نهر الراين سنة ١٢٥٤ م للمحافظة على السلام ، والاتحاد الذى تكون من مدن

البحر البلطى سنة ١٢٥٩ م لتشجيع التجارة[١] ، وثانيهما زحف الحضارة الألمانية زحفاً دائباً إلى شرق أوربا صوب سيليزيا وبوهيميا ، بفضل العنصر البروسى وجلادته وسذاجته .

أما البابوية ، فإنها دفعت ثمن انتصاراتها غالياً . ذلك أن المطالبة بأموال إجبارية للإنفاق على هيئة عالمية — مهما عظمت شئونها — لا تلبث أن تصبح موضع القيل والقال . وإذا كان من الواضح أن إمداد البابوية بالأموال اللازمة لواجباتها اليومية لم يكن أمراً هيناً ، فمن الأوضح أن الحصول على الأموال الضرورية لإدارة حرب بابوية كان موضع التذمر والبغضاء . ثم إن البابا إنوسنت الرابع (١٢٤٣ — ١٢٥٤ م) — وهو المالى الجنوى الضليع — لم يحجم عن اتخاذ أية وسيلة تخطر له فى سبيل أغراضه المختلفة ، فاشترى نفوذه فى إيطاليا بأن عين على كثير من الوظائف الدينية — فى إنجلترا — بعضاً من الإيطاليين الذين استمرءوا الجمع بين الوظائف فى أيديهم ، مع التغيب عنها بأشخاصهم ، كما حصل على الأموال الكثيرة بأن أثقل كواهل رجال الدين فى إنجلترا وفرنسا بأعباء باهظة . وليس من العسير على قارئ حوليات المؤرخ ماثيو پاريس أن يستشف علامات السخط الذى أثارته تلك المطالب التعسفية فى بلاد اشتهرت دون غيرها بطاعة الكرسى البابوى المقدس ، حتى إن ملك فرنسا القديس لويس التاسع الذى اختصت البابوية مملكته بشىء من حسن المعاملة والرفق ، اضطر إلى تنبيه البابا فى رسالة احتجاجية خطيرة : أن « الذى يشتد فى إدرار الأضراع لابدّ أن يصيب الدم من حلماتها » واستغاث رجال الدين من الإنجليز من المطالب البابوية ، وشكوا حالهم سنة ١٢٤٦ م إلى المجلس الدينى العام المنعقد فى مدينة ليون . ومع أن السلطان البابوى ظلّ فوق الشبهات ، فالواضح أن روحاً من الغضب وسوء الظن حلت محلّ روح المحبة القديمة والإجلال[٢]

ثم إنّ المواقف الهلدبراندية القديمة لم تعد مصدراً للمعجزات كشأنها القديم ، حتى إذا عمد بونيفاس الثامن (١٢٩٤ — ١٣٠٣ م) إلى تكرارها

---

(١) هذا هو اتحاد العصبة الهنسية الذى تقدمت الإشارة إليه ص ٢٢٦ ، وما بعدها . (زيادة) .

(٢) انظر تفصيل ذلك فى (Camb. Med. Hist. Vol., VI. p. 269) . (زيادة) .

– وهو البابا الذى بلغ به الإلحاح فى المنفعة العائلية إلى توجيه حملة صليبية على بيت كولونا خصماء عائلته – لم تلق البابوية من إنجلترا وفرنسا سوى مقاومة شديدة ؛ إذ دلّ كل من إدوارد الأول ملك إنجلترا ، وفيليب الجميل ملك فرنسا ، أنه لن يحفل لحظة واحدة بنظرية لا تجيز للملك أن يفرض من الضرائب على رجال الدين فى مملكته سوى المقرارات الإقطاعية ، وهى نظرية المنشور البابوى المسمى « الدينيون والعلمانيون » (Clericos Laicos) الصادر فى السنة الثانية من بابوية بونيفاس الثامن ، كما دلّ كل منهما على أنه ليس من الضرورى أن يخضع الملك للبابا لكى يحظى بالجنة فى الآخرة . وأعلن كل من الملكين بكل ما استطاع من وضوح أنه نوى أن يكون سيداً فى مملكته ، وأن شعبه يؤيده فى هذه النية تمام التأييد . ومما يدعو إلى الالتفات هنا أن أحداً لم يحتج بكلمة واحدة حين أرسل فيليب الجميل – وهو فى سكرة الغضب – مندوبه نوجاريه إلى روما ، ليختطف البابا بونيفاس الثامن الذى بلغ من السن عتيًّا ، ويأتى به أسيراً إلى فرنسا سنة ١٢٩٩م . وبعد ست سنوات من ذلك التاريخ – أى سنة ١٣٠٥ م – اتخذ الكاردينال الغسقونى برتران دى جوت – وهو كلمنت الخامس – بعد انتخابه للكرسى البابوى بمساعدة فرنسا ، مقرّه بمدينة آفينيون الفرنسية ، وبه تبتدئ المرحلة المخجلة فى تاريخ البابوية ؛ إذ أصبح البابوات يعملون وفقاً لمشيئة الملوك الفرنسيين .

بعض المراجع لهذا الفصل

Boase (T.R.) Boniface : VIII. 1933.
Boutaric : (E.) La France sous le régne de Philippe le Bel. 1891.
Bréholles : (Huillard) Histoire Diplomatica Fredredici II. 1852-1861.
Kantorowicz : Frederic II. E.O. Lorimer. 1931.

(نهاية القسم الأول)

رقم الإيداع	١٩٧٦/٢٦٦١
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ – ٢٤٦ – ١٨٩ – ٧

١ / ٧٦ / ٤

مطابع دار المعارف بمصر
١٩٧٦



هذا الكتاب

استطاع هذا الجزء الأول من كتاب « تاريخ أوربا فى العصور الوسطى » أن يشتمل على معالم التاريخ الأوربى منذ أيام سقوط الإمبراطورية الرومانية القديمة فى غرب أوربا ، أواخر القرن الخامس ، إلى أيام عظمة البابوية المسيحية والبابا إنوسنت الثالث ، أوائل القرن الثالث عشر للميلاد .

وهذه المرحلة التاريخية المستطيلة هى التى يسميها المؤرخون مرحلة التاريخ الأوربى فى العصور الوسطى الأولى ، وتحتوى هذه المرحلة على جميع الأصول التكوينية للتاريخ الأوربى ، وهى نشأة الدول الجرمانية الجديدة فى جوف الدول الرومانية قبل سقوطها ، وعصر جستنيان فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، وظهور الإسلام فى الشرق والغرب ، وقيام دولة الفرنجة الميروفنجيين والكارولنجيين ، وانتشار الكنيسة الكاثوليكية ، والحركات الرهبانية والديرية ، وغزوات الشماليين ، وأسس الحكم فى فرنسا وإنجلترا ، والحروب الصليبية وزعامة البابوية ، ونمو المدن وحكوماتها فى العصور الوسطى ، وهذا الموضوع الأخير هو بداية النهاية لهذه المرحلة الأولى من تلك العصور .

والميزة الواضحة لهذا الكتاب أنه اشتمل على كل هذه الموضوعات التاريخية الهامة فى ترتيب زمنى دقيق ، وعبارة علمية صافية واضحة سهلة على القارئ العربى الفاحص .